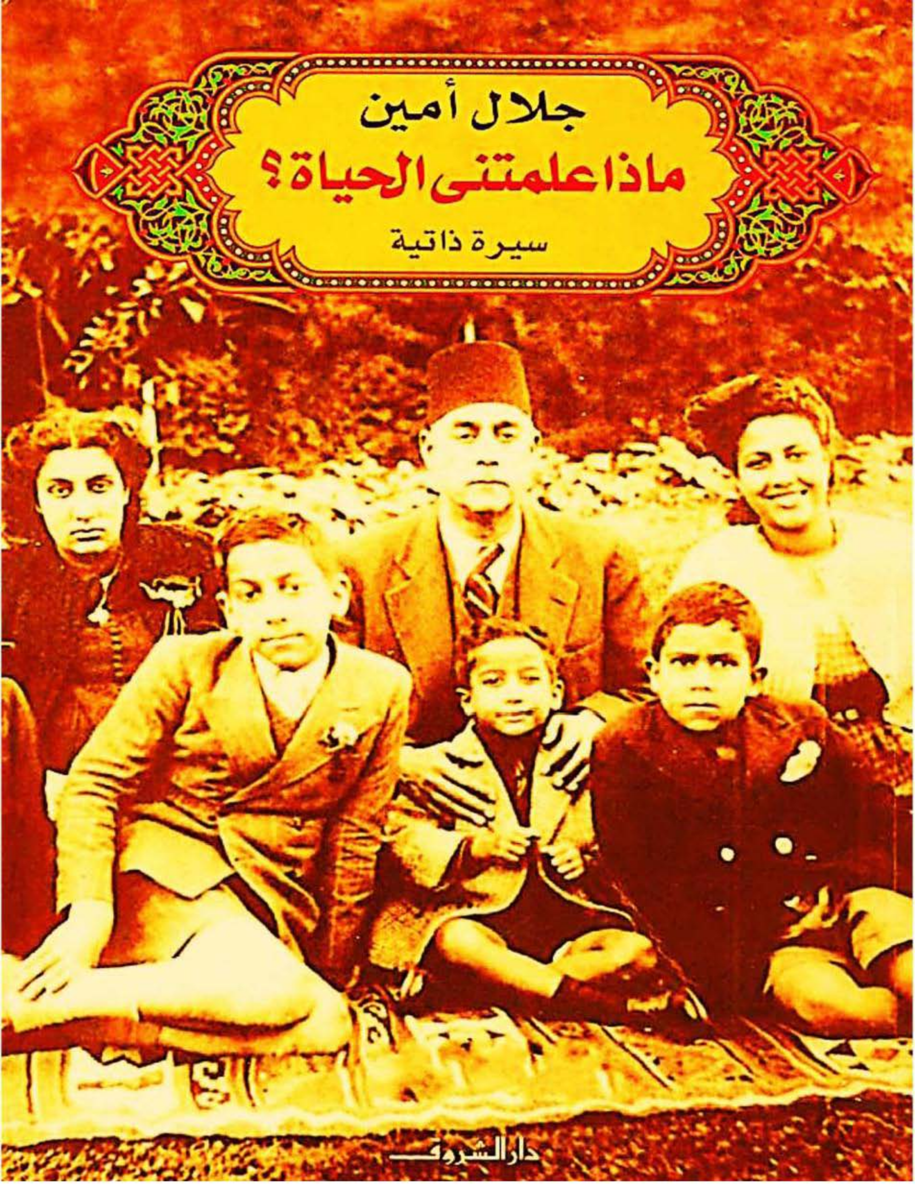


جلال أمين
ماذا علمتنى الحياة؟
سيرة ذاتية
دار الشروق

ماذا علمتني الحياة؟

الطبعـة الأولى مايـو ٢٠٠٧
الطبعـة الثانيـة أغسطس ٢٠٠٧

رقم الإيداع ٢٤٥٧٢ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولى ISBN 977 - 09 - 1930 - 6

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

جلال أمين

ماذا علمتني الحياة؟

سيرة ذاتية

دار الشروق

المحتويات

الإهداء	٧
تمهيد	٩
مقدمة	١٣
ولادة متعسرة	٢١
أبى وأمى	٢٣
مذكرات أبى عن أمى	٣٣
البيت	٤١
الإخوة السبعة	٤٩
أصدقاء الصبا	٦٥
مباهج الصبا	٧٧
الجامعة	١٠٥
البعث	١٢٩
البعثة	١٤١
ثورة يوليو	١٧١
عين شمس	٢١١
الكويت	٢٣٧
لوس أنجلوس	٢٦١
الجامعة الأمريكية	٢٧٥
«ماذا حدث للمصريين؟»	٢٩٣
«التراثيون الجدد»	٣٠٣
المرض والشيخوخة	٣٢١
البدايات والنهايات	٣٣٣
كتب أخرى للمؤلف	٣٩٥

الإهداء

إلى زوجتى چان،

عرفانا بجميل ثلاثة وأربعين عاما من الحب والصداقة،

وإلى أولادى: دانية وتامر وأحمد،

وحفيدىّ: شريف ولارا.

ستة أشخاص ملأوا حياتى بالبهجة.

٢٣ يناير ٢٠٠٧

تمهيد

بدأت أكتب هذا الكتاب منذ عشرين عامًا، عندما كنت أقضى سنة فى لوس أنجلوس، أدرِّس فى إحدى جامعاتها، ووجدت لدىّ من الوقت ما يزيد على ما أحتاج إليه لتحضير محاضراتى. وكان لدىّ أيضًا من هدوء البال وقلة المشاغل ما يلائم الجلوس لاستعادة ذكريات قديمة. لم أبدأ الكتابة بالترتيب، بل أخذت أكتب عن أى حادث حدث لى وأعتبره مهما، أو عن أى شخص عرفته يوما ما وأثّر فى نفسى، بحسب ما يلائم مزاجى أو حالتى النفسية وقت الكتابة. وزاد ما كتبته مع مرور الزمن حتى بدا وكأن لدىّ بالفعل شيئًا يصلح لأن يكون سيرة ذاتية، إذا أحسن ترتيبه واستُكمل الناقص فيه، وإذا استبعدت الأجزاء التى يظهر لى أنى لم أحسن كتابتها. فعلت كل ذلك دون أن أعطى أى اهتمام لما قد يسببه بعض هذا الذى كتبته من ألم لبعض الأشخاص، الذين ذكرتهم بالاسم، أو الذين يمكن التعرف عليهم بسهولة، أو ما قد يثير علىّ غضب هذا الصديق القديم أو ذاك، إذا حدث وقرأ الكلام المكتوب عنه.

فلما اكتمل الكتاب أعدت قراءته من هذه الزاوية، فكنت أقارن بين النفع الذى يأتى من ذكر الحقيقة كاملة وبين الألم الذى قد يحدثه ذكرها. فوجدت فى معظم الأحيان أن حذف اسم الشخص الذى قد يؤلمه ما كتبت، أو إدخال بعض تغييرات طفيفة على الظروف التى تم فيها الحدث الذى أصفه، لا يترتب عليه أى ضرر على الإطلاق. وأن القصة إذا كان لها مغزى، لن يقلل من قيمتها ما إذا كان مرتكب الجرم هذا الشخص أو غيره، أو أن يكون طبيبا بدلا من أن يكون مهندسا، أو العكس.

أما الأشخاص الذين أحببتهم، ولم يكن لدىَّ ما أذكره عنهم إلا فضائلهم وحسن صنيعهم، فلم أجد أى سبب للامتناع عن ذكر أسمائهم. كذلك لم أمتنع عن ذكر الأسماء الحقيقية لبعض الأشخاص الذين أوجه إليهم النقد فى هذا الكتاب، حتى لو كان نقدا قاسيا، إذا كانوا شخصيات عامة، تاريخهم ملك للناس جميعا، كبعض السياسيين المصريين الذين كان لى معهم قصة أو قصص لا يعرفها غيرى، ورأيت فيها مغزى عاما يجعلها جديرة بأن تروى.

كنت أتردد أحيانا بين الإبقاء على فقرة وبين حذفها، إذا تصورت أن النقد يمكن أن يكون مؤلما، ولكنى لم أتردد قط إزاء النقد الذى وجهته لشخصية عامة، بل أبقيت على النقد على اعتبار أن النفع المتوقع يبرر ذلك.

ترددت أيضًا عند فقرات كثيرة، بين الإبقاء عليها وحذفها، لسبب مختلف تمامًا، وهو الخوف من أن أكون قد أطلقت العنان أحيانا للتعبير عن أحداث حدثت لى واعتبرها أنا مهمة، بسبب ما أثارته فى نفسى وقت حدوثها من مشاعر قوية، وقد لا تهم القارئ فى قليل أو كثير. ولم يكن القرار هنا أيضًا قرارا سهلا، إذ يتوقف على تقديرى لمدى صبر القارئ على قراءة مثل هذه الأجزاء، ولما إذا كان هذا الحادث أو ذاك يحمل أى مغزى عام، أم يقتصر أثره على ما أثاره فىَّ أنا وحدى من مشاعر.

كان علىَّ أن أتخذ قرارات كثيرة من هذا النوع أو ذاك، ولكن كان لابد أن أنتهى من هذا الكتاب آجلا أو عاجلا. وعندما شعرت بأنه لابد أن يكون لهذا كله آخر، اعتبرت أنى أتممت الكتاب وقررت إرساله إلى المطبعة، وأنا واثق تماماً من أنه لا يزال فيه ما يُؤلم ويُغْضِبُ، وأن فيه أيضًا قدرا زائدًا من النرجسية أو اهتمامًا زائدًا عن الحد بنفسى. لابد لى إذن أن أرجو من القارئ أن يتحلى، وهو يقرأ هذا الكلام، ببعض الكرم والأريحية. ولعلِّى أستحق بعض الكرم والأريحية لسبب واحد على الأقل، وهو أنى فتحت للقارئ صندوقا مليئا بالأسرار لا يضطرنى أى شىء إلى فتحه، وإنما دفعنى إلى إشراك القارئ فى الاطلاع على خباياه، لا الإعجاب الزائد بالنفس

ولا الرغبة فى المباهاة بعمل عظيم قمت به، بل مجرد الأمل فى أن يجد بعض القراء فيه ما قد يخفف عنهم بعض الأحزان، أو يزيد من قدوتهم على الاستمتاع ببعض بواعث السرور. بل حتى إذا لم يتحقق هذا النفع ولا ذاك، قد تفيد قراءة هذا الكتاب فى شىء واحد على الأقل، وهو أن يعرف القارئ، إن لم يكن قد عرف بعد، أن الناس أشبه كثيراً، بعضهم ببعض، مما قد يظن، سواء فيما يتعرضون له من بواعث السرور أو فيما لابد أن يصادفوه، بين الحين والآخر، من خيبة أمل.

مقدمة

قرأت مرة قولا منسوبا إلى نحّات مشهور مؤداه أنه كان يفرح فرحًا عظيمًا عندما يصادف كتلة كبيرة من الحجر من النوع الذى يستخدمه فى صنع تماثيله، إذ كان بمجرد أن يراها يتصور التمثال الذى يمكن أن يستخرجه منها. كان يتصور كتلة الحجر وكأنها تحتوى فى أحشائها على هذا التمثال الكامن فى خياله، وأن كل المطلوب منه هو أن يقتطع بمعوله قطعة صغيرة من الحجر بعد أخرى، من هذه الكتلة الكبيرة، ويلقى بها جانبا لكى يخرج هذا التمثال الرائع الكامن فى جوفها. لو كان هذا التصور يعبر عن الحقيقة لكان معناه أن النحّات لا يصنع شيئا فى الحقيقة، بل هو فقط يستبعد بعض الأشياء. لا يضيف شيئا إلى الأشياء الموجودة بالفعل، بل يستغنى عن غير الضرورى منها ويستبقى فقط ما يستحق البقاء.

تذكرت هذا عندما شرعت فى التفكير فى مقدمة هذا الكتاب، وسألت نفسى عما إذا كانت حالة هذا النحّات كحالتنا جميعا. إن حياة كل منا تشبه قطعة الحجر فى هذا التصوّر. لا يحتاج كاتب السيرة الذاتية إلى البحث عن تبرير لكتابتها، إذ إن تمثالا جميلاً يكمن فى حياة كل منا والمطلوب فقط هو الكشف عنه. لا يحتاج كاتب السيرة الذاتية إلى أن يكون شخصا عظيما أو سياسيًا خطيرًا، أو أن يكون قد قابل فى حياته بعض الكبراء والمشهورين، أو أن يكون كاتبا مرموقا أو فنانا موهوبا . . إلخ. فكل منا شخص متميز، بل ومتميز جدًا، ولديه فى مسيرة حياته ما يستحق أن يروى. التمثال الجميل كامن داخل كل قطعة من الحجر، حتى ولو بدت قطعة حجر عادية. المطلوب فقط استخراج التمثال المختبئ من مكمنه.

هذا هو ما حاولت أن أفعله فى الصفحات التالية: أن أستغنى عما يغطى التمثال مما يطمس ملامحه ويخفى مغزاه. أن أكشف عن هذه الملامح وأستخلص مغزاها.

ولن يستطيع أن يحكم حكما صحيحا على مدى نجاحى أو فشلى إلا القارئ. لابد أننى تركت بعض التفاصيل أو الأحداث التافهة دون أن أضربها بمعولى، ربما لمجرد أنها تتعلق بشخص عزيز علىّ، ليس هناك مبرر لاعتباره عزيزًا أيضًا أو مهما لدى القارئ، أو لأن الحادث ترك أثرًا كبيرًا فى نفسى دون سبب معقول فظننت أن له من الأهمية فى ذاته ما ليس له فى الحقيقة، فإذا بى أثقل على القارئ بذكر تفاصيله وكان الأجدر بى أن أهمله وأسقطه كما أسقطت غيره. وما أكثر ما حدث خلال حياتى أن شرعت فى رواية قصة حدثت لى، أو فى الحديث عن شخص كنت أظنه مهمًا، ثم تبين لى من وجه من يستمع إلىّ أنى أخطأت التقدير، وأن القصة التى كنت أظنها جديرة بأن تروى ليست جديرة بهذا على الإطلاق، وأن الشخص الذى كنت أظنه مهمًا ليس مهمًا إلا فى نظرى.

أرجو ألا تحتوى هذه الصفحات على الكثير من ذلك. ولكنى من ناحية أخرى لابد أنى أخطأت بسبب قلة حظى من المهارة أو الموهبة، فضربت بمعولى ضربة أقوى من اللازم فأطحت بأنف أو أذن أو إصبع لم يكن هناك أدنى سبب للإطاحة به. بعبارة أخرى، لابد أننى، بالرغم منى، قد أهملت بعض الأحداث المهمة أو بعض الأشخاص الذين كان يجدر بى أن أذكرهم، مدفوعًا بخطأ فى التقييم أو ترتيب خاطئ للأهمية. بل وربما كان الدافع إلى هذا الإهمال أو هذا الحذف أفظع من هذا وأشنع، وهو حاجة لا شعورية لدىّ فى طرد هذه الأحداث أو هؤلاء الأشخاص من ذهنى، لإخفاء حقيقة محزنة، ليس فقط عن القراء بل وعن نفسى أيضًا.

على أى حال، فهذه هى حصيلة جهدى ومحاولاتى. أستطيع أن أؤكد أنها لم تحتو على ما يخالف الحقيقة (أو على الأقل لا تحتوى على ما يخالف الحقيقة كما أراها)، ولكن من المؤكد أيضًا أنها لا تحتوى على كل الحقيقة. وليس فى هذه العبارة الأخيرة ما يدعو إلى الاستغراب ولا إلى الاعتذار. ففضلاً عن أن ذكر الحقيقة كلها مستحيل، فإنه لا نفع يُرجى من ورائه، إذ لو قيلت كل الحقيقة لانتهى الأمر بأن أعيد إلى القارئ قطعة كاملة من الحجر لا قيمة لها بالمرة.

ولكن لابد مع ذلك من الاعتراف بأن حذفي لبعض الحقائق لم يكن دائما بدافع بريء تمامًا. ذلك أن ذكر كل الحقيقة لابد أن ينطوي على ذكر بعض الفضائح، المتعلقة بنفسي أو بغيري، مما لا أحب ذكره. لقد كتب جورج أورويل، الكاتب الإنجليزي الشهير والأثير لديّ، بصراحته المعهودة: «إن كتابا في السيرة الذاتية لا يمكن أن يصبح محلا للثقة إلا إذا كشف بعض الأشياء التي تشين صاحبها[1]».

وأظن أن الرجل كان هنا على صواب، كما كان عادة. ولكني لا أظن أنني ارتفعت إلى هذا المستوى الذي يطلبه. صحيح أني ذكرت في هذه الصفحات بعض الأعمال والمشاعر التي أخجل الآن منها، ولكني لم أذكر كل ما أخجل منه. ومع هذا فلا أعتقد أن حذف بعض هذه المشاعر والأعمال قد أضرّ كثيرًا بهذه السيرة الذاتية، كما أن إدراكي لهذا الحذف لا يشكل عبئا ثقيل الوطأة على نفسي، وإن كان من الممكن أن يكون ثقيل الوطأة على نفسي منذ عشرين سنة أو أكثر. ذلك أني أعرف الآن أنني بوجه عام، لست أسوأ كثيرًا من غيري، كما أني أعرف كثيرين من الناس ممن لديهم أكثر مما لديّ بكثير مما يستوجب الخجل.

من ناحية أخرى، لقد أشفقت على القارئ، وخجلت من نفسي، كلما خطر لي أن أتكلم عما أعتقد أنه ميزة فيّ، فحذفت أكثر هذا الكلام أو يُخيّل إليّ أني حذفت أكثره. وربما اكتشف القارئ مع ذلك أنه قد بقي من ذلك، في الصفحات التالية، أكثر مما يليق.

* * *

على الرغم من كل ما ذكرته عن قطعة الحجر واستخراج التمثال من جوفها.. إلخ، فلا أخفي على القارئ أني طوال كتابتي لهذه الصفحات كنت أعود لأسأل نفسي، المرة تلو الأخرى، عما إذا كان لديّ بالفعل أشياء جديرة بأن تروى، وعما إذا كنت قد صادفت في حياتي أحداثا لها من الجسامة ما يبرر أن أشغل القارئ به.

---

(1) "Autobiography is only to be trusted when it reveals something disgraceful"

قلت لنفسي أكثر من مرة: «أليست حياتي عادية جداً مثل آلاف وملايين غيرها؟ لست إلا الابن الأصغر في أسرة كبيرة الحجم ومتوسطة الحال. أبوه أستاذ في الجامعة، أرسله إلى المدرسة ثم إلى الجامعة مثل ملايين آخرين من تلاميذ المدارس والجامعات. تخرج وسافر إلى إنجلترا ليحصل على الدكتوراه في الاقتصاد. ثم عاد ليعمل بدوره أستاذًا في الجامعة، وظل أستاذًا حتى سن متقدمة. ما الغريب أو المدهش أو غير العادي في أي شيء من هذا؟ صحيح أنه يكتب في الصحف ونشر بعض الكتب، ولكن ماذا في ذلك؟ ألا يستحسن، والحال كذلك، السكوت، كما يسكت الآلاف المؤلفة من الناس ولا يشغلون بقية الناس بسيرة حياتهم؟».

خطر لي هذا الخاطر أكثر من مرة، ولكني كنت أيضًا أتذكر أحيانا حادثا فظيعا أو مدهشا حدث لي، مما يجعلني أقول لنفسي: «وماذا عن هذا الحادث الفظيع أو المدهش أو ذاك؟ هل يحدث هذا لكثيرين؟ وحتى لو كان قد حدث مثله لكثيرين، ألا يتوقف ما إذا كان يستحق أن يروى أو لا يستحق، على كيفية روايته؟».

* * *

شيء آخر كان يقلقني أثناء كتابة هذا الكتاب. قرأت مرة جملة جميلة لألدوس هكسلي، الروائي الإنجليزي الشهير، يقارن فيها بين القصة الخيالية (fiction) وبين ما يحدث بالفعل في الحياة، فيقول: «مشكلة القصة الخيالية أنها تنطوي على مغزى (أو معنى) بأكثر مما ينبغي، بينما ما يحدث بالفعل في الحياة لايبدو وكأن له مغزى (أو معنى) على الإطلاق»[1].

إذا كان هذا صحيحا، فكيف لي أن أجعل ما أرويه مما حدث في حياتي، ومَنْ قابلت وعرفت من الناس، وما جرى بينهم من علاقات، ذا مغزى على الإطلاق؟ كيف يستطيع أي شخص منا أن يستخلص من حياته أي معنى، إذا كانت الحياة الواقعية بالفعل خالية من المعنى؟ من الممكن بالطبع أن نستخلص مغزى معينا من

---

(1) "The trouble with fiction is that it makes too much sense. Reality never makes sense".

هذه الحادثة أو تلك، وأن نجد طرافة أو مأساة في واقعة بعينها أو عمل معين، ولكن هل يمكن أن تروى قصة حياة واقعية، كما حدثت بالفعل ودون إضافة مصطنعة بقصد التجميل أو إظهارها بمظهر القصة الخيالية، ويكون لها مع هذا نفس الأثر الذى نجسده لما نقرؤه من قصص وروايات وما نشاهده على المسرح أو نراه فى الأفلام؟ وإذا كان هذا مستحيلا، فما الذى يبرر رواية هذه القصة أصلا إلا مجرد إعجاب الكاتب بنفسه، وتعليقه أهمية على ما حدث له أكبر بكثير مما له فى الحقيقة؟

أصارح القارئ بأنى لم أفقد الأمل قط وأنا أكتب فصلاً بعد آخر من هذا الكتاب، من أن يكون للقصة التى يحتويها ـ كما حدثت بالفعل، ودون أى تجميل ـ مغزى عام يتجاوز مغزى الأحداث الجزئية. وكنت أشعر دائما، ولا أزال، بأن القصة إذا فشلت فى نقل هذا المغزى للقارئ، فلابد أن يكون السبب هو مجرد أنى ضربت بمعولى بأكثر من اللازم أو لم أضرب به بالقوة اللازمة.

* * *

بعد أن كتبت الجزء الأكبر من هذا الكتاب كنت أتذكر من حين لآخر، سيرة ذاتية بعد أخرى، مما كنت قرأته من قبل، فأعود إليها للقراءة فيها، أو أتذكر سيرة ذاتية مهمة لم تسبق لى قراءتها فأقتنيها وأشرع فى قراءتها. كنت متلهفا، إذ بدأت أفعل شيئًا فعله آخرون من قبلى، أن أقارن بين أدائى وأدائهم، وأتأمل سبب نجاح هذا وفشل ذاك، حتى يكون فى هذا وذاك درس لى أتعلم منه.

تذكرت بالطبع «الأيام» لطه حسين، و«زهرة العمر» و«سجن العمر» لتوفيق الحكيم، و«أوراق العمر» للويس عوض، ناهيك طبعًا عن كتاب «حياتى» لأبى، (أحمد أمين) الذى ظل بجوارى دائما أعيد القراءة فيه، المرة بعد المرة، حتى كدت أحفظه عن ظهر قلب. وتذكرت أيضًا بعض السير الذاتية التى همَّتْ بها حبا لمؤلفين أجانب؛ كالفيلسوفين البريطانيين برتراند رسل (B. Russell) وألفرد إيير (A.J. Ayer) فأعدت القراءة فيها من جديد.

وقد كان رد فعلى فى جميع الأحوال مدهشا. كانت الدهشة أحيانا من مدى

سذاجتى إذ قدّرت الكتاب فى الماضى بأكثر كثيراً مما يستحقه، وأحيانا من أنى ـ وإن كنت أعجبت فى الماضى بكتاب جيد ـ لم أعطه من التقدير قدر ما يستحق.

كانت دهشتى كبيرة بوجه خاص من أنى لم أكتشف من قبل روعة كتاب أبى «حياتى»، وأنى كنت سخيفا غاية السخافة وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى، عندما كان أبى يملى علىّ بعض فصول هذا الكتاب بسبب ضعف بصره واعتماده على الإملاء بدلاً من الكتابة بيده، فقد كانت إجابتى عندما سألنى عن رأيى فيما أملاه علىّ أنى أفضّل عليه كتاب «الأيام» لطه حسين! إجابة مراهق سخيف يريد فقط أن يتحدى أباه!

وجدت بعض كُتّاب السيرة الذاتية يفضلون الإشارة إلى أنفسهم بصيغة الغائب، فبدلا من أن يكتبوا قلت وفعلت، يقولون قال صاحبنا أو قال الفتى كذا أو فعل كذا. ولم أستسغ هذه الصيغة قط فى القراءة، فلم يخطر ببالى قط أن أستخدمها فى الكتابة. وإذا كان البعض يرى فى هذه الصياغة تواضعًا فإنى أرى فيها عكس ذلك، بل إنها تمكّن الكاتب من كيل الثناء على نفسه، ونسبة الفضل إليها بأكثر مما تمكنه الإشارة المباشرة إلى نفسه دون التواء.

* * *

منذ سنوات كثيرة، رأيت فيلما بولنديا صامتا لا يزيد طوله على عشر دقائق، ظلت قصته تعود إلى ذهنى من وقت لآخر، وعلى الأخص كلما رأيت أحداً من أهلى أو معارفى يصادف فى حياته ما لا قِبَلَ له بردّه أو التحكم فيه.

تبدأ القصة البسيطة بمنظر بحر واسع، يخرج منه رجلان يرتديان ملابسهما الكاملة، ويحملان معا، كل منهما فى طرف، دولابا عتيقا ضخما، يتكون من ثلاث ضلف، وعلى ضلفته الوسطى مرآة كبيرة. يسير الرجلان فى اتجاه الشاطئ وهما يحملان هذا الدولاب بمشقة كبيرة، حتى يصلا إلى البرّ فى حالة إعياء شديد، ثم يبدآن فى التجول فى أنحاء المدينة وهما لا يزالان يحملان الدولاب. فإذا أرادا ركوب الترام حاولا صعود السلم بالدولاب وسط زحام الركّاب وصيحات

الاحتجاج. وإذا أصابهما الجوع وأرادا دخول مطعم، حاولا دخول المطعم بالدولاب فيطردهما صاحب المكان.

لا يحتوى الفيلم إلا على تصوير محاولاتهما المستميتة فى الاستمرار فى الحياة وهما يحملان دولابهما الثقيل، إلى أن ينتهى بهما الأمر بالعودة من حيث أتيا، فيبلغان الشاطئ الذى رأيناه فى أول الفيلم، ثم يغيبان شيئًا فشيئًا فى البحر، حيث تغمرهما المياه وهما لا يزالان يحملان الدولاب.

منذ رأيت هذا الفيلم وأنا أتصوّر حالى وحال كل من أعرف وكأن كلاً منا يحمل دولابه الثقيل، يأتى معه إلى الدنيا ويقضى حياته حاملا إيّاه دون أن تكون لديه أية فرصة للتخلص منه، ثم يموت وهو يحمله. على أنه دولاب غير مرئىّ، وقد نقضى حياتنا متظاهرين بعدم وجوده، أو محاولين إخفاءه، ولكنه قدر كل منا المحتوم الذى يحكم تصرفاتنا ومشاعرنا واختياراتنا أو ما نظن أنها اختياراتنا. فأنا لم أختر أبى وأمى أو نوع العائلة التى نشأت بها، أو عدد إخوتى وموقعى بينهم، ولم أختر طولى أو قصرى، ولا درجة وسامتى أو دمامتى، أو مواطن القوة والضعف فى جسمى وعقلى. كل هذا علىّ أن أحمله أينما ذهبت، وليس لدىّ أى أمل فى التخلص منه.

(١)
ولادة مُتعسرة

تبدأ قصتى حتى من قبل أن أولد. ذلك أن والدتى كانت لا تكفّ عن رواية قصة حملها بى بافتخار، حتى رسخت قصة هذا الحمل فى ذهنى على نحو لا يمكن معه نسيانها. كانت فخورة بمقاومتها لأبى، وما لجأت إليه من حيل وألاعيب حتى تحتفظ بى فى أحشائها وتتيح لى فرصة الوجود.

كان أبى لا يريد من الأولاد إلا اثنين أو ثلاثة، فانتهى به الأمر إلى أن أصبح أبا لعشرة، مات منهم اثنان فى المهد وبقى ثمانية. على أنه عندما وصل الأمر إلى احتمال مجىء الثامن، وهو أنا، لم يطق أبى صبرا وقرر أنه آن الأوان لأن يضع حدّا للأمر وأن يجبر والدتى على الإجهاض. ولا أدرى بالضبط سرّ تمسك أمى بهذا الطفل الثامن، فقد كانت لديها وفرة من الأولاد والبنات. من المؤكد أن المصريين كانوا، ولا يزال أكثرهم يعتبرون كثرة الأولاد مفخرة للأم. ولكن الأرجح أن الأمر كان يتعلق بوجه خاص بعمتى التى كانت، على حد قول والدتى، تحسدها أشد الحسد لكثرة ما أنعم الله به على والدتى من الأبناء الذكور، ومن ثم كان تمسك والدتى بى يرجع فى الأساس إلى رغبتها فى إغاظة عمتى.

لم يكن الإجهاض فى هذا الوقت (منتصف الثلاثينات) أمرًا سهلا، وكان على أبى أن يستعين فى ذلك بطبيب أجنبى، إذ ربما لم يكن هناك طبيب مسلم فى ذلك الوقت يقبل أن يقوم بهذه المهمة، فرتّب أبى موعدا مع طبيب إيطالى. لم يكن من السهل على أمى أن تعصى أبى، ومع ذلك فقد حاولتْ عدة مرات الهرب، مرة إلى بيت أخيها فى العباسية، ومرة إلى بيت أختها فى قريتهما (زاوية البقلى) بالمنوفية،

حتى اضطرت في النهاية إلى الرضوخ لتهديدات أبي، فانصاعت لأمره وارتدت ملابسها لتذهب معه إلى الطبيب. وفي الطريق إلى محطة المترو كان أبي، كعادته، يتقدم أمي ببضع خطوات، إذ لم يكن من المألوف أن يسير الرجل في الشارع بمحاذاة زوجته، حتى وصلا إلى المحطة. فلما جاء القطار استقل أبي العربة الأمامية على أن تصعد أمي إلى عربة السيدات، وهي عبارة عن ديوان صغير في آخر القطار كُتب عليها (سيدات) ولا تتسع لأكثر من ست أو ثمان من النساء. واستجمعت أمي كل شجاعتها وتركت أبي يصعد وحده إلى القطار وعادت أدراجها إلى المنزل، فإذا بأبي، لدى محطة الوصول، يجد نفسه ـ في ذلك الموقف المضحك ـ ينتظر نزول أمي من عربة السيدات فلا تنزل، ويكتشف أن زوجته قد خدعته. بإمكاني أن أتصور الصياح والشجار اللذين لابد أن عمَّا البيت لدى عودة أبي، بما في ذلك، بلا شك، التهديد بالطلاق. ومع ذلك لم تفتر عزيمة أبي، وعاد إلى محاولته، مستخدما العنف مرة واللين والملاطفة مرة، حتى رضخت أمي بالفعل للذهاب إلى الطبيب.

جلست أمي أمام الطبيب الإيطالي وسمحت له بأن يبدأ الكشف. ثم تحرك في قلبها غضب غريزي جعلها تدفع الطبيب بقدمها بكل قوتها صائحة في ثورة: «روح يا شيخ، هوّ أنا حبلى في الحرام؟» فتراجع الطبيب خائفا وقال، معلنا استسلامه، وبلكنة أجنبية ظلت دائما مبعثا للضحك في أسرتنا على مرّ الأيام كلما أعادت أمي رواية القصة: «يا خبيبي أنا مالي؟عايز تسقط تسقط، عايز تخبل تخبل!» وعادت الزوجة إلى البيت منتصرة، والأب خائبا، ولم يعاود أبي الكرّة مستسلما لمشيئة الله.

هكذا جئت إلى الوجود في ٢٣ يناير ١٩٣٥.

(٢)

أبــى وأمــى

لا يجب أن يتـوقـع أحـد أن يكون بحـوزتى صـورة لأبى وأمى يـوم زواجـهـمـا، يبتسم فيها الزوج لزوجته كما يفعل الناس فى هذه الأيام. لدىّ بالفعل صـورة لأبى يوم زواجه، ولكنها له وحده، فقد ذهب بمفرده إلى المصـور بعد إتمام عقد الزواج، فالتقط له المصور صورة، وبدلا من الزوجة استند أبى بيده إلى بضعة كتب، وكتب خلف الصورة، التى لا تزال فى حوزتنا، أنه اختار الكتب رمزًا أو شعارًا، كما كتب أيضًا وراء الصورة «وأرجو من الله أن يوفقنى إلى عمل عظيم أنفع به أمتى». وقد وفقه الله إلى ذلك فعلاً، ولكن المهم لدىّ الآن أنه لم يشر فيما كتبه وراء الصورة، ولو إشارة عارضة، إلى أمى التى كان قد عقد لتوّه زواجه عليها.

كان أبى رجلاً قليل الكلام، قليل المرح، يأخذ الحياة مأخذ الجد، ولا يجد متعة حقيقية إلاّ فى القراءة والكتابة. والزواج فى نظره لا يستلزم الحب، بل هو لمجرد تكوين أسرة وإكمال الدين. ومن ثم فهو يطلب يد أمى دون أن يراها، وأسرة الفتاة تقبل تزويجها له دون أن تشترط موافقة الفتاة، التى لم تكن بدورها قد وقعت عيناها عليه قط. المهم فقط أن ترضى أسرة الفتاة أو ولىّ أمرها عن خلقه واستقامته وتتأكد من قدرته المالية.

كان أبى من أسرة قاهرية. جاء أبوه وهو صغير إلى القاهرة هربا من قرية بمديرية البحيرة حيث كان يُجلد الفلاحون بالسياط إذا لم يؤدوا ما عليهم من ضرائب. وتعلم جدى فى القاهرة حتى صار من علماء الأزهر. كانت أسرة متواضعة الدخل تعيش عيشة غاية فى البساطة، ولكن أبى لم يذق شظف العيش فى طفولته أو

صباه. فلا هو قضى الليل جائعا ولا تعرّض لمقارنة مريرة بين حاله وحال الأسر الأكثر ثراء ويسرًا. لم يكن لدى الأسرة بالقطع وفرة من المال، ولكن المال لم يكن أيضًا شاغلاً لها أو مصدرًا لقلق زائد. سمح هذا لأبى بأن يشغل فكره بما هو أعظم شأنا، وإن لم يكن هذا بالطبع تفسيرًا كافيًا لهذا الانشغال بما هو «أعظم شأنًا». إنى لا أعرف كيف أفسر لماذا استقر فى ذهن أبى ـ منذ وقت مبكر من حياته ـ أن من الواجب، ومن الممكن، أن يكرّس حياته لعمل عظيم؟ هل كان السبب ذكاؤه وتوفيقه المستمر فى دراسته؟أم نزعة متأصلة فيه منذ الطفولة نحو الإصلاح، تحتاج بدورها إلى تفسير؟ لقد كان عندما كتب تلك الجملة وراء صورته، عن أمله فى القيام بعمل عظيم، فى التاسعة والعشرين من عمره، وكان يعمل قاضيًا شرعيًا، وهى وظيفة لا تعد بذاتها بعمل عظيم، وإن كان قد عرف عن قرب رجالاً عظامًا أثروا تأثيرًا كبيرًا فى نفسه، أكبرهم أثرا عاطف بركات، ذو النزعة الإصلاحية القوية، وناظر مدرسة القضاء الشرعى عندما كان أبى تلميذًا ثم مدرسا صغيرا بها.

إن التفسير الذى أميل إليه أكثر من غيره لهذا الطموح القوى عند أبى، ومنذ وقت مبكر، إلى القيام «بعمل عظيم فيه نفع أمته» هو حسّه الأخلاقى البالغ القوة. نعم، كان أبى من أسرة شعبية متوسطة الحال، ولكنه كان بلا شك «أرستقراطى» الأخلاق والحسّ. كان دائم التساؤل عن الموقف الأخلاقى الصحيح، وكأن المسائل كلها وأمور الحياة كلها تتحول عنده فى نهاية الأمر إلى مشكلات أخلاقية. إنه يستقيل من وظيفة رفيعة لدى أى اعتداء طفيف على كرامته، ويقف ضد السلطة إذا رآها ظالمة، ويرفض منصبًا خطيرًا إذا اعتقد أنه ليس أهلا له، ولا يرقّى موظفا لأنه يحبه ولكن لأنه أجدر من غيره بالترقية.. إلخ.

من أين أتى بهذا الحسّ الأخلاقى القوى؟هل ورثه عن أبيه؟أم كان نتيجة لتربيته الدينية العميقة؟ إنى لا أعرف كيف يورّث الحس الأخلاقى أبًا عن جد، كما لا أعرف كيف يولّد الشعور الدينى القوى حسّا أخلاقيا قويا عند البعض ومجرد تمسك بشكليات الدين عند البعض الأخر.

أذكر مرة أن كنا، أنا وأخى حسين، نتحرق شوقا لرؤية فيلم يعرض فى سينما

فى وسط البلد. كنا نسكن فى مصر الجديدة وكان الأمر يتطلب ركوب المترو الذى لم يكن أبى يسمح لنا بعد بركوبه وحدنا، إذ لم نكن قد تجاوزنا العاشرة أو الحادية عشرة من عمرنا. (ربما كان الفيلم «ليلى» لليلى مراد وحسين صدقى، والمأخوذ عن رواية غادة الكاميليا، وأظن أن السينما كانت كوزموس بشارع عماد الدين أو محمد فريد الآن). كنا على يقين بأننا إذا استأذناه فسوف يرفض. فهدانا تفكيرنا إلى الحلّ الآتى: سألناه عما إذا كان يسمح لنا بالذهاب إلى سينما فى مصر الجديدة فأذن لنا، ثم استجمعنا شجاعتنا وركبنا المترو، وذهبنا إلى السينما التى نريدها فى وسط البلد، وفى طريق عودتنا نزلنا من المترو قرب السينما التى سمح لنا بالذهاب إليها، وذهبنا إليها فعلا دون أن ندخلها، ثم سرنا على أقدامنا منها إلى المنزل، مبررين فعلتنا لأنفسنا بأننا فى الواقع فعلنا ما ذكرناه له بالضبط، أى أننا لم نقل له شيئا يخالف الحقيقة، وإنما فقط لم نقل له كل الحقيقة. ومع ذلك فلا أدرى كيف انتهت القصة بأن اعترفنا له بما فعلنا، ودارت مناقشة طويلة بيننا وبينه عما إذا كنا قد ارتكبنا عملا غير أخلاقى لمجرد أننا لم نقل له كل الحقيقة.

لم يكن لأمى هذا الحس الأخلاقى القوى الذى كان عند أبى. ربما كانت أخف ظلاً وألطف معشراً، ولكنها كانت بلا شك أكثر مكراً وأشد دهاءً. لم تكن بخيلة بخلاً منفراً، ولكنها كانت بلا شك حريصة على المال حرصاً واضحاً. كان يزيد هذا الحرص قوة اعتقادها بأن الرجال لا يمكن الاطمئنان إلى وفائهم، وكانت دائمة الترديد للمثل الشعبى «يا مآمنة للرجال، يا مآمنة للماء فى الغربال»، فسيطرت عليها فكرة أن يكون لها من المال ما يكفى لشراء بيت باسمها يدرّ عليها من الدخل ما يغنيها عن أبى، إذا حدث وتنكّر لها.

بدأت أمى منذ أيام زواجها الأولى تضيف القرش بعد القرش إلى دفتر التوفير بمكتب البريد، تقتطعه مما يعطيه لها أبى من مصروف البيت، إذ لم يكن لها مصدر للدخل إلا ما يعطيه لها أبى. وهى تحتفظ بحجم مدخراتها سراً من الأسرار لا يعرفه غيرها. كان أبى يعرف ما يحدث بالضبط ويغض البصر عنه. وكانت هى تعرف قلة مبالاته بالمال فتبالغ فى تصوير ما يتكلفه الطعام ولوازم البيت فيعطيها دائما ما تطلبه

دون نقاش، وهو يعرف جيداً أن ما يعطيه لها أكثر بكثير مما تحتاجه ولكنه، إذ كان يعرف هو نفسه عجزه التام عن الادخار، يتظاهر بتصديقها أملاً فى أن تقوم هى بما يعجز عن القيام به من ادخار. فاجأته مرة بإخباره بأنها أصبحت الآن تملك ثلاثمائة أو أربعمائة جنيه فى دفتر التوفير، وأنها تريد أن تشترى منه نصف البيت الذى نسكنه، وكانت قيمة هذا النصف تزيد بالطبع عدة مرات عما تملكه، فإذا به يوافق، دون مناقشة، على أن يكتب باسمها نصف المنزل. وتصر هى بعد قليل على تسجيل ذلك رسميا فيسجّله. ثم لم تنقض سنتان أخريان أو ثلاث حتى أعلنت أنها تملك الآن بضع مئات أخرى وأنها ترغب فى شراء النصف الآخر، فوافق أبى على ذلك أيضًا، رغم تفاهة المبلغ الذى تعرضه عليه. وإذا بالبيت الذى نسكنه، وهو فيللا جميلة من دورين بحىّ راق من أحياء القاهرة (الدقى) قد اشترته أمى بأقل من ألف من الجنيهات. ثم تمر بضع سنوات أخرى وإذا بأمى تقول لأبى ضاحكة إنه يسكن فى بيتها دون أن يدفع لها إيجاراً، ثم تتحول النكتة إلى جد، فيقبل أبى أن يعطيها عشرين جنيها فى الشهر إيجاراً للبيت الذى نسكنه. ولم تقنع أمى بهذا بل ظلت كل بضع سنوات تتندّر بتفاهة هذا الإيجار، معددة مزايا المنزل ومشيرة إلى جماله وجمال حديقته، بما فيها من أشجار الجوافة وشجرة المانجو، فإذا بها تطلب كل بضع سنوات زيادة الإيجار ويقبل أبى عن طيب خاطر ما تطلبه.

كان حصول أحد منا على بضعة قروش من أمىّ أشبه بمحاولة استخراج الماء من الصخر، فقد كانت دائما تتظاهر بأنها لا تملك قرشًا واحداً، حتى يأتى تصريحها المفاجئ هذا، كل بضع سنوات، بأنها تعتزم شراء هذا البيت أو ذاك. لم يكن من السهل أيضًا أن يطلب أحدنا من أبى مالاً يزيد على ما قرره لكل منا من مصروف شهرى. ولكن الصعوبة هنا لم يكن مصدرها حرصه على المال، بل مجرد الخوف من إزعاجه، ومن أن يكتشف عجزنا عن الالتزام بما قرره لنا. كان من أكره الأمور لديه أن يرضخ لمطلب أحد منا لبعض المال قبل أن ينتهى الشهر؛ خوفا من أن يولّد لدينا هذا شعوراً بأنه لا حدود لما يمكن لنا الحصول عليه من المال فيفسد علينا هذا مستقبل حياتنا.

كان هذا الموقف من جانبه معقولا تمامًا، ولكن ما كان يضايقنا من أبى حقيقة هو

عجزه عن التعاطف مع أية رغبة لدينا في أي نوع من أنواع الرفاهية. كان هو نفسه قليل الاحتفال بأية صورة من صور التأنق، وزاهدًا تمامًا في أي محاولة لمجاراة الآخرين في رفاهية العيش. وكان يفترض أن لدينا نفس الدرجة من اللامبالاة في سن لم تكن تسمح لنا بمجاراته في بساطته. تهوّر مرة فأعلن لنا أنه قرر شراء سيارة جديدة من طراز «كرايزلر» لتحل محل سيارته القديمة التي كانت تثير الرثاء من فرط قدمها، وتستدر الضحك والسخرية من أصدقائنا. وقمنا نحن بإعلان الخبر على الفور للأصدقاء، ونحن نشعر بمنتهى الفخر. فإذا به يصيبنا بخيبة أمل كبيرة إذ يخبرنا بعد بضعة أسابيع بأنه قد استرد العربون، وألغى فكرة السيارة الجديدة، إذ هداه تفكيره إلى أن الأمر لا يزيد على أن يكون حماقة بالغة، وحبًا للمظاهر الفارغة، ما دامت السيارة القديمة قادرة على أداء الوظيفة المطلوبة منها لعدة سنوات أخرى.

هكذا كان حاله مع كل مظاهر المدنية الحديثة. فقُلة الماء والإبريق الفخاري الواقفان في صينية على سور الشرفة ليشرب منها الجميع، يغنيان عن الثلاجة الكهربائية، وجهاز الراديو يغني عن الجرامافون والأسطوانات.. إلخ. ومن ثم لم يكن بيتنا يحتوي إلا على الضروريات، فلا أذكر أن صورة جميلة قد علقت على الحائط، أو قطعة أثاث جديدة اقتنيت لسبب جمالي بحت. ومع ذلك فمن المؤكد أن أبي كان يحمل إلى جانب حسّه الأخلاقي القوي، حسًّا جماليا قويا كذلك. كان حسّه الجمالي يظهر في جلوسه أمام البحر ساعات طويلة يتأمل تتابع أمواجه، أو في حبه للخروج إلى الصحراء للاستمتاع بالامتداد اللانهائي للرمال وبالهدوء الشامل، وفي تفضيله للجلوس والكتابة أو القراءة في الحديقة، وفي متابعته لما نما وما لم ينم من أشجار وزهور، وفي كراهيته الشديدة للضوضاء والصوت المرتفع، وفي تقديره للغة الجميلة والنكتة الذكيّة، بل وربما، قبل هذا وذاك، في حسّه الأخلاقي القوي. أوَليس صحيحا أن الحسّ الأخلاقي هو من نفس فصيلة الحسّ الجمالي أو هو جزء منه؟

* * *

لا أعرف الكثير عن طفولة أمي وظروف نشأتها، اللهم إلا أنها كانت من أسرة

متوسطة الحال تعيش فى قرية من قرى المنوفية (زاوية البقلى)، وأن أباها كان قاضيا فى مدينة إقليمية، مات فى طفولتها، فهى لا تكاد تعرفه، وإن كانت ظلت دائما تفخر به، من باب محاولة تحقيق درجة من الندّية مع أبى، فتكرّر أنه كان قاضيا، وأن عبد العزيز باشا فهمى عندما اتصل تليفونيا مرة بأبى، وردّت هى على التليفون وعرف أنها بنت القاضى عبد الوهاب فهمى وكان من نفس قريته، ترحّم عليه وأثنى عليه طويلا. ثم ماتت أمها وهى فى نحو العاشرة من عمرها، فانتقلت أمى وإخوتها اليتامى إلى بيت خالها.

كانت القصة التى لا تمل أمى من روايتها لى، عدا قصة كفاحها أثناء حملها بى، هى قصة حبها الأول، وما صاحبه من شجون وخيبة أمل ظلت معها، فيما يبدو، إلى يوم وفاتها. كان لأمى خال آخر، غير الخال الذى تقيم فى بيته، وقعت أمى فى حب ابنه ووقع هو فى حبها. وتعاهد الاثنان على الزواج، فذهب أبو الفتى العاشق إلى أخيه، ولىّ أمر الفتاة العاشقة، يطلبها لابنه، فرفض الطلب بقسوة، إذ كان لولىّ الأمر بنات فى سن الزواج ولم يكن يرغب فى أن تتزوج البنت اليتيمة قبلهن، وأخذ يختلق الأعذار للرفض. سأل عن المهر فقيل له إن الفتى لا يملك شيئا ولكنه مستعد لدفع المهر المطلوب بالتقسيط. فرد ولىُّ الأمر ساخرًا بأن ابنة أخته ليست ماكينة خياطة يمكن شراؤها بالأقساط. تحطم قلب الفتى ورقد مريضًا من شدة الحزن، وكتب رسالة إلى محبوبته حفظتها أمى عن ظهر قلب من كثرة قراءتها لها، ثم حفظتها أنا عن ظهر قلب من كثرة ترديد أمى لها على سمعى. قالت لى إنها كانت تبكى بكاء مرًّا كلما وصلت إلى نهايتها التى تقول: «وبالاختصار أنا مريض، ولم أر مثل هذا المرض من قبل فى حياتى: لا نوم ولا أكل وجميع جسمى يوجعنى، وهذا المرض جاءنى من يوم مقابلة الخال مع العم. قال هذا العمّ كلاما يُضحك ويُبكى. فإن كان لى عمر تقابلنا وإن لم يكن، فعليك منى ألف سلام» والتوقيع «مريض مشتاق».

هربت الفتاة من بيت خالها، على أثر هذه الواقعة، دون أن تخبر أحدًا بما عزمت عليه. وقصدت قريبا من أقربائها كان يقيم بالقاهرة، واسع الثراء وعظيم الجاه اسمه

محمد عفيفى باشا، كان يشغل وظيفة عالية فى الدائرة الملكية، وله بنت فى مثل سن أمى اسمها (هدّية)، وتزوجت فيما بعد رجلا من عائلة كبيرة أصبح له شأن كبير فى السياسة المصرية (بهىّ الدين بركات). استقبلت العائلة الأرستقراطية العريقة هذه الفتاة اليتيمة وذات القلب الكسير بالترحاب، وأحاطتها بالحب والعطف فقضت الفتاة معهم سنتين أو ثلاثا، كانت دائما تذكرها بالحب والامتنان وكأنها كانت أسعد سنوات حياتها. كان يسرها غاية السرور أن تذهب لإيقاظ الباشا العجوز فيبتسم لها بمجرد أن يفتح عينيه قائلا إنه يستبشر بوجهها. فكانت تغيظه أحيانا بأن ترسل إليه من يوقظه غيرها فيغضب ويقول إنه لا يريد أن يوقظه أحد غير «زينب» فيزداد سرورها، إلى أن تقدم أبى لزواجها فبدأت متاعبها، أو هكذا كانت تقول.

وجدت أبى رجلا قليل الكلام لا يعرف المزاح أو المرح. وهو يطلب الزواج منها دون أن يراها، فليس هناك إذن حب ولا حتى تفضيل لها على غيرها، بينما هناك على قيد الحياة قلب ينبض بحبها ولا يتمنى سواها. ثم تصطدم الفتاة فى أول أيام الزواج بعد انتقالها إلى بيت الزوجية بانشغاله المستمر بكتبه وأوراقه. تدخل عليه لتخبره بأن الغذاء جاهز فيشير بإصبعه إلى رأسه علامة انشغاله بالتفكير، وكان وقتها - كما شرح هو لنا فيما بعد - يترجم جملة صعبة من كتاب «مبادئ الفلسفة» بالإنجليزية الذى كان قد تعلمها حديثا. تسأل الفتاة نفسها باستغراب عما إذا كان هذا هو معنى الزواج، ثم ترفض الفكرة قائلة لنفسها: «لا يمكن أن يكون الأمر كذلك، فقد رأيت خالى يكلم زوجة خالى أحيانًا». ويزيد الأمر سوءاً الموقف العدائى الذى تجده الزوجة من شقيقات الزوج ودأبهن على انتقادها منذ اليوم الأول. فإذا أرسلهن الزوج لتفقد بيت الزوجية قبل الانتقال إليه للاطمئنان على أن أهل العروس قد فرشوا البيت فرشًا ملائمًا، عادت الشقيقات إليه بتقرير غير سار ومليء بالانتقادات، من أهمها أنهن لم يعثرن فى البيت على كنكة لصنع القهوة. وإذ اشتد البؤس وخيبة الأمل بأمى استجمعت يوما شجاعتها وسألت أبى عما إذا كان يقبل الزواج من أختها بدلا منها، فكانت إجابته «لا أنت ولا أختك». ثم فكر جديا فى الطلاق منها عندما وقعت الواقعة التالية:

كانت أمى وأختها مشغولتين يوما بالعجين وصنع الفطائر والكعك استعداداً للعيد، وكانتا تتبادلان الحديث والضحك عندما وصل الفطير من الفرن فلاحظتا انتفاخ إحدى الفطائر انتفاخا غير عادى، فإذا بأمى تسأل أختها ضاحكة عمن يا ترى الشخص المنفوخ مثل هذه الفطيرة؟ - قاصدة أبى - ثم تنفجر الأختان بالضحك، وإذا بأبى واقف عند باب المطبخ يسمع حديثهما. وترتعد أمى خوفا ويغضب الزوج غضبًا هائلاً وتدور فكرة الطلاق فى ذهنه، ولكن العقل والمنطق يتغلبان فى النهاية، كالعادة، وتعود الأيام إلى سابق عهدها بلا طلاق ولكن أيضًا دون الكثير من الحب.

لابد أن الأمور قد تحسنت مع مرور الزمن، فلابد أن أبى قد زاد كلامه مع أمى عما كان فى البداية، إذ لا يتصور أن تحمل منه عشر مرات دون ذلك، ولكن خيبة الأمل ظلت كامنة فى قلب الزوجة التى لم تشعر فيما يبدو بالحب الحقيقى إلا لابن خالها. كان الزوج يعالب دون جدوى آثار بيئته الأولى وما تعرض له من تربية صارمة فى طفولته. فمع أفضل الأفكار التى كانت تدور برأسه عن الأسرة السعيدة ومع كل حسن نيته، لم يكن قادرا على التخلص من دور الزوج الديكتاتور صاحب السلطة المطلقة أو أن يجد فى نفسه القدرة على ملاطفة امرأته. ظلت والدتى طول حياتها لا تستطيع أن تصدّق أن زوجها لم ينادها باسمها مرة واحدة، بل كان إذا أراد أن يلفت نظرها إلى شىء صاح «يا ولد» فتفهم أنها هى المقصودة. وكانت تتندر بذلك أحيانا إذا أحسّت منه ببعض الرضا، فتسأله عما إذا كان من المحتمل أن يأتى اليوم الذى ترقى فيه فيخاطبها على الأقل بـ«يا بنت!»، إذا كان مصراً على رفضه أن يناديها باسمها. كان أقصى ما يستطيع، إذا شعر نحوها بمنتهى الرضا أن يناديها بـ«أم حمادة»، مستخدما اسم التدليل لأكبر أبنائهما، ولكن هذا كان أمراً نادراً للغاية لا أذكر أنى سمعته منه أكثر من مرتين أو ثلاث طول حياتى، وإن كانت هى شغوفًا بذكر القصة التالية على مسامعنا، عندما نوديت بالفعل بـ«أم حمادة» فى ظروف كان أبى يشعر فيها بمنتهى الاضطراب والخجل أمامها، وهو الأمر الأكثر ندرة بالطبع والأكثر مدعاة لشعورها بالاعتزاز والفخر.

أما القصة فهى أن أبى كان يخطر له أحيانا فى لحظة من لحظات سأمه من القراءة والكتابة، أن يقوم بعمل غير مألوف لديه، من باب الترويح عن نفسه، كصنع المربى مثلا. كانت أمى فى زيارة لأخيها عندما خطر لأبى مثل هذا الخاطر فأتى ببعض البلح وشرع فى صنع المربى، فوضع البلح مع بعض السكر على النار ونسى أن يضيف الماء. ثم خطرت له فكرة مقال جديد فغادر المطبخ واتجه إلى حجرة مكتبه ليشرع فى الكتابة ونسى أمر المربىّ برمّته. وصلت إليه بعد مدة رائحة حريق، فإذا به يجد البيت كله وقد امتلأ بالدخان بينما كانت أمى تصعد السلّم عائدة من زيارتها. استقبلها أبى فى أعلى السلم وهو مضطرب، وقد اعتلت وجهه ابتسامة عريضة وقال لها مُرحبا على غير عادته: «أهلا بالست أم حمادة!». وأصابت أمى دهشة عظيمة، إذ تُستقبل هذا الاستقبال الحافل، وبهذا التعبير الودى غير المألوف، فنظرت إليه نظرة ملؤها الشك قائلة: «والله إنت عامل عَمْله!»، وسرعان ما اكتشفت قصة المربى التى لم يكن من الممكن إخفاؤها فاتضح لها كل شىء.

* * *

نعم، كانت أمى تردد من حين لآخر قصة حبها لابن خالها وحبه لها، ولكن القصة كانت تبدو لى عندما كنت أسمعها منها وأنا صغير، مجرد قصة مضحكة ومسلية، لا أكثر ولا أقل، كما كانت تبدو لى وكأنها قد حدثت فيما قبل التاريخ، عندما كانت أمى فتاة صغيرة جميلة قادرة على الشعور بالحب وإثارة الشعور بالحب. فإذا بى أكتشف فيما بعد أن الأمر كان جداً محضا بل وكان يحمل طابعا مأساويا بكل معنى الكلمة. لقد تُوفى أبى فى سنة ١٩٥٤، وبعد ذلك بسنتين حدث الاعتداء الإسرائيلى على مصر المشهور بحرب ١٩٥٦، وقد راح ضحية هذا الاعتداء عدد كبير من الشبان المصريين، كان من بينهم ابن هذا المعشوق القديم، ابن خالها. وتعرفت أمى على اسمه على الفور من قراءتها لصفحة الوفيات فى جريدة الأهرام. وقد استرعى انتباهى أثر هذا الخبر على أمى بالمقارنة بأخبار أخرى مماثلة، وعبّرت أمى عن ضرورة ذهابها لأهل الشاب المتوفى للتعزية، وأخذت تفيض فى التعبير عن حرقة القلب التى لابد أن تكون قد أصابت أباه وأمه. وذهبت أمى

للتعزية وعادت وقد بدا عليها التأثر والحزن الشديدان. ثم مرت شهور قليلة جاء بعدها الأب نفسه ليشكر أمي على قيامها بالعزاء. وجلسا معا في شرفة بيتنا يتبادلان الحديث. كنت أراه في ذلك اليوم لأول مرة، فرأيت رجلا مهيب الطلعة في نحو الخامسة والستين من العمر أو أكثر، فارع الطول وأنيقا أناقة واضحة. لم أعلق أهمية وقتها على هذه الزيارة ولكنني عندما تذكرتها بعد وفاة أمي بعدة سنوات، بدت لي هذه الزيارة وكأنها نهاية مؤثرة لقصة حب ظل مكتوماً ومحروماً من التعبير عن نفسه لعشرات السنين. كنت أدرس في إنجلترا عندما توفيت والدتي، ولكن أختي الكبرى قالت لي إن أمي قبل وفاتها بأسابيع قليلة جاءها خبر وفاة ابن خالها فلم تعلق عليه، وإن كان قد بدا عليها حزن عميق لعدة أيام قبل أن تمرض المرض الذي أودى بحياتها.

(٢)

مذكرات أبى عن أمى

كان أبى فى الخمسين من عمره عندما ولدت، وكانت أمى فى نحو الأربعين. وعندما بدأت أفهم معنى العلاقة الزوجية كان أبى قد جاوز الستين وأمى جاوزت الخمسين. لم يكن من المتوقع إذن أن أشهد أى منظر للتودد بين أبى وأمى أو لتبادلهما أى نوع من عبارات الحب والغرام. بل أصبح نشوب الشجار بينهما مع تقدمهما فى السن أكثر تكراراً بكثير من لحظات الصفاء. أثر هذا بلا شك على تصوّرى لطبيعة العلاقة بينهما، وربما جعلنى هذا أبالغ فى تصور ما كان يشوب هذه العلاقة من جفاء.

لهذا كان استغرابى شديدا عندما وقعت يدى، منذ سنوات قليلة، على مفكرة ترجع إلى سنة ١٩١٧، كتب فيها أبى مذكرات يومية يدور أغلبها حول علاقته بأمى. فقد تبين لى من قراءة هذه المذكرات أن سنواتهما الأولى لم تكن قط خالية من الشعور بالمودة والحب، كما أن أبى يبدو من قراءة هذه المذكرات فى صورة رجل أكثر رقة بكثيرٍ من الصورة التى استقرت فى وعيى من خلال ما كانت تردده أمى على أسماعى من شكوى.

بدأ تدوين أبى لهذه المذكرات فى ٩ يناير ١٩١٧ وعمره ٣١ سنة، وكان قد مضى نحو عام على زواجه، واستمر يكتب فيها على فترات متقاربة حتى نهاية العام، عندما بلغ عمر أول أولاده ثلاثة أشهر. وكان يكتب بصراحة لافتة للنظر، وإن كان أحيانا يكتب بعض الجمل المتعلقة بزوجته بالإنجليزية؛ خوفا من أن تقع المفكرة فى يدها فلا يسرها ما تقرأ فيها.

وسوف أنقل للقارئ هنا معظم ما كتبه عن علاقته بأمي، مما يلقي بضوء ليس فقط على شخصيته وشخصيتها، ولكن أيضًا على بعض الجوانب الشائعة من حياة الأسرة المصرية، المنتمية لشريحة من الشرائح المتوسطة من الطبقة الوسطى، في مطلع القرن العشرين.

«٩ يناير ١٩١٧ ـ أشعر كثيراً من الأوقات بأني سعيد لأني رزقت wife مدبرة ونظيفة، ذات عواطف مخلصة، لا تقول غير ما تضمر، وإن كنت أحيانا feel rather painful for she is not very beautiful وأحمد الله على هذه الحال.

وقد أحسست بأن العلاقة بيننا تزداد متانة بمرور الأيام. لست أجد زمنا أخلو فيه بنفسي كثيراً، كما كنت أجد، ولا أقرأ كثيراً كما كنت أفعل. فإذا قرأت يوما كثيراً أنبني ضميري لأني لم أعطها حقها من الالتفات، وإذا لم أقرأ أسفت لذلك. فأنا بين ألمين. أحس بأنه يجب عليّ تنمية عقلها ببث بعض المعلومات العامة، وأرجو أن أوفق إلى الشروع في ذلك والسير فيه.

١٩ يناير ـ مع أن معيشتي على العموم بعد الزواج خير مما كانت قبله، فقد اعترضتني صعوبات سببها أمراض اجتماعية من حجاب، وعدم انتشار تعليم البنات تعليما كافيا.. إلخ.

٢٢ يناير ـ بلغني اليوم خبر عجبت له جد العجب. فقد كنت خطبت فتاة من أبيها وهو متوسط الحال، ليس من عائلة عريقة في المجد، ورفض أبوها أن يزوجنيها لأنني معمّم، ثم زوّجها من شاب في المحاكم الأهلية بماهية قدرها خمسة جنيهات، وهو «ظهورات» (أي غير مثبت في الوظيفة) وأقل مني استقامة.

٢٣ يناير ـ لي نحو ثلاثة أيام أحس فيها بشيء من الضيق for my wife is not very beautiful وألوم نفسي على هذا الألم، والواجب حمد الله على ما وصلت إليه.

وكان هذا الألم على أثر حديث حدثتني فيه أختي عن فتاة كانت خُطبت لي، وكانت very pretty، وكانت قد رضيت أخيرا بتزوجي ففضلت عليها زوجتي التي اخترت.

٦ فبراير ـ انتهى اليوم بأسف وحزن. وتفصيل ذلك أن والدتى، قبل اليوم، شكت لى من عدم مجاملة زوجتى لها. وقد جرت بينهما بعض منازعات صغيرة على أمور تافهة، مثل أن والدتى تريد أن تناديها (يا والدتى) وتأبى زوجتى ذلك بحجة أن والدتها متوفاة وذلك يذكرها بوفاتها.

ولاحظت اليوم.. أن زوجتى لا تجامل والدتى، ولا تقابلها ببشاشة، ولا تتكلم معها كلام المحب المحترم، فلا تتكلم إلا القليل، وما تتكلمه تتكلمه ببرود. فبعد أن نزلت والدتى خاطبت زوجتى بكلمات تأنيب على عملها وردع لها عن العود إلى مثل ذلك. ومما قلت لها:

«إنى أجالس خادمات الباشا إرضاء لك فلا يليق ألا تجاملى والدتى إرضاء لى». غضبت من ذلك وغضبتُ. وأنا ساعة هذه السطور غضوب آسف. أتردد بين مصالحتها وعدمها. أقول لعل تركها وقتا أطول أردع لها، وأقول من جهة أخرى لعل ما عندها من صراحة وعدم خلطة بالناس حملها على ذلك، وبالتعلم تتعلم.

وكل هذه دروس تعلمنى التمسك برأيى فى البقاء بمنزل وحدى، وعدم سكناى مع أهلى، فإنه إن كان النزاع ونحن وحدنا وهم وحدهم، لا يجمعنا إلا التزاور، فما بالك لو كان الاجتماع دائما والمعيشة واحدة؟

٧ فبراير ـ استحسنت إظهار قوة إرادتى فصممت على هجرها مدة، وضغطت على نفسى يوما ونصفا إلى أن جاءت زائرة، فاضطررنا إلى التخاطب أمامها، وزال الخصام، وحصل ما كنت أريده من التأثير.

١٦ فبراير ـ تحقق أنها حامل، وقد كنا ـ كما ذكرت ـ نود أن لو تأخر حتى نتمتع بالزوجية جد التمتع، ولكن لم يقع ما أملنا. وابتدأت تظهر متاعب الحمل وتنغيصاته.

وبالأمس سألتها رأيها فى صاحب لى يود الزواج بفتاة تعرفها، وكانت على مثل الحال الذى وصفت، فقالت إنها صالحة لزواجه ولكن خير من ذلك أن تنصحه بعدم الزواج.. ولعلها لا تقول هذا القول فى أوقات سرورها.

أخشى أن يرث أولادى منى قصر نظرى، وأرجو أن يرثوا نظرهم من أمهم فهى أطول وأجمل عينا.

ندم كثير من النساء اللاتى رفضن أن يزوجن بناتهن لى بحجة أنى شيخ، على رفضهن، بعد أن شاهدن حسن معاملتى للزوجة وحسن سيرتى فى بيتى. فحدثتنى والدتى أن زوجة ع أفندى التى رفضت الزواج بى أتت البيت وبكت فى أثناء حديثها وندمت على ما كان من الرفض.

١٤ مارس - لا يزال أبى وأمى وأختى يلحّون فى الرجوع إلى بيتنا القديم والاشتراك معهم فى المعيشة (على أن) يخلوا لى دورا من دورى البيت أعيش فيه، وأنا أرفض. وكنت أظن أن مضىّ أربعة أشهر على معيشتنا هذه ينسيهم (هذا الأمر). ولكن لم يكن ذلك، فاستمروا يلحّون وتظهر عليهم أعراض الحزن الشديد لفراقى.

١٩ مارس - قالت لى مدرستى الإنجليزية Miss Power: «استحسن أن تعيش مع والدك وتضحى شيئًا من لذائذك لإرضاء والديك فى آخر أيامهما». وقالت: «إننى فى مصر الآن أتمتع بحسن جوها وهو أوفق لصحتى، ولو دعتنى أمى لسافرت إليها على أول باخرة، وضحيت جو مصر المناسب لى إرضاء لوالدتى». فاستحسنت كذلك ما رأت.

٢٠ مارس - تتهيب زوجتى من الذهاب إلى بيتنا لتخويف بعض النساء إياها من المعيشة مع أم الزوج. ولذلك أراها واجمة تفكر فى ذلك كثيراً، وأحاول تخفيف ذلك عنها فلا أفلح.

٢ إبريل - جاءها دور الغضب فبكت، وغضبت من غضبها ووبختها بكلام أشد. وامتنعت عن الأكل طول يومها، ثم أخذت تسترضينى ووعدتْ بعدم العودة.

لا تزال أمى تعتقد فى زوجتى الكبر لأنها لا تقول لها «يا بنتى»، ولأنها لا تجاملها. وزوجتى من طبعها عدم المجاملة فهى تقول «صباح الخير» و«كيف أنت؟»

ولا تزيد . . وقد نصحت أمى وزوجى بأن خطتى التى رسمتها ألا أسمع كلمة من أمى فى حق زوجى ولا من زوجى فى حق أمى ، وفهّمت أمى أن هذا طبع وليس بكبر .

١ مايو - كنت أخشى قبل الانتقال إلى بيتنا الحالى أن تفسد أخلاق زوجتى . فإنى أعتقد أنها صريحة لا تكاد تخفى عنى شيئًا ، صادقة فقلما تكذب ، وإذا شاءت الكذب ظهر ذلك على عينيها فقرأت الصدق فيهما . وقد تبين لى صدق رأيى فى هذه الخشية ، فكلتا زوجة أخى وبنته مكارة كذوبة قادرة على إخفاء ما فى نفسها ، تعمل أعمالا كثيرة من ورائى ثم لا يظهر عليها ما عملت . وقد ابتدأت أشعر بتأثير ذلك فى زوجتى . فمن حديث طويل اليوم عرفت أنها خرجت فى هذا الشهر من غير إذنى ثلاث مرات (لزيارة بعض السيدات) ، ولكنها لم تستطع أن تكتم ما فى نفسها فباحت به . فألمت جد الألم ، وخفت من شر أتوقعه واجتهدت فى درء الشر ، وعسى أن أوفق فيه . (أضاف أبى ما بين القوسين بقلم مختلف على سبيل الاستدراك !) .

١٩ يونيو - من أغرب ما أروى أن لى مدرسة إنجليزية احتفلت فى العام الماضى بمرور ٦٤ سنة عليها . فهى عجوز ، وهى غير جميلة المنظر . لى معها ثلاث سنوات تدرس الإنجليزية . رغبتْ فى زيارتى فى هذا اليوم فذهبت إلى منزلها بميدان الأزهار ، وركبت معها عربة وأنا خجل جدًا ؛ لأن الناس لم يألفوا شيخًا معمما يجالس أوروبية ويحادثها ، ولكنى لم أعبأ بالرأى العام فى هذه المسألة ، حتى وصلت إلى البيت فأظهرتْ التألم من مبالغة الناس فى الرشّ أمام البيت ، لما رأتْ كثرة المياه التى تحولت إلى وحل . وصعدتُ المنزل فقابلتها زوجى ببشاشة وترحاب ، ثم والدتى ثم أختى وبنت أخى . وشربنا الشاى جميعا وكنت أترجم بين المدرّسة وأهلى ، وكان موضوع الحديث يدور حول مسائل عادية ، من تفضيلى السكنى مع الأهل ونحوه . ومكثت ساعة وانصرفتْ ، فركبتُ الترام وركبت معها إلى الأزبكية ، وأركبتها ترمواى الجيزة إلى ميدان الأزهار ثم ودعتها وانصرفت .

رجعت إلى المنزل بعد نحو ساعتين ، فى موعدى المعتاد ، فأحسست من زوجتى بشىء من النفور ، تجيبنى ببرود ، وتعمل ما تعمل بثقل . سألتها عن السبب فقالت :

لا شيء، وإنما أنا تعبة أريد النوم. ألححت عليها فما زادت عما قالت. نامت ولكن لا كالمعتاد، فكانت نافرة تصدر عنها حركاتها بشراسة، حتى أصبحنا، فقالت: إني أرغب في الخروج وأريد المكث في بيت الباشا أسبوعًا أو نحوه. ألححت عليها في بيان السبب فقالت:

«الإنجليزية». «مالها؟». «تركبها العربة، وتركب معها، وتسير بجانبها وهي لابسة لبسا خليعا، و... و... ». ففهمت أنه أدركتها الغيرة من هذه العجوز التي لا تُشتهى بحال. فعجبت من ذلك جد العجب، ووبّختها على ظنها السيئ، وأهملتها، ثم أتت واعتذرت وانتهت المسألة.

٣ يوليو - رأيت أني لا أصل إلى الخير إلا بالخوض في كثير من الشر، فخضت. علمتني التجارب أن المرأة - وربما كل إنسان - لابد لها من دائرة تترك لها فيها الحرية فتتصرف كما تهوى، وتكون هي فيها الرئيسة، وإلاّ لا يستقيم حالها، إلا إذا كانت امرأة ميتة الإرادة.

كان أغيظ شيء لزوجي أنها لا تتصرف في البيت تصرفا ما. فزوج أخي أو ابنته تطبخ وتهيئ الأكل. وزوجي تنزل فتأخذه جاهزا. فشكت لي من ذلك ففرضت على كل واحدة أسبوعًا تطبخ فيه، ومنهن زوجي. فتُعدّى عليها في نوبتها فتألمتْ. وقد قالت لي إنها وهي تأخذ الأكل من تحت، تغرورق عيناها بالدموع فتخفيها عن الناظرين باختفائها ومحاولتها عملاً من الأعمال. فرأيت خير طريقة أن أنفصل في معيشة وحدي. وقد أغضب هذا والدتي وأعتقد أن سيزول هذا الغضب وتؤلف الحياة الجديدة. وقد اعتقدت أن لزوج أخي دخلا في إفهام أمي أشياء على غير حقيقتها للإيقاع. فأفهمتها أني عالم بذلك وحذرتها من العودة.

٣١ يوليو - جرى بيني وبين my wife حديث مفيد لي أمس. تذاكرنا أمر mar-riage وكيف ابتدأت الخطبة وكيف أن الخاطبات are deceived قالت: «إن زوجة محمود أفندي فهمي، وهي السبب في الزواج، خدعها التقرب من بيت عفيفي باشا واحترام العائلة لها فأرادت أن تكتسب صحبة هذا البيت بزواجي؛ لأنها رأتني على طبيعتي خالية من الزينة والحليّ، لابسة ثوبي العادي، ولكن أرضاها أني من

بيت الباشا وقريبته». وأما أختى وزوج أخى وباقى الخاطبات فقد خدعتهن أمور أولها: أنهن خجلات، وقد فقدن شعورهن أو كدن يفقدن بدخولهن فى بيت ضخم وتقدم لهن آنية ضخمة، غاية فى الجمال. وتمر عليهن خادمات إفرنجيات غاديات رائحات. وثانيها: حديث جميل خلاّب من زوجة الباشا. وثالثها: قصر الوقت الذى جلست فيه الزوجة أمامهن. وقد كنّ فى كل مرة تذهب الخاطبات يجلسن فى حجرة غير ما قبلها. ورابعها: أنهن ألبسنها عقدا من اللؤلؤ لبنت الباشا تساوى مئات من الجنيهات فظنن أن هذا لها وأن مصاغها وجهازها سيكون بالغا منتهى الجمال. وهذا يعلل الغضب والحزن الذى اعترى أهلى عند رؤية الجهاز. وخامسها: مهارة بيت الباشا فى تزيينها (بنمنة) جميلة.

ذكرت لى زوجى هذه الأمور على سبيل المزاح، ولكن it has great effect علىّ. فقلت أيضا مازحا: «وقد تم الخداع بدعوى زوجة الباشا، كما بلغنى، أن لك خمسة جنيهات شهريًا» فقالت: «نعم» وتم الحديث. ترك الحديث فى نفسى أثراً وموعظة وآمنت بالقدر خيره وشره.

٢٧ سبتمبر - فى هذا اليوم، يوم الخميس ٢٧ سبتمبر ١٩١٧ الموافق ١٠ ذو الحجة ١٣٣٥ هـ، الساعة التاسعة والعشرون دقيقة مساء، وُلد لى مولود سميته «محمد أمين»، وقد استمرت أمه فى ولادته نحو ثلاث ساعات مع ألم شديد. ولما نزل قالوا كعادة النساء إنها ولدت بنتا فشعرت بشىء من الحزن خفيف جداً، ومكثت أبنى آمالا على تربيتها وتطبيق النظريات العصرية فى تهذيبها إلى غير ذلك، وبعد ذلك بنحو ساعة قيل لى إنه ولد فشعرت بفرح أكثر.

وقد كنت من قبل الولادة موهوما وجلاً حاسبًا حساب ما أنا قادم عليه من أنى أب وما أكلف به من مشاق الأبوة، خائفا أن يرث عنى قصر نظرى فيتعب فى الحياة. ثم لما ولد كان يمازجنى أحيانا أمل فيه وفى تعليمه وتربيته، وأدعو الله أن يرزقه جمالا فى جسمه وعقله وخلقه.

وقد تألمت بعض الألم لانتقاد أهلى عليه كبر أنفه، وبالغوا فى وصفها بالكبر، وحمدوا الله على أنه ذكر، ولو كان بنتا ما كانت جميلة ولصعب زواجها. أما أنا

فيصبرني عن ذلك ما قاله صديق لي إن الأولاد لا يظهر جمالهم أو قبحهم في الأيام الأولى من ولادتهم. وحدثني أنه كان له ابن ولد كبير الأنف جداً وهو الآن صغيرها. على أني أعتقد أن جمال علمه وخلقه، إن تم ذلك، سيعوض عن جمال بدنه. وابتدأت لا أتمتع بما كنت أتمتع به من قبل من النوم الهادئ العميق، فالأم تشكو من الوجع. وغداً سيبكي الولد لحاجته إلى الرضاع أو نحو ذلك.

٤ اكتوبر - مضى هذا الأسبوع والمولود كثير البكاء ونحن شديدو التعب؛ لأنه جوعان ولا يعرف كيف يرضع لأن ثدي أمه ليس له حلمة بارزة، وتغلي له الينسون فيتعبه. وقد اشتد ضجري من ذلك وكان سبباً في انتقال والدته به إلى حجرة أخرى.

٢٢ ديسمبر - طعّمنا المولود هذا اليوم، وقد انتظم في نومه ورضاعه وقلل من بكائه. وحمدت الله لأن أنفه صغرت عما كانت وصار أجمل من يوم ولد.

٣١ ديسمبر - لا تزال تجدّ بعض لحظات أقول فيها في نفسي «ليتني رزقت more beautiful wife» وأرجو أن يهدأ فكري في هذا الموضوع وتقرّ نفسي».

(٤)

البيت

لم ترث أمى قرشًا واحدًا من أسرتها ولم يرث أبى شيئًا يذكر، ولكن كان لأبى دائمًا دخل معقول من وظيفته، كمدرس أو قاض أو أستاذ فى الجامعة، بالإضافة إلى مكافآت عما ينشره من مقالات وكتب أو يشترك فيه من لجان، سمح له بشراء بيت من دور واحد فى مصر الجديدة، ثم ببناء دور آخر فوقه.

كانت الملامح الأساسية لهذا البيت، الذى عشنا فيه طوال الثلاثينات ومعظم الأربعينات، تتكرر بحذافيرها فى معظم بيوت أقاربى وأصدقائى ومعارفى. حجرات وشرفات واسعة، وأسقف مرتفعة (إذا ما قورنت ببيوت الطبقة الوسطى اليوم) فى منزل يندر أن يزيد ارتفاعه على ثلاثة أدوار. لم يكن إذن هناك ما يحول دون وصول الهواء أو أشعة الشمس، كما كان هناك دائما متسع للأطفال للعب والجرى، سواء داخل البيت أو فى حديقة صغيرة حول البيت، أو فى الشارع، إذ كان من الممكن أن تمرّ عليهم الساعات دون أن يعكر صفوهم مرور سيارة واحدة.

كل هذا صحيح، ولكنى لا أكاد أصدق، عندما أستعيد فى مخيلتى ما كان عليه منزلنا وأنا طفل، أى منذ نحو ستين عامًا، ليس فقط خلو المنزل من أى مسحة من الجمال، ولكن كيف أن أحدًا منا، لا أبى ولا أمى ولا أنا ولا أحد من إخوتى، كان يلاحظ وقتها هذا الافتقاد إلى الجمال، أو يعلق أهمية على ذلك لو كان قد لاحظه.

الأمر يدعو للدهشة لأكثر من سبب. فأسرتنا لم تكن أسرة فقيرة يعوزها المال اللازم لشراء باقة من الورد من حين لآخر، أو برواز صورة جميلة وتثبيتها بالحائط، أو انتقاء قماش لتغطية الكنب أو الكراسى بلون ينسجم مع لون السجادة مثلا..

إلخ. لا لم نكن عاجزين عن شيء من هذا، كل ما فى الأمر أن شيئًا من هذا لم يخطر ببالنا قط. وأبى رجل واسع الثقافة، بل هو كاتب وأديب يميز الجمال ويقدره فى أشياء أخرى كثيرة، فلماذا لا يلاحظه فى البيت وطريقة تأثيثه؟ربما كان الأمر يحتاج إلى تقدير لنوع معين من الجمال هو الذى يتوافر للفنون التشكيلية، وإلى التدرب على إدراك الجمال فى اتساق الألوان والخطوط، وهو ما لم يتلقه أبى أو أمى قط لا من المدرسة ولا من خارجها. ولكن الأرجح أن العامل الحاسم كان يتعلق بالبيئة الثقافية بوجه عام. كان المجتمع كله، باستثناء حفنة ضئيلة للغاية تعرضت لتأثير قوى من المجتمع الغربى، ينظر إلى طريقة تأثيث المنزل نظرة «وظيفية» بحتة، أى أن المهم فقط فى نظرها هو أن يؤدى الأثاث وظيفته بكفاءة، دون أن يدخل فى هذه الوظيفة أشياء كمالية من نوع إثارة الإحساس بالجمال. الكرسى للجلوس والسرير للنوم والمكتب للكتابة والحمام للاستحمام.. إلخ، فما الذى تريده أكثر من ذلك؟ تعليق صورة على الحائط؟ لماذا بالضبط؟ لا بأس من ذلك إذا صممت عليه، وهى فى هذه الحالة توضع أعلى من مستوى النظر بكثير، لا تكاد تستلفت نظر أحد، وإذا هبّ بعض الهواء فمالت عن وضعها الصحيح فقد تظل على هذه الحال سنوات، بل ربما عشرات السنين، دون أن يلتفت إلى هذا أحد، أو يبالى أحد بتصحيح وضعها.

من المؤكد أننى لو قُدّر لى أن أدخل من جديد مطبخنا كما كان عليه من ستين عاما لأصابنى الذهول من حاله ومنظره. نعم لم يكن أبى ليدخل المطبخ قط، أو على الأقل لا أتذكر قط أنى رأيته فيه، ولم يكن يدخله إلا أمى والخادمة. ولكن كيف استطاعت أمى أن تتحمل مطبخا بهذا الشكل، تقضى فيه كل هذه الساعات كل يوم، وهو الخالى من أى جمال أو نظام، ومن أى تهوية صحية أو أى وسيلة من وسائل الراحة، دون أن تتذمر أو حتى أن تلاحظ أن فى الأمر أى نقص يجب تداركه؟بل كيف استطاعت أمى، على أى حال، أن تنتج من هذا المطبخ الصغير القبيح كل هذه الأصناف الرائعة من المأكولات؟

* * *

كان النموذج الشائع للبناء، الذى نادرا ما كان يشذ عنه أى منزل من منازل الطبقة الوسطى فى مصر، هو صالة واسعة (كنا نسميها «الفسحة» قبل أن نطلق عليها الاسم الأفرنجى «صالة») تخرج منها من كل ناحية أبواب يؤدى كل منها إلى حجرة أو إلى المطبخ والحمام. هذه الصالة أو الفسحة كانت تستخدم فى الأساس لوضع مائدة الطعام التى كانت توضع عادة فى الوسط بالضبط. لم نكن نعرف شيئا اسمه «حجرة الطعام»، بل حتى حجرة الجلوس أو الاستقبال، كانت فى العادة حجرة مغلقة لا تفتح إلا فى المناسبات، فلا عجب أنها كانت تسمى «حجرة المسافرين»، إذ إنها لم تكن فى الأصل تفتح إلا لاستقبال الآتين من سفر طويل. وكانت تحتوى عادة على كراسى مرصوصة فى شكل دائرى بحيث يلتصق كل كرسى بالحائط، على نحو يتكرر فى كل بيت دون أى تغيير أو استخدام لأى خيال.

إذن فحجرات البيت المستخدمة كلها، هى حجرات النوم، وكلها حجرات تستخدم «على المشاع» وتفتقر إلى أى خصوصية، باستثناء حجرة واحدة كانت تتمتع بهيبة ملحوظة وتلقى عناية خاصة عند تنظيفها، ولا يدخلها أحد إلا لسبب وجيه. كانت هذه هى حجرة نوم أبى، اكتسبت فى نظرنا الهيبة بل والرهبة التى كانت تحيط بأى شىء يتعلق بأبى. كان لهذه الحجرة أيضًا اسم غريب ليس من السهل تفسيره وهو «حجرة السرير». فالحجرات الأخرى كانت بها أيضًا أسِّرة، فهل السبب هو أن حجرة أبى كان بها أفخم سرير، وهو صحيح، أم أهم سرير؟ المؤكد أننى أذكر كيف أنى، وأنا طفل صغير، كنت إذا مددت يدى لألمس الملاءة المفروشة على هذا السرير شعرت بأنها من نوع مختلف تمامًا عن أى ملاءة أخرى بالمنزل: ناعمة الملمس كالحرير، وباردة برودة منعشة فى عزّ الصيف. لا أذكر أنى رأيت أمى قط على هذا السرير أو حتى بالقرب منه، وإنما كنت أعتبر أن سريرها هو نفس السرير الذى أنام أنا عليه. ذلك أنى باعتبارى أصغر الأولاد، كنت أحظى بامتياز النوم إلى جوار والدتى بعد أن طُرد الولد الأكبر منى، بمجرد وصولى أنا إلى الوجود، للنوم «تحت الرجلين»، وهو تعبير كان معروفا عندئذ

ومعناه النوم فى نفس السرير الذى ينام عليه شخص آخر ولكن فى اتجاه معكوس، ومن ثم كان هناك دائما خطر يتعرض له كلا النائمين وهو أن يصطدم وجه أحدهما بقدمى الشخص النائم فى الاتجاه الآخر.

كان هذا السرير، ذو الاتجاهات المتعددة، موجوداً فى حجرة لها اسم بسيط هو «حجرتنا»، والمقصود بذلك أنها كانت الحجرة التى ينام فيها «الجمهور» أو «العامة»، تمييزاً لها عن حجرة «السرير» التى ينام فيها والدى. وقد كانت «حجرتنا» هذه، كالسرير القائم بها، هى بدورها متعددة الأغراض. ففضلا عن السرير، كانت تحتوى أيضًا على مرتبة موضوعة على الأرض، نجلس عليها للحديث أو لتناول العشاء، وأمامها مائدة صغيرة مستديرة وقليلة الارتفاع اسمها «طبلية». يمكن للقارئ إذن أن يتصور درجة الفوضى الضاربة فى هذه الحجرة، التى كان يمكن أن يجرى فيها أى شىء: النوم أو الأكل أو استقبال الزوّار من الأقارب، أو استذكار الدروس أو اللعب والهزار.. إلخ. وذلك بعكس حجرة أبى أو «حجرة السرير»، التى لم نكن ندخلها إلا إذا شعرنا بأن مزاج أبى يسمح بتبادل الحديث معه، وحينئذ تدخل أمى الحجرة ونحن وراءها، فنختلس النظر بحذر إلى أبى الجالس على الكنبة الاستانبولى وهو يحتسى القهوة. فإذا لم نجده مشغولا بكتاب أو جريدة جلست أمى على الأرض وجلسنا إلى جوارها كالقطط الصغيرة. كانت هذه الجلسة هى أقرب ما كان يمكن أن يحدث للجلسة «العائلية» الحميمة، وهى على أى حال لم تكن تدوم طويلا، إذ سرعان ما تبدر من أبى كلمة أو حركة يفهم منها أن الزيارة قد انتهت، فننسحب وراء أمى كما دخلنا.

لقد ذكرت بعض الأسماء الغريبة التى كانت أسرتنا تطلقها على هذه الحجرة أو تلك، ولكن الحقيقة أن الأسماء الشائعة لهذا الجزء أو ذاك من بيوت الطبقة المتوسطة كانت بدورها أسماء غير مألوفة لأسماعنا اليوم. فالشرفة أو البلكونة كانت تُسمى بالاسم الإيطالى «تراسينه»، و«التواليت» كنا نسميه «بيت الأدب» أو«بيت الراحة» أو«الكنيف»، كما أن بيوت هذه الطبقة كانت تحتوى على أشياء ثابتة لا يكاد يخلو منها بيت ولكنها كادت تنقرض انقراضا تاما اليوم. من ذلك

«صينية القلل والإبريق» الموضوعة على سور إحدى الشرفات، والتى كانت المصدر الوحيد للماء البارد فى الصيف، ثم حلت محلها ثلاجة بدائية لا تزيد على كونها صندوقا خشبيا لا صلة له بالكهرباء، يوضع فى الجزء العلوى منه لوح أو قطع من الثلج على ماسورة متصلة بصنبور يخرج منه الماء البارد، ريثما يذوب لوح الثلج فيستبدل به غيره.

والحقيقة أن الكهرباء لم تكن طوال فترة طفولتى وصباى، تلعب دوراً ذا بال فى حياتنا المنزلية. فلم نكن نعرف من آثارها إلا لمبة الكهرباء التى تتدلى عادة من وسط السقف. فلا ثلاجة كهربائية ولا غسّالة أو مكنسة أو مروحة كهربائية، ولا جهاز لتكييف الهواء أو تليفزيون. بل حتى الراديو كان يعتبر شيئًا ثمينًا يتطلب وضعه على رفّ عال لا تصل إليه أيدى العابثين. لم تدخل الثلاجة الكهربائية بيتنا إلا فى سنة ١٩٤٧، عندما كنت فى الثانية عشرة من عمرى، وكانت ثلاجة أمريكية ضخمة، مرت فترة من الزمن قبل أن نعرف مدى فائدتها، وهل كانت تستحق حقا المبلغ الكبير الذى دفعه أبى ثمنا لها، ولكننا مع مرور الزمن أصبحنا لا نتصور العيش بدونها. تلا دخول الثلاجة، وصول الغسالة الكهربائية التى اشتراها أبى وجلبها إلى المنزل دون أن تطلب والدتى منه ذلك، مدفوعًا بما سمعه عن مدى توفيرها للجهد والتعب. وقد حاول أبى دون جدوى إقناع أمى باستخدام هذه الغسّالة الكهربائية، إذ لم تحظ هذه الغسّالة من أمى إلا بالاستخفاف والاحتقار، ليس فقط من باب الميل الطبيعى لدى الزوجة للتقليل من زهو الرجل وإعجابه بما يصنع، بل بسبب اعتقادها الصادق بأن الغسيل باليد هو الطريقة الوحيدة لتنظيف الملابس تنظيفا حقيقيا. وعندما قامت أمى بتجربتها تحت إلحاح أبى، أعلنت بحسم تام أن هذه الغسّالة الكهربائية تعبها أكثر من نفعها، وتركتها فى مكانها دون استعمال لعدة سنوات حتى فقدت قيمتها بظهور ما هو أفضل منها بكثير، ولكنى على أى حال لا أذكر أنى رأيت أمى قط تستخدم أى جهاز فى غسيل الملابس سوى يديها.

إذا كان هذا هو مصير الغسّالة، فلا يجب أن نتوقع شيئا مختلفا فيما يتعلق

بالمكنسة الكهربائية، فهذه لم تدخل بيتنا قط حتى انفردت أنا بمسكن خاص بى بعد الزواج. وإنما ظلت وسيلة تنظيف الأرض هى تلك الأداة العتيدة ذات الأهمية البالغة فى أى بيت مصرى، وهى «المقشّاة»، أو العصا الخشبية الطويلة التى تنتهى بحزمة من القش. كان استخدام هذه «المقشّاة» فى تنظيف الأرض ثم دعك الأرض بالماء والخيش بعد ذلك، هو الوسيلة المناسبة تماماً للبلاط الذى لم نكن نعرف غيره فى أرضيات المنازل. كان استخدام السجادة والكليم نادراً، ويكاد يقتصر على فرش سجادة فى «حجرة المسافرين»، أى الصالون، وربما سجادة أخرى تفرش فى الشتاء فى بعض الحجرات المهمة كحجرة أبى مثلا. وأما الخشب فلم يكن يستخدم على الإطلاق فى أرضيات منازل الطبقة الوسطى أو الدنيا، بل كان مقصوراً على منازل قليلة للغاية من منازل الطبقة العليا المتأثرة بأنماط المنازل الغربية. وعلى الرغم من أهمية هذه «المقشّاة» وجردل الماء وقطعة الخيش، وضرورة استخدامها باستمرار مع كثرة التراب فى مصر، لا تعلق بذهنى قط صورة أمى وهى تمسك بأى شىء من هذا، بل كانت هذه المهمة التى تحتاج إلى درجة لا يستهان بها من اللياقة البدنية، تلقى على عاتق الخدم، وعلى الإناث منهم بوجه خاص، الأمر الذى كان يخلق فرصا لا يستهان بها أيضا. للدلال أمام الذكور من أفراد العائلة، مما لا يمكن أن يتصور حدوثه بالطبع من المكنسة الكهربائية.

على أن أثر الكهرباء لم يقتصر على إحلال المكنسة الكهربائية محل الكنّاسة الآدمية. فكلما استدعت ذاكرتى كيف كانت حياتنا فى البيت فى طفولتى وصباى بالمقارنة بما آلت إليه حياتنا اليوم، راعنى كيف أدى دخول الكهرباء إلى جزء بعد آخر من أعمالنا اليومية، إلى قلب نمط حياتنا رأسا على عقب. فعلى سبيل المثال، كان «يوم الغسيل» يوما تشيع فيه الفوضى فى البيت بأكمله، سواء كان من يقوم بغسيل الملابس أمى أو غسالة آدمية مدفوعة الأجر. فالحمّام يصبح مغلقا بسبب حالة الطوارئ التى تستدعى استخدام «طشت» كبير للغسيل، واحتلال تلك المرأة المفرطة السمنة القائمة بالغسيل لما يقرب من نصف مساحته، ناهيك عن الضوضاء الناجمة عن صوتها العالى من ناحية ومن بابور الجاز الضرورى لتسخين الماء.. إلخ. كان من النادر أن يصل إلى سمعك صوت راديو (ناهيك عن التليفزيون) من

بيوت الجيران، ولكن كثيراً ما كنت تسمع أصواتهم ترتفع بالشجار أو النحيب. أدت قلة الأجهزة الكهربائية أيضًا، إلى شدة اعتماد الطبقة المتوسطة المصرية على الخدم، فالخدم فى كل مكان، رائحون غادون فى كل لحظة، يرسلون لشراء كمية تافهة من الخبز أو قطعة صغيرة من الجبن، ثم سرعان ما يبعث بهم مرة أخرى إذا كانت ربة البيت قد نسيت فى المرة الأولى أن تطلب أيضًا شراء ليمونة أو ليمونتين، إذ ليس بالبيت ثلاجة كهربائية تحفظ الأكل من العفن. وهم ذاهبون غادون أيضًا فى طريقهم إلى المكوجى أو عائدون منه، إذ لم يكن يعرف أحد بعد المكواة الكهربائية، أو ذاهبون إلى الفرن العمومى أو عائدون منه، حاملين صينية المكرونة أو البطاطس، إذ لم يكن بالبيت فرن خاص به يعمل بالكهرباء أو الغاز. أما لعب الأطفال التى تحتاج إلى الكهرباء، فلم نكن نعرفها أو نتصورها. كان لعبنا ولهونا، مثل كل شىء آخر فى حياتنا، «كثيف الاستخدام للعمل وقليل الاستخدام لرأس المال»، إذا استخدمت لغة الاقتصاديين. فكم لعبت بعلبة سجائر أبى بعد أن يلقى بها فارغة، وكم استخرجت أصواتا من ورقتها المفضضة الباهرة، بوضعها ملاصقة لشفتى وتحريكها مع النفخ فيها. فإذا كنا قد حرمنا فى طفولتنا من تلك السيارات الباهرة التى تسير بالبطاريات، أو من النماذج الرائعة للقطارات والقضبان.. إلخ، فقد كان لدينا لحسن الحظ متسع للعب فى الشوارع.

مع مرور الزمن حلت «الأجهزة» بمختلف أنواعها محل العمل الآدمى أو الاتصال الإنسانى المباشر. فقلل التليفزيون من الكلام وربما أيضًا من الشجار، وقضت الثلاجة الكهربائية على القلة والإبريق، كما كادت الثلاجة والغسالة والمكواة الكهربائية تغنى الناس عن الخدم وعن الغسّالة الآدمية والمكوجى. ولكن هذه الأشياء الكهربائية كلها، وإن كانت قد جعلت حياتنا اليومية أكثر نظافة وأقل عشوائية، فرضت على الجميع الحاجة إلى كسب المزيد من المال حتى يمكن اقتناؤها. وهكذا بدأ الحديث عن المال وطريقة توفيره أو زيادته، يزداد فى بيتنا مع مرور الزمن، مما كان يندر أن نسمعه فى طفولتى.

(٥)

الإخـــوة السبعـة

كان لدىّ دائمًا اعتقاد راسخ بأن الاختلافات الشاسعة بين شخصيات وميول إخوتى السبعة لابد أن يكون مرجعها، قبل كل شىء، عامل الوراثة. فها نحن نشأنا فى نفس البيت، وذهبنا إلى نفس النوع من المدارس، وقضى كل منا، فيما عدا إحدى شقيقتىّ وأخى أحمد، عدة سنوات فى أوروبا، فإذا بكل منا عالم مختلف تمامًا عن بقية الإخوة. قد يكون من الممكن اكتشاف علاقة القرابة بيننا من مقارنة شكل العينين أو حجم الأنف، أما الشخصية والميول فلا يشبه أحدنا الآخر فيها قيد أنملة.

كان أخى الأكبر (محمد) يكبرنى بسبعة عشر عامًا، وقد منع هذا الفارق الكبير بين عمرينا من أن تنمو بيننا أية صداقة حقيقية، وجعل التفاهم بيننا شديد الصعوبة، كما جعل معرفتى بطفولته وسنوات شبابه المبكرّ لا تعتمد على الخبرة المباشرة بل على ما سمعته من الآخرين. سمعت مثلا أن أبى كان أشد قسوة فى معاملته منه فى معاملة أى من الإخوة الآخرين، ظنا من أبى بأنه إذا صلح الابن الأكبر اقتدى به الآخرون. كما سمعت أنه تعرض للضرب من أبى بينما لم يضرب غيره. ولكن ما سمعته عن تصرفاته المبكرة يبدو لى الآن مما يستوجب الضرب حقًا.

كان طويل القامة ذا وسامة واضحة، إذ زال تمامًا ذلك الخطر الذى كان يقلق أبى وهو كبر حجم أنفه. كما لم يتحقق قط ما كان يقلق أبى عليه من وراثة قصر نظره، فقد تمتع محمد بقوة الإبصار ولم يحتج إلى نظارة طوال حياته. شديد الاعتزاز بكرامته، عنيف فى غضبه، قليل التسامح، وذو ميل قوّى للانتقام ممن يسىء إليه.

له خلق الإقطاعى المستبد، يعامل خدمه ومرءوسيه معاملة أقرب إلى معاملة السيد للعبد، ويخيف الجميع بهياجه وغضبه بل وبمجرد احتمال وقوع هذا الغضب.

لم يظهر لى منه ما يدل على ألمعية زائدة إلا فى الإدارة وعلى الأخص فيما يتعلق بإدارة أموره المالية. قضى سنوات دراسته طالبا عاديا لا يظهر تفوقا ملحوظا، رغم كل ما وجهه أبى من اهتمام لتعليمه وتنمية عقله، ولم يبد أن كان لحياة أبى فى نظره ما يغريه بتقليده أو اقتفاء أثره، بل كانت تصدر منه أحيانا عبارات توحى بأنه كان يعتقد أن أبى أضاع من فرص الكسب واعتلاء المناصب الكبيرة ما كان يعتبره محمد أجدر من قضاء الوقت فى قراءة وكتابة الكتب. لا أذكر أنى سمعته يتكلم عن كتاب قرأه أو مقال أعجب به. كان حلمه أن يصير مليونيرا، فإذا اختار كلية الهندسة فلاعتقاده بأنه بها أقرب إلى تحقيق هذا الحلم منه بغيرها، وإذا ذهب إلى أوروبا لتحضير الدكتوراه شغلته محاولاته الحصول على توكيل لإحدى شركات الإعلانات الإنجليزية ليورد إلى مصر وسائل الإعلان الأتوماتيكية الحديثة، وكان بالفعل من أول من أدخل إلى مصر ما تحفل به الفاترينات اليوم من إعلانات متحركة، كتمثال رجل ينحنى لك مرحبا، وأسماء المحلات المضيئة بالنيون والتى تخطف البصر بتتابع إضاءتها وإطفائها.

لم يكن من الغريب إذن أن تنشأ فجوة كبيرة بينه وبين أبى. فهما طرفا نقيض. لم يكن بقدرة أحدهما أن يستسيغ طريقة الآخر فى التفكير أو نظرته للحياة. كان كلام أبى فى الأدب يمرّ من أذن أخى محمد ليخرج من الأخرى دون أن يترك أى أثر. أما استهانة أبى بالمال وقلة احتفاله بجمعه فلم تكن تستدر من محمد أى إعجاب. وعندما تجمّع لدى محمد من المال ما يمكنه من شراء أرض واسعة فى المعادى وبناء فيللا فاخرة عليها، فضّل بناءها على جزء من الأرض على نحو لا يقلل من القيمة التجارية لبقية الأرض، ثم ملأ الفيللا بقطع الأثاث التى يمكن أن تزيد قيمتها مع الوقت، فأصبح بيته مخزنا هائلا للتحف الثمينة. لم تكن زيارته فى هذا البيت مهمة سهلة، فباب الحديقة باب حديدى شديد الارتفاع مقيد بالسلاسل التى تحتاج لمن يأتى من داخل البيت لفكّها، وتحرسه أربعة من الكلاب المخيفة التى تهب

مستعدة لالتهامك بمجرد اقترابك من الباب ، حتى يصيح فيها أحد الخدم لتهدئتها وليخفف من روعك . فإذا دخلت البيت راعك ظلامه الشديد ، حتى لو كانت الشمس ساطعة فى الخارج ، إذ وضعت ستائر ثقيلة على النوافذ لحماية الأثاث الثمين من الشمس . وفى طريقك إلى حجرة الجلوس يمكنك أن تلمح التحف الثمينة متراصة يمينًا ويسارًا ، ولكن الخادمة تقودك إلى حجرة مفروشة فرشًا بسيطًا للغاية لا يحتوى من الأثاث إلا ما قلّ ثمنه بحيث لا يبالى أصحاب البيت بما يحدث له . هنا يقضى أصحاب البيت يومهم تاركين بقية البيت بأثاثه الفاخر قابعًا فى الظلام ، لا يراه أحد ولا يلمسه أحد إلا فى مناسبة أو مناسبتين خلال العام ، كتزويج بنت أو استقبال وزير .

من المؤكد أن حب أمى لابنها الأكبر لم يكن يعادله حبها لأى من أولادها الآخرين ، أو لأى من البنتين ، ولم تكن تتورع عن أن تظهر هذا للجميع . ربما كانت تدرك بفطرتها من البداية أنه ، بميوله واستعداداته الطبيعية ، ينتمى إلى معسكرها هى لا إلى معسكر أبى . كان يسيطر عليها شعور دفين بحاجتها إلى «الحماية» من أبى ، إذ كانت تشعر بنوع من الخوف المستمر منه ، ولم تطمئن قط إلى دوام تمسكه بها . وقد أظهر محمد من البداية أنه ، إذا حدث ما يدفعه إلى الاختيار ، فسوف يختار الوقوف إلى جانبها هى . كان وجهها يتهلل لدخوله البيت كما لا يتهلل لأى واحد منا ، وكانت تعتز بهدية منه اعتزازا لا تظهر مثله لأى ابن آخر أو بنت أخرى لها . على أن هذا الحب العظيم أصابها بصدمتين كبيرتين .

كانت الصدمة الأولى عندما دخل عليها أبى يوما معلنًا أنه استطاع أن يحصل لمحمد على بعثة حكومية لتحضير الدكتوراه فى إنجلترا . وقع عليها الخبر وقع الصاعقة وأصابها همٌّ عظيم : فها هو الزوج المستبد يفرّق بينها وبين ابنها المفضّل ويرسله إلى بلاد البرد القاتل ، وكأنه يتعمد إيذاءها وتجريدها من وسيلتها الوحيدة للتصدى لجبروته . منذ أن عرفت أمى الخبر تتابع عليها مرض بعد آخر ، وتعوّدنا أن نرى ونسمع بكاءها ونحيبها لدى وقوع أى حادث مهما كان صغيرًا ، أو لدى رؤيتها لفيلم تمثّل فيه أمينة رزق دور الأم التى فرّقت الأيام بينها وبين ابنها .

كنا نستيقظ ليلا مذعورين إذ نجدها قد قامت من نومها تصيح وتنتحب أثر كابوس يدور حول فراقها القريب لابنها، ويحاول أبي تهدئتها قائلا إن سفر محمد شيء المفروض أن نفرح له ونبتهج به، وأنه لا يجوز لها أن تقف عقبة في طريق تقدمه. فيكون ردّها أن بإمكانه أن يرسل كل أولادها الآخرين إلى الخارج إذا شاء، بشرط أن يترك لها هذا الابن المفضّل.

وإذ لم تستطع أمي إقناع أبي بالعدول عن رأيه لجأت إلى الحيلة. كانت تعرف مكانة طه حسين ونفوذه في وزارة المعارف، وأنه هو الذي ساعد أبي في الحصول لابنه على البعثة، فإذا بها تتصل بطه حسين تليفونيا من وراء ظهر أبي، وتصف له بؤسها وعذابها منذ سمعت الخبر، فيظهر طه حسين أولا عجبه ثم يلين لها قلبه ويقول لها جملة يرتاح لها قلبها ونظل ترددها علينا وكأنها الطلسم الذي سيضع حداً نهائيا لعذابها. لقد قال لها الرجل باللغة العربية الفصحى: «كوني واثقة أنه لن يسافر حتى يأتي الأذن منك». ووصلت القصة لأبي عن طريق طه حسين نفسه فاستشاط غضبا، وحاول أن يبدد مخاوف طه حسين بما ذكره له عن «جهل أمي وحماقتها». ومع ذلك ظلت أمي مطمئنة إلى وعد الرجل بضرورة حصوله على إذنها، وتردد عبارة «كوني واثقة» لتأكيد حصولها على ما أرادت، حتى رأت ابنها يستقل القطار في طريقه إلى إنجلترا، بعد أن أجبرها أبي على الاتصال بطه حسين لتقول له إنها توافق الآن على سفره.

وجاءت الصدمة الثانية بعد عودة الابن من البعثة، وقد حصل على الدكتوراه، بسنتين أو ثلاث، حينما أعلن لها عزمه على الزواج. كان الأرجح أن زواج محمد من أي امرأة، ولو كانت هي التي اختارتها له، سيسبب لها من البؤس مثل ما سببه لها السفر، ومن ثم لم يكن هناك أي أمل في أن تحظى الزوجة المختارة برضاها. كانت العروس المختارة امرأة محنكّة قوية الشخصية سمعت أمي أنها تزوجت من قبل وطلقت مرتين، وأن محمداً هو زوجها الثالث. لم يبد الأمر مفهوما لها على الإطلاق. فمحمد بدا لها، وكأنه يستطيع أن يتزوج من أفضل بنات البلد، أسرة وطباعًا وجمالا ومالاً. وكانت له أثناء إقامته بالخارج، صديقات إنجليزيات

وسويسريات وسويديات رائعات الجمال، طمعن كلهن فى الزواج منه. وقد حاولت أمى إقناعه بالتقدم لخطبة ابنة صديقتها «هدية»، الأرستقراطية المتعلمة والثرية، فرفض محمد لعذر تافه اختلقه اختلاقًا، ثم إذا به يختار امرأة من أسرة اعتبرتها أمى أسرة عادية، متوسطة الجمال، لا يعرف عنها ثراء أو جاه، كما سبق لها الزواج والطلاق. كان موقف أبى فى مثل هذه الأمور موقفا عقلانيا تمامًا، فهو يقرّ فى داخل نفسه بحق ابنه فى اختيار من يشاء زوجة له، فإذا أصابته خيبة الأمل رأى من الواجب ألاّ يظهرها. قد يحاول إثناء عزم ابنه برفق ودون إلحاح، فإذا رأى تصميما من الابن لم يعاود الكرّة مرة أخرى. أما أمى فقد أعلنت الحرب على الزوجة، فرفضت زيارة عائلتها، ولم تستقبلها فى بيتها إلا مضطرة، ثم انسحبت انسحابًا تامًا من حياة ابنها بعد زواجه، وقعدت تجترّ أحزانها وخيبة أملها. وتكرر الأمر عندما طلق محمد زوجته وتزوّج بأخرى، إذ لم تحظ الزوجة الجديدة من أمى بمعاملة أفضل مما حظيت به الأولى.

* * *

ولد أخى عبد الحميد بعد أخى الأكبر بثمانية أعوام، رُزِق خلالها والدى بأربعة أطفال لم يعش منهم إلا بنتان، ومات الآخران فى المهد. كان المتوقع إذن أن يحتلّ هذا الذكر الذى مدّ الله فى عمره مكانة خاصة لدى أبى وأمى، ولكنى لا أذكر شيئا يدل على ذلك، بل يسترعى انتباهى بوجه خاص قلة احتفال والدتى به بالمقارنة بشعورها نحو الابن الأكبر. فما أذكره هو مقارنة متكررة تعقدها أمى بين الولدين تنتهى منها دائما إلى تفضيل الأكبر، ولا تتورع عن أن تسمع عبد الحميد رأيها. كان عبد الحميد فى نظرها، على ما يبدو، ينتمى إلى معسكر أبى، له نفس حسّه الخلقى القوى، وقلة اهتمامه بكل ما يتعلق بالمال وأمور الحياة اليومية. كان منذ طفولته «رجل فكر»، بينما كان محمد «رجل عمل». ولابد أن والدىَّ قد لاحظا ذلك منذ البداية، فمال إليه قلب الأب دون أن يسمح لنفسه بأن يعلن تفضيله له، بينما مال قلب الأم إلى الابن الأكبر وأطلقت لنفسها العنان فى الإفصاح عما تشعر به.

لم يبد عبد الحميد لأمى الشخص المؤهل لحمايتها من أبى، فهو هادئ الطبع،

بطىء الاستجابة لمشاعر الغضب، ميال للتروّى فى العواقب، وهو على كل حال يحمل تقديرا فائقا لقدرات أبى الفكرية والخلقية، ويميل ميل أبى إلى الكتب ويستهويه نفس ما يستهوى أبى من معضلات إنسانية وأخلاقية، مما لا تفهمه أمى أو تصبر عليه. كان بعكس الأخ الأكبر يأخذ دراسته مأخذ الجد، ويصيبه القلق الشديد لدى اقتراب موعد الامتحان. وهو صادق بطبعه وذو إحساس فنى قوىّ، يجيد الرسم ويتحمس للقصة الجيدة والنكتة الذكية، وله قدرة ملحوظة على رواية ما يقرأ من قصص بطريقة شائقة تأخذ بألبابنا، وعلى رواية النكتة على نحو ننفجر له ضاحكين.

دخل عبد الحميد كلية الهندسة مقتفيا خطوات أخيه الأكبر، فتفوّق فيها حيث لم ينجح الآخر إلا بصعوبة. وإذ سافر الاثنان إلى إنجلترا للحصول على الدكتوراه، حاز عبد الحميد بذكائه واجتهاده تقدير أستاذه الإنجليزى وإعجابه، بينما لم يحصل الآخر على مثل هذا التقدير والإعجاب. وبينما قضى الأخ الأكبر وقته فى الخارج يبحث عن توكيلات تجلب له الربح بعد عودته، انغمس عبد الحميد، إلى جانب دراسته، فى نشاط سياسى أدىّ به مرة إلى إلقاء خطبة فى النادى الثقافى المصرى فى لندن نادى فيها بسقوط الملك فاروق، وكادت تؤدى إلى اعتقاله لدى وصوله إلى ميناء الإسكندرية، لولا أن قامت ثورة ٢٣ يوليو وهو على ظهر الباخرة فى عرض البحر. وبينما كان محمد يبدّل عشيقاته الأوروبيات دون أن نعرف له قط صديقة ثابتة أو غراما جامحا، وقع عبد الحميد فى حب فتاة نمساوية طيبة القلب أخلص لها طوال إقامته بإنجلترا وعاد متزوجا بها إلى مصر.

عاد الاثنان ليبدآ التدريس فى كلية الهندسة بمصر، ولكن سرعان ما ترك محمد الجامعة ليتولى وظيفة أعلى مرتبا وأقوى نفوذا فى مؤسسة جديدة أنشأها عبد الناصر للنهوض بالصناعة هى «مركز الكفاية الإنتاجية»، وتعد بالترقى السريع فى المرتب والمركز، بينما ظل عبد الحميد أستاذا بالجامعة، يعشقه تلاميذه عشقا ويقضى أمسياته فى مركز للبحوث، وقد أصبح فيه صاحب مدرسة صغيرة يتابع فيها البحث فى موضوعات مبتكرة ويتصل ببعض الأساتذة العالميين فى فرعه، ممن يأتون للمساهمة فى جهود عبد الناصر لإحداث نهضة علمية وصناعية فى مصر.

عندما أعلن عن إنشاء تلك المؤسسة الجديدة (مركز الكفاية الإنتاجية) وعن وظائف جديدة بها يشغلها بعض حاملي الدكتوراه في الهندسة، تقدم محمد وعبد الحميد بطلب التعيين بها، ففاز محمد بالوظيفة ورُفض عبد الحميد. كان واضحا أن محمدا هو الأكثر تصميمًا والأشد حرصًا على ترك الجامعة التي لم تستهوه كثيرا، ولم يحقق فيها نجاحا يذكر. كما أن المسئولين عن الاختيار لابد أن وجدوا في جرأة محمد واعتزازه برأيه ما يعد بقدرات إدارية عالية بينما رأوا في عبد الحميد عالما وباحثا لا يصلح للإدارة.

استمر نجاح الأخ الأكبر في الترقية من وظيفة إلى وظيفة أكبر، حتى أصبح في سنوات قليلة وكيلا لوزارة الصناعة، وفي تنمية ثروته فبنى بيتا بعد آخر. واشترى شقة بعد أخرى، بينما ظل عبد الحميد بجنيهاته المعدودة التي يحصل عليها من الجامعة، لا يكاد يستطيع الحصول على الضروريات، ولا يستطيع أن يضيف إليها إلا بشق الأنفس، بترجمة كتاب لمؤسسة فرانكلين في مقابل خمسين جنيها، أو بتأليف كتاب مبسّط في الذرة لسلسلة الألف كتاب ويحصل به على جائزة لا تزيد على مائة جنيه.

* * *

كيف لا يكون عامل الوراثة هو المسئول عن ذلك الفارق الشاسع بين شخصيتي أختيّ: فاطمة ونعيمة؟ إن الأولى لا تكبر الثانية بأكثر من عامين، ومن ثم فقد واجهتا ظروفا عائلية تكاد تكون متطابقة، ومع ذلك فهما تبدوان وكأنهما تنتميان إلى عالمين مختلفين، ولا يمكن لمن لا يعرف أنهما أختان أن يخمّن أنهما كذلك، إذا شاهد سلوكهما وميولهما ونظرة كل منهما إلى الحياة.

كانت فاطمة دائما تنتمي من قمة رأسها إلى أخمص قدميها إلى «العالم الحديث أو المتقدم»، ونعيمة إلى «العالم القديم أو التقليدي». فمنذ أن بلغت فاطمة الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها وهي تبدي مظاهر التمرد على السلطة الأبوية وتطالب بحريتها وتحاول اكتشاف المجهول، وأن تتعلم الجديد وأن ترى العالم. وهي مغامرة ومقامرة ولا حد لطموحاتها. تحب الثراء ولكن كوسيلة للحياة الطيبة:

البيت الجميل، والطعام الجيد، والثياب الأنيقة. تجيد الإنجليزية ولها معرفة لا بأس بها بالفرنسية، وتواظب على قراءة الصحف الأسبوعية الإنجليزية، وتتابع من خلالها تطورات السياسة فى العالم. وهى وإن كانت لا تبالى بما إذا كان رئيس الوزراء المصرى على صبرى أو زكريا محيى الدين فإنها تعرف أدق تفاصيل السياسة الإنجليزية وخصوصيات أسرتها المالكة. وإذا كانت لا تبالى بالتمييز بين نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم فإنها تعرف أدق تفاصيل العلاقة بين سارتر وسيمون دى بوفوار، وتقرأ لتولستوى وتعشق دستويفسكى عشقا، وتستطيع أن تقص عليك تفاصيل «أنا كارنينا» أو الإخوة «كارامازوف» التى تعود إلى قراءتها المرة بعد المرة، وأن تقدم لك تحليلا بديعا لشخصية كل بطل من أبطالها.

رغم كل ذلك، فإن علاقة أختى فاطمة بأبى لم تكن طيبة فى أى يوم من الأيام. لا أستطيع أن أفسر ذلك إلا بحدّة طبعها ومزاجها الثورى الذى كان من الصعب على أبى أن يقبله فى أحد أبنائه الذكور، فما بالك إذا وجده فى بنت من بناته؟ كانت فاطمة بلا شك، منذ طفولتها، إحدى منغّصات حياته، فهى دائمة الثورة على سلطته وعلى تدخله فى حياتها، سواء تعلق الأمر بما ترتديه من ثياب أو باختيار من تتزوجه. حار الرجل فى أمرها حتى اهتدى إلى حلّ يريح به نفسه وقد يؤدى، كما كان يظن، إلى تهذيب طباعها. فأرسلها إلى مدرسة ثانوية داخلية بحلوان، وهو تصرف غريب من أب مصرى، يقيم فى مصر. ويبدو أن غرابة هذا التصرف، وإبعادها فى هذه السن عن الأسرة، قد زاد عما كانت تشعر به من غضب على أبى، وهو غضب لازمها طول حياتها. فهى وإن كانت تذكر أمى دائمًا بحب، لا تكاد تنبس بحرف عن أبى.

أظهرت البنت تفوقًا وذكاء فى دراستها الثانوية، كما أظهرت من الجرأة والشجاعة ما جعل أبى يستجيب لرغبتها فى أن تذهب لإكمال دراستها فى فرنسا، وهى لم تتجاوز الثامنة عشرة، فى بعثة حكومية لبعض الفتيات المصريات تحت إشراف سهير القلماوى، على أنها سرعان ما عادت بعد بضعة شهور قضتها فى باريس بسبب قيام الحرب العالمية فى ١٩٣٩.

عادت فاطمة إلى التنغيص على أبى برفضها الزواج من ابن عمتى . كان أبى يستعجل تزويج بنتيه ، ولم يبد منه التروى الواجب ممن كان له مثل ثقافته وسعة أفقه ، فى اختيار زوجيهما . كان تبريره الوحيد للموافقة على تزويجها من ابن عمتها أنه «يعرفه معرفته لشخص عار أمامه» ، قاصدا أن مجرد كونه ابنا لأخته ومعرفته لكل شىء عنه يجعل الزواج مأمون العواقب ، أما أمور الحب أو عدمه فلم تكن مما يأخذه مأخذ الجدّ . الأغرب من ذلك أن العريس المرفوض لم يتورع عن التقدم لطلب يد البنت الصغرى بعد أن رفضته أختها ، وأن أبى قبل منه ذلك ، وأن الأخت الصغرى قبلته بدورها .

كانت نعيمة فى ذلك الوقت فى السابعة عشرة من عمرها ، فلعلها بقبول هذا الزواج لم تكن تدرى بالضبط ما تفعل ، كما أنها لم تكن تجد متعة كبيرة فى الدراسة ، فرحبت بهذه الفرصة للخروج من المدرسة إلى الأبد وقبل أن تتم دراستها الثانوية ، ولعلها تطلعت إلى ما يصحب الزواج عادة من هدايا وبعض المجوهرات . أما فاطمة فقد انتظرت أن يتقدم لها عريس آخر مناسب ، تحبه ويحبها ، فلم تظفر به حتى بدأ يصيبها القلق من أن يفوتها القطار ، واضطرت إلى قبول عريس آخر أكثر اتصالا بالعالم الحديث من ابن عمتها ، ولكن قلبها لم يهتز له أكثر مما اهتز للآخر . كان العريس الجديد وسيما سخيا ، رقيق المشاعر ومحبا للثقافة ويطمح فى أن يكون له مستقبل فى الأدب وكتابة الشعر ، ولكنه كان بعيدا كل البعد عن فارس الأحلام الذى كانت تنتظره فاطمة ، والذى لا يوجد إلا فى الكتب أو الأفلام . كما أخطأ الرجل خطأ جسيما يستحيل إصلاحه عندما بدرت منه عبارة مؤداها أنه جاء «ليتزوج لا من فاطمة بل من أحمد أمين» ، وسمعت الفتاة عن تفوهه بهذه العبارة ، ولم تكن هى من النوع الذى يمكن أن يغفرها له قط .

تزوجت فاطمة إذن من رجل كان يشعر بالحب ، لا نحوها هى ولكن نحو أبيها ، وتزوجت نعيمة من ابن عمتها الذى لم يكن يهمه كثيراً ما إذا تزوج من هذه البنت أو أختها . وقد كتب أبى عن هذين الزواجين فى كتابه «حياتى» أنه زوّج بنتيه «زواجا بقدر الإمكان سعيدًا» ، وهو وصف أعتبره بالغ التهذيب لحالة كلا الزواجين . فأنا لا

أكاد أذكر الشقيقة الصغرى إلا وهى تشكو من زوجها، وما أكثر المرات التى سمعت فيها زوج أختى الكبرى وهو يشكوها إلى أبى. ومع هذا وذاك فلم ينته أى من الزواجين بالطلاق، ولعل السبب الوحيد لذلك هو خوف كل من الزوجين والأختين من أبى الذى لم يكن يتصور سماع كلمة «الطلاق»، خاصة إذا تعلق بإحدى بنتيه.

توفيت أختى نعيمة فى سن مبكرة نسبيا، إذ لم تبلغ الثالثة والستين، وتركت وراءها ثروة لا بأس بها. وأما فاطمة فعاشت حتى الخامسة والثمانين وماتت وهى لا تملك شيئا غير وديعة فى البنك كانت تعيش على ما تدره من فوائد ولا تملك حتى الشقة التى تسكنها. عاشت دائما عيشة أرستقراطية، تسكن أجمل شقة، وترتدى أفخر الثياب، ولا تأكل إلا أفضل الطعام، وتقضى جزءاً من كل صيف فى أفخر الفنادق. كانت نعيمة كثيرا ما تعبر عن ضيقها من قلة مالها أو من ارتفاع الأسعار، أما فاطمة فظلت دائما مبتهجة وراضية عن الحياة، وظلت حتى أيامها الأخيرة تطلق الضحكات المستبشرة بالحياة، وتلمع عيناها بسرور كلما ذكر أحد أمامها هذه القصة أو تلك من قصص دستويفسكى.

* * *

لابد أن أخى أحمد قد احتار حيرة بالغة إذ وجد نفسه فى ذلك المركز الحرج فى وسط هذا الجيش الضخم من الأولاد والبنات. لقد وجد نفسه فى مركز لا يسمح له بالتفاخر على الآخرين، ولا يتيح له ما يمكن أن يستخدمه فى زيادة قوته فى المساومة مع أبيه أو أمه أو سائر إخوته. فهو ليس أكبر الإخوة حتى يتمتع مثلما كان يتمتع أخى محمد بانحياز والدتى إليه وتفضيلها له على كل من عداه، أو باهتمام أبى، ولو بالشدة الزائدة، حتى يصلح حاله فينصلح حال الجميع. وهو ليس أصغر الأولاد طرّاً مثلى مما يمكّنه، على الأقل نظريا، من أن يطالب برعاية خاصة. كان لابد لأحمد أن يجد حلا لهذه المشكلة، إذ إن الحياة بدون هذا الحلّ لا يمكن أن تطاق. عثر أحمد على الحلّ الذى يبحث عنه فى أن يبنى لنفسه عالماً خاصا فى استقلال شبه تام عن العائلة. ويتكون هذا العالم الخاص من بعض الأصدقاء من

المدرسة أو من الجيران، فأصبح يقضى كل وقته معهم، لا يأتى إلى البيت إلا لالتهام لقمة سريعة يجرى بعدها إلى أصدقائه بأى حجة من الحجج. هكذا لم نكن نرى أحمد إلا لماما ولم نعتبره عضوا عاملا فى أسرتنا، بل عضوا منتسبا. فهو لا يسمع أخبار العائلة، ولا حتى المهم منها، إلا بعد أيام أو أسابيع، ولا يشاركها أفراحها أو أتراحها، بل له أفراحه وأتراحه الخاصة التى لا يتكلم عنها معنا. فإذا اضطر إلى الجلوس معنا جلس صامتا، وبدا دائما مشغول البال بشىء آخر لا ندرى كنهه ولم نعد نرى جدوى من سؤاله عنه.

لم يكن من الممكن لأحمد، مع ذلك، أن يستغنى عن العائلة استغناء تامًا، فهو لابد أن يحتاج من حين لآخر إلى شراء بدلة جديدة مثلا، بل هو أكثر حاجة منا إلى ذلك بسبب ما يراه من ملابس فاخرة لدى أصدقائه الذين يتكون منهم عالمه الأساسى. وهو يرغب فى استعمال سيارة أبى ولو مرة فى كل شهر، لكيلا يشعر بالحرج أمام هؤلاء الأصدقاء. كان أبى كما سبق أن أشرت، لا يستسيغ بالمرة تبديل الملابس بهذه السرعة، كما أنه لا يستطيع أن يفهم بالمرة ما حاجة صبى أو شاب صغير فى سن أحمد إلى سيارة وهو الذى لم يركب سيارة خاصة قط قبل سن الخمسين؟

لجأ أحمد إلى الحيلة وكانت حيله تتخذ أحيانا صورا طريفة للغاية، ومع ذلك كانت تنطلى على أبى فيصدقه ويقع فى الشرك الذى نصبه له أحمد. فعلى سبيل المثال عندما رفض أبى أن يعطى أحمد المال اللازم لشراء بدلة جديدة، وكان أحمد فى سنته الأولى أو الثانية بالجامعة، بكى أحمد بكاء مرًا فلم ينفع هذا فى استدرار المبلغ المطلوب من جيب أبى، فإذا بأحمد يتفق مع أحد أصدقائه على أن يذهب إلى أبى متظاهرا بالجزع الشديد لينبئه بأن أحمد حاول الانتحار بإلقاء نفسه من فوق الهرم الأكبر، ولكنهم أنقذوه فى اللحظة الأخيرة. وكانت النتيجة أن حصل أحمد على البدلة.

بمرور الزمن اكتسب أحمد قدرات ومهارات جديدة جعلته محل أنظارنا جميعا واكتسب بها تقدير الجميع واحترامهم. ذلك أنه بعد أن حقق مركزا مرموقا فى

إحدى الوزارات وأصبح لديه من المال ما يفوق ما لغيره من الإخوة باستثناء الأخ الأكبر، اشتهر أحمد بين أفراد العائلة بقدرته على تحقيق أى رغبة لأى فرد منا باستخدام نفوذه، واتصالاته الواسعة، واستعداد الكثيرين لخدمته بسبب هذا المنصب أو بسبب علاقاته الاجتماعية الكثيرة والحميمة، مع استعداد مخلص لديه لتقديم أى مساعدة لمن يحتاجها من أفراد العائلة. كان أحمد هو الملجأ الذى نلجأ إليه إذا احتاج أى منا لشراء تذكرة طائرة أرخص من التذاكر المتاحة للجميع، أو لحجز حجرة فى فندق يظن الجميع أن كل حجراته محجوزة، أو للحصول على موعد مع طبيب شهير بمجرد إبداء الرغبة فى ذلك، بينما يكون أول موعد متاح لبقية الناس بعد شهر أو أكثر، فضلا عن تعيين صديق فى وظيفة، أو تصريح باستيراد سيارة لا يحصل على مثله إلا علية القوم.. إلخ. كنا جميعًا، باستثناء أحمد، عاجزين عن الإتيان بمثل هذه المعجزات، إذ لم نكن نعرف مثل أحمد هذا العدد الغفير من الشخصيات ذات النفوذ.

* * *

كان موقع أخى حافظ فى العائلة قريبا من موقع أحمد، لا يجلب لصاحبه أى ميزة، فلا هو فى أعلى السلم ولا فى أسفله، وقد اختار حافظ مسلك الناسك المتصوف والزاهد فى ماديات الحياة، وظل مخلصا لهذا الاختيار طول حياته، فلم يظهر منه أنه يفعل شيئا ضد طبعه، ولا أعرف أنه فعل فى الخفاء شيئا يخالف ما يفعله فى العلن.

كانت كل اختيارات حافظ مجردة عن اعتبارات الثراء أو السلطة أو النفوذ أو المظهر الاجتماعى، سواء كان الأمر يتعلق باختيار وظيفة أو صديق أو زوجة أو يتعلق بطريقة تربيته لأولاده، أو باقتناء سيارة أو تأثيث بيت.. إلخ. كان المهم دائما فى نظره هو رضاه عن نفسه، أو راحته وراحة أسرته، أو أثر هذا الاختيار أو ذاك على صحته، أو ما يسمى بوجه عام «راحة البال». كان يشعر باحتقار حقيقى لكل شخص ينكب على جمع المال، أو يسافر إلى بلد عربى لزيادة ثروته، أو لمن ينفق الآلاف المؤلفة من الجنيهات لشراء سيارة كان يمكن أن يستغنى عنها بسيارة أصغر

وأرخص أو حتى بالمشى، أو من يرسل أولاده إلى مدرسة باهظة التكاليف ولا تقدم تعليما أفضل مما تقدمه مدرسة حكومية مجانية، أو من يذهب للتصييف فى أوروبا حينما يكون التصييف فى جمصة أو رأس البر يتيح له نفس الدرجة من الراحة والتغيير بعشر التكاليف، أو من يأخذ أسرته للغداء فى مطعم يستولى على نقوده دون أن يشبع جوعه، بينما كان من الممكن أن يستغنى عن ذلك ببضعة سندوتشات تعدها زوجته بقروش قليلة ويجلسان لتناولها فى يوم مشمس فى سفح الهرم.

كان ينطبق عليه، ربما أكثر مما ينطبق على أى شخص آخر عرفته عن قرب، «تفضيل الأفعال على الأسماء» أى تفضيل ممارسة نشاط أو القيام بعمل، على اقتناء شىء أو حيازة سلعة. ومن ثم كان يبدو لى دائما أنه أخفّنا جميعًا حركة وأكثرنا نشاطاً، إذ لا يثقل كاهله ما يملكه من سلع ولا يقيد من حركته رأى الناس فيما يفعله. من بين هذه «الأفعال» كان أكثر ما يجلب له السرور والرضا عن نفسه تأليف المسرحيات. وربما كان هذا هو الشىء الوحيد الذى كان حريصا على أن يحصل فيه على رضا الناس عنه واعترافهم به. وكان يتمتع بالفعل بالقدرة على كتابة حوار مقنع ومؤثر، وأن يحوّل القصّ السردى لأى حادثة إلى حوار جذّاب. وما أكثر ما كتب من مسرحيات، قصيرة وطويلة، مؤلفة ومترجمة، وما أكثر ما أرسل منها لهذه الفرقة المسرحية أو تلك، المشهور منها والمغمور، القومى والمحلى، ولمحطات الإذاعة والتليفزيون. وكان إلحاحه ومثابرته فى هذا مما يستحق الإعجاب حقا، إذ لم يكن ليصدّه أى رفض أو نقد عن هدفه وعن إعادة المحاولة من جديد. فإذا طلب منه إجراء تعديل على مسرحية كتبها، عكف على إجرائه مهما كان التعديل جذريا وشاملا، حتى يظفر بالموافقة على تمثيلها. ومع كل هذا فما أقل ما حظى به من نجاح فى هذا الصدد. نعم مُثلت له بعض المسرحيات المترجمة، وقامت بعض الفرق المحلية الصغيرة بتمثيل مسرحية قصيرة له أو مسرحيتين، وعرفه واستمع له بعض المخرجين الكبار، ولكنه لم يظفر منهم بمساعدة ذات شأن، وظل إلى أن مات لا يعرفه ككاتب مسرحى إلا عدد صغير جداً من الناس، عدا أفراد أسرته.

مع تكرار عجزه عن تحقيق النجاح الجماهيرى الذى كان يعتقد اعتقاداً جازماً أنه يستحقه ككاتب مسرحى، أصيب بخيبة أمل شديدة زادت قوتها مع مرور الزمن، وجعلت حديثه لا يكاد يدور، فى سنواته الأخيرة، إلا حول هذا الموضوع: إما أن يشيد بقدراته ككاتب مسرحى إشادة فيها مبالغة غير مقبولة، أو ينتقد الكُتّاب المسرحيين الناجحين انتقادات فيها أيضا قسوة غير مقبولة، فضلا عن أن الدافع إلى هذه القسوة كان واضحًا للجميع. وقد زاد الميل إلى الفخر بنفسه وإلى توجيه سهام النقد إلى الناجحين فى هذا الميدان الذى كان يتمنى النجاح فيه دون جدوى، إلى درجة كانت تبعث أحيانا على السأم. ولابد أن صدرت منى، مرة أو مرتين، خلال السنوات الأخيرة من حياته، عبارة أثرت فى نفسه تأثيراً بالغًا، قلتها بشكل عفوى وندمت عليها بمجرد أن تفوهت بها، وتحمل معنى شعورى بالملل من كثرة ما يردده من فخر بنفسه ونقد للآخرين. سكت وقتها بضع لحظات ثم عاد إلى ما كان يقوله ولكن بعصبية واضحة لم تستطع إخفاء أثر عبارتى فى نفسه. لا أزال أشعر بوخز الضمير حتى الآن كلما تذكرت هذه الواقعة، ولكنى أقول لنفسى أحيانًا إنه ربما لم يكن هناك مفرّ من أن يحدث شىء كهذا فى يوم من الأيام.

* * *

حسين هو الأخ الذى يكبرنى مباشرة، يكبرنى بعامين ونصف، وهو بلا شك أكبر إخوتى أثرا فىّ. كان يتسم بصفة لا يشترك معه فيها أى طفل آخر من أطفال العائلة، ذكراً كان أو أنثى، وأحار فى تفسيرها، مما يجعلنى أستسلم فى النهاية لهذا التفسير الوحيد الباقى (إن كان هذا تفسيرا على الإطلاق)، وهو أنه قد ولد بها وأنها من بين خصائص جيناته الموروثة. أقصد بها ذلك الميل البالغ القوة للاعتقاد بأنه شخص فريد من نوعه، لم يأت أحد مثله من قبل، ولن يأتى أحد مثله فى المستقبل.

كان يأتينا بين الحين والآخر بنبأ أنه قرر من هو الشخص الذى سوف يتخذه مثلا أعلى لنفسه. وكان هذا الإعلان يتكرر بكثرة، ولكن الأهم من ذلك نوع الأشخاص الذين كان يختارهم كمثل أعلى له. فكلهم من النوع الذى يمكن أن

يرشح للقب «أعظم الناس، أو أقوى الناس، أو أشدهم نفوذًا، أو أبعدهم أثرًا». فالمثل الأعلى هو تارة نابليون، هذا القائد العسكرى الأعظم، وهو أحيانا كارل ماركس، ذلك الثورى العظيم صاحب اللحية الكثيفة، وهو أحيانا تولستوى، ذلك الكاتب العبقرى الذى يمكن اعتباره بسهولة أعظم الكتاب الروس، وهو أيضًا صاحب اللحية البيضاء الكثيفة والطويلة. لاحظ التفاوت الكبير بين هؤلاء العظماء الثلاثة فى مجال العبقرية ومضمون الرسالة، فبعضهم يكاد يكون الطرف المناقض تمامًا للبعض الآخر. ولكن هذا لا يهم بالطبع، المهم أن كلا منهم يمكن ترشيحه للحصول على هذا اللقب العظيم. لم يكن غريبا إذن ولع أخى حسين بالممثل المصرى العظيم يوسف وهبى، الذى كان يهوى القيام بتمثيل شخصيات معينة من نوع راسبوتين أو الحاكم بأمر الله، بل كثيرًا ما كان يحوّل الشخصية العادية إلى شخصية من هذا النوع.

كان المطلوب منا جميعا، كلما أعلن حسين عن تغييره لمثله الأعلى، أن نوافقه على أن المثل الأعلى الحالى، هو بالفعل أعظم الناس طرًا، وحتى إشعار آخر. وكان أى اعتراض أو تحفظ من جانب أحدنا بالقول بأن هذا الزعيم المختار ليس خاليا تماماً من العيوب، لا يقابل من جانب حسين إلا بالاحتقار، دون أن يبالى حتى بالرد على ما نقول، ومن ثم لم تكن هناك جدوى تذكر من إبداء الاعتراض أو التحفظ.

كانت وسيلة حسين لإثبات أنه أعظم الناس تحصيل أكبر قدر من الثقافة. وقد نجح بالفعل فى تحصيل قدر من الثقافة يتجاوز بمسافة شاسعة ما حصّله أى أخ أو أخت، بل ومعظم من عرفت من المثقفين المصريين. وقد اقترنت هذه الثقافة الواسعة بموهبة حقيقية لديه فى الكتابة والتعبير عن النفس، وبسلاسة وجاذبية نادرين، جعلا أبى يعلق عليه آمالا فى أن يخلفه ككاتب وأديب أكثر مما علقه على أى ولد آخر من أولاده، وإن لم يكتم أبى ما كان يعتريه من خوف من أن يجابه حسين فى حياته الكثير من الصعاب من جراء اعتداده المفرط بنفسه.

مما أذكره من تصرفات حسين المدهشة ونحن أطفال، ما حدث عندما أخذنا أبى ـ

نحن الإخوة الثلاثة : أنا وحسين وأحمد وأعمارنا تتراوح بين السادسة والعاشرة ـ إلى طبيب الأنف والأذن والحنجرة فى عيادته لاستئصال اللوز . كان المطلوب عمله أمراً كريهًا جداً ومخيفا للغاية بالنسبة لنا نحن الأطفال الثلاثة ، ولكن دخل أكبرنا ، أحمد ، فى البداية دون اعتراض ، فاستئصلت لوزه ، وجاء دور حسين فرفض رفضا باتا أن تجرى له العملية ، غير متصوّر ، فيما يظهر ، أن يجرى عليه ما يجرى على الآخرين ، وأخذ يجرى من حجرة لأخرى من حجرات العيادة ووراءه الطبيب والممرّض يحاولان الإمساك به وهو يصيح بصوت عال سمعه كل من فى العمارة «أنا قلت مش حاعمل عملية اللوز ، والله العظيم ما أنا عاملها ، شوف والله العظيم يعنى إيه؟» وقد صارت هذه العبارة من العبارات المأثورة بين أفراد الأسرة ، نعيد ذكرها ضاحكين كلما دار الحديث حول حسين وشخصيته . لم يرضخ أبى بالطبع للأمر وأجريت العملية للجميع ، وإن كان قد اضطر أن يعيد ترتيبنا ، فدخلت أنا كالحمل الوديع بعد أخى أحمد ، وأجريت لى العملية فى هدوء تام ، ريثما يتم القبض على حسين .

(٦)

أصدقــاء الصبــا

عندما أقرأ الآن ما كتبه أبى عن حيرة جدى، والجهد المضنى الذى بذله لاختيار نوع التعليم المناسب لابنه، وعن العذاب الذى تعرض له أبى من جراء إخراجه من مدرسة بعد أخرى لإدخاله مدرسة يسمع عنها جدى أنها أفضل وأنسب، أشعر بالإشفاق على أبى وجدى على السواء. أشعر أيضًا بالإشفاق كلما سمعت الآن عن حيرة الكثيرين من معارفى وأصدقائى لنفس السبب، والتضحيات الكبيرة التى يبذلونها لكى يتعلم أولادهم فى مدرسة دون أخرى. ذلك أنه لم يعد لدىّ شك فى أننا نبالغ بشدة فى أهمية المدرسة فى تنمية القدرة العقلية للطفل أو تنمية حسّه الخلقى. نعم، هناك بلا شك مدارس أكثر قدرة على إدخال البهجة فى نفوس تلاميذها وأقل تعذيباً. ولكنْ لم يعد يخامرنى أى شك، بعد ما شاهدته فى إخوتى من ناحية، وفى أولادى من ناحية أخرى، وفى أصدقائى ومعارفى وأولادهم، فى أن أثر الأسرة والمناخ السائد فى البيت فى التربية العقلية والخلقية أهم من أثر المدرسة، ولكن الأهم بكثير من هذا وذاك هو الاستعداد الفطرى الذى يولد به الطفل. فإذا توفر هذا الاستعداد الفطرى فما أسهل أن يعوض الجهد الشخصى عما فشلت المدرسة فى تحقيقه.

يصف أبى فى كتابه «حياتى»، حيرة جدى فى اختيار نوع التعليم الأفضل له، على النحو التالى:

«وضع لى أبى برنامجا مرهقا لا أدرى كيف احتملته. كان يوقظنى فى الفجر فأصلّى معه، ثم أقرأ جزءًا من القرآن وأحفظ متنا من المتون الأزهرية كألفية ابن مالك

فى النحو، حتى إذا طلعت الشمس أفطرت ولبست ملابسى وذهبت إلى المدرسة أحضر دروسها إلى الظهر. وفى فسحة الظهر أتغدى فى المدرسة على عجل وأذهب إلى كتَّاب بمسجد قريب من المدرسة. وقد اتفق أبى مع فقيه الكتّاب أن يسمع منى جزءاً من القرآن حتى إذا ما أتممته سمعت جرس المدرسة فذهبت إلى الفصل. ثم أحضر حصص المدرسة بعد الظهر، فإذا دق الجرس النهائى خرجت إلى البيت وخلعت ملابس المدرسة ولبست جلبابا وذهبت إلى المسجد الذى أبى إمامه، فمكثت معه من قبيل المغرب حتى يصلى العشاء، أستمع لدرسه الذى يلقيه فى المسجد بين المغرب والعشاء، ثم أعود معه إلى البيت. وفى أثناء الطريق يحفظنى بيتا من الشعر أو بيتين ثم يسألنى إعرابه فأعربه، ويصحح لى خطئى، وكل ذلك ونحن سائران فى الطريق، ثم أتعشى وأنام. وإذا كان علىّ واجب من المدرسة أتممته على عجل قبل أن أذهب إلى أبى فى المسجد، وليس لى من الراحة إلا عصر يوم الخميس ويوم الجمعة. على أنى كثيراً ما أحرم أيضًا من صبح يوم الجمعة لعمل واجبى المدرسى أو القراءة مع أبى. وهو برنامج غريب متناقض الاتجاه، سببه أن أبى كان حائرا فى مستقبلى، أيوجهنى الوجهة الدينية فيعدّنى للأزهر، أو يوجهنى الوجهة المدنية فيعلمنى فى المدرسة الابتدائية والثانوية؟ وكنت أدرك حيرته من كثرة استشاراته لمن يتوسم فيه حسن الرأى، وهم لا ينقذونه من حيرته، فمنهم من يشير بهذا ومنهم من يشير بذاك، فأمسك العصا من وسطها، فكان يعدنى للأزهر بحفظ القرآن والمتون، ويعدنى للمدارس المدنية بدراستى فى المدرسة. وهذا أسوأ حلّ. ولكن جزاه الله خيرا على تعبه المضنى فى التفكير فى مستقبلى، وغفر الله له ما أرهقنى به فى دراستى».

كيف استطاع أبى أن يقطع بأن هذا الذى فعله أبوه فى تعليمه كان «أسوأ حلّ»؟ ومن منا يستطيع أن يقطع برأى حاسم فى هذه الأمور؟ ومن يدرينا أن الذى اختاره جدى لتعليم أبى لم يكن هو، على العكس، أفضل حلّ، لولا ما فيه من إرهاق مبالغ فيه؟

لقد أبدى أبى اهتمامًا مماثلاً باختيار نوع التعليم الأفضل لأولاده، ولا شك

عندى فى أنه بدوره، على الأقل فى المراحل الأولى من حياته، كان يظن أن للمدرسة تأثيراً أكبر مما لها فى الحقيقة، فى التربية العقلية والخلقية. لا يبدو إذن مدهشا تماماً أنه قرّر إرسال ابنه الأول إلى مدرسة الفرير الفرنسية، إذ لابد أنه سمع من بعض أصدقائه عن مستواها الراقى فى التعليم، فضلاً عما كان يسيطر على أبى من اعتقاد فى الأهمية القصوى لتعلم لغة أجنبية. لابد أن هذا وذاك كانا وراء ذهاب أخى محمد إلى مدرسة الفرير، ولكن يبدو أن التجربة لم تكن ناجحة تمامًا، فلم يظهر على أخى محمد أنه أفاد فائدة كبيرة مما قدمته هذه المدرسة من مزايا. كل ما لاحظته من أثر هذه المدرسة عليه أنه عندما كان يقوم بعملية حسابية تتعلق بالبيع أو الشراء، بصوت مسموع، كان يستخدم الفرنسية بدلا من العربية.

لابد أن اهتمام أبى بنوع المدارس التى يتلقى فيها أولاده تعليمهم قد ضعف بعض الشىء بعد تجربته مع محمد، ولكنه لم يزل تمامًا. فلابد أن قيامه بتحويلى أنا وأخى حسين من مدرسة مصر الجديدة الابتدائية إلى المدرسة النموذجية فى حدائق القبة كان لهذا السبب. ولكنى لا أظن أنه كان فى نهاية حياته لا يزال عند اعتقاده الأول. فها هم خمسة أولاد، إذا استبعدنا الولد الأول الذى ذهب إلى مدرسة فرنسية، يكادون أن يكونوا قد تلقوا نفس التعليم بالضبط، ومع ذلك كان أداؤهم العلمى متفاوتا أشد التفاوت. وها هما بنتان أرسلهما أبى إلى نفس المدارس فتفوقت واحدة وأظهرت طول حياتها شغفا واضحا بما يمكن تسميته بـ «بالمشكلات الفكرية»، أيا كان نوعها، أدبية كانت أو فلسفية الطابع أو سياسية، ولم يظهر أى شىء مماثل فى البنت الأخرى التى لم تستطع صبرا حتى على الدراسة الثانوية فخرجت منها قبل إتمامها. كذلك فإن تجربتى ومشاهداتى، ليست فقط المستمدة من أسرتى بل ومن خارجها أيضًا، تكاد تجعلنى أقطع بأن الحس الخلقى للمرء يولد مع الطفل بدرجة معينة من القوة، مثلما يولد معه أنف بحجم معين وصوت ذو نغمة خاصة. إن من بين أفراد عائلتى من لا يتصور الكذب ومنهم من يكاد يستعذبه. منهم ما لا يهمه كثيرا ما إذا كان غنيا أو لم يكن، ولكن منهم من كان، منذ نعومة أظفاره، على استعداد لبيع نصيبه من المانجو التى قد يجلبها أبى معه للغذاء، وإضافة حصيلة البيع إلى مدخراته. منهم من كان دائما يلتهم الكتب التهاما، ومنهم من

كان مجموع ما قرأه، عدا الكتب المدرسية، بعض مقالات خفيفة فى كتاب أبى «فيض الخاطر»، كان يقرؤها أحيانا قبل النوم ثم سرعان ما يغلبه النعاس.

وعندما أستعرض ما آل إليه أصدقائى فى المدرسة الابتدائية أو الثانوية، ممن عرفت تطور حياتهم بعد تخرجهم، أجد ما يقطع بصحة هذا الاستنتاج. كان من بينهم النابغ والمحدود الذكاء، سريع الفهم والبطىء، العميق والسطحى، من يلتقط الفكرة الصعبة بسهولة وسرعة، ولكنه قليل الصبر على الربط بينها وبين فكرة أخرى، ومنهم المتأنى البطىء الذى لا يفهم بسرعة، ولكنه يصرّ على البحث عن العلاقات غير الظاهرة حتى يجدها. كذلك كان من بينهم النبيل والسافل، الشهم والنذل، المستعد دائما للتضحية ومن لا يفكر إلا فى نفسه. لقد دخل معظمهم، بل وربما كلهم، الجامعة وتخرجوا بشكل أو بآخر فيها، وحصل معظمهم على وظائف محترمة، وحصل بعضهم على الدكتوراه، من بين الأذكياء والأغبياء، ولكن ظل كل منهم على حاله الذى بدأ به، عقليا وخلقيا.

* * *

منذ ثلاث أو أربع سنوات خطر لأحد زملائى القدامى، الذى كان تلميذا معى فى نفس الفصل المدوسى منذ ما يقرب من ستين عامًا، عندما كنا فى نحو الثانية عشرة من عمرنا، أن يدعو أكبر عدد ممكن من هؤلاء الزملاء القدامى إلى العشاء فى مطعم يطلّ على النيل. وقبلت الدعوة مسروراً ومتشوقًا إلى أن أرى ما فعله الدهر بأصدقاء الصبا، وبعضهم لم أكن رأيته قط منذ كنا فى تلك السن الصغيرة، فرأيت عجبا. نعم، لقد شاب شعر أكثرهم، وتشققت البشرة بالتجاعيد، وجاء أحدهم يستند إلى عكاز، وسيطر الحزن على آخر بسبب أزمة قلبية حديثة العهد. ولكنى وجدت أن من كان ذكيا لا يزال ذكيا ومن كان غبيًا لا يزال غبيا، وثقيل الظل ظل كما هو، وكذلك خفيف الظل. كلهم فى يسر نسبى، وكلهم لهم، أو كان لهم وظائف أو أعمال محترمة، ولكن التفاوت العقلى والخلقى لم يطرأ عليه أى تغير، إذ يبدو أنه لا المدرسة النموذجية، ولا المدارس الأقل نموذجية، استطاعت أن تقضى على هذا التفاوت.

لم يحضر للأسف إلى حفل العشاء صديق قديم كنت دائما أعتبره ملح الأرض، إذ كان يجمع بين عدد من الصفات نادراً ما رأيتها مجتمعة (هو المهندس محمود كشك). لم يكن، ونحن تلاميذ صغار، متفوقا فى دراسته بمقدار تفوقى، ولكن الأرجح أنه لم يكن يبذل فيها مثلما كنت أبذل من جهد، وهو على أى حال لم يتعثر فيها قط. كان ينجح دائما بدرجات معقولة، ولكن دون أن يلفت أداؤه الأنظار إذ لم يكن يشعر بالحاجة إلى ذلك. دخل كلية الهندسة فتخرج بسهولة مهندسا من قسم الاتصالات، وعيّن فور تخرجه فى منتصف الخمسينات مهندسا فى الإذاعة. وأذكر زيارتى له فى ١٩٥٦، فى داخل كهف من الكهوف فى جوف جبل المقطم، عندما اضطرت حكومة الثورة إلى نقل محطة الإرسال الإذاعى إلى هذا المكان الحصين بعد أن بدأت القاهرة تُضرب بالقنابل رداً على تأميم قناة السويس. وأخذ يطوف بى ليرينى طريقة عملهم وما اتخذوه من احتياطات لضمان استمرار الإذاعة حتى فى أحلك الظروف. ثم مرت بضع سنوات وقررت الحكومة إدخال التليفزيون إلى مصر وأرسلته فى بعثة إلى أوروبا للدراسة والإعداد لهذا الأمر. ثم عاد وأشرف على بدء البث التليفزيونى. فلما قررت الحكومة إدخال التليفزيون الملوّن، أرسلته مرة أخرى فى بعثة إلى أوروبا للدراسة والإعداد له، ثم عاد لتنفيذه، حتى أصبح بعد بضع سنوات كبير المهندسين فى التليفزيون المصرى.
كنت أراه خلال تلك السنوات على فترات متقطعة فيبهرنى أدبه الجم، وتفانيه فى عمله وحبه له، وكان يشرح لى ببساطة شديدة ما استعصى علىّ فهمه مما يتعلق بعمله، وكنت ألمح شعوره الوطنى القوى من خلال ما يقوله عن عمله، دون أن تظهر عليه أى رغبة فى التباهى أو استدرار الإعجاب. كان مصريا مائة بالمائة، مخلصا لبلده تمام الإخلاص، دون أن يقول كلمة واحدة لمحاولة التدليل على ذلك. وكان يدهشنى بقوله إنه قرأ لى هذا المقال أو ذاك فى مجلة الهلال أو فى صحيفة معارضة، ويبتسم من جرأتى وكأنه يتذكر تصرفاتى أثناء التلمذة، ولا يرى فى هذا إلا استمرارا لذاك. احتاج ابنه إلى خدمة صغيرة منى فى أمر يتعلق بدراسته، فاكتفى صديقى بأن عرّفنى على ابنه وتركنا دون أى تدخل منه أو أى محاولة للتأثير علىّ، إذ كان لا يريد أن يحكم تصرّفى إلا ضميرى. ثم قابلته منذ

سنوات قليلة هو وأسرته مصادفة، وقد أتى بزوجته وكل أولاده ليحضروا حفلة من حفلات الموسيقى العربية فى مسرح الجمهورية، فوجدت فى ولديه وابنته نفس الهدوء النفسى الرائع الذى أعرفه فى أبيهم، وأخبرنى فى أثناء الاستراحة أنه عُيّن مسئولا عن محطة التليفزيون الفضائية التى قررت الحكومة إنشاءها، وأنه سوف يحتاج إلى بعض خريجى الجامعة الأمريكية للعمل فيها، وسيتصل بى قريبا عندما يبدأ فى اختيار الموظفين بعد عودته من رحلة لفرنسا يجرى فيها الترتيبات النهائية لتدشين هذه المحطة. كان يتكلم عن مهمته الجديدة بحماسة وفرح. ثم قرأت بعد ذلك بأيام خبر نعيه منشوراً فى جريدة الأهرام، إذ توفى فجأة وحده فى أحد فنادق باريس أثناء مفاوضاته مع الفرنسيين حول المحطة الفضائية.

فى الحفل الكبير الذى أقامته الحكومة بعد ذلك بشهر أو شهرين لإعلان بدء تشغيل المحطة الفضائية، شكر الوزير رئيس الجمهورية على رعايته للمشروع، وعلى إصداره الأمر بتنفيذه، وشكر رئيس الوزراء على تجشمه عناء حضور حفلة الافتتاح، وشكر عدداً من الوزراء لسبب أو آخر لم أتبينه. ولكنى لم أسمع اسم صديقى الذى حمى الإذاعة المصرية من عدوان ١٩٥٦، وأنشأ التليفزيون الأبيض والأسود، والتليفزيون الملون، والمحطة الفضائية نفسها. لم يكن هناك أى شىء غير مألوف فى هذا السلوك من جانب المسئولين المصريين، كما أنى لا أظن أن صديقى كان ليأبه كثيراً له لو كان قد امتد به العمر ليشهده بنفسه.

* * *

سألت صديقنا الذى نظم هذا اللقاء بين الزملاء القدامى، عما إذا كان قد تذكر أن يدعو «تيمور»، فقال: بالطبع، ولكنه اعتذر بسبب السفر. فضحكنا كلنا من سبب اعتذاره. ذلك أن تيمور هذا كان دائما يجلس فى آخر صف فى الفصل ويبدو دائماً مشغولاً بشىء آخر غير ما يقوله المدرس، ومن ثم لم يستطع أبداً أن يحقق تفوقا فى أى مادة من المواد، بل كان يجد صعوبة بالغة فى الوصول إلى درجة النجاح. كان انشغاله منصبّا على شىء واحد وهو «الطائرة». فالمدرسون جميعا، الواحد بعد الآخر، عندما يصممون على معرفة ما الذى يشغله عن الدرس،

يضبطونه وهو يحاول إخفاء شيء في الدرج أو تحت الكرسي، فإذا استقصوا الأمر وجدوا طائرة صغيرة قام تيمور بصنعها من الورق، وهو مشغول إما بتلوينها أو بتركيب جناح لها أو مروحة. كان المدرس القاسي يطرده من الفصل، والمدرس الطيب يحذّره من أن هذا الذي يفعله لابد أن يؤدي به إلى مستقبل مظلم للغاية.

ومرت السنوات دون أن نرى تيمور، حتى تخرجنا في الجامعة وتوظفنا وإذا بي مرة، وأنا راكب في طائرة لشركة مصر للطيران إلى لندن، وقد ربطت لتوي حزام المقعد، أسمع صوتا من الميكروفون يرحب بالمسافرين ويقول لهم: «الكابتن تيمور يحييكم». قلت لنفسي على الفور إني مستعد للرهان بأي شيء على أن هذا الكابتن تيمور هو زميلنا القديم، إذ كيف يمكن أن يكون شخصا غيره؟ وهذا هو ما كان بالفعل، فعندما طلبت مقابلة الكابتن، أدخلوني كابينة القيادة ووجدته هو بعينه. وقابلني بنفس الابتسامة التائهة التي لم تكن توحي بأي تأثر من جانبه لمقابلة زميله القديم، ولكني اطمأننت على الأقل أن نبوءة المدرس القديم بمستقبل مظلم له لم تتحقق بالمرة.

* * *

كان هناك أيضًا من زملائنا القدامى من سافر إلى الأبد، وترك مصر مع عزم أكيد على عدم العودة. من هؤلاء صديق كان بالغ الرقة، وسيما للغاية، قليل الكلام ولكنه عميق المشاعر، يؤدي أداء طيبا في الدراسة دون لمعان، ويحبه كل المدرسين بدون استثناء. دخل كلية الطب وتخرج فيها، ولكني لم أره قط بعد تخرجه إلا حزينا متأثرًا بما يراه من حال المرضى الفقراء والمعاملة التي يلقونها في مستشفى قصر العيني. وكان يقص علينا قصصا كثيرة مؤثرة عن رجال أو نساء أتوا إلى قصر العيني من أقصى الصعيد وهم لا يكادون يملكون ثمن تذكرة السفر، واضطروا للعودة دون علاج لأنهم لم يجدوا سريرا في المستشفى، أو لأنهم لا يعرفون أحدا ذا شأن في القاهرة يمكن أن يتوسط لهم. كان الحل الذي وقع عليه اختيار صديقي الرقيق، هو أن يترك مصر كلها ويبحث عن عمل مناسب في الخارج، لا يعرضه لرؤية مثل هذه المواقف الصعبة. وانتهى به الأمر طبيبا وأستاذا في جامعة مرموقة في الولايات

المتحدة، واشترى هناك بيتا جميلا وتزوج من زميلة تركية وأنجب منها ولدين واستقر فى أمريكا استقرارا دائما. وهو حل لا بأس به من بعض الوجوه، وإن كان يخطر ببالى أحيانا أن هناك شيئا من الغرابة فى أن يكون حل مشكلة المرضى الفقراء فى مصر هو الاشتغال بعلاج المرضى ميسورى الحال فى أمريكا.

* * *

زميل آخر لم تدفعه إلى الهجرة رقة المشاعر بل مجرد حب المال. كانت هذه الخصلة من خصاله واضحة لنا جميعا وضوح الشمس منذ أول يوم عرفناه فيه. كان قصيراً ماكرا لا يدفع أبداً ما يجب عليه دفعه، ويحاول دائما، وبنجاح عادة، التهرب من أى مسئولية يمكن أن تورطه فى دفع أى مبلغ من المال. كانت خصلة منفرة في حد ذاتها، ولكن الذى جعلنا نضمه إلى شلتنا ولا نمانع في مصاحبته أنه كان ذا ذكاء ملحوظ، ومحبًا للنكتة، فضلاً عن أنه لم يكن منافقا. كان يجهر بحبه الشديد للمال ولا يخجل من بخله، ويخيّرنا بصراحة بين أن نقبله كما هو أو أن ننصرف لحالنا، فهو لا يبالى برأى أحد فيه، والمهم لديه هو التمتع باليوم الذى هو فيه، ما دام هذا التمتع لا يكلفه شيئا من المال.

سافر صديقنا هذا إلى أمريكا لاستكمال دراسة الطب، ثم اشتغل طبيبا فى إحدى الشركات الأمريكية الكبرى، ثم سمعنا عن زواجه بامرأة فيتنامية جاءت إلى أمريكا هربا من صعوبات الحياة في فيتنام. بعد أن بلغ سن الستين قرر أن يعود إلى مصر، مع زوجته الفيتنامية، ليستقر نهائيًا فيها، معتمدا على ما تدره مدخراته من دخل؛ ودعانى لزيارته فى الشقة التى اشتراها بالقرب من النيل بالمعادى. كانت شقة قريبة من النيل حقا ولكنها ـ كما كان لابد أن أتوقع ـ خالية من أى مسحة من الجمال. العمارة كلها مبنية بأقل قدر ممكن من التكاليف، وكأنها بنيت خصيصا ليسكن فيها صاحبنا. ونظرت إلى الأثاث فإذا به أقل أثاث ممكن، لابد أن صاحبنا قد دفع فيه أقل ثمن ممكن. لم يكن هناك فى الشقة أى شىء يتجاوز الضرورى، وكأن الرجل قد جاء ليقيم فى مصر يومين أو ثلاثة لا بقية عمره. ليس هناك صورة

واحدة على الحائط أو بعض الأزهار على المائدة. أرانى بعض الكتب العربية التى اشتراها قائلا إنه استمتع بها، أى استمتاع، فقلبتها وتصفحتها ووجدت أن ميزتها الوحيدة هى رخص ثمنها. فهو يختار الكتب ليس بحسب موضوعها أو شهرة مؤلفها، بل بحسب سعرها. وأظن أن السبب الأساسى لاستمتاعه بقراءتها أنه كلما صادف عبارة لطيفة في الكتاب أو معنى به بعض الذكاء، يقول لنفسه بإعجاب: «تصوّر أنى لم أدفع أكثر من جنيهين فى الحصول على هذا الكتاب!».

لم يكن كل هذا غريبا تمامًا علىّ، وإنما الذى أدهشنى حقًا هو أنه مع كل هذا السعى الدءوب طول حياته، لجمع المال وتخزينه، لم يكن لديه أى معرفة بحجم الثروات التى يحققها بعض الناس فى مصر، دون أن يغادروا مصر إلى أمريكا أو غيرها، أو يكملوا دراستهم فى الخارج أو الداخل، ودون أن يدرسوا الطب أو غيره.. إلخ. بل كانت تبدو عليه دهشة حقيقية عندما أذكر له مثلا أن شخصا ما حصل على مكافأة مائة أو مائتى دولار مقابل مقال صغير كتبه لجريدة تصدر فى الخليج، أو أن رئيس تحرير إحدى الصحف المصرية قد تجاوزت ثروته بضعة ملايين من الجنيهات. لم يكن قادرًا على تصور شىء من هذا، ذلك أن غرامه بالمال كان قويا لدرجة أن المبلغ التافه كان يبدو فى عينيه كبيراً للغاية، ومن ثم كان عاجزا عن تصور كميات من المال كبيرة حقا. كان حبه الشديد للمال إذن سببًا فى عجزه عن تحقيق قدر كبير منه، على الأقل بالمعايير الشائعة فى هذه الأيام. أى أن الدنيا قد عاملته، من الناحية المادية، بنفس المعاملة التى عاملها به: «ما دمت تتصور أن هذا المبلغ التافه كبيراً، فلن نعطيك إذن أكثر منه».

عندما عدت من سفر قصير خارج القاهرة، أخبرتنى زوجتى بأن سيدة مصرية اتصلت بنا تليفونيا وأخبرتها بوفاة زميلى القديم فجأة بالسكتة القلبية أثناء جلوسه بعد الإفطار لتناول كوب من الشاى. اتصلت بالزوجة الفيتنامية لأعزّيها وأعرض عليها أى مساعدة قد تحتاج إليها فى مثل هذه الظروف. فأكدت لى أن كل شىء على ما يرام. لم أعثر له على نعى فى أى صحيفة على الإطلاق. وأخبرنا صديق آخر ممن كان على صلة أوثق به، بأن شقيقه، أى شقيق زميلنا المتوفى، أخبره أنه لم

يجد ثمة حاجة لنشر أي نعي لأخيه في أي جريدة، لا في مصر ولا في أمريكا، إذ إنه على حد قول هذا الشقيق «لم يكن يعرف أحدًا في الواقع».

* * *

كان صديقي «على مختار» من نوع مختلف تمامًا من الناس. إن كل من عرفته في حياتي يهنئ نفسه على شيء، ولكن سعيد الحظ حقا هو من يتوافر فيه بالفعل ما يهنئ نفسه عليه. وكان على مختار من هؤلاء الناس سعداء الحظ. كانت الميزة التي يشعر بالفخر بنفسه بسببها وتتوافر فيه بالفعل هي «الكفاءة». لا أقصد الكفاءة في مجال معين أو عمل بعينه، بل الكفاءة بوجه عام، بمعنى تحقيق أقصى عائد ممكن من أي حجم معين من الجهد، أو الوصول إلى هدف معين بأقل جهد ممكن. الكفاءة بهذا المعنى تكاد أن تكون مرادفة للعقلانية، وهذا بالضبط كان هو المصدر الأساسي لرضا «على مختار» عن نفسه. كنا جميعا، بالمقارنة بعلى مختار، عديمي الكفاءة ومعنين في اللاعقلانية. كان يحقق في اليوم الواحد ما نحتاج لتحقيقه إلى أيام أو أسابيع. فهو دائم الحركة من مكان لآخر، ولا يضيع وقته في ثرثرة لا تفيد أو لحضور حفل لا نفع فيه، أو في الذهاب لتهنئة صديق أو زيارة مريض ما دامت التهنئة أو الزيارة لا تحقق أي فائدة عملية. نعم من الممكن أن يجلب للمريض دواء يحتاج إليه، أو يرتب له موعدًا مع طبيب، أما مجرد الكلام والتظاهر بالشفقة فما جدواهما؟ كلنا يغلبنا النعاس بعد الظهر فننام، وهو يعتبر هذا إضاعة لوقت ثمين كان من الممكن أن ننجز فيه عدة أشياء، حتى في أشد الأيام حرارة. نعم كان يغلبه النوم أحيانًا من فرط التعب، ولكن كان هذا يحدث أثناء جلوسه معنا، عندما لا يكون ثمة ما يمكن عمله، فإذا به يومئ برأسه ويستغرق في النوم أثناء انهماك أحدنا في كلام لا ضرورة له ولا نفع يرجى منه.

كان لابد أن تنعكس هذه الكفاءة أو العقلانية في اتخاذ مواقف متحررة تمامًا من التقاليد والعادات المألوفة إذا لم يكن لها نفع واضح أو مبرر معقول. هكذا كان على مختار أكثرنا جرأة في اتخاذ مواقف كنا كلنا نتمنى أن تكون لدينا الجرأة على اتخاذها، ولكننا لم نفعل تجنبا لما يمكن أن يقوله الناس. كان جريئا في اختيار ما

يرتديه من ملابس، وما يتناوله من طعام، وفى تحديد الوقت الذى يأكل أو ينام فيه، وفى اختيار المرأة التى يتزوجها. ففى وقت كنا كلنا فيه نضمر الحب لهذه الفتاة أو تلك، ولكن عن بعد ودون أن نتخذ أى خطوة إيجابية لتكوين أى علاقة معها، بل وأحيانا ولا حتى لمخاطبتها، جاء على مختار ليعلن لنا أنه تقدم بالفعل لخطوبة فتاة، وأنها قبلت، وأن الزواج سيتم بعد شهر. والفتاة ليست امرأة عادية بل فتاة جميلة مثقفة وفنانة، كانت قد تخرجت لتوّها فى كلية الآداب، ثم التحقت بمعهد السينما لتدرس الإخراج. وهى ليست مصرية بل لبنانية، تجلس معنا فتكلمنا كلام الندّ للندّ، وتضحك بحرية ودون عقد، وهو ما لم نتعوده قط من أى فتاة مصرية. كنا جميعا محرومين حرمانا تاما من أى علاقة سوية مع الجنس الآخر، وها هو مختار، بجرأته وثقته بنفسه، يصل إلى ما كنا جميعا نتمنى فى خيالنا تحقيقه. الأطرف من هذا أن هذه الفتاة اللبنانية استطاعت، بسبب ندرتها وسط هذا الجمع من الذكور المساكين المتعطشين لأى كلمة أو ابتسامة تصدر من أنثى، أن تظفر بحب عدد لا يستهان به منا، ولكننا اضطررنا بالطبع إلى السكوت والرضا بالنظر من بعيد، بعد أن أعلن صديقنا عزمه على الارتباط بها.

كان هذا الصديق الفذّ، على مختار، هو أول من عرّفنى على العمل السياسى، وكنا ـ هو وأنا ـ الوحيدين من بين هذه الشلة من الأصدقاء، اللذين يهتمان بالسياسة على الإطلاق. ولكنه كان بالطبع، فى هذا الأمر أيضًا، أكثر كفاءة منى بكثير، كما كان أكثر شجاعة، مما أدى به إلى دخول السجن لمدة أسبوعين فى منتصف الستينات دون أن يكون قد ارتكب أى جرم من أى نوع، بينما اكتفيت أنا بالسعى لإخراجه منه دون نتيجة. ولكن هذه قصة أخرى تنتمى إلى مرحلة مختلفة تمامًا من العمر.

(٧)

مباهج الصبا

ـ ١ ـ

ما أجمل الكتب التى قرأنها بين سنىّ العاشرة والعشرين . كانت هذه هى السنوات العشر التالية للحرب العالمية (٤٥ ـ ١٩٥٥) . وعندما أسترجع فى ذهنى ما كنت أقرأه فى تلك الفترة لا تدهشنى كميته بقدر ما تدهشنى جودته . وأتساءل بأسف : كم هو صعب فى أيامنا الحالية أن يصادف صبى فى مثل هذه السن، لا فى مصر وحدها بل وفى غيرها أيضاً، هذه الفرصة الرائعة التى أتيحت لى منذ خمسين عامًا

كان الفضل الأكبر فى هذا يعود بلا شك إلى طبيعة البيت الذى نشأت فيه . كان أبى يتلقى سيلا لا ينقطع من الكتب المهداة إليه من مختلف الأنواع . وكان بعضها من قصص الأطفال التى كتبها بعض أصدقائه أو تلاميذه، فكان يلقى إلينا بهذه الكتب لنقرأ منها ما نشاء دون أى توجيه منه أو متابعة لما نقرأ . هكذا قرأت فى سنواتى الأولى كتب كامل كيلانى ذات الطباعة الأنيقة والصور الملوّنة، وما كان يؤلفه أو يترجمه أحمد عطية الإبراشى وجودة السحّار . لا تزال منطبعة فى ذهنى حتى الآن صورة الحصان المسحور ذى الجناحين التى كانت مرسومة على غلاف قصة مفضلة لى، والتى لابد أنىّ كنت أطيل النظر إليها لشدة التصاقها بذاكرتى، وقصة العرندس الذى ابتلع سمكة فاستقرت فى حلقه . لعلنى قرأت كل قصص كامل كيلانى الذى يدين له جيل بأكمله من المصريين بإجادة العربية، وبخيال أكثر اتساعاً، وبطفولة أكثر سعادة أو أقل بؤما .

من الأمثلة القليلة التى لا أزال أتذكرها مما قرأته فى طفولتى وصباى، يلفت نظرى كم كان المرء مستعدا فى تلك السن لأن يضرب الصفح عن أى أحداث غريبة وغير معقولة فى مقابل أن يحصل على الحد الأقصى من الإثارة. فالبساط السحرى الذى يحمل بطل القصة من مكان إلى مكان، أو مصباح علاء الدين الذى يجلب لصاحبه أى شىء يريده، بمجرد أن يحكّ المصباح بيده، أو جنّية البحر التى تقودك إلى ما فى قاع المحيط من لآلئ وكنوز، أو عبارة «افتح يا سمسم» المدهشة التى تتيح لك الاغتراف كما تشاء من كهف على بابا.. إلخ، كل هذا يُقبل دون تساؤل، ويستمتع المرء بقراءته المرة بعد المرة وبرؤيته صوره، التى قد تكون مرسومة رسما بدائيا للغاية، بل ورسما سيئا، دون أن يبالى قط بمدى الواقعية أو الغرابة. كم كان يجذبنا فى تلك السن أى قصة تدور حول الملك والوزير، والملكة أو الأميرة ذات الحسن والجمال، وكم كنا نصدق ما تفعله الصبية الجميلة، البيضاء كالثلج، مع الأقزام السبعة، وتلك الصبية الجميلة الأخرى التى ذهبت لزيارة جدتها فوجدت الذئب قد التهمها، وتخفىّ فى صورة الجدة بمنتهى السهولة، أى بمجرد أن وضع على رأسه غطاء رأسها وعلى عينيه نظارتها، فلم تستطع الصبية أن تميز بين الذئب والجدة. كل هذا يُقبل بصدر رحب فى سبيل أن نصل إلى نهاية سعيدة للقصة.

ثم انتقلت كبقية جيلى إلى قراءة محمود تيمور وتوفيق الحكيم وطه حسين والمازنى والمنفلوطى، والروايات أو المسرحيات المترجمة ترجمة بديعة التى كانت تنشرها لجنة التأليف والترجمة والنشر ودار المعارف وغيرهما لجوته وبرناردشو وتوماس هاردى وآندريه جيد، وبعض مسرحيات سوفوكليس.. إلخ، قبل أن نصل فى مطلع الشباب إلى نجيب محفوظ. أثرت فى نفسى بوجه خاص، فى تلك الفترة، رواية جوته «آلام فيرتر» التى ترجمها الزيات، والروايات الفرنسية الشهيرة التى اقتبسها المنفلوطى، ورواية «سلوى فى مهب الريح» لتيمور، وأعجبت بشدة بكتاب «زهرة العمر» للحكيم، وهو كتاب يصف فترة إقامته فى باريس فى بداية شبابه متلهفا على تثقيف نفسه من ناحية، ومعبراً عن افتتانه الشديد بمختلف مظاهر التقدم الفنى والأدبى فى أوروبا. وجد هذا الكتاب صدى قويا لدىّ، وأنا فى تلك السن المبكرة. ولكن عندما وقعت يدى من جديد على نسخة من هذا الكتاب وقد

تجاوزت الستين، وقرأته مرة أخرى، لم يترك لدىّ أى أثر من الإعجاب والتقدير القديمين، بل تعجبت كيف ظفر هذا الكتاب بإعجابى وإعجاب كثيرين فى أى وقت من الأوقات. كان فيما يبدو ليس أكثر من تعبير عن زفرات وطموحات شاب وجد صدى لدى صبى مراهق له طموحات مماثلة. كذلك فتنت لفترة قصيرة فى تلك الأيام بأسلوب طه حسين، ولكن لم تمض سنوات كثيرة قبل أن أجده مملا ومصطنعا. كنت فى تلك السن أصغر من أن أقدر كتب العقاد حق قدرها أو مقالات وكتب النقد الأدبى للويس عوض أو مندور أو أنور المعداوى، فكان أسلوب العقاد سرعان ما يصيبنى بالإعياء فيما عدا قصة سارة التى أحببتها، ولم يلفت نظر أحد فى ذلك الوقت إلى سلامة موسى الذى كان يكتب على أى حال فى موضوعات لم تكن تثير اهتماما لدىّ فى تلك السن.

* * *

كان يغيظنى من أخى حسين، الذى يكبرنى بعامين ونصف، أنه كان دائما يتكلم عن «مثله الأعلى» الذى كان نابليون مرة وتولستوى مرة، ويسألنى باستمرار عمن يكون مثلى الأعلى دون أن أكون حصلت على واحد بعد. فبحثت بسرعة عن مثل أعلى لا يقل قيمة عن مثله العليا، وإذ وقع بيدى كتاب عن فولتير، قرأته بسرعة ووجدت الرجل مناسبا تماما فأعلنت لأخى حسين أن فولتير هو مثلى الأعلى، وكتبت عنه مقالا كان لدى أبى الجرأة الكافية لنشره فى مجلة الثقافة التى كان يرأس تحريرها، تشجيعا لى على القراءة والكتابة. وربما كان هذا أول مقال نشر لى على الإطلاق. مع ازدياد شهرة نجيب محفوظ أخذت أقرأ له، ولكنى لا أظن أنى تحمست له مثل حماسى لبعض كتب الحكيم وطه حسين، باستثناء ثلاثيته، وعلى الأخص (بين القصرين)، إذ كنت دائما أفتقد فيه الفكرة الفلسفية أو الاجتماعية، أو هكذا كنت أظن وقتها، ولا أذكر أننى كنت أطيل التفكير لدى انتهائى من قراءة رواية له. ولهذا لا أظن أنى خرجت من كتب نجيب محفوظ بغير المتعة. على العكس من ذلك فتنت بقصص يوسف إدريس فى الخمسينات، واشتعل حماسى وأنا أشاهد مسرحيتيه ملك القطن وجمهورية فرحات، وظللت حريصا على قراءة كل ما ينشره، بما فى ذلك مقالاته السياسية فى الصحف.

كان لى أيضًا بعض الشغف بالفلسفة، حتى فى تلك السن المبكرة، فكنت قادرا على الصبر على كتبها بل والاستمتاع ببعضها، لاهتمام حقيقى لدىّ بالعثور على إجابات عن بعض أسئلتها. أذكر أنى فى الخامسة عشرة أعجبت بديكارت، بفضل كتب الدكتور عثمان أمين، وكتبت عنه مقالا لا بأس به بعنوان «أدلة ديكارت على وجود الله»، ونشره لى أبى فى مجلة الثقافة قبل أن أدخل الجامعة، كما نشرت لى نفس المجلة، فى نفس الفترة، بعض المقالات الحمقاء بعنوان «نظرات فلسفية».

* * *

ثم بدأت مرحلة جديدة عندما بدأت أقرأ كتبا فى الأدب باللغة الإنجليزية. كان أول كتاب أقرأه بالإنجليزية، عدا ما كان مقررا علينا فى المدرسة، قصة طويلة للكاتب الأمريكى ذى الأصل الأرمنى: وليام سارويان، أعارها لى زميل فى المدرسة ممتدحاً إياها بشدة. لابد أن قراءتى لها قد استغرقت وقتا طويلا، إذ لم أكن قد تجاوزت الخامسة عشرة، وكانت معرفتى بالإنجليزية محدودة. ولكنى أذكر أنى طرت بها فرحا وكأنى قد دخلت عالما لم أكن أعرف بوجوده من قبل. وتحمست لكاتبها تحمسًا شديداً ورحت أبحث عن كتبه فى مكتبات شارعى عماد الدين وعبد الخالق ثروت فوجدت له أربعة أو خمسة كتب أخرى، تضم روايات أو قصصا قصيرة. وزاد إعجابى به وحماسى له، إذ لم أكن قادرا وقتها على مقارنته بغيره، ومن ثم خدعتنى بساطته وخفة دمه وما بدا فيه من مشاعر إنسانية. كان إعجابى بأول رواية قرأتها له (الكوميديا الإنسانية The Human Comedy) قد وصل إلى حد أنى ترجمت أحد فصولها ونشرته لى أيضًا مجلة الثقافة، ووصلتنى عنه مكافأة قدرها جنيه واحد.

ثم نسيت سارويان نسيانًا تامًا، وضاعت كتبه مع ما ضاع بسبب سفرى فى البعثة إلى إنجلترا، والغريب أنى لم أحاول أثناء وجودى فى إنجلترا أن أبحث عن أى كتاب آخر له، بل لا أظن أنى تذكرته أو سمعت اسمه طوال إقامتى هناك. ومرت السنوات حتى تصادف، عندما زرت الولايات المتحدة وأنا فى الخمسين من عمرى، أن وجدت كتابًا صغيراً له فى إحدى المكتبات يضم بعض ذكرياته.

ففرحت بعثورى على صديقى القديم بعد فراق ٣٥ عامًا، ولكن خاب أملى خيبة عظيمة. لم أجد فيه، وأنا أقرأه فى سن الخمسين، أى سمة من سمات العبقرية التى كنت أظنها فيه عندما كنت فى الخامسة عشرة، ومع ذلك فقد صادفت بعض الفقرات القليلة التى ذكرتنى بمتعتى القديمة به. ففى روايته لذكرياته وهو طفل، وصف وصفا شائقًا عملية الاستحمام التى كان يتعرض لها على يد جدّته، وراعنى الشبه الشديد بين ما كانت تفعله به جدته فى أرمينيا، وما كانت تفعله أمى أثناء استحمامى وقيامها بتنظيف جسمى، كجلوسها على كرسى الحمام الخشبى الصغير والمصنوع خصيصا لهذا الغرض، وغلى الماء فى صفيحة موضوعة على وابور جاز، وملء كوز بالماء البالغ السخونة ثم صبّه على جسمى الصغير دون أن تقبل أمى أن تصدّق صياحى وشكواى من شدة السخونة ودخول الصابون فى عينىّ، وهرىْ جسمى باللوفة حتى يحمرّ الجلد من شدة الحكّ، ورفض أمى أن تعتبر أن الاستحمام قد تم حتى تسمع صياحى وترى حمرة جلدى.

بحثت عن كتب أخرى له على أمل أن أجد ما يعيد إلىّ إعجابى القديم به، فوجدت كتابا له نشر فى ١٩٦١، ويحتوى على سيرته الذاتية، فقرأته فى محاولة لاكتشاف حقيقة الرجل، وربما أيضًا لاكتشاف سبب إعجابى المبكر به، فخاب أملى مرة أخرى إذ كان من الواضح أن الرجل كان قد أصابه الهرم وهو يكتب هذا الكتاب، ففقد حتى ظُرفه القديم. لفت نظرى فى الكتاب أنه وإن كان لا يكف عن ذكر ابنه (آرام) وابنته (لوسى) وأهله الأرمن الذين هاجروا إلى أمريكا، ويفيض بالتعبير عن الحب لهم جميعا، لا يذكر أى شىء عن زوجته، التى يوحى الكتاب بأن أمرها انتهى بالطلاق. ثم وجدت فى نفس المكتبة كتابا آخر عن ساروريان، كتبه ابنه آرام، فشاقنى بشدة أن أعرف قصة الرجل بالتفصيل، خاصة إذا كان الراوى هو هذا الابن المحبوب الذى كتب عنه الأب بكل هذا الحنان وسمى أحد كتبه باسمه. فإذا بى أجد كتاب الابن لا يحتوى إلا على ذمّ مستمر للأب، وكأن الرجل ليس له حسنة واحدة تستحق الذكر. بل إنه حتى عندما يأتى إلى ذكر منحه جائزة بوليتزر، وهى أعلى جائزة أدبية فى أمريكا، ورفض ساروريان للجائزة قائلا: «إن المال لا يجب أن تكون له صلة بالأدب»، حتى هذا فسّره الابن بحب ساروريان للشهرة.

كان من الواضح أن الابن لم يكتب هذا الكتاب إلا فى محاولة مستميتة للدفاع عن أمه، وإلقاء الذنب كله على أبيه الذى ينعته بالأنانية المفرطة والقسوة وما يشبه الجنون. والذى يفهم من الكتاب أن الأم كتمت عن زوجها أنها طفلة غير شرعية وأنها يهودية حتى انقضت عدة سنوات على زواجهما، وذلك خوفا من أن يهجرها إذا عرف الحقيقة. وقد طلقها الرجل بالفعل عندما أخبرته بالحقيقة، إذ لم يتصور أن تكون لديها هذه القدرة على كتمان مثل هذا عنه، واستمرارها فى الكذب طوال تلك السنوات.

على أن إقبالى على قراءة كتب الأدب بالإنجليزية حدث أساسا بفضل أخى حسين، فعن طريقه تعرّفت على الأدب الروسى فانفتح أمامى فجأة عالم جديد تماما. كانت روايات دستويفسكى وتولوستوى وترجنيف من نوع يختلف عن أى شىء قرأته من قبل، وكانت قصص ومسرحيات تشيكوف على الأخص هى التى استولت على قلبى. ولازلت لا أملّ من رؤية بستان الكرز أو الشقيقات الثلاث أو الخال فانيا على المسرح، المرة بعد الأخرى. فإذا حللت بلندن وكانت تعرض مسرحية من مسرحيات تشيكوف كانت هى ما أختار رؤيته مهما كان عدد مشاهداتى لها من قبل. عرّفنى حسين أيضًا على سارتر وأندريه جيد وكامى، وعلى إستيفان زفايج وإبسن وآرثر ميلر، حتى إننى عندما تركت مصر إلى إنجلترا فى ١٩٥٨، كانت قراءتى بالإنجليزية تكاد تقارب قراءتى بالعربية فى السهولة، وإن لم تقاربها حتى الآن فى السرعة.

* * *

لا أستطيع أن أفخر بمعرفة واسعة بالشعر والشعراء، فى أى لغة، بما فى ذلك اللغة العربية، كما أنى لا أحفظ منه إلا أقل القليل. بهرتنى أحيانًا بعض عبارات شكسبير ولكن يصعب علىّ أن أعثر على مثال لشاعر أوروبى آخر أثار حماسى، بل ولا أستطيع أن أزعم هذا حتى عن شكسبير، وقليلون جدًا من الشعراء العرب من جلبت لى القراءة لهم متعة زائدة، فيما عدا المتنبى الذى أدين بحبى له للصدفة البحتة. ففى آخر سنوات دراستى الثانوية كانت وزارة المعارف تسمح للتلاميذ

بدخول مسابقة فى الأدب العربى يتغير موضوعها سنويا، وتتطلب ممن يشترك فيها قراءة مجموعة من الكتب فى موضوع واحد، ويمتحن فيها تحريريًا ثم شفويًا من بعض كبار أساتذة الأدب فى مصر. وكانت الجائزة فيما أذكر ثلاثين جنيها. وكان موضوع المسابقة فى ١٩٥١ المتنبى والشاعر الأندلسى ابن زيدون، فكان علينا أن نقرأ شعر المتنبى ونحفظ بعضه وندرس حياته، بما فى ذلك كتابان كتبهما الشاعر على الجارم. والتحقت بالمسابقة وقرأت فيما قرأت عن المتنبى كتاب طه حسين عنه، والكتاب الصغير الرائع الذى كتبه محمود شاكر، واستطعت أن أعرف قدر هذا الكتاب وتفوقه على كتاب طه حسين، وأنا فى تلك السن الصغيرة، ولم أكن أعرف وقتها أن الأستاذ شاكر كان قد اتهم طه حسين بالسطو على بعض أفكاره عن المتنبى. المهم أنى فتنت وقتها بالمتنبى ولا أزال حتى الآن أفضله على غيره، وألّفت عنه مسرحية كاملة بالاشتراك مع زميل لى، لا أعثر لها الآن على أثر. وحصلت على الجائزة إذ كنت الأول فى المسابقة، رغم أنى حصلت على درجة منخفضة نسبيا فى امتحان اللغة العربية فى السنة التوجيهية (الثانوية العامة)، وكانت درجتها تضاف إلى درجة مسابقة المتنبى. كما حصلت على جائزة أكبر منها، هى خمسون جنيها، لكونى أول الثانوية العامة فى القسم الأدبى فى القطر المصرى، ونشر اسمى فى الجرائد وأذيع فى آخر نشرة الأخبار بالإذاعة، رغم أنى كنت أخشى الرسوب بسبب خروجى عن الموضوع المطلوب فى سؤال الإنشاء فى امتحان اللغة العربية.

حدث أيضًا عندما كنت طالبا فى المدرسة الثانوية، فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرى، أن جاء يوما زميل إلى المدرسة وهو يحمل كتابًا صغيرًا، لا يزيد حجمه على حجم الكفّ، يتضمن شعراً بالإنجليزية للشاعر الهندى الشهير طاغور. كان اسم الكتاب «البستانى» (The Gardener)، وقال لى إنه معجب جدًا بهذه الأشعار وأعار الكتاب لى. وبالفعل وجدت الشعر رائعا، وبدأ اسم طاغور يصبح محببا إلى نفسى، ترجمت له وأنا فى الخامسة عشرة أو نحوها بعض أشعاره، ونشرت أيضًا فى مجلة الثقافة، ثم اقتنيت مجموعة أشعاره فى مجلد واحد لا أزال

أعتبره من الكتب المحببة إليّ. وبعد سنوات كثيرة شاهدت له فى التليفزيون الإنجليزى فيلما مأخوذا عن روايته «البيت والعالم» فراعنى، ليس فقط جمالها وحكمتها، بل وما تلقيه من ضوء وما تثيره من فكر، وهى المسرحية المكتوبة منذ ما يقرب من مائة عام، عمّا يحدث الآن من تعصب وتطرف فى بلادنا وخارجها، وفى الصراع الخالد بين الوافد والموروث. كان الفيلم من إخراج ذلك المخرج الهندى الشهير أيضًا، والذى أصبح بدوره من المحببين إليّ، ساتياجيت راى (Satyajit Ray)، فأصبحت أتلقف أى خبر يتعلق بطاغور أو بساتياجيت راى بشغف وأقرأ باهتمام أى خبر أو مقال يتعلق بهما. لا عجب أن أقبلت بلهفة على قراءة مقال وجدته فى صحيفة بريطانية كتبه المخرج راى بمناسبة ذكرى طاغور. وفيه إشارة إلى الواقعة المؤثرة الآتية التى حدثت له وهو طفل فى الثامنة من عمره. قال راى إنه نشأ فى نفس البلدة من بلاد البنجال بالهند، التى عاش فيها طاغور. وكانت أم راى تزور طاغور أحيانا فكان يسألها عن تعليم ابنها وتطوره العقلى. وفى أحد الأيام جاءته الأم مصطحبة ابنها ساتياجيت وطلبت من طاغور أن يدعو لابنها ويباركه، فقام طاغور وأحضر قلما وورقة وكتب عليها مقطوعة شعرية قصيرة من تأليفه، وطواها وأعطاها للأم قائلا: «احتفظى بهذه القصيدة القصيرة لابنك حتى يكبر. إنه لن يفهمها الآن، ولكنه سيفهمها بكل تأكيد عندما يكبر». وكانت القطعة التى كتبها طاغور:

«لقد أنفقت ثروة طائلة فى السفر إلى شواطئ بعيدة، فرأيت جبالا شاهقة ومحيطات لا يحدّها حد. ولكنى لم أجد متسعا من الوقت لأن أخطو بضع خطوات قليلة خارج منزلى، لأنظر إلى قطرة واحدة من الندى، على ورقة واحدة من أوراق العشب».

"I have spent a fortune travelling to distant shores, and looked at lofty mountains and boundless oceans, and yet I have not found time to take a few steps from my house, to look at a single dew drop on a single blade of grass".

* * *

وقعت يدى على مفكرة صغيرة لسنة ١٩٥١ وجدت أنى دونت فيها، يوما بيوم، من أول السنة إلى آخرها، ما فعلته خلال اليوم باختصار شديد، بما فى ذلك ذكر أسماء الكتب التى كنت أقرأ فيها والأفلام والمسرحيات التى شاهدتها. كانت هى سنة امتحانات الثانوية العامة (التى كانت تسمى حينئذ بالتوجيهية)، ودخلت خلالها أيضًا مسابقة الأدب العربى التى ذكرتها حالا والتى عقد امتحانها فى فراير ١٩٥١، وكانت الأشهر الثلاثة الأخيرة من السنة هى أول شهور لى فى كلية الحقوق. ومع ذلك وجدت أنى خلال اثنى عشر شهرًا (هى السنة السابعة عشرة من عمرى) قرأت عددا لا بأس به بالمرة من الكتب الجيدة، بالعربية والإنجليزية. فبالإنجليزية قرأت عشرة كتب لوليام سارويان (ما بين روايات وقصص قصيرة ومسرحيات) وجزءًا كبيرًا من كتاب يضم الأعمال الشعرية والمسرحيات الكاملة لطاغور، وقصتى لويزا ألكوت الشهيرتين نساء صغيرات وزوجات طيبات، ورواية عصر العقل لجان بول سارتر، ورواية لتولستوى أظن أنها رواية البعث، وأربع روايات لترجنيف، وثلاث روايات لدستويفسكى من بينها الجريمة والعقاب، وثلاث روايات لأندريه جيد من بينها الباب الضيق، ومجموعة من القصص القصيرة لتشيخوف، ومسرحية الضابطة بربارا لبرنارد شو وأخرى لإبسن (البطة البرية)، ومجموعة من القصص القصيرة لموباسان، وبعض قصص أوسكار وايلد. قرأت كل هذه الكتب بالإنجليزية، كما قرأت بالعربية كتبا عن المتنبى وابن زيدون (استعدادًا لمسابقة الأدب) وكتابا عن الفيلسوف سبينوزا، وأربعة كتب لتوفيق الحكيم، ورواية إبراهيم الكاتب للمازنى، وترجمة لآلام فيرتر لجوته، وترجمة لرواية تاييس لأناتول فرانس، وترجمة لرواية البيت والعالم لطاغور، وجزءا من ترجمة لكتاب أصل الأنواع لداروين، وترجمة لكتاب لديكارت لا أذكر الآن كم فهمت منه. ومع ذلك فأنا واثق من أنه كان من السهل علىّ أن أقرأ أكثر بكثير من هذا القدر من الكتب لولا انشغالى المستمر فى تلك السنة بما تفعله بنت الجيران، دون أن يسفر هذا الانشغال للأسف عن أى نتيجة ذات شأن.

- ٢ -

لابد أننى اتخذت هذا القرار فى سن مبكرة جدًا، وهو أن أحقق نوعا من التفوق أو التميز عن طريق الكتابة. ولابد أن كانت لهذا القرار علاقة وثيقة بالمكانة العالية التى كانت تحتله الكتابة والتأليف والنشر فى أسرتنا.

كانت شهرة أبى ومكانته العالية فى المجتمع يعودان إلى هذا وحده: الكتابة والتأليف. نعم لم يكن أبى يتمتع بشهرة تضاهى شهرة طه حسين أو العقاد أو توفيق الحكيم، ولكنها كانت فى نظرنا نحن الصبية الصغار، تضاهى شهرة هؤلاء وتزيد عنها. كنا نرى لأبى مقالا بعد آخر فى مجلة بعد أخرى، ونرى صورته إلى جانب المقال، ونسمع صوته وهو يلقى حديثا فى الإذاعة، ونسمع جرس التليفون يرن فإذا بالمتكلم هذا الكاتب الكبير أو ذاك، وفى الأعياد نرى ساعى البريد يحمل له عددا كبيرا من كروت المعايدة، كثير منها لأسماء معروفة ومشهورة، وعلى الظرف اسم أبى مقترنا بعبارة «الكاتب الكبير» أو حتى فى بعض الأحيان «عميد الأدب العربى». وكل هذا أتى من الكتابة والتأليف، فما أعظمها من مهنة، وما أجدرها بالاقتداء!

ولكن إلى جانب هذا لابد أن هناك عاملا آخر، يتعلق بقدرتى أنا الذاتية على الكتابة. إذ لا جدوى من أن أتظاهر بغير ما أعتقده، وألا أعترف باعتقادى بأن لدىّ قدرة على التعبير الواضح والسلس عن نفسى بدرجة تفوق قدرة كثيرين غيرى. لابد أن كان لدىّ استعداد طبيعى للتعامل مع الكلمات ولتمييز الأسلوب الجميل عن القبيح. هذا الاستعداد اتضح مبكرا لمدرسى اللغة العربية فى المدرسة الابتدائية فكانوا يعطوننى دائما درجة عالية على ما أكتبه من موضوعات الإنشاء أو فى مادة «التعبير»، كما كانت تسمى فى مدرستى النموذجية، وكثيرا ما كان المدرس يكتب جملة أو جملتين من الثناء على ما أكتبه من نوع «لابد أنك ستصبح أديبا ممتازًا» أو «أتنبأ لك بهذا وذاك..» وكان هذا يسرنى سرورا عظيما، إذ لم أدرك وقتها أن كثيرا من عبارات الثناء هذه كان المقصود بها أبى فى المقام الأول، فقد كان كثير من

مدرسي اللغة العربية حريصين على أن يحصلوا على رضاه، وأن يعرّفوه بأنفسهم، عسى أن يستطيعوا في يوم من الأيام تحقيق بعض النفع من وراء ذلك. ولكن يجب ألا أبالغ في هذا أيضًا، فلا شك أن بعض هذا الثناء كان في محلّه.

لاشك أنني تبينت أو ظننت في نفسي بعض التميز في القدرة على الكتابة في سن مبكرة للغاية، تعود إلى سنوات روضة الأطفال (وكانت تبدأ حينئذ من سن الخامسة وتنتهي في الثامنة)، إذ من بين أولى ذكرياتي عزمي على كتابة قصة لكي أعرضها على مدرسة رقيقة من المدرسات كان اسمها «أبله فاطمة»، وأني كتبت هذه القصة بالفعل، وذهبت في اليوم التالي متلهفا أشد التلهف على إعطائها لها، ولكنها، لخيبة أملي الشديدة، لم تحضر إلى المدرسة في ذلك اليوم، بل ولم تظهر في المدرسة بعد ذلك قط، وبالتالي لم تقرأ قصتي ولا قرأها غيرها.

بعد هذا بسنتين أو ثلاث، وكنت في الثامنة أو التاسعة من عمري، اشتركت مع أخويّ حسين وأحمد، في كتابة مجلد يتكون من تسع صفحات، ويحتوي على ثلاث قصص قصيرة. كانت قصتي، التي تقع في نحو ثلاث صفحات، تحمل هذا العنوان التراجيدي «دنيا»، وكانت مأساوية بالفعل، إذ كان موضوعها حلمًا زعمت أني حلمته، وتعرضت فيه لأحداث مأساوية متتالية، منها تعرضي للتعذيب القاسي من مختلف الأنواع، على يد سيدة غليظة القلب بشعة المنظر، دون أن يتبين في الحلم أي سبب واضح لهذا التعذيب. وتنتهي القصة بأن أسأل عن اسم هذه السيدة فاكتشف أن اسمها «دنيا»، فأقول في نفسي «نعم، كم أنت قاسية يا دنيا». وبهذه الجملة تنتهي القصة، وأستيقظ من نومي، وأكتشف أن كل هذا لم يكن أكثر من حلم. للقارئ أن يتصور الحالة النفسية التي يمكن أن تدفع طفلا في الثامنة من عمره إلى أن يكتب قصة كهذه، وأن يصف «الدنيا» على هذا النحو. وأنا أميل إلى تفسير تلك الحالة النفسية بموقعي كأصغر طفل في العائلة وتعرضي المستمر لمضايقات أخويَّ اللذين يكبرانني مباشرة: حسين وأحمد.

كانت القصة الوحيدة من بين القصص الثلاث، التي تتمتع بأي قيمة أدبية على الإطلاق، هي قصة حسين، أو هكذا على الأقل ظللت أعتقد لسنوات كثيرة، كلما

قرأتها من جديد. كانت تحمل عنوان «كهولة مرحة»، وكانت، على عكس قصتى، خفيفة الظل ومشوّقة بل وذات مغزى.

كان هذا فى سنة ١٩٤٣ أو ١٩٤٤، ولا تزال لدىّ حتى الآن نسخة من هذا «المجلد»، وهو مطبوع طباعة أنيقة فى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، التى أسسها أبى ومجموعة من أصدقائه فى سنة ١٩١٤، وظل رئيسا لها حتى نهاية حياته. كما أنه كان «مجلدا» بمعنى الكلمة، أى كانت له جلدة حمراء أكثر سمكا من بقية صفحات الكتاب، كتبت عليها أسماء القصص والمؤلفين وتحت اسمى كتبت عبارة «تلميذ بالسنة الثانية فى المدرسة الابتدائية». كنا نعتبر موافقة أبى على طباعة مثل هذه القصص بمطبعته أمرا طبيعيا ولا ينطوى على أى تسامح أو كرم من جانبه، بل كنا نعتبر ذلك واجبا عليه. والحقيقة أنه كان من أسهل الأمور عليه أن ينهرنا ويأمرنا بالكفّ عن هذا الكلام الفارغ ولكنه لم يفعل. وافق أبى أيضًا بعد هذا بسنوات قليلة، وكنت فى نحو الحادية عشرة من عمرى، على أن تُطبع فى مطابع لجنة التأليف مجلة أسستها أنا وعدد من أصدقائى تحمل اسم «عصفور النيل»، صدرت منها ثلاثة أو أربعة أعداد ثم احتجبت عن الصدور عندما حققت الغرض الأساسى من إصدارها وهو أن نرى أسماءنا مطبوعة، وموصوفة بألقاب مثل رئيس التحرير، أو حتى رئيس مجلس الإدارة، وهو منصب لم يكن من الممكن أن يحتله شخص غيرى، ليس فقط لأن المجلة تطبع فى مطابع أبى، ولكن لأنى أنا الذى كنت أكتب معظم مقالات المجلة.

الأغرب من هذا أن أبى، عندما بلغت أنا وأخى حسين سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، كان يسمح لنا بنشر بعض ما نكتبه فى مجلة «الثقافة»، تلك المجلة الرفيعة التى كان يرأس تحريرها طوال عمرها، باستثناء السنة أو السنتين الأخيرتين السابقتين على إغلاقها، والتى لعبت دورا مهما فى الحياة الثقافية فى مصر فى الثلاثينات والأربعينات. بالإضافة إلى هذه المقالات القليلة التى نشرت بفضل تسامح أبى وكرمه، كتبت أشياء كثيرة أخرى مما لم يكن يتصور نشره فى أى مكان. كنت حتى دخولى الجامعة دائم التأليف للكتب المخطوطة بخط اليد. لم تكن كتبا

ضخمة، بل إن بعضها لم يكن يزيد حجمه على عشرين صفحة، يتكون معظمها من صفحة الغلاف، وصفحة الإهداء، ثم صفحة المحتويات والمقدمة، يليها خمس أو عشر صفحات قبل أن تأتى الخاتمة. كان المهم هو بالطبع مراعاة القواعد الصارمة التى تراعى فى أى كتاب: فلابد للكتاب من إهداء وصفحة محتويات، وقد تأتى تحت عنوان الكتاب عبارة بليغة لكاتب مشهور، بل وربما ذكرت على صفحة الغلاف أن هذا هو الجزء الأول من عدة أجزاء سوف تصدر تباعًا. وقد يتضمن الكتاب قصصا وأشعارا ومجموعة من الأقوال المأثورة وبعض الخواطر الفلسفية، وقد يضم موضوعا للإنشاء كتبته لأحد المدرسين وعبّر عن إعجابه به. كما أذكر أنى فى سن السادسة عشرة عندما قرأت الترجمة العربية لكتاب آلام فيرتر لجوته تأثرت به تأثرا شديدا، جعلنى أقرر أن أكتب قصة عاثلة أصب فيها ما كنت أشعر به من حب لابنة الجيران، فصعدت إلى سطح المنزل وجلست فى الشمس ومعى الورق والقلم وشرعت أكتب كتابا بأكمله، دون أن يكون لدىّ أدنى فكرة عن موضوع القصة أو كيف تبدأ وكيف يمكن أن تنتهى، ومن ثم لم أكتب إلا سطرين ثم نسيت المشروع بأكمله.

كان من المحتم أيضًا أن أجرّب الشعر كما جرّبه غيرى، قبل أن أكتشف مثلما اكتشف كثيرون غيرى، عدم وجود موهبة بتاتا فى هذا المجال. وأظن أنى كنت فى نحو السابعة من عمرى عندما بدأت أكتبِ قصيدة أعبر بها عن فرحى بعودة أمى من سفرها، فقلت فى البيت الأول:

أمى العزيزة قد أتت　　　أمى العزيزة قد أتت

ثم توقف الإلهام تماما عند هذا الحد. وعندما ذكرت لأبى ما حدث تصادف أن كان خالى البال فقرر تشجيعى بأن يؤلف بنفسه بيتين إضافيين على أمل أن أضيف إليهما فيما بعد فقال:

هيّا بنا إليها　　　نلقى السلام عليها

نقول يا أم أهلا　　　ومرحبا وسهلا

ولكن هذه المساعدة السخيّة من جانبه لم تثمر أى شىء جديد من جانبى.

-٣-

كنت أصغر من أن يلحقنى أى أثر ذى شأن من الحرب العالمية الثانية . فقد قامت الحرب قبل أن أبلغ الخامسة من عمرى وانتهت وأنا فى العاشرة . نعم أذكر صفارات الإنذار وصفارات الأمان ، وأنها كانت صفارات حقيقية وجدية تبعث الأولى الخوف وتعيد الثانية الطمأنينة ، وذلك بعكس صفارات الإنذار والأمان التى سمعناها بضع مرات خلال حرب ٥٦ وحرب ١٩٦٧ ، إذ لم نكن نأخذ هذه مأخذ الجد ، وكنا على حق فى الاعتقاد بأنها كانت فى أغلب الأحيان ، من بين وسائل الحكومة لإيهام الناس بأن هناك قتالا حقيقيا .

اذكر أيضًا جرينا إلى المخبأ فى بدروم المنزل ، وصيحات الناس فى الشوارع بضرورة إطفاء الأنوار ، ولكنى لم أسمع صوت قنبلة قط أو مدافع ، وإن كنت أذكر رؤية أضواء الكشافات فى السماء التى تبحث عن الطائرات المغيرة . من ذكرياتى القليلة عن سنوات الحرب حرص أمى على تجميع الجرائد والمجلات التى فرغ أبى من قراءتها . كان الورق فى تلك السنوات شيئًا ثمينًا بسبب صعوبة الاستيراد ، حتى إن ثمن ما تبيعه أمى من هذه الجرائد كان يغطى ثمن كل ما تشتريه من خضراوات بالإضافة إلى بعض الفاكهة . أذكر أيضًا تهكم الصحف بما تنشره من رسوم فكاهية بمن كانت تسميهم «أغنياء الحرب» ، وهم من جمعوا ثروات طائلة من التجارة بأشياء أصبحت نادرة بسبب الحرب ، أو بسبب تعاملهم مع قوات الجيش الإنجليزى المنتشرة فى مصر . على أن أهم آثار سنوات الحرب على حياتنا العائلية كان أثرا طيبا ولم يتبق منه فى ذهنى إلا ذكريات وصور سارة للغاية . كان هذا هو قضاؤنا لبعض شهور الصيف من كل عام ، فيما بين ١٩٤٠ و١٩٤٥ ، فى رأس البر ، إذ ظلت الإسكندرية طوال هذه السنوات معرضة لأخطار كانت رأس البر بعيدة عنها . ومن الصعب علىّ أن أنقل إلى القارئ صورة لما كانت عليه رأس البر من جمال ورونق فى تلك الأيام ، بالمقارنة بما آلت إليه فيما بعد . لابد أنها كانت تستقبل فى كل عام عائلات من علية القوم ، من رجال السراى إلى الباشوات من الإقطاعيين ، إلى كبار

المهنيين والميسورين من الطبقة الوسطى فى مصر . وكان أبى يعتبر التصيف شيئا شبه مقدس، بعكس كثيرين غيره من المنتمين إلى نفس طبقته ووضعه الاقتصادى، ومن ثم فقد نشأت وكبرت على فكرة أن التصيف «من ضرورات الحياة»، وأعتبر البقاء طوال الصيف فى القاهرة أمرًا غريبًا حتى الآن ، بعكس كثير من أصدقائى وزملائى الذين لا يعتبرونه شيئًا ضروريًا على الإطلاق .

لابد أن كان لرأس البر سحر خاص للأطفال، فالبيوت ليست إلا عششا مقامة على أرضيات من الخشب، والشوارع رملية غير مرصوفة فلا تسمح بمرور أى نوع من السيارات أو الدراجات، ومن ثم للأطفال أن يجروا ويلعبوا حول بيوتهم دون أن يخشى عليهم من شىء. واليوم ينقضى بين عوم فى البحر فى الصباح، وركوب القوارب الشراعية فى النيل فى المساء، أو التمشية على كورنيش النيل الساحر، حيث يجتمع البائعون لكل ما يمكن أن يخطر ببال طفل. من بين كل هذا التصقت فى ذهنى أربع أو خمس صور لا يمكن أن يمحوها الزمن، وتعود إلى ذاكرتى بين الحين والآخر قوية واضحة، ليس فقط فى شكلها الذى رأيتها به وأنا فى السادسة أو السابعة من عمرى، بل وتكاد أيضًا تعود إلىّ رائحتها ومذاقها .

من بين هذه الصور التى لا أنساها صورتى أنا وأخى حسين ونحن جالسان فى إحدى الفنادق الفاخرة التى أقيمت على شاطئ النيل فى رأس البر، وقد أحضر إلينا الخادم ما طلبنا منه إحضاره وهو «شاى كومبليه»، ويتكون من إبريق فاخر للشاى، وإبريق آخر أصغر قليلا للماء الساخن، وإناء آخر صغير له لمعان الفضة للسكر، ومثله للبن. وإلى جانب كل هذا يأتى لكل منا طبق صغير وسكين وشوكة وملعقة لكى نأكل منها قطع الكيك الإنجليزى الفاخر، المحلى بقطع الفاكهة المجففة، وقطع التوست، بعد أن نغطيه بالزبد والمربى. كان كل هذا يشمله هذا التعبير المختصر «شاى كومبليه» (أى الشاى الكامل) . ويصعب علىّ أن أفهم الآن بالضبط ما سحر هذا الشاى الكومبليه فى نظر طفلين صغيرين يتراوح عمرهما بين السادسة والتاسعة، ولكن مما يمكن أن يلقى ضوءا على هذا السحر الخاص الواقعة التالية : كان أبى قد أخذنا يوما إلى هذا الفندق (وأظن أن اسمه كان فندق رويال) كنوع من

الفسحة لتعويضنا عن حرماننا شبه المستمر منه وهو مستغرق طوال الوقت فى القراءة والكتابة. وسمعناه يطلب لنا «شاى كومبليه»، بينما طلب لنفسه فنجانا من القهوة بدون سكر، إذ كان ممنوعا من أكل أى نوع من الحلويات. فلما أتى الخادم بهذا الشاى كومبليه لابد أن أذهلنا، ليس الأكل نفسه، بمقدار ما كان يأتى معه من أشياء بديعة تبرق فى الضوء، من إبريق الشاى إلى أصغر ملعقة. لابد أن طعم الأكل فى هذا الإطار الفاخر من الفخامة والأبهة، كان له لذة مضاعفة، ناهيك عما لهذه الأشياء فى فم طفل صغير من لذة، فى أى ظرف من الظروف، تفوق بكثير ما يمكن أن يكون لها لدى الأكبر سنا. رأينا إلى جوارنا شابين يلعبان الطاولة، فاستقر عزمنا ـ أنا وحسين ـ أن ندخر مصروفنا لبضعة أسابيع حتى نستطيع أن نخرج وحدنا، أنا وهو فقط، إلى فندق رويال، فنطلب الشاى كومبليه ثم نطلب طاولة لنلعب بها لعبة «العادة» تعقبها لعبة «المحبوسة».

عندما أتذكر هذا النعيم الذى كانت تمرح فيه الطبقة الوسطى والطبقة العليا فى مصر، فى أشد أيام الحرب العالمية قسوة على الأوروبيين، أعود فأتعجب من درجة «التدليل» التى تمتعت بها الطبقة الميسورة فى مصر، على مرّ العصور، بالمقارنة بدرجة المعاناة التى تعرضت لها كافة الطبقات الاجتماعية فى أوروبا بين فترة وأخرى، إما بسبب الحرب أو بسبب الأزمات الاقتصادية الطاحنة.

تصف لى زوجتى (وهى إنجليزية وكانت تنتمى فى مجتمعها إلى نفس الطبقة الاجتماعية التى كنت أنتمى إليها فى مصر، وقد ولدت فى نفس السنة التى نشبت فيها الحرب العالمية)، مختلف أوجه الحرمان التى تعرضت لها هى وأسرتها فى سنوات الحرب، وكيف كان الجميع، ميسورين أو غير ميسورين، يعتبرون من قبيل المسلمات اشتراك الجميع فى التضحية. حكت لى مثلا كيف أن أخويها اللذين يكبرانها فى السن كانا يغيظانها وهى طفلة، ويعيّرانها بأنها «طفلة حرب»، قاصدين بذلك أنها، وقد ولدت مع نشوب الحرب، لم تتمتع بما كانا يتمتعان به قبل الحرب من الحلويات والشوكولاتات التى اختفت تقريبا من الوجود طوال سنوات الحرب. وكيف أن أسرتها قبلت عن طيب خاطر أن يقيم معها، فى منزلها الواقع فى مدينة

صغيرة فى وسط إنجلترا، ولعدة شهور، ست عشرة امرأة وطفلا ممن كانوا يقيمون فى لندن، حيث ذهب الرجال للقتال وجرى تهجير النساء والأطفال إلى خارج العاصمة ووزعوا على المدن البعيدة لتقليل عدد ضحايا القنابل. وحكت لى أيضًا كيف كانت أمها مع عدد كبير من النساء عضوات فيما كان يسمى بـ «جيش الأرض»، إذ كنّ يقمن بزراعة بعض الأراضى إلى جانب أعمال أخرى، بدلاً من الرجال من المزارعين الذين ذهبوا إلى جبهة القتال.

* * *

لابد أننا قضينا عطلة الصيف فى رأس البر فى أربع أو خمس سنوات متتالية خلال الحرب، فلما انتهت الحرب عدنا إلى قضاء الصيف بالإسكندرية. ثم مرت سنوات كثيرة دون أن أحظى برؤية رأس البر مرة أخرى، إلى أن خطر ببالى بعد مرور ١٢ سنة على انتهاء الحرب، أى فى ١٩٥٧، أن أذهب مع بعض الأصدقاء لقضاء بضعة أيام فيها تدفعنى الرغبة فى استعادة أيام هذا الماضى الجميل. ولكن كم كانت خيبة أملى. كانت العشش قد حل محل معظمها بيوت قبيحة مبنية بالطوب والحديد والأسمنت، وكان اكتظاظ شاطئ البحر وشاطئ النيل بالناس شديداً لدرجة كان لابد أن تختفى معها أى مسحة من الجمال. بحثت عن الودع الجميل القديم الذى كان يزين الممرات المؤدية إلى كثير من «المبانى» (أو العشش) الحكومية، كمبنى المحافظة أو الشرطة أو المطافى، فلم أجد له أثرا، ناهيك عن الشاى الكومبليه فى فندق رويال، إذ حل محل هذا الفندق فندق آخر يحمل اسما أكثر شعبية ولا يقدم شايا من هذا النوع.

كان من الواضح أن الطبقة التى كانت تتمتع وحدها برأس البر منذ اثنى عشر عاما قد طردت شر طردة إلى مكان آخر، وحل محلها أعداد غفيرة من الناس ينتمون إلى طبقات شعبية أعادت لها ثورة يوليو بعض حقوقها الضائعة. عدت كسير الخاطر إلى القاهرة، أحمل فى رأسى نفس الأفكار الاشتراكية التى نادت بها ثورة يوليو، ولكن قلبى كان يحن بلا شك لأيام «الشاى الكومبليه».

- ٤ -

كنا ونحن صبية صغار لا ننظر إلى السينما إلا على أنها مصدر رائع للمتعة الخالصة. وقد كانت بالفعل كذلك. كان بجوار منزلنا بمصر الجديدة، الذى ولدت وتربيت فيه حتى بلغت الثانية عشرة من عمري، سينما صيفية جميلة تعرض أفلاما عربية وأجنبية. وكان الحصول على إذن أبى لى ولأخى حسين بالذهاب إليها مصدرًا للفرح الغامر، نظل نعبّر عنه بالجرى تارة وبالصراخ تارة أخرى حتى يحين موعد الفيلم، أو بالأحرى حتى لا يبقى على موعد بداية الفيلم إلا ساعة واحدة أو ساعتان فنذهب إلى السينما ونجلس منتظرين بدء الفيلم على أحرّ من الجمر. كانت الأفلام العربية كلها من نوع الميلودراما الصارخة، الشرير فيها شرير جدّا والطيب فيها طيب للغاية، والفيلم كله صراع مفضوح تماما بين الاثنين، وينتهى بالطبع بانتصار الطيب على الشرير، ولكن بعد أن يكون بين هذا الشرير والانتصار خطوة قصيرة واحدة، أو طعنة واحدة بالخنجر، ثم يتدخل الشخص الطيب فى آخر لحظة. لم يكن شيء من هذا يضايقنا بتاتا، بل كان يلائم عقليتنا وسننا حينئذ تمام الملاءمة.

هكذا كانت أفلام بدر لاما، الفارس الشجاع تمامًا، وسراج منير، البطل المغوار فى فيلم عنتر وعبلة، وزكى رستم، الذى كان وجهه يلائم أدوار الشرير، ومحمود المليجى الذى كان رائعًا دائمًا فى تدبير المؤامرات والمكائد فى الخفاء للأشخاص الطيبين، وعبد الفتاح القصرى الذى كان يلائمه دور رئيس العصابة.. إلخ.
وهكذا كانت أفلام يوسف وهبى الرائعة، مع ليلى مراد الفتاة الرقيقة الجميلة، سواء مثلت فى فيلم ليلى بنت الأغنياء أو ليلى بنت الفقراء، وكذلك عندما مثّلت فيلم «ليلى» بدون أى وصف.. إلخ.

وعندما دخل أحمد سالم ميدان السينما ومثل أدوار البطل بوقار وهدوء غير معهودين، أثر فينا جدّا فيلمه مع ليلى مراد أيضًا، الذى فقد فيه ذاكرته بسبب حادث سيارة، وانقضى الفيلم كله فى محاولة لإرجاعه لزوجته المسكينة، وتفشل

كل الجهود التى يبذلها الأشرار لإثناء زوجته عن محاولة العثور عليه، أو لتزويج أحمد سالم بغير زوجته الحقيقية، حتى تعود الذاكرة ويعود إلى زوجته وينتهى الفيلم نهاية سعيدة جدًا. كانت أفلام نجيب الريحانى مختلفة عن هذا، وأظن أننا لم نقدرها حق قدرها إلا فى سن أكبر قليلا، ولكنها كانت رائعة بدورها فى خفة ظلها وتصويرها للشخصيات وللفوارق الصارخة بين الطبقات. تعرفنا أيضًا من خلال السينما على موضوعات روايات عالمية كالبؤساء لفيكتور هوجو، وغادة الكاميليا لألكسندر ديما، وغيرهما مما قدّر منتجو الأفلام عندنا ملاءمته للذوق المصرى، ولكن بعد أن أدخلوا عليها كل ما خطر ببالهم من تعديلات رأوا أنها تزيد من إقبال الشعب المصرى عليها، وكان تقديرهم فى محلّه.

كان اسم هذه السينما القريبة من منزلنا «سان استيفانو» عندما كنت فى السادسة أو السابعة من عمرى، ثم تغير اسمها إلى فريال بعد أن رزق الملك فاروق بابنته الأولى فريال وأنا فى الثامنة أو التاسعة، ثم تغير اسمها إلى سينما التحرير بعد ذلك بسنوات، عندما قامت ثورة يوليو. وكانت تعرض إلى جانب الأفلام العربية ما كان يناسبنا من أفلام أمريكية. وقد أغرمت على الأخص بأفلام لوريل وهاردى، اللذين كنا نسميهما (التخين والرفيّع)، إذ كان من الصعب علينا نطق اسميهما الحقيقيين، وأفلام شيرلى تمبل التى كانت حينئذ طفلة صغيرة، واستغربت جدًا وخاب أملى عندما رأيت صورتها بعد ذلك بسنوات كثيرة فإذا بها امرأة عادية كبقية النساء، وأفلام ميكى رونى الذى بدا لى وقتها رائعًا أيضًا، ثم خاب أملى جدًا عندما شاهدته فى أفلام أخرى بعد ذلك بسنوات إذ وجدته رجلا بالغ القصر وخاليا من أى جاذبية. كما أغرمنا جميعا بأفلام طرزان حيث بدا لنا ما يتعرض له من أخطار من الحيوانات المفترسة أخطارا مخيفة حقا، كما بدت قدرته على الانتقال من مكان إلى مكان آخر بعيد بالإمساك بأحد فروع الأشجار، أقرب إلى أعمال السحرة أو الجن.

عندما بلغنا سن المراهقة أصبحت تستهوينا أفلام من نوع آخر كالسابحات الفاتنات لإستر وليامز، وذهب مع الريح لكلارك جيبل، وجسر واترلو لروبرت تايلور. وسقطنا جميعا صرعى واحدة أو أكثر ممن قدر لهن أن يكنّ جميلات

السينما وقت بلوغنا سن المراهقة، كإنجريد برجمان وهيدى لامار وفيفيان لى . . إلخ، ولم يكن لدينا فى الأفلام المصرية من يستطيع منافستهن فى إيقاعنا فى الغرام. فليلى مراد مثلا، وإن كانت جميلة، لم تكن طاغية الأنوثة مثل ريتا هيوارث، كما أنها، وإن كانت تمثل أدوار الحب والغرام، لم نرها قط وهى تقبل حبيبها. وكوكا صاحبة وجه جميل قطعا، ولكننا لم نكن نعرف شيئا عن مدى رشاقتها إذ كانت الملابس البدوية التى ترتديها دائما تمنع ذلك.

كل هذا كان رائعا، واستمر حتى بلغت الخامسة عشرة أو نحوها. وهنا سمعنا من يقول كلاما عن السينما مثلما سمعنا عن الموسيقى الكلاسيكية، أى اعتبار رؤية بعض الأفلام أمرا حيويا لا لمجرد الاستمتاع والتسلية، ولكن كشرط لتحقيق سعة المعرفة والثقافة. وهكذا أصبح الذهاب إلى بعض الأفلام «واجبا»، مثلما أصبح الاستماع إلى سيمفونيات بيتهوفن. وكانت قد بدأت تأتى إلى مصر فى ذلك الوقت أفلام إيطالية مشهورة تنتمى إلى ما يسمى بالمدرسة الواقعية فى السينما، وكان أشهر مخرجيها لدينا هو فيتوريو دى سيكا، فرأينا له فى سينما أوديون فى وسط القاهرة عدداً من الأفلام الرائعة «سارقى الدراجات» و«حب وخبز ودلع»، ثم «حب وخبز وغيرة» وكثيراً غيرها، استمتعنا به غاية الاستمتاع كما أمدنا بموضوعات للحديث الجاد والتفلسف، فضلا عن التمتع برؤية جينا لولا بريجيدا التى لم نكتشف ضعفها فى التمثيل إلا بعد ذلك بسنوات كثيرة، إذ صرف نظرنا عن ذلك جمالها الأخاذ، خاصة عندما كانت تمثل أدوار فتاة فقيرة مهلهلة الثياب. كما أثرت فينا بشدة أفلام مثل: «الطريق» لفيلليني، رغم خلوه التام من أى امرأة جميلة، أو «روكو وإخوته» لفيسكونتى. . إلخ، مع بداية نمو شعورنا بالمشكلة الطبقية فى مصر وبداية تعاطفنا مع الأفكار الاشتراكية.

- ٥ -

كنت فى نحو العاشرة من عمرى عندما لاحظ أبى أنى كثيرا ما أدندن بأغنية ما وأنا رائح أو غاد فى البيت، أو أنى أجلس ملتصقا بالمذياع الكبير فى صالة المنزل عندما تذاع أغنيةٌ جديدة لأم كلثوم أو عبد الوهاب. فاجأنى يوما وهو يدخل المنزل

حاملاً «كمنجة» في صندوقها الكبير فإذا بها لي، ونصحني بترتيب دروس للكمان مع المدرس الإيطالي الذي يعطي دروسا خصوصية في بيته القريب من بيتنا. ذكر لي أنه، وقد لاحظ مني شغفا بالموسيقى لم يلاحظه من أي من إخوتي من قبل، استدعى شخصا يعمل في لجنة التأليف التي يرأسها، اسمه عباس أفندي، ووظيفته أن يقوم بأي عمل خارج المألوف يطلبه منه أي عضو من أعضاء اللجنة، ناهيك عن رئيسها، وميزته أنه ناصح ويجيد المساومة في البيع والشراء، وطلب منه أن يعثر لي على كمنجة مستعملة فجاءه بهذه التي لم تكلف أبي أكثر من جنيه واحد.

كان أبي يخشى بالطبع أن تضيع موهبة فنية كامنة وراء كل هذه الدندنة والغناء، ومن ثم رأى من الحكمة أن يغامر بهذا الجنيه من أجل اكتشاف ما إذا كانت هناك فعلا موهبة دفينة. وقد رتبت بالفعل الدروس مع المدرس الإيطالي دون حماس كبير، وتحمل أبي بالطبع نفقاتها عن طيب خاطر. ولكن سرعان ما سئمتها وتوقفت عن الذهاب، بعد شهرين أو ثلاثة، ولم أعد المحاولة إلا مرة واحدة أخرى مع مدرس إيطالي آخر بعد أن بلغت العشرين، ولكن هذه المحاولة لم تستمر بدورها أكثر من أسبوع أو أسبوعين. ومع ذلك فإن هذه الدروس القليلة لم تضع هباء. فقد تعلمت كيف أمسك بالكمان بيدي وذقني، وكيف أمسك بالقوس وكيف أضبط الأوتار، والعلاقة بين كل وتر وبقية الأوتار، وقد مكنني ذلك من التجربة وإعادة التجربة شهورا وسنوات حتى أصبحت قادرا على عزف أي قطعة موسيقية أستطيع أن أغنيها بصوتي، وكانت النتيجة سارة دائما بالنسبة لي وإن كانت نادراً ما تكون سارة لأي شخص آخر.

كان غرامي في ذلك الوقت، أي فيما بين سن العاشرة والعشرين، منصبا على أغاني أم كلثوم، بل وكاد أن يكون قاصرا على أغاني رياض السنباطي الجديدة في ذلك الوقت، مثل: «غلبت أصالح في روحي» و«سلوا قلبي» و«نهج البردة» و«جددت حبك ليه» و«يا ظالمني»... إلخ. كنت أحفظها كلها، كلاما ولحنا، عن ظهر قلب، وكانت كلها تجلب لي نشوة فائقة. كنت إذا سمعت عن قرب ظهور أغنية جديدة لأم كلثوم أترقب سماعها بفارغ الصبر، وأتخذ كل ما يلزم من

استعدادات للإنصات إليها فى حفلاتها الشهيرة فى الخميس الأول من كل شهر، الذى أصبح لهذا السبب يوما مهما فى حياة المصريين. وكانت الأغنية الجديدة لأم كلثوم معناها فى ذلك الوقت، أى فى أواخر الأربعينات وطوال الخمسينات، أغنية من تلحين السنباطى، إذ كان زكريا أحمد، ذلك الملحن الآخر الفذ، فى خصام شديد مع أم كلثوم، وكان محمد القصبجى ذلك الملحن العبقرى بدوره، قد توقف لسبب أو آخر عن التلحين لها. أدى هذا وذاك إلى حرمانى من الاستمتاع لمدة طويلة بأعمال زكريا أحمد والقصبجى. كانت أم كلثوم تغنى أحيانا، حتى أثناء خصامها مع زكريا، أغنية مما لحنه لها قبل الخصام، ولكن فى الوصلة الأخيرة من حفلاتها الشهرية. وكانت هذه الوصلة تبدأ عادة بعد الساعة الثانية صباحا، وكان يستحيل علىّ أن أقاوم النوم حتى ذلك الوقت، مهما حاولت. ولكن ربما كانت سنى آنذاك، على أى حال، أصغر من أن تسمح لى بتقييم زكريا والقصبجى التقييم الصحيح، فكانت تؤثر فى نفسى أكثر من اللازم «القفلات» (النهايات) الدرامية للسنباطى، لكل مقطع من الأغنية، وكنت أقل قدرة على تقدير التناسق البديع فى ألحان زكريا أحمد، والقدرة المستمرة على الابتكار عند القصبجى. تجرأت مرتين فذهبت بمفردى إلى حفلة أم كلثوم الشهرية، مرة فى مسرح الأزبكية ومرة فى سينما راديو بوسط البلد، ولم تكن تجربتين ناجحتين تمامًا. لا أذكر من الحفلة الأولى إلا رجلا سمينا قصيرا واقفا وحده فى مقصورة ملاصقة لخشبة المسرح التى تقف عليها أم كلثوم، لم يجلس قط طوال الحفلة، وظل يلح عليها فى نهاية كل مقطع بأن تعيده مرة أخرى مناديا إياها دائما بـ «يا ست». وأذكر من الحفلة الثانية اضطرارى للجلوس فى أعلى الصالة الواسعة جدًا، صالة سينما راديو، بسبب ارتفاع أسعار التذاكر الأخرى، فإذا بى أجد نفسى بعيدا جدًا عن أم كلثوم ويحيط بى مجموعة من أولاد البلد من أصحاب المزاج، ربما فيما يتعلق بالحشيش أكثر مما يتعلق بأم كلثوم، ومن ثم لم يكن يهمهم كثيرا مسار اللحن أو الأغنية، وكثيراً ما كانوا يبدأون بالهتاف طالبين إعادة المقطع قبل انتهائه تمامًا، فضلا عن بائعى الشاى والقهوة السائرين باستمرار بين الصفوف ينادون على بضاعتهم ويوزعون الطلبات أثناء

الغناء. كانت النتيجة أنني بمجرد انتهاء الوصلة الأولى أسرعت بالخروج، ولا أزال أذكر كيف جريت بأقصى سرعة فى ميدان التحرير لكى أركب الأتوبيس الذى يعود بى إلى البيت، حتى أصل قبل بداية الوصلة الثانية فأواصل الاستماع فى هدوء.

كانت هذه هى الفترة التى بلغت فيها أم كلثوم قمة شهرتها وتألقها، وأصبحت المصدر المتجدد دائما لسرورنا. مما علق بذهنى من هذه الفترة، وربما كان ذلك فى أواخر الأربعينات، أن سمعنا عن مرض أم كلثوم مرضًا خطيرًا يهدد بامتناعها إلى الأبد عن الغناء. وأصيب الشعب المصرى كله بالقلق البالغ وهو يتابع أخبار رحلتها إلى أوروبا لاستشارة الأطباء، ثم جاءنا الخبر المفرح بأن الأطباء نصحوها بأن أفضل شىء يمكن أن تفعله هو أن تستمر فى الغناء، كما كانت تفعل بالضبط. وأقيم لها عند عودتها احتفال كبير خطب فيه الأدباء والشعراء، ولم تحتفظ ذاكرتى من هذا الاحتفال إلا بالزجل الظريف الذى ألقاه الرجل الموهوب بديع خيرى والذى يبدأ بقوله «مين هوّه كلثوم ده يا بخته. اللى أنت اسماً تبقى أمه. واللى أنت فعلا ولا أمه. ولا بنت خاله ولا عمه». وانتهى إلى أن كلثوم هذا لابد أن يكون كروانًا مختبئا فى حنجرتها. كان هناك بالطبع محمد عبد الوهاب أيضًا، ولكن عبد الوهاب لم يستول على قلبى قط. كانت أغانيه التى لحنها فى هذه الفترة، أى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، قد اتخذت منحى جديدا يقوم على الإمعان فى الاقتباس من مختلف الألحان الغربية. ورغم أن النتيجة كانت دائما جذابة وتبقى عالقة بالذهن، إلا أنها لم تكن تحرك القلب (أو على الأقل لم تحرك قلبى أنا).

* * *

ثم حدث فى أواخر الأربعينات أن خطر لأبى، فى لحظة نادرة، أن يساير الحياة الحديثة فجاء إلى البيت بجهاز ضخم، أقرب فى حجمه إلى دولاب الملابس، وقال لنا إنه جهاز راديو جديد يمكن الاستماع من خلاله إلى أكثر من محطة بوضوح، فضلا عن احتوائه على فونوغراف، أى حمال أسطوانات، يعمل أتوماتيكيا، فلا يحتاج إلى شحنه باليد بالقوة اللازمة لكى تدور الأسطوانة. قال إن علينا استخدامه بعناية ولطف لأنه كلفه ستين جنيها. استقر هذا الجهاز الرائع فى وسط الصالة لما له

من منظر جذاب بخشبه الناعم اللامع، ولكننا نحن المراهقين من أفراد الأسرة لم يكن من الممكن أن يطيب لنا الاستماع إلى ما نريد الاستماع إليه مع وجود أبى أو أمى أو إخوتنا الكبار إلى جوارنا. كنا أحيانا نحاول نقل الجهاز إلى الحجرة التى نستقبل فيها أصدقاءنا، فكنا ننوء بحمله من فرط ثقله، فضلا عن الخوف من إغضاب أبى إذ كان يرى فى ذلك «دلعًا» أكثر من اللازم، ولا يتفق مع الحرص الواجب فى استعمال جهاز بهذا الثمن. ولكن ما هذا الذى كنا نريد الاستماع إليه على أى حال؟

كانت قد وصلت إلينا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية موسيقى راقصة، جديدة تمامًا على أسماعنا، ولكن بالغة الجاذبية لشباب مراهق مثلنا، وتحمل أسماء مثل التانجو والسامبا والرومبا. هذا هو ما كان أصدقاؤنا يريدون الاستماع إليه، ونحن أيضاً. كنا كلنا صبيانًا بالطبع، ولكن الخيال كان يعوض عن غياب البنات. بدأنا نسمع أيضا عن شيء آخر قيل إنه مهم، بل وعنصر أساسى فى تثقيف المرء لنفسه، وهو ما يسمى بالموسيقى الكلاسيكية. كان وصول كلا النوعين من الموسيقى إلينا جزءاً من حركة التغريب الجديدة التى ظلت فى حدود ضيقة للغاية فى العشرينات والثلاثينات، ثم تسارعت بشدة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية مع وصول المنتجات الأمريكية: الأفلام والصحف والملابس والسيارات والمأكولات والمشروبات التى ابتدعتها أمريكا، وكذلك أجهزة الراديو والفونوغرافات والأسطوانات الحديثة.

فى تلك الفترة قرأنا أيضًا بشغف كتاب توفيق الحكيم «زهرة العمر» الذى يصف بالتفصيل طريقة حياته فى فرنسا قبل الحرب، وفيه وصفه البالغ الحماس لحفلات الموسيقى التى كان يحرص على الذهاب إليها، ومشاعره عندما كان يجلس فى أعلى المسرح (لقلة ما معه من نقود) ليستمع إلى سيمفونية بيتهوفن الخامسة. كان الحكيم يصف هذا باعتباره شرطًا ضروريًا لأن يصبح المرء مثقفا، وحيث إننا كنا مهمومين بهذا الأمر فى تلك السن، فقد اعتبرنا الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية مسألة حياة أو موت، وتستحق حتى المغامرة بإغضاب أبى لنقلنا الجهاز الجديد من مكان إلى مكان.

هكذا أحرزنا تقدما لا بأس به في التعرف على موسيقى بيتهوفن وتشايكوفسكي وشوبان ورحماننوف ورمسكي كورساكوف . . إلخ ، وكان يسرنا أن نعرف أن سيمفونية بيتهوفن الثالثة كانت أصلا مهداة لنابليون ثم غيرّ بيتهوفن إهداءه غضبًا من هجوم نابليون على ألمانيا واكتفى بتسمية السيمفونية «البطولة» ، وظننا أن من المهم أن نعرف تشبيه افتتاحية سيمفونيته الخامسة «بدقات القدر على الأبواب» ، وكان هذا يشكل جزءًا مهمًا ، أو أي جزء على الإطلاق ، من المعرفة بالسيمفونية . . إلخ . .

لقد ذكرت هذه الأسماء بالذات لأنه قيل لنا بحق أن موسيقى هؤلاء الموسيقيين بالذات أسهل في فهمها وتذوقها من موسيقى غيرهم كفاجنر مثلا أو برامز ، فحرصنا على الحصول على أسطوانات هؤلاء واستمتعنا بها . وأذكر أنه في شارع قصر النيل بوسط القاهرة ، كان يقوم بجوار مقهى جروبي متحف الفن الحديث قبل أن ينقل إلى العجوزة ، وكان يحتوى على قسم للموسيقى يتاح فيه للزائر استعارة الأسطوانات بل وأن يستمع إلى بعض المؤلفات الكلاسيكية الغربية قبل أن يقرر استعارة بعضها . كانت مصر ، كما ترى ، مكرّسة كلها لخدمة شريحة صغيرة جداً من السكان هم الذين كانوا يستمتعون بكل خيراتها : جامعاتها ومدارسها ونواديها ومصايفها ، وكذلك متاحفها التى كانت تستطيع حينئذ ، بالنظر إلى قلة عدد زوارها من أبناء الطبقتين العليا والوسطى ، من ذوى الدخل المرتفع والسلوك المهذب ، أن تقدم لهم هذه الخدمة الممتازة : الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية واستعارة أسطواناتها .

أتاح لنا إذن قدوم هذه الأجهزة والاختراعات الجديدة فرصة التعرف على موسيقى الغرب الكلاسيكية والراقصة . ولكن حيث إن الطبقة التى كانت لديها القدرة الشرائية اللازمة للحصول على أجهزة الجرامافون والأسطوانات الحديثة ، كانت قد فقدت الكثير من ثقتها بالموسيقى العربية القديمة والغناء القديم وتقديرها لهما ، لم يشع إنتاج أسطواناتها فظلت الموسيقى العربية القديمة والغناء العربى القديم مسجونين فى حيز ضيق للغاية من برامج الإذاعة التى قد لا تبدأ فى إذاعتها إلا بعد

أن ينام الجميع. ومن ثم ظلت الأغانى العربية القديمة (أو ما يمكن أن تسمى أيضًا بالكلاسيكية) لا تحظى بأى اهتمام يذكر من جيلى من المصريين، بل وظلت معرفتنا بها ضئيلة للغاية. كان الراديو يذيع أحيانا ألحانا لمحمد عثمان أو داود حسنى بصوت مطربين أكثر حداثة كصالح عبد الحى أو عزيز عثمان، ولكننا كنا وقتها قليلى الاستجابة لهذه الألحان، بل كانت تبعث فى نفوسنا الملل (المقترن أحيانا بالسخرية)، إذ ظننا أن من المستحيل مقارنتها بأعمال بيتهوفن وتشايكوفسكى. وأما أغانى أم كلثوم وعبد الوهاب القديمة، والتى تعود إلى العقود الثلاثة الأولى من القرن، فكنا ننفر من رتابتها وبطئها وقلة اعتمادها على الإيقاع، فما أسرع ما كنا نغلق المذياع إذا بدأت إذاعتها. كان الأمر يحتاج إلى مرور سنوات طويلة قبل أن نكتشف أن من الممكن جدا المقارنة بين موسيقى جميلة لمحمد عثمان أو زكريا أحمد وموسيقى جميلة أيضًا لبيتهوفن أو باخ، وأن نحصل على نفس القدر من المتعة الخالصة من الاستماع إلى كلا النوعين من الموسيقى.

- ٦ -

كنت فى الثالثة عشرة من عمرى وكانت هى أصغر منى بسنة. كانت البنت الكبرى لأشهر مهندس معمارى فى مصر، وكانت أسرتها وثيقة الصلة بأسرة صديق لى كنت أقضى معه معظم أيام العطلة الصيفية، حيث كانت العائلات الثلاث تقضى شهرين أو أكثر من شهور الصيف فى الإسكندرية، ومن ثم كان لابد أن أراها كل صيف حيث كانت هى وأخواها لا يكادون يفترقون عن صديقى وأخته. كانت فتاة جميلة رقيقة، ناضجة الجسم بالنسبة لسنّها، وذات أنوثة طاغية، أو هكذا كنت أتصور فى تلك الأيام، فى بداية سن المراهقة. خفق لها قلبى بالحب فى هذه السن المبكرة دون أن ألاحظ أى صدى لهذا الشعور لديها، على الرغم من أنها كانت تعلم به وتلاحظ آثاره المتكررة على سلوكى. كانت خالية البال تمامًا، تلاحظ إعجابنا كلنا بها، وربما سرها ما كانت تراه من دلائل هيامى الشديد واضطرابى المفاجئ لدى ظهورها، دون أن يظهر لهذا أى أثر فى سلوكها هى. ثم

يكن هناك شيء غريب في هذا كله، لا في هيامي بها ولا في خلوّ بالها، وإنما المدهش حقا كان استمرار شعوري نحوها سنة بعد أخرى حتى قاربت التخرج من الجامعة. إن الصفحات التي دونتها في تلك السنوات فيما كنت أسميه «مذكراتي» يمكن أن تملأ كتابا كاملا، ولكني أشك في أن فيها جملة واحدة تستحق النشر، بما في ذلك قصائد الشعر التي ألفتها في وصف هذا الشعور، والخطابات الخيالية التي كنت أكتبها لها دون أن أرسلها. وامتد هذا الشعور القوي من جانبي إلى عائلتها كلها، فكنت اضطرب أيضًا عند رؤية أبيها أو أمها، وأعتبرهما سعيدي الحظ لمجرد أنها ابنتهما، يستطيعان لمسها بل واحتضانها متى شاءا. وكذلك كنت أعتبر أخويها الصغيرين شخصيتين مهمتين للغاية، وسعيدي الحظ أيضًا، إذ كثيرا ما كنت أراها تجفف جسميهما لدى خروجهما من البحر أو تنشر ثيابهما في الشمس.

من نافلة القول إن علاقتي بها ودرجة اقترابي منها لم تتجاوزا مصافحتها باليد، ولكن هذه المصافحة كانت كافية لإثارة مشاعر لا أظن أن من الممكن أن تعتري الإنسان في أي سن آخر، كما لا يمكن أن يتكرر ذلك النوع من الفرح إذا حدث أن صدرت عنها عبارة مجاملة صغيرة، ولا ذلك النوع من العذاب إذا صدر منها ما يوحي بالجفاء أو الإهمال.

أخذت هذه المشاعر تضعف شيئا فشيئا، بطبيعة الحال، حتى يجوز القول بأنني شفيت تماما من الحب في سن التاسعة عشرة أو العشرين، أي أن هذا الحب الأول قد استمر معي نحو ستة أو سبعة أعوام. بل إنني حتى بعد شفائي منه بسنتين أو ثلاث، صدر مني ما يدل على أن مثل هذا الحب الأول لا ينقضي بسهولة. فعندما فكر أخي حافظ في الزواج، وكان يبحث عن فتاة مناسبة ليتقدم لخطبتها بالطريقة التقليدية، حتى وإن لم يكن له بها أي معرفة سابقة، تجرأت ورشحت له حبيبتي القديمة، وأخذت أثني عليها هي وأسرتها حتى اقتنع حافظ واتصل بوالدها يطلب موعدا لمقابلته. لم يوفق حافظ في مسعاه، إذ بعد أن قام الوالد المؤدب بدعوته لتناول الشاي معه ومع ابنته، على أساس أن الرأي هو بالطبع رأيها، اعتذر له بعد بضعة أيام بأي عذر لا يجرح شعوره، وانتهى الأمر عند هذا الحد.

ظلت أخبارها تأتينى على فترات متباعدة عن طريق صديقى الذى عرفتها عن طريقه، فسمعت عن زواجها من شاب وسيم شديد الجاذبية، ثم طلاقها، ثم عن زواجها من جديد. ولكن كانت تمر أحيانا سنوات طويلة دون أن أسمع عنها شيئا، ودون أن تمر بخاطرى، إلى أن جاء يوم كنت أدرّس فيه فى الجامعة الأمريكية وجاءتنى طالبة جميلة من تلميذاتى بعد انتهاء المحاضرة، وانتظرتْ حتى انصرف بقية الطلبة وقالت لى بخجل إن والدتها طلبت منها أن تبلغنى سلامها. وسألتها عمن تكون والدتها فإذا بها محبوبتى القديمة. كان سرورى عظيما، وأخذت أبحث فى وجه الطالبة الجميلة عن وجه حبيبتى الجميل، فوجدت نفس العينين الرائعتين. كانت هى ابنتها من زوجها الأول، فلا شك أنها جمعت إلى جانب جمال أمها وسامة والدها. سألتها عن الأم فإذا بها تخبرنى أنها تعمل فى نفس الجامعة التى أدرّس بها.

ذهبت بالطبع لرؤيتها مدفوعًا بحب الاستطلاع أكثر من أى دافع آخر، إذ كنت أريد أن أرى ماذا فعل الزمن بها، وعما يمكن أن يكون قد فعل بشعورى نحوها. كان قد مضى على آخر مرة رأيتها فيها ما يقرب من ثلاثين عاما، ومع ذلك ها هى بنفس الجمال ونفس الأنوثة، أو هكذا خيُل إلىّ، وها هى نفس نبرة الصوت التى كانت يوما ما تقلب كيانى رأسا على عقب. لم يكن يعيبها الآن إلا شىء واحد، ولكنه مهم. فهى الآن امرأة من دم ولحم وليست رمزا للأنوثة بأمرها كما كانت فى نظرى منذ نحو أربعين عاما. قابلتنى بلطف بالطبع، وعبّرت عن سرورها بأن أكون أستاذا لابنتها، ولكن أدهشنى أن يتضمن كلامها بعض العبارات التقليدية والمألوفة وهى تعبر عن سرورها أو شكرها، وكأنى كنت أتوقع أن تستخدم فى الحديث لغة تختلف عن لغة بقية الناس. عبّرت لها عن رغبتى فى أن أدعوها هى وزوجها لزيارتنا فى منزلى فتتعرف على زوجتى وأتعرف على زوجها، فرحبت بذلك. وتمت الزيارة. كما قاما بدورهما بدعوتى أنا وزوجتى وأولادى لقضاء يوم فى مزرعة صغيرة يملكانها بالهرم، فذهبت مسرورا لمجرد أن أراها وأسمع صوتها من جديد، ولكنى سرعان ما اكتشفت أن هناك القليل من الأشياء المشتركة التى يهمها ويهمنى الحديث فيها.

(٨)

الجامعة

عندما أتذكر السنوات الأربع (٥١ ـ ١٩٥٥) التى قضيتها طالبا فى كلية الحقوق، بجامعة القاهرة، يستولى علىّ العجب من درجة الحرمان الذى تعرضنا له نحن الطلبة المصريين من أى حياة جامعية على الإطلاق. والمدهش أكثر من هذا أنه لم يكن يدور بخاطرنا حينئذ أننا نتعرض لأى حرمان بالمرة، إذ لم نكن ندرى شيئاً عما كان يجب أو يمكن أن يكون.

نعم، كانت كلية الحقوق مبنى ضخما جميلا، لا يزال طرازه المعمارى يلفت نظرى بجماله كلما مررت به حتى اليوم. ولكن كان هذا هو كل شىء. فالمبنى يتكون من مدرجين بالغى الضخامة، يتسع كل منهما لنحو ألف طالب، وهناك بهو متسع بينهما، يحيط به فى الدور الأرضى والعلوى مجموعة من حجرات الأساتذة وبعض الحجرات للإداريين، وحجرة العميد، وهذا هو كل ما نراه أو نعرفه فى هذا المبنى. كان كل المطلوب من الطلبة أن يدخلوا المدرج ويستمعوا إلى محاضرة بعد أخرى يلقيها أستاذ بعد آخر من خلال ميكروفون، ثم ينصرفوا إلى منازلهم حتى يحين موعد الامتحان. لا أذكر أنى جلست فى هذه الكلية على مقعد وثير، بل على أى مقعد على الإطلاق، عدا المقاعد الخشبية فى المدرج، ولا أنى تناولت مشروبا فيها أو طعاما، فليس هناك مكان للطعام يمكن أن يجلس فيه التلاميذ قبل المحاضرة أو بعدها. وليس هناك حجرة يمكن أن تجتمع فيها أعضاء جمعية ثقافية أو موسيقية أو سياسية، إذ لم تكن هناك أى جمعية على الإطلاق. بل لا أذكر أنى حتى دخلت حجرة من حجرات الأساتذة باستثناء مرة واحدة أو مرتين، وأنا طالب فى الدراسات العليا، كانت إحداهما لتأدية امتحان شفوى، والأخرى لأطلب خطابا

للتوصية لتقديمه لجامعة إنجليزية قبل سفرى فى البعثة . لهذا كانت رؤيتنا لوجه أحد الأساتذة عن قرب وهو سائر فى بهو الكلية ، أشبه برؤيتنا لوجه شخص مثل رئيس الجمهورية ، أو ممثل سينمائى أو مسرحى مشهور ، ممن لا نراهم عادة إلا فى الصور ، إذ لم نكن نرى الأستاذ إلا من مسافة طويلة ، نحن فى أعلى المدرج ، وهو جالس إلى المنصة يخطب فى الميكروفون . فلا نرى ملامح وجهه بوضوح ، بل ولا يبدو لنا شخصا حقيقيا من لحم ودم .

ولكن الأفظع من ذلك ، كانت علاقتنا بالطالبات ، أو بعبارة أدق ، عدم وجود أى علاقة بالمرة بيننا وبين الطالبات . كنا نحو ثمانمائة تلميذ ، فى السنة الدراسية الواحدة ، بينهم ما لا يزيد على عشر طالبات . لم يكن يبدو عليهن أنهن أقل بؤسًا منا ، ولكنهن كن على الأقل يتمتعن بميزة الندرة ، أما نحن فما أكثرنا وما أقل قيمتنا . لا عجب أن الطالبات كن يسرن دائما فى مجموعات ، فيندر أن تجد واحدة تمشى بمفردها ، ولا حتى اثنتين . كن يسرن فى العادة فى مجموعات من أربع أو خمس ، وقد التصقت كل منهن بالأخرى خوفا من أن يصيبهن منا مكروه ، كأن نلتهمهن التهاما ، وهو ما لابد أن كان واضحا من نوع نظراتنا إليهن .

وهن يدخلن خائفات إلى المدرج قبيل دخول الأستاذ بلحظات ، وكأنهن يعتمدن على حمايته ، فيجلسن فى الصف الأول أو الصفين الأولين ، ثم يختفين تمامًا بمجرد انتهاء المحاضرات . لم يكن فيهن ، على أى حال ، جمال واضح يأسر القلب بمجرد رؤيته ، إذ الأرجح أن من كانت جميلة حقا فى تلك السن ، يحجزها أبواها فى البيت ويمنعانها من الخروج إلى الجامعة حتى يأتيها العريس المناسب . كانت هناك بعض الاستثناءات ، ولكن معظم هذه الاستثناءات ، لسبب لم يكن واضحا ، كن يلتحقن بكلية الآداب . هل كانت مقررات كلية الآداب تعتبر مثلا أكثر رقة ومن ثم أنسب للبنات ؟ هل كان الأدب الإنجليزى أو الأدب الفرنسى مثلا يعتبر مقررا أجمل من القانون المدنى أو الجنائى ، ومن ثم أكثر ملاءمة للإناث ؟ فماذا عن قسم الفلسفة أو الآثار ؟ كان هذا هو الوضع على أى حال . كانت الطالبات أبعد منالا منا حتى بالمقارنة بالأساتذة ، وقد انعكس ذلك بالطبع فيما كان يخيم على كلية الحقوق من الوجوم وثقل الظل .

عندما ذهبت إلى كلية لندن للاقتصاد بعد تخرجي بسنتين تبين لي بوضوح ما كنا فيه من بؤس فى جامعة القاهرة. لم يكن مبنى الكلية فى لندن (التى كانت تسمى مدرسة) به أى جمال أو يثير أى بهجة إذا نظرت إليه من الخارج، فهو مبنى حديث من ستة أدوار فى شارع ضيق، تحيط به مبان شاهقة تحجب عنه ضوء الشمس (التى كانت نادراً ما تطلع على أى حال). ولكنك متى دخلت المبنى وجدته ينبض بالحياة والفرح والنشاط. القهقهات تصدر عالية من أفواه الأولاد، والابتسامات الرائعة ترتسم على وجوه الطالبات الجميلات. والأساتذة رائحون غادون، قد تصادفهم فى المطعم أو فى الكافتيريا، ومن الممكن أن تفتح مع أحدهم موضوعا للمناقشة إذا صادفته يتناول القهوة بين المحاضرات، أو حتى وهو نازل على السلّم. فى أعلى المبنى، فى الدور السادس، صالة رائعة لا يمكن نسيانها، كانت من الاتساع بحيث يمكن أن تستوعب مئات المقاعد، ولكنها فرشت على نحو يجعلها لا تتسع إلا لحوالى ثلاثين أو أربعين، فأثاثها يتكون من مقاعد ضخمة وثيرة أو أرائك مريحة، وقد اصطفت على طول حوائطها المترامية رفوف تلو الرفوف من الكتب. كانت الكتب مختارة بعناية ومن النوع الذى يلائم جو هذه الحجرة الرائعة: كتب فى الموسيقى أو الأدب أو التاريخ أو التراجم أو الفلسفة مما قد يطلبه القارئ المثقف فى غير تخصصه. فى كل صباح تأتى الفتاة المشرفة على الحجرة لوضع أزهار جديدة فى الزهريات المنتشرة فى أركان الحجرة، وفى الأيام الباردة تضيف كمية من الفحم إلى المدفأة الضخمة التى تعلوها صورة زيتية كبيرة ظهر فيها سيدنى وبياترس ويب، الاشتراكيان الشهيران اللذان كانا من مؤسسى الكلية فى أواخر القرن التاسع عشر. وكانت الحجرة نفسها تحمل اسم شخص كبير آخر من مؤسسيها هو جورج برناردشو.

كان فى مدرسة لندن للاقتصاد مدرج واحد يتسع لنحو ثلاثمائة تلميذ، ولا ندخله إلا للاستماع إلى أستاذ زائر كبير من جامعة أخرى، أو إلى محاضرة عامة لسياسى شهير، عدا المحاضرات التى تلقى فى بعض المقررات الأساسية فى مبادئ الاقتصاد. وفى كل يوم يوضع فى مدخل المدرسة جدول محاضرات به بيان بكل ما

سيلقى خلال اليوم من محاضرات دون تمييز بين مقررات السنة الأولى ومقررات السنة الثانية . . إلخ . فالمهم هو موضوع المحاضرة وشخصية ملقيها ، ولك الحق فى الاختيار من بينها كما تشاء . وعلى الحوائط فى كل دور من الأدوار الستة لوحات إخبارية لا نهاية لها تخبرك عما تقوم به الجمعيات المختلفة من نشاط ، جمعية للمحافظين وأخرى للعمال ، وثالثة للاشتراكيين ، واحدة للجمعية المسيحية وأخرى للبوذية ، واحدة للجمعية التى كونها الطلبة الآتون من أمريكا اللاتينية تخبرك بمحاضرة عن الحالة الاقتصادية فى البرازيل ، وأخرى للجمعية المسرحية تخبرك بأن مخرجا مسرحيا شهيرا سيأتى إلى المدرسة ليتكلم عن تشيكوف . . إلخ .

كانت كلية الحقوق بجامعة القاهرة بريئة من كل هذا ، ولكننا لم نكن ندرى شيئاً عما كان ينقصنا . لم يكن أحد قد أخبرنا عما يمكن أن تكون عليه الجامعة ، ومن ثم ظننا أن الجامعة هى دخول أحد هذين المدرجين الكبيرين ثم الخروج منه . لا عجب أن السنوات الأربع قد مرت دون أن تترك فىّ أى أثر يستحق الذكر باستثناء ما تركه فى نفسى عدد جد قليل من الأساتذة . كان هناك بلا شك من أساتذة الحقوق ثلاثة أو أربعة ممن تركوا فى نفوسنا أثرا طيبا ، ولكن العدد الأكبر منهم كانوا من نوع منسجم تماماً مع هذا المناخ الكئيب الذى وصفته . كان معظمهم يدخل المدرج ليلقى محاضرة باللغة العربية الفصحى ، دون حماس أو حتى إحساس بما يقول ، وبصوت يبعث فى النفس الملل والرغبة فى النوم ، ولا يتركنا إلا جثة هامدة ، ولكن بعضهم كان أسوأ من هذا بكثير .

كان من هؤلاء من لا يكاد يدرى حتى ما يريد أن يقوله ، وينظر بين لحظة وأخرى إلى بعض الصفحات التى انتزعها من كتابه المطبوع والمقرر علينا ، فيقرأ علينا منه جملة بعد أخرى ، مع أننا اشترينا الكتاب بالفعل ، وبسعر باهظ ، ويمكننا بذلك الاستغناء عن محاضرات هؤلاء الأساتذة استغناء تاماً . كان يحلو لبعض الطلبة أن يحضروا إلى المحاضرة ومعهم الكتاب فيتابعون الأستاذ فقرة بعد فقرة ، ويبتسم بعضهم لبعض مشيرين بأصابعهم إلى بداية الفقرة التالية التى سوف ينطق بها الأستاذ قبل أن ينطق بها بالفعل .

كان منهم أيضاً أستاذ غريب، ذو سمعة علمية طيبة، ولكنه كان عاجزا تماماً عن مواجهة هذا الحشد الضخم من الطلاب. كان يدخل إلى المدرج مقطب الوجه فيجلس على مقعده وراء المنصة ويفتح ملف المحاضرة، وينظر إلينا باحتقار بالغ وكراهية، منتظراً أن يسود الصمت المدرج قبل أن يبدأ فى الكلام. وكان من الطبيعى مع هذا العدد الغفير من الطلبة أن يسرى فى المدرج صوت خفيف من الهمسات التى تصدر عن التلاميذ قبل أن يصمتوا صمتا تاماً لمدة ساعة. وكان كل ما يتطلبه الأمر أن يبدأ المحاضر بالنطق بجملة واحدة فيسود الصمت التام. ولكن هذا الأستاذ كان مصراً على أن يسود الصمت التام قبل أن ينطق بجملة واحدة. ولكن هيهات، فكلما طال الانتظار لحظة واحدة أكثر من اللازم زاد الهمس وارتفع صوت التلاميذ، فإذا استمر الانتظار لأطول من ذلك زاد ارتفاع الصوت واختلط ببعض الضحكات المكتومة، ثم تتحول الضحكات المكتومة إلى ضحكات عالية، ثم يسود الهرج والمرج فيشتد الغضب بالأستاذ، ويغلق ملفه وينصرف من المدرج دون كلمة واحدة، وسط سرور غامر ومرح فائق من جانب التلاميذ.

حضرت لهذا الأستاذ محاضرتين أو ثلاثاً من هذا النوع، ثم امتنعت عن الذهاب إلى محاضراته امتناعاً تاماً، ولا أدرى ماذا جرى له مع الطلبة بعد ذلك. ولم يمنعنى هذا بالطبع من الحصول على درجة عالية فى هذا المقرر، إذ كان يكفى مع هذا الأستاذ، كما يكفى مع كثيرين غيره، قراءة الكتاب قراءة جيدة.

كان هناك نوع آخر من الأساتذة أخف ظلا بالطبع. كان من هؤلاء أستاذ درّس لنا فى أول سنة فى الكلية، وكانت محاضراته لا تخلو من تشويق، ولكن انتشرت بين الطلبة إشاعة لم أتبين قط مدى صحتها وتدور حول غرامه بالحسناوات من الطالبات (إذا حدث ووُجدت حسناء بينهن) إلى حد استعداده لتزويدهن بأسئلة الامتحان مقدما، إذا لزم الأمر. كان الأمر من الصعب تصديقه، خاصة فى ذلك الوقت، وفى كلية الحقوق بالذات، عندما كان الأساتذة لايزالون يتمتعون بهيبة شديدة تفوق بدرجة بعيدة ما لهم منها الآن. كنا أميل إذن إلى استبعاد مثل هذه الإشاعات على أنها من خلق الخيال. ولكن حدث شيء رهيب فى يوم الامتحان

النهائى، فى المادة التى كان يدرّسها لنا هذا الأستاذ، وكان امتحانا مهما ترتعد له فرائصنا ارتعاداً. فقد لاحظنا عند وصولنا إلى الكلية فى حوالى السابعة صباحا، وكان الامتحان يبدأ فى الثامنة بالضبط، هرجا ومرجا غير معهودين. موظفو الكلية رائحون غادون بسرعة غير عادية، وجمهور من الطلبة متجمعون فى اهتمام ووجوم شديد حول واحد منهم وقف بينهم ممسكا بجريدة، وكان من الواضح أنه يقرأ لهم منها كلمة بكلمة. واتجهنا جميعا نحو هؤلاء الطلبة المتجمهرين فإذا بالطالب يقرأ لهم من جريدة «المصرى»، (وهى جريدة وفدية كانت من أكثر الجرائد انتشارا قبل أن تغلقها الثورة فى ١٩٥٤) خبرا مؤداه أن أستاذا بكلية الحقوق قام بتسليم صورة من امتحان مادته لإحدى التلميذات قبل الامتحان بعدة أيام، وأن موعد الامتحان هو صباح اليوم، وأن جريدة المصرى تنشر اليوم نص الامتحان، كلمة بكلمة، وتتحدى الأستاذ أن يفعل شيئًا من شأنه أن ينفى هذا الخبر.

نظرنا إلى الامتحان المنشور فوجدناه بالفعل فى المادة التى ننتظر الامتحان فيها بعد نصف ساعة، والأسئلة كلها من النوع المتوقع مثله من هذا الأستاذ، فى هذه المادة. جرينا بالطبع إلى الكتاب لنحاول التحقق من أننا نستطيع الإجابة على الامتحان فى حالة ما إذا جاء فعلا مطابقا للنص المنشور بالجريدة.

بعد لحظات رأينا الأستاذ نفسه يجرى كالمجنون من حجرة إلى أخرى من حجرات الكلية، والعاملون بالسكرتارية والطباعة على الآلة الكاتبة يجرون وراءه أو أمامه. وانتهى الأمر بأن بدأ الامتحان متأخراً عن موعده بنحو ثلاثة أرباع ساعة، ووُزع علينا امتحان مختلف تمامًا عن الامتحان المنشور، ولكننا كنا قد أيقنا كل اليقين أن الإشاعة كانت صحيحة تمامًا.

* * *

نعم مر بنا خلال تلك السنوات الأربع بعض الأساتذة العظام ولكنهم كانوا حفنة صغيرة وسط عدد كبير من الأساتذة، كما أنى لست واثقًا تمامًا من أننا نحن الطلبة الصغار قد أفدنا فائدة كبيرة من علمهم الواسع.

من الممكن مثلا أن يقال إن من حسن حظنا أننا درسنا على أيدى ثلاثة من أعظم

أساتذة الشريعة الإسلامية الذين عرفتهم مصر فى تاريخها الحديث، والذين من الصعب أن نتصور أن يأتى مثلهم فى المستقبل: الشيخ على الخفيف، والشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ عبد الوهاب خلاف. ولكن من الصعب علىّ أن أقرر أننا أفدنا منهم بمقدار قدرتهم على العطاء. كان هناك أولا ذلك النظام الغريب فى التدريس الذى وصفته والذى تكاد تقتصر فيه علاقة الأستاذ بالطلبة بجلوس الأستاذ إلى مائدة عليها ميكروفون فى المحاضرة، ثم ينصرف دون مناقشة بينه وبين التلاميذ لا فى هذا المدرج الواسع ولا فى خارجه. ضاعف من حجم هذه الفجوة بيننا وبين أساتذة الشريعة، ما كان يشعر به هؤلاء الأساتذة من غربة فى كلية لا تحتل فيها الشريعة الإسلامية المكانة التى هى جديرة بها. فالعميد ومعظم الأساتذة من «العلمانيين» الذين كانوا ينظرون إلى الشريعة الإسلامية نظرة الثرى إلى أقاربه الفقراء، أو وكأنها زائدة فى الجسم، لها أصل تاريخى معروف ولكنها لم تعد تلعب دوراً مهمّا فى حياة المجتمع، ومصيرها إلى الزوال تدريجيا. كانوا يرتدون الجبة والقفطان وسط أساتذة وتلاميذ يرتدون جميعاً الزى الأوروبى. والوظائف التى يطمح إليها التلاميذ تعتمد الغالبية منها على تطبيق قوانين مستمدة من القوانين الفرنسية. بل إن اللغة نفسها التى ينطق بها هؤلاء الأساتذة العظام كانت تبدو للتلاميذ وكأنها لغة بالية إذ هى تعتمد على أساليب الفقهاء القدامى التى بدأت تتعرض، صراحة أو خفية، لشىء من السخرية فى وسائل الإعلام. كان الانسجام النسبى الذى كان سائدا بين نوعى الثقافة فى مصر فى فترة ما بين الحربين، قد بدأ يتعرض لاهتزاز واضح فى مطلع الخمسينات، عندما بدأت حياتى الجامعية. لاشك أن قيام الثورة فى ١٩٥٢ قد ساعد على ذلك، إذ كان رجال الثورة ذوى ميل واضح إلى العلمانية والتغريب، وقد ظهر هذا ليس فقط فى بعض الإجراءات التى اتخذوها فى أوائل الثورة كإلغاء المحاكم الشرعية والوقف الأهلى، بل وفى شعاراتهم التى خلت من أى صبغة دينية، بل وفى لغة وأسلوب خطبهم التى ظهر فيها الإهمال التام واللا مبالاة بقواعد اللغة العربية.

طبعًا كان لدى أساتذة الشريعة الثلاثة الثقة الكافية بأنفسهم وبدينهم وبشريعته، ولكن هذا المناخ العام لابد أنه أثر فى نظرة تلاميذهم وزملائهم إليهم، وكان لابد أن

ينعكس هذا فى ميلهم إلى الانطواء على النفس والبخل بعلمهم على من لا يبدو عليهم أنهم يستحقونه .

من بين أساتذة الشريعة كان يحظى بإجلالنا واحترامنا، بوجه خاص، الشيخ عبد الوهاب خلاف. كان يدخل المدرج وقد هدّه الحزن على وفاة بنته ثم ابنه فى مقتبل الشباب، فيحاضرنا بصوت بالغ العذوبة وأسلوب رائع فى فصاحته وبلاغته. كان المقرر الذى يحاضرنا فيه - نظام الوقف - قد فقد الكثير من أهميته؛ بسبب قيام الثورة بإلغاء الوقف الأهلى، وكنت وقتها أصغر من أن أدرك خطأ هذا الإلغاء، وأن هذا النظام كان من الممكن، لو أحسن تطبيقه، أن يساهم بدور فعال فى التنمية والنهوض بمستوى التعليم والصحة ومختلف المرافق الاجتماعية. كان سحر الشيخ خلاف إذن، فى نظر تلاميذ صغار مثلنا، مستمدا فقط من شخصيته المهيبة، ورقى لغته وفصاحته .

كانت شخصية الشيخ محمد أبو زهرة مختلفة تمامًا. كان عالما مرموقا ومؤلفا شهيرا فى الفقه الإسلامى، ولكن ما كان من الممكن أن يخمن أحد منا ذلك من مجرد حضور محاضراته والاستماع إليه. كان ضخم الجسم، طويلا عريضا، عالى الصوت، محبا للدعابة، لا يأنف من إثارة الضحك قبيل وأثناء المحاضرة حتى حول أمور حسّاسة تتعلق بالعلاقة بين الجنسين، إذ كان يدرّس لنا - عدا أحكام المواريث - القواعد الشرعية فى الزواج والطلاق، مما يصعب الكلام فيه فى وقار تام مع شباب مراهق مثلنا. كان يصرّ قبل أن يبدأ المحاضرة على التحقق من أن كل البنات قد جلسن فى الصفين الأولين، فإذا وجد طالبة تجلس فى وسط المدرج، وبين بعض الطلبة الذكور، أمرها بأن تخرج من بينهم فى الحال وأن تتقدم إلى الصفوف الأولى. كان هذا وحده جديرا بإثارة بعض الهرج من الطلبة والطالبات على السواء. أما إذا رأى طالبا يجلس بين الفتيات فى الصفوف الأولى، فالتوبيخ يصبح أعنف والهرج أشد .

على الطرف الآخر من أساتذة الشريعة كان أساتذة الاقتصاد، فقد كانوا، أو بدوا لنا على الأقل، أكثر الأساتذة عصرية وتمدينًا. وقد كان علم الاقتصاد منذ

أواخر الأربعينات قد بدأ يحظى باهتمام واحترام متزايدين مع زيادة الاهتمام بمشكلة الفقر وتوزيع الدخل، بينما كان «القانون» يتمتع بهذه المكانة العالية عندما كانت مشكلة الاستقلال والمفاوضات مع الإنجليز وهدف احترام الدستور وإرساء أسس الديمقراطية هي أكثر ما يشغل الناس. ومع قيام ثورة ١٩٥٢ زادت مكانة الاقتصاد ارتفاعا بينما مالت منزلة القانون إلى الانخفاض، إذ إن أولئك الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة كانوا يستهدفون في الأساس إحداث التنمية الاقتصادية وإعادة توزيع الدخل، حتى ولو تطلب ذلك خرق القوانين المستقرة أو تبديل القوانين بين يوم وآخر، بما في ذلك الدستور نفسه.

كان بكلية الحقوق أيام تلمذتي بها، ستة من أساتذة الاقتصاد أكبرهم سنا عبد الحكيم الرفاعي وأصغرهم رفعت المحجوب. وكانت مشاعرهم نحو ثورة ١٩٥٢ متفاوتة أشد التفاوت، بحسب اختلاف أمزجتهم والبيئة الاجتماعية التي تشكّل كل منهم فيها، ومن ثم فقد اتخذوا مواقف مختلفة منها، وعاملتهم حكومة الثورة بدورها معاملات مختلفة.

كان الدكتور الرفاعي رجلا رقيق المشاعر، أرستقراطي المزاج، لم يعجبه ما صدر من رجال الثورة من مواقف يتسم بعضها بالغوغائية والقسوة والتطرف، فابتعد بنفسه عنهم دون أن يعاديهم علنا، فاستعانوا به لفترة قصيرة ثم استغنوا تمامًا عن خدماته دون التنكيل به.

أما الدكتور سعيد النجار فكان أكثر استعدادًا لإدخال الإجراءات الإصلاحية والتغيير، ولكنه كان يؤمن إيمانا لا يداخله أي شك بالنظام الفردي والحرية الاقتصادية. وكان يعتقد اعتقادًا جازمًا بصحة رأي آدم سميث في أن المصلحة الفردية تتفق دائما مع مصلحة المجتمع إلا باستثناءات بسيطة للغاية، فالأفضل إذن أن يبقى التدخل الحكومي عند الحد الأدنى. ولكن عبد الناصر من ناحية أخرى كان يسخر في مجالسه الخاصة من هؤلاء الأساتذة الذين لا يزالون يرددون كلمات آدم سميث وكأنها هي الحقيقة الخالدة. سرعان ما تبين إذن لسعيد النجار استحالة تعاونه

مع الثورة، ومن ثم كان ينتهز أى فرصة للسفر للخارج للعمل بضع سنوات، ثم يعود للتدريس فى مصر ريثما تظهر فرصة أخرى للسفر.

كان الدكتور حسين خلاف، وظل حتى وفاته، من أحب أساتذة الحقوق إلىّ. كان رجلا جم الأدب، مع الكبير والصغير على السواء، عالما يحب العلم ويحترمه ويقدمه على أى اعتبار آخر. وكان بسيطا غاية البساطة فى ملبسه، تأسرك تلقائيته فى حديثه وحركاته، وهو صاحب نكتة فى المدرج وخارجه، ولكن نكتته دائما ذات مغزى، يعبر بها، فى أكثر الأحيان، عن التناقضات الصارخة فى المجتمع المصرى أو عن حماقات السياسة الاقتصادية، ويلقيها بطريقة ابن البلد العفوية فتزيد جاذبيتها. يحكى لنا مثلا عن مصلحة السكك الحديدية التى استوردت قطارات من دولة أوروبية لا تعرف الفرق بين الدرجة الأولى والثانية. وإذ تصر مصلحة السكك الحديدية المصرية على تقسيم القطار إلى درجات لا تجد وسيلة لذلك أفضل من أن تشوه بعض الدواوين وتزيل منها بعض وسائل الراحة حتى تصبح أكثر ملاءمة لذوى الدخل المنخفض!

أمام عينيه منظار غليظ يكاد يستحيل أن تتصور منظارا أكثر منه سمكا، ولا أدرى ما إذا كان ضعف بصره موروثا أم من كثرة القراءة، ولكنه كان يجعله، مع طيبته وتواضعه، إذا سار فى ردهات الكلية وفنائها، لا يكف عن رفع يده بالتحية لكل من يصادفه؛ خوفا من أن يقابل من يعرفه فلا يتبين شخصيته من فرط ضعف بصره.

قصدته مرة فى منتصف الخمسينات، وكنت قد تقدمت بطلب التعيين فى وظيفة معيد فى كلية الحقوق، وكان وقتها رئيسا لقسم الاقتصاد بالكلية، وكنت أطمع فى تأييده لطلبى، فسألنى عن ترتيبى فى التخرج فقلت له: إنى الرابع، فصمت برهة ثم قال: كل ما أستطيع ان أعدك به هو أنى لن أسمح بأن يعين الخامس بدلاً منك، ثم أردف، هل تفهم ما أقول؟ قلت: نعم. قال: بارك الله فيك.

كان إذا كتب، نادرا ما يكتب كتبا مدرسية، وهى كتب كبيرة العائد المادى وإن كانت لا تحوى إلا ترديدا لما كتبه الآخرون، تكتب لتنسى بمجرد أن يتوقف الأستاذ عن تدريسها. وإنما يطرق موضوعات جديدة لا تكاد تدر دخلا ولكنها تعيش بعد

وفاة صاحبها. فيكتب كتابا من أفضل ما كتب بالعربية عن التاريخ الاقتصادى المصرى، إن لم يكن أفضلها على الإطلاق (بالإضافة إلى كتب الدكتور الجريتلى)، أو عن تطور الميزانية والإيرادات العامة، أو عن ضريبة التركات والتشريعات الضريبية فى مصر. وهو فى كتبه ومحاضراته يكشف عن احترام بالغ للغة العربية وشغف شديد بها، ويأنف من حشر المصطلحات الأجنبية بين العبارات العربية، ولا يتصور أن تكون اللغة العربية عاجزة عن تأدية المعنى الذى يريده بنفس كفاءة اللغات الأخرى.

كان حسين خلاف ذا مزاج مختلف عن مزاج الدكتور الرفاعى ومزاج الدكتور النجار. كان يُبدى فى محاضراته تعاطفًا قويًا مع الفقراء، يعود للظهور فى محاضرة بعد أخرى، وكان مخلصا تمام الإخلاص فى كراهيته لتلك الازدواجية المفرطة فى حياتنا الاجتماعية والاقتصادية. ظهر ذلك فى محاضراته عن مبادئ المالية العامة، ثم ظهر بوضوح أكبر عندما قرأنا له كتابا كاملا عن ضريبة التركات. كان إذن على استعداد كامل للتعاون مع الثورة فى تطبيق سياستها لصالح الفقراء، ولكنه كان صعيديا معتزا برأيه لا يتصور أن يملى عليه ضابط أو غيره الأوامر والنواهى. ومن ثم فإنه ظل يقدم النصيحة عن بعد، كلما طلب منه ذلك، فلما وثق عبد الناصر به ثقة تامة جعله وزيرا لوزارة جديدة اسمها وزارة العلاقات الثقافية الخارجية. ولكن هذا كان فى قمة نشاط الثورة المصرية فى إفريقيا فى منتصف الستينات، عندما كان عبد الناصر يتصرف فى إفريقيا كما لو كانت مصر دولة كبرى تعقد التحالفات وتمنح المعونات. ولم يدم هذا طويلا، مع تدهور حال الجيش المصرى فى اليمن، وتراكم الصعوبات الاقتصادية مع قطع المعونة الأمريكية عن مصر قبل حرب ١٩٦٧، فألغيت وزارة حسين خلاف بالسرعة التى أنشئت بها، كما لابد أن ظهر لعبد الناصر أن حسين خلاف، على الرغم من تعاطفه القوى مع الثورة، ليس هو الخادم المطيع فى جميع الأحوال وفى كل الظروف، فاكتفى بأن حقق له طلبه أن يسافر إلى جنيف ليعمل رئيسا لوفد مصر فى مكتب الأمم المتحدة هناك.

لم يكن الدكتور زكى الشافعى أرستقراطى النزعة مثل الرفاعى، ولا مؤمنا

متعصبا بنظام الحرية الفردية كسعيد النجار، ولا صعيديا عنيدا مثل حسين حلاف، كما أنه لم يكن أقل من الضباط الأحرار تعاطفا مع الفقراء ورغبة فى إصلاح أحوالهم، هذا على الأقل هو ما كان يبدو من ملاحظاته العابرة عن التناقضات الطبقية وتوزيع الدخل. وإنما كان الذى منعه من الاقتراب من الثورة شيئا مختلفا تمامًا، هو فى رأيى مجرد الخوف من الخطأ. عندما أستعيد الآن فى ذهنى مواقفه السياسية أو الفكرية، سواء ما بدا منها فى كتبه أو محاضراته أو محادثاته العابرة معنا فى فترة الدراسة العليا، أجد أنه كان يبدو دائما وكأنه يخشى الوقوع فى الخطأ أو أن يسىء الناس الظن به. وكان هذا الخوف يحكم الكثير مما عرفت من تصرفاته. ولهذا السبب حظى فى حياته برضا الجميع، فلا أذكر أنى سمعت كلمة سوء تصدر عنه. كان يوصف دائما بأنه أستاذ جيد وعميد جيد، كما يوصف أحيانا بأنه مؤسس كلية الاقتصاد (إذ كان أول عميد لها). كما وصفه أصدقاؤه بأنه صديق مخلص وتلاميذه بأنه أب رحيم، كما شهد له الجميع بالنزاهة وطهارة اليد، وحزن عليه الجميع عند وفاته. ولكن سرعان ما كف الناس عن الكلام عنه بعد وفاته، وما أقل ما كُتب عنه وما قيل فى تحليل أفكاره. كان كتابه الذى ظل يدرس ثلاثين عامًا أو أكثر (النقود والبنوك) كتابا جيدا بدوره، كُتب بأناة وبلغة عربية راقية، ولكنه كان كتابا مدرسيا، ولا أذكر له كتابا آخر أو مقالا اتخذ فيه موقفا خاصا به يختلف عن الآراء المستقرة أو المذاهب السائدة.

من الطبيعى أن رجلا بهذه الصفات لا يبذل أى جهد للتقرب من السلطة، كما لا تبذل السلطة أى جهد لإغرائه بالاقتراب منها. ومن ثم ظل بعيدا عن أى منصب كبير فى الحكومة، رغم أنه لم يكن أقل كفاءة من غيره ممن تولوا هذه المناصب. وأظن أن هذا الأمر قد ساءه عندما طال أكثر من اللازم، وعندما أصبح شاغلو المناصب الاقتصادية الكبيرة فى الحكومة، بما فى ذلك بعض الوزراء، من النكرات أو ممن لا يحظون منه ومنا بأى تقدير. ثم حدث فجأة أن عرض عليه منصب الوزارة فى منتصف السبعينات، ففرحنا له ولابد أنه قد سره هو أيضًا أن يرد اعتباره أخيرا. ولكنه لم يظل وزيرا لمدة طويلة، وهو ما كان متوقعا، ولم يترك فى الوزارة أثرا يزيد عما تركه من سبقه.

أما قصة الأستاذين الأخيرين، مع الثورة، فهى قصة مثيرة حقا وإن كانت قد انتهت نهاية محزنة فى حالة أحدهما، ونهاية مأساوية بمعنى الكلمة فى حالة الآخر. عاد الصديقان لبيب شقير ورفعت المحجوب، من فرنسا بشهادة الدكتوراه فى وقت واحد تقريبا، وكانا لا يكادان يفترقان، رغم الاختلاف الهائل بينهما فى الميول ودرجة الذكاء والظرف. ربما كان الشىء الوحيد الذى يجمعهما هو الطموح الشديد، مع تقارب حجم الفرص المتاحة لهما لتحقيق هذا الطموح. لم يكن قد مر على رجوعهما من فرنسا إلا شهور قليلة عندما قامت الثورة، وكان من الواضح للجميع أن أى أستاذ جامعى يحمل شهادة الدكتوراه فى الاقتصاد، إذا أحسن التصرف ولعب اللعبة كما ينبغى، لديه فرصة كبيرة جدا لاعتلاء كرسى الوزارة. وكان هذا واضحا بالطبع لهذين الأستاذين الشابين. فيما عدا هذا لم يكن هناك، فيما بدا لى على الأقل، أى صفة مشتركة بينهما. لبيب شقير مرح، ظريف، وذكى، ونشيط، ورفعت المحجوب متجهم الوجه دائما، خاصة مع تلاميذه، ثقيل الظل، بطىء الحركة، يتظاهر بالعمق وسعة الثقافة، دون أن يكون هناك أى دليل حقيقى على هذا أو تلك.

درّس لى لبيب شقير مقررا فى التجارة الدولية فى السنة الثانية فى كلية الحقوق فكان محاضرا جذابا، واسع الثقافة، يحثك على القراءة فى خارج الاقتصاد، ولكنه أيضا يحببك فى علم الاقتصاد الذى يتحول على يديه إلى علم وثيق الصلة بالحياة. ثم درّس لى رفعت المحجوب أثناء دراستى لدبلوم الدراسات العليا فى الاقتصاد، فيما يسمى «قاعة بحث»، كان المفروض فيها أن يكون الاعتماد على البحث والمناقشة أكثر من المحاضرة والامتحان، ولكنى لا أذكر أننا اجتمعنا قط لمناقشة أى شىء، ولا أذكر أنى سمعت منه رأيا ذا شأن فى هذه المشكلة الاقتصادية أو تلك. نعم كتبت له بحثا عن «المادية الجدلية والمادية التاريخية»، أقرّ موضوعه عندما عرضته عليه، ولكن لم يصدر منه أى قول يدل على أنه كلف نفسه عناء قراءته بعد انتهائى منه، والعبارة الوحيدة التى سمعتها منه فى التعليق على هذا البحث هو أن طباعته على الآلة الكاتبة لابد أن تكون قد كلفتنى مبلغا طائلا. سألته مرة عما إذا كان النقد الموجه إلى ماركس فى إحدى جوانب نظريته فى القيمة

والاستغلال نقدا صحيحا، فكان كل ما قاله هو أن ماركس أخطأ فى كل شيء. وعندما سألته عما إذا كان ينصحنى بقراءة كتاب كينز نفسه دون الاكتفاء بالشروح المكتوبة عنه، وكانت رسالته هو للدكتوراه عن أحد جوانب النظرية الكينزية، فقال بتعال وتكبر مقيتين: «إن كينز أعلى بكثير من مستوى عقليتنا». كان هذان الأستاذان من بين من عرض على رجال الثورة الاستعانة بهم فى تسيير شئون البلد الاقتصادية، فكان من الطبيعى أن يجذبهم الأول وينفرهم الثانى. وسرعان ما سمعنا خبر اختيار لبيب شقير وزيرا للاقتصاد، فى أوائل الستينات، ولعله كان أصغر وزير يتولى شئون الاقتصاد أو المالية فى مصر.

أثبت لبيب شقير نجاحا كبيرا كوزير وسياسى قرّبه أكثر فأكثر من دوائر السلطة الحقيقية فى داخل حكومة الثورة، حتى عهد إليه برئاسة مجلس الشعب وظل من الرجال المقربين لما سمى فيما بعد «مراكز القوة»، بينما ظل الثانى يكتب كتبا فى الاشتراكية ويلقى المحاضرات فى مزاياها على أمل أن تلتفت إليه السلطة كما التفتت إلى زميله فلم ينجح. ظل يُستعان به فى أعمال تافهة، لا تتطلب أكثر من القدرة على الخطابة، وكان يتمتع بها بالفعل، ولكنها لا تحتاج إلى أى مستوى غير عادى من الذكاء أو المهارة السياسية أو حسن التصرف. وظل الأمر كذلك حتى وقعت كارثة ١٩٦٧، وأصيب نظام الحكم بتصدع خطير، كما أصبنا جميعا.

أذكر بوضوح تام ذلك اليوم الرهيب الذى أخبرونا فيه بحجم المصيبة التى حلت بمصر. كان هذا يوم الجمعة ٩ يونيو، وكنت وقتها مدرسا فى كلية الحقوق بجامعة عين شمس، وإذا بى أتسلم عن طريق التليفون دعوة ـ تسلّم مثلها كل مدرسى وأساتذة الجامعات المصرية فى القاهرة ـ لحضور اجتماع مهم فى قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة فى السادسة مساء، حيث نستمع إلى بيان سياسى مهم. وذهبنا فى وجوم وتوجس بعد أن كنا قد سمعنا طوال الأيام الأربعة السابقة عن إشاعات رهيبة عما حدث للجيش المصرى، وللطيران بوجه خاص، وعن هزيمة ساحقة أصيب بها الجيش، وعن انسحاب سريع من سيناء.. إلخ. كان الهدف الأساسى من هذه الدعوة، كما تبين لى فيما بعد، هو إعطاء رجال السلطة فرصة لالتقاط الأنفاس

خوفا من أن يفلت الأمر تماماً من أيديهم، وإيهام الناس بأن المعركة لاتزال مستمرة. ولابد أن هذا الاجتماع الذى دعى إليه أساتذة الجامعات، قد دعى إلى مثله رجال النقابات المختلفة وسائر التكتلات الشعبية التى يمكن أن يكون لها أثر مهم على الرأى العام. لا أدرى ما إذا كانت هذه الاجتماعات قد أفادت رجال السلطة بشيء، ولكنهم تصوروا على أى حال أن جمعنا للاستماع لحديث الرئيس الموجه إلى الشعب عن طريق التليفزيون، والذى يشرح فيه ما حدث للجيش المصرى، قد يزيد من قدرة النظام على السيطرة على الموقف والتحكم فى مجرى الأمور.

جلسنا نستمع إلى الرئيس عبد الناصر ونحن نرى صورته على شاشة التليفزيون، وهو يشرح لنا كيف أنه كان يتوقع أن تأتى الطائرات الإسرائيلية من الغرب فجاءت من الشرق، وأشياء كثيرة أخرى من هذا النوع، مما أثار غيظى الشديد وغضبى وحزنى، كما أثار غضب وحزن بقية المصريين. ولم يفلح فى التخفيف من هذا الغضب إعلان الرئيس رغبته فى التنحى عن السلطة وتعيين زكريا محيى الدين، إذ لم أصدق قط، لا وقتها ولا فيما بعد، أنه كان يقصد التنحى بالفعل. الذى يعنينى الآن هو ما حدث ونحن جالسون فى تلك القاعة الفسيحة الرائعة، قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة، وهى ممتلئة بأساتذة الجامعات المختلفة، جاءوا تلبية لدعوة الحكومة، دون أن يدروا أى شيء عن سبب الدعوة وعما يمكن أن يقال لهم فى هذا الاجتماع. بدأ الاجتماع بظهور هذا الرجل الغريب، رفعت المحجوب، على المنصة وهو يرتدى زيا أغرب، يتكون من قميص وبنطلون من قماش الكاكى الذى يرتديه جنود الجيش أو الضباط، وكأنه قادم لتوّه من معركة عسكرية. كان منظرة جديرا بإثارة الضحك والاستهزاء الشديد لولا الموقف المأساوى الذى كنا فيه. وزاد الموقف مأساوية وإثارة للسخرية فى نفس الوقت أنه لم ينبس بأكثر من جملة أو جملتين قبل أن يجهش بالبكاء تأثرا. ولكن هذا البكاء لم يمنعه من أن يضمّن كلامه بضع عبارات فى مدح الرئيس والإشادة بعظمته وأبوّته للشعب المصرى.. إلخ. أكد لى هذا الموقف، من هذا الرجل الذى لم أشعر نحوه قط بأى حب أو احترام، ضآلة حجمه الحقيقى، ونوع الدور الذى يمكن أن يعهد إليه بأدائه، ولا يمكن أن يتجاوزه.

تلا ذلك استماعنا لخطاب الرئيس، وخروجنا من القاعة إلى منازلنا ونحن نشعر بالضياع التام والذهول، قبل أن نسمع عن قيام مظاهرات خلال الليل وفى صباح اليوم التالى، تهتف بالتمسك بالرئيس وضرورة بقائه رئيسا، مما فسرته فى وقته، ولا أزال، بأنه، فى الجزء الأكبر منه على الأقل، إن لم يكن كله، من صنع الحكومة نفسها، حتى ولو كان قد انضم إلى بعض المظاهرات بعض الأفراد الذين شعروا بضرورة بقاء عبد الناصر رئيسا، أو الذين أذهلتهم أخبار الهزيمة فهاموا على وجوههم فى الشوارع لا يدرون ما يصنعون، وشعروا بدرجة أكبر من الطمأنينة بين جموع الناس التى سارت تهتف فى الشوارع، فانضموا إليهم فى السير والهتاف.

عندما قام أنور السادات بانقلابه فى ١٥ مايو ١٩٧١ بعد وفاة عبد الناصر بعام ونصف، وهو ما سماه بـ«ثورة التصحيح»، وكان بداية لتحول جوهرى فى السياسة المصرية فى اتجاه التصالح مع الولايات المتحدة وإسرائيل، والنكوص عن الإجراءات الاشتراكية، قام السادات باعتقال أهم رجال «العهد القديم»، ممن أسماهم «بمراكز القوة»، وكان من بين هؤلاء أستاذى القديم لبيب شقير. ولكن التحقيقات لم تسفر عن قيامه بأى عمل يمكن أن يودع من أجله السجن، (مما يشهد له مرة أخرى بالذكاء والفطنة) فلم يطل اعتقاله وسرعان ما وجد نفسه حرًا طليقًا ولكن بلا عمل، بعد أن كان فى أعلى مراتب السلطة والنفوذ. أدرك الدكتور لبيب أن العصر لم يعد عصره، وأنه لم يعد له دور فى هذه المرحلة الجديدة من مراحل النظام السياسى فى مصر، الأمر الذى يدل مرة أخرى على فطنته، فانتهز الفرصة، بعد أن عمل بضعة شهور بالمحاماة، للسفر إلى الخارج فشغل وظيفة استشارية كاقتصادى فى إحدى المؤسسات المالية فى أبو ظبى، لا تتناسب بالطبع مع خبراته وكفاءاته المتعددة، ولكنها منحته فرصة البعد عن أهواء السياسة المصرية وأن ينعم بالهدوء الذى حرم منه طوال الخمسة عشر عاما السابقة. وقد استطاع أن يؤلف خلال إقامته فى أبو ظبى كتابا جيدا عن الاقتصاد العربى، يضاف إلى كتبه الجيدة الأخرى. وكان يأتى كل عام لقضاء إجازة الصيف فى مصر فيجلس على شاطئ البحر بالمنتزه ليقرأ بعض القصص والروايات. ولكن الأمر لم يطل به، ففى بداية إحدى إجازاته الصيفية، وكان يستعد للسفر فى اليوم التالى إلى مصر، أصابته نوبة

قلبية ومات على الفور. ولم تطل الصحف المصرية فى نعيه ولا أذكر أن كتب عنه أحد مقالا فى جريدة أو مجلة، إذ جاءت وفاته فى وقت سيطر فيه على أجهزة الإعلام رجال ينتمون إلى مرحلة سياسية مختلفة تماما.

أما الدكتور رفعت فلم يمنعه شىء من الاستمرار فيما كان فيه، هزيمة كان أم انتصارا، رأسمالية كان أم اشتراكية. فعلى الرغم من تحول النظام تحولاً جذريًا من سياسة إلى نقيضها، فى مختلف مجالات السياسة الداخلية أو الخارجية، ظل الدكتور رفعت يخطب بفصاحة فى حدود ما تسمح به الظروف السائدة. ظل يذكر العدالة الاجتماعية فى كلامه، ولكن دون أن يتجاوز الحدود المسموح بها. وقد فوجئنا جميعا، فى منتصف الثمانينات، أى بعد أن تحول النظام الاقتصادى والسياسى تحولا تاما عن سياسات عبد الناصر، باختيار رفعت المحجوب رئيسا لمجلس الشعب، فى وقت كان هذا المنصب النيابى المهم خاضعًا تمامًا لقرار من السلطة. كان الدكتور رفعت قد أثبت خلال الخمسة عشر عاما السابقة أنه لا خطر منه فى الحقيقة على النظام، وأن من الممكن الإفادة من مهاراته الخطابية وجلده وصبره على العمل السياسى الذى لا يجلب أى منفعة إلا للقائم به وللجالس على قمة السلطة. ومع ذلك فقد ظل البعض يعتبرونه من رجال النظام القديم، يصفون آراءه ومعتقداته على أنها تميل إلى الاشتراكية وإعادة توزيع الدخل. والحقيقة، كما أعرفها عنه منذ كان مدرسا مبتدئا فى كلية الحقوق، أنه لا آراء ثابتة له فى أى شىء ولا معتقدات قوية. كذلك توجّس منه بعض رجال الحكم خشية من أن يلحق بهم بعض الضرر من جراء آرائه التى اعتبروها اشتراكية، وهو يحتل هذا المنصب النيابى الكبير والذى اكتسب معه بعض النفوذ، ولكن الحقيقة هى أن الخطر الذى كان يهددهم من ورائه، لم يكن يتعلق بآرائه ومعتقداته بل كان مصدره ما يمكن أن يرتكبه من أخطاء بسبب قلة حظه من الذكاء والفطنة. وهذا هو ما حدث بالفعل. فقد صدرت منه مرة، بدون أى داع، جملة وردت بها عبارة «القطط السمان»، مشيرا بذلك إلى الأثرياء الذين جمعوا ثرواتهم فى فترة قصيرة دون جدارة حقيقية أو من مصادر غير مشروعة. لابد أن العبارة قد جاءت على لسانه دون ترو كاف من

جانبه، إذ ربما أعجبه ما فيها من فصاحة أو جمال التشبيه، دون وعى بما يمكن أن يترتب على التفوه بها من آثار سياسية. لابد أنه ارتكب أخطاء كثيرة مشابهة أوقعته فى عداوات شخصية مع بعض الرجال المهمين الذين كان من الأحوط له ألا يعاديهم. وكانت نهاية كل ذلك أن استيقظنا فى صباح أحد الأيام لنسمع عن رصاصات أطلقت عليه وهو فى سيارة محصنة بأشد أنواع الحصانة والحماية من الشرطة، أثناء عودته من مجلس الشعب، وفى شارع من أشد شوارع العاصمة ازدحاما. أودت الرصاصات بحياته وحياة الضابط الجالس بجوار السائق والذى كان مكلفا بحمايته. ونُسب الحادث وقتها إلى بعض الجماعات الإسلامية المتطرفة. ولم أتابع ما ذكر فى التحقيقات أو ما قيل فى الصحف عن شخصية الجانى أو دوافعه، إذ إنى كنت مقتنعا تماما، أيا كان ما ينشر فى الصحف، بأن السبب الحقيقى وراء هذه النهاية المأساوية للدكتور المحجوب، لم يكن «آراؤه ومعتقداته»، وما إذا كانت تتفق أو لا تتفق مع آراء ومعتقدات الجماعات الإسلامية، بل كان السبب الحقيقى قلة حظه من الحنكة السياسية ومن الفهم لطبيعة المرحلة التى كان يقدم نفسه لخدمتها. لقد منعته إغواءات بسيطة للغاية، كالحصول مثلا على فيللا فخمة فى الصف الأول من الفيللات المقامة على شاطئ مارينا، من أن يرى الأمور على حقيقتها.

وقد كانت هذه، فيما أعتقد، شيمته دائما منذ عرفته، ومن ثم كان رأيى أنه عومل فى حياته المعاملة التى يستحقها: أخذ من الحياة ما كان يطمح فيه بالضبط، وانتهت حياته نهاية فيها بعض سمات المأساة وبعض سمات المهزلة، مما يذكرنى بمنظره وهو يخطب فينا فى قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة، عندما كان يتظاهر بالبكاء وهو يحاول أن يتملق رجال السلطة، فى نفس الوقت الذى يتألم فيه الجميع من هزيمة عسكرية شنيعة.

* * *

انقطعت صلتى بمجرد تخرجى فى كلية الحقوق، بكل أساتذتها انقطاعًا تامًا، فيما عدا لقاءات سريعة لا أهمية لها ببعضهم فى ندوة أو اجتماع، باستثناء وحيد

هو علاقة ممتدة مع الدكتور سعيد النجار الذى لعب دورا مهما فى حياتى، وشغل تفكيرى لفترات طويلة من الزمن، واتسمت علاقتى به بالتقلب العنيف من شعور إلى نقيضه مما يستحق أن يروى. كانت بداية معرفتى بالدكتور سعيد النجار عندما التحقت بكلية الحقوق فى سنة ١٩٥١، وكان هو مدرس الاقتصاد فى السنة الأولى. فُتنت به افتتانا عظيما بل وقعنا نحن التلاميذ فى حبّه وظل هو أستاذنا المفضل حتى تخرجنا من الكلية، بالرغم أنه لم يدرّس لنا خلال هذه السنوات إلا هذا المقرر الوحيد فى السنة الأولى. لم يكن هذا المقرر فى ذاته مشوّقا، ولا له أهمية عملية على الإطلاق، فقد كان يدور حول أشياء مثل: المنفعة الحدية، وقانون تناقص الغلة، وإن كنت أذكر أنه أضاف بضع صفحات قليلة فى آخر المقرر تتعلق بمصر واقتصادها، وهو ما كان نادرا ولا يزال نادرا فى أى مقرر عن هذا الجزء من النظرية الاقتصادية. لم يكن لمضمون المقرر على أى حال أى علاقة بشعورنا نحوه، وإنما كان مصدر هذا الشعور صفاته الشخصية. كان مدرسا ممتازا: واضح العبارة، منطقى التفكير إلى أبعد مدى، ويحب علمه وموضوعه، فلا يمكن أن يشيع فينا الملل. وكان يتكلم على سجيّته ودون اصطناع، ومن ثم كان يطلق ضحكة عالية من حين لآخر فتصل لنا من خلال الميكروفون وكأن لها ذيلا غريبا يثير ضحكنا من جديد. كان واثقا تمام الثقة بنفسه وبما يقول، ومن ثم لم يكن ليدور بخلده أن من الممكن أن يخلّ أحدنا بالنظام، أو يأتى أحد بعمل فيه أى شبهة قلة أدب، وبالتالى لم يكن ليدور بخلد أحدنا شىء من هذا. فإذا أضفنا إلى كل ذلك أنه كان وسيما وأنيقا، كان من السهل أن نعرف لماذا فضلناه على أى أستاذ آخر.

كنا نحو ثمانمائة تلميذ نجلس فى مدرج واحد فى السنة الأولى، ليس من بيننا كما سبق أن ذكرت، إلا ثمانى أو عشر فتيات كن يجلسن دائما فى الصف الأول أو الثانى. كانت هذه الفتيات العشر وسط هذا الجمع الحاشد من الذكور المحرومين من أى علاقة جنسية، كالفاكهة المحرّمة، تتمناها كل النفوس ولكن لا يجرؤ أحد على لمسها. وبسبب ما كنا ما نشعر به إزاء هذا الأستاذ، وإزاء هذه الفتيات، كان خيالنا يصوّر لنا أن كل فتاة منهن لابد أن يكون حلمها الوحيد أن تتزوج منه، وأن لهذا

السبب وحده تتزين الفتيات وتتجملن، وأنهن لا يجلسن فى الصف الأول والثانى إلا بهدف لفت نظره . ولكن الرجل بعد شهور قليلة من بدء الدراسة تزوّج من فتاة، من خارج الجامعة كلها، وتصادف أنها كانت البنت الوحيدة لصديق حميم لأبى (هو الدكتور عبد الرزاق السنهورى) . وقال لنا أبى إن هذا الصديق سأله عن رأيه فيما إذا كان من الصواب أن يقبل هذا الأستاذ زوجا لابنته، ووصفه بأنه رجل لا يعيبه أى شىء على الإطلاق إلا الفارق بين سنّه وسنّ ابنته . كانت سنها أقل من العشرين بسنتين أو ثلاث، وهو قد تجاوز الثلاثين. ولكن تم الزواج فى النهاية وأصيبت فتيات الكلية بصدمة عنيفة، أو هكذا تصورنا، عندما دخل يوما إلى المدرج وحول أصبعه خاتم الخطوبة .

ظللت أشيد بعظمته وكماله فى كل مناسبة يذكر فيها اسمه . فلما درّس لى مقررا آخر فى الدراسات العليا لم يتغير رأيى فيه قيد أنملة، وظل هو أستاذى المفضل . تبينت فيما بعد أنه يؤمن بالنظام الرأسمالى إيمانا لا يتزعزع، ويكره الاشتراكية، وكنت أنا على العكس قد أصبحت مع مرور الوقت اشتراكيا متحمسا، بل وفى بعض السنوات متحمسًا للماركسية . ولكن هذا لم يؤثر قيد أنملة فى شعورى نحوه أو رأيى فيه، حتى إننى عندما ذهبت للعمل فى الكويت، بعد ذلك بسنوات كثيرة، وسمعت أنه سيترك وظيفته فى سويسرا ويعود إلى مصر، أسرعت باقتراح اسمه على رئيسى الكويتى دون أن يطلب أحد منى ذلك، ليعرض عليه العمل معنا فى نفس المؤسسة، بل وفى نفس القسم الذى أعمل فيه، ففعل هذا وقبل الأستاذ المجىء، وقضى معنا فى الكويت سنتين قبل أن يسافر مرة أخرى للعمل فى واشنطن .

خلال هاتين السنتين اللتين قضيناهما فى الكويت حدث ما بدأ يجعلنى أعيد النظر فى رأيى فيه وتقييمى له . كانت حجرة مكتبه ملاصقة لحجرتى، وكنا كثيرا ما نشترك فى عمل واحد أو تعهد إلينا المسئولية عن مهمة واحدة . من هذه المسئوليات كانت مسئولية تنظيم مؤتمر كبير ترعاه المؤسسة التى نعمل بها (وهى الصندوق الكويتى للتنمية)، عن موضوع كان حديث الجميع فى تلك الأيام (١٩٧٦) هو ما كان يسمى بـ«النظام الاقتصادى العالمى الجديد» وأثره فى العالم العربى . وجلست

مع أستاذى القديم الذى أصبح الآن زميلا، نضع قائمة بأسماء من يمكن دعوتهم للاشتراك فى هذا المؤتمر بتقديم بحث أو بمجرد المناقشة. واقترحت أنا بعض الأسماء من أصحابها من كانت له نزعة يسارية معروفة، ولكن كان منها أيضًا أسماء بعض الأساتذة والكتّاب من غير الاشتراكيين، ولكن لا شك فى جديتهم وإخلاصهم ومكانتهم العلمية. وكانت المفاجأة أن وجدت أستاذى القديم يقترح بعض أسماء لا أحمل نحو أصحابها أى تقدير ولم يعرفوا بيننا إلا بالانتهازية والخفّة، وإن كان بعضهم يحتل مناصب مرموقة فى الصحافة أو الحكومة. وعبّرت عن دهشتى ونفورى من هذه الأسماء التى اقترحها، ولكنى رضخت لرغبته كارها، فهو لا يزال أستاذى المعبود القديم. نجح المؤتمر نجاحا استثنائيا، وأشاد به الجميع، ولكن حدث خلاله ما أكد لى صحة رأيى، إذ رأينا جميعا هؤلاء الذين اقترحهم الأستاذ الزميل تقتصر مساهمتهم خلال أيام المؤتمر على الهجوم على موائد الطعام، وخاصة أكثر الأطباق ندرة فى مصر، كالجمبرى وسمك السالمون المُدخّن، ثم لا تراهم فى جلسات المؤتمر، ولكنك تراهم عائدين إلى فندقهم من السوق وفى يد كل منهم كل ما ثقل وزنه وارتفع ثمنه مما يندر أيضًا وجوده فى مصر من مأكولات.

فى بعض الجلسات الختامية أصابتنى الدهشة من جديد من بعض مواقف الأستاذ. لم يكن تأييده المستمر للمواقف اليمينية المحافظة مصدر هذه الدهشة، فقد كنت أعرف هذا عنه ولم يكن غريبا علىّ، ولم أجد فيه ما يشينه بالضرورة. ولكن الدهشة جاءت عندما رأيته يعطى تأييده ويدلى بصوته، عندما جاء وقت اختيار اللجنة المسئولة عن صياغة التوصيات النهائية للمؤتمر، لأشخاص لا يحظون منى أيضًا بأى تقدير، لمجرد أنه توقّع منهم أن يميلوا بالتوصيات إلى الناحية التى يميل إليها قلبه.

ثم مرت سنوات، وعدت إلى مصر من الكويت، وعاد هو من واشنطن، وتكرر اشتراكه فى الندوات التى كثر عقدها، تحت شعار «الإصلاح الاقتصادى فى مصر»، وكانت تدور فى الأساس حول «بيع القطاع العام». كان هذا البيع فى نظرى خطأ لا يُغتفر. من الممكن أن تكون رأسمالىّ النزعة ولا يكون هناك غبار

على ذلك، ولكنى كنت أعتبر بيع القطاع العام شيئا مختلفا عن مجرد تفضيل القطاع الخاص. فلتشجع الرأسماليين الوطنيين كما تشاء، ولتفضل قيام هؤلاء بالاستثمارات على قيام الحكومة بها، ولكن أن تبيع مشروعات عامة ناجحة، بل ولا تجد غضاضة فى بيعها لأجانب يسيل لعابهم على ما يمكن تحقيقه من ورائها من أرباح، مع أنه قد يكون من أسهل الأمور إصلاح ما قد يكون فى هذه المشروعات العامة من خلل فى الإدارة أو نظام التوظيف والتسعير، هذا هو ما بدا لى أمرا لا يطاق ولا يمكن السكوت عليه. حرصت لهذا السبب على أن أحضر بعض الندوات التى شارك فيها الأستاذ ودافع فيها بكل فصاحة وكفاءة عن بيع القطاع العام، ولكنى كنت أترك الندوة دائما وفى نفسى مرارة تختلط بالدهشة والأسف. أهذا إذن هو حال أستاذى القديم؟ أهو إذن مستعد إلى الذهاب إلى هذا المدى وبكل هذا الحماس للدفاع عن قضية باطلة إلى هذا الحد؟

وقفت أعترض عليه فى كل ندوة اشترك فيها وهاجم فيها القطاع العام، وأتيح لى حضورها. ولكنى كنت دائما ألتزم الأدب ولا أسمح لنفسى، وأنا أرد عليه، بما أسمح به لنفسى فى انتقاد غيره من سخرية وقسوة. كما كتبت مقالا صغيرا للرد على بعض هجومه على القطاع العام نُشر فى إحدى المجلات اليسارية، وظننت أيضاً أننى لم أتجاوز فيه حدود الأدب والتهذيب، ولكن زميلة تعرفنى وتعرفه اتصلت بى لتخبرنى بمدى غضبه وتأثره من هذا المقال، فلما أبديت لها استغرابى من هذا، والمقال بهذه الدرجة من الهدوء والأدب، قالت إن ما أغضبه بوجه خاص أنى استخدمت فى المقال لفظ «مغالطة» فى وصف إحدى حججه بدلا من اللفظ الأكثر حيادا «غلطة أو خطأ» إذ إن لفظ «مغالطة» يوحى بأنه يعرف خطأه ويصرّ عليه.

ولكن الطامة الكبرى وقعت بعد هذا بقليل، وقضت على أى أمل لدىّ فى أن تعود إلى علاقتنا المودة القديمة، بل وأحلت محل تقديرى القديم له، الذى لم أحمل مثله لأحد، مرارة وحزنًا وخيبة أمل. فقد خرج علينا أحد الوزراء فجأة ودون مقدمات بمقال طويل فى صحيفة الأهرام، فى أوائل التسعينات، يشيد فيها بمزايا ما أسماه «النظام الشرق أوسطى الجديد»، وكان له معنى واحد لا شك فيه وهو مزايا

التعاون الاقتصادى مع إسرائيل. كان شيمون بيريز رئيس الوزراء الاقتصادى حينئذ قد نشر قبل ذلك بوقت قصير كتابا كبيرا بنفس العنوان. وما إن أبدت الحكومة أنها ترحب بالترويج لهذه الفكرة حتى بدأ الكتّاب المستعدون دائما لوضع خدماتهم تحت تصرف الحكومة، وللترويج لما تريد الحكومة الترويج له، يكتبون فى تأييد «النظام الشرق أوسطى الجديد» بدرجات متفاوتة من الحذر، على حسب درجة الجرأة التى يتمتع بها الكاتب ومدى تعجله لكسب رضا السلطة. وكان هؤلاء هم أنفسهم الذين كتبوا لتأييد زيارة السادات المفاجئة للقدس فى ١٩٧٧، والذين كانوا يتحيّنون فرصة بعد أخرى للإشادة بمزايا السلام، والآثار الطيبة التى تترتب على مشاعر الحب إزاء الآخرين ويقصدون بذلك الإسرائيليين، ومحاولة تفهم «الآخر»، وعيوب الحقد والكراهية.. إلخ.

لم يكن أستاذى القديم من هذا النوع من الناس. كلا بالطبع. فهو لم يتملق السلطة قط، ولا دافع عن فكرة لا يعتقد بصحتها. ولكنه فاجأنا بست مقالات طويلة فى جريدة الأهرام يدافع فيها عن الشرق أوسطية. فكيف يمكن لى أن أفسّر ذلك؟ لماذا لا أقبل التفسير البسيط وهو أنه يعتقد فعلا بمزايا التعاون الاقتصادى مع إسرائيل؟ ولكن كيف لرجل مثله ألا يرى أن الاستعداد للقول بهذا الرأى، وقبول المشاركة فى مختلف المؤتمرات التى تباركها إسرائيل بل وتحث على عقدها، وتنعقد سنويا للترويج لهذا التعاون، معناه التنازل عن الورقة الوحيدة التى بقيت فى يد العرب فى محاولتهم المستميتة لاستعادة بعض حقوقهم الضائعة؟ كيف لا يرى هذا الأستاذ هذا الأمر؟ نعم لابد أنه يعتقد بصحة ما يكتبه، ولابد أن الأمر ليس إلا خطأ فى التقدير، ولكن إلى أى مدى يمكن أن يغتفر الخطأ لمجرد أن صاحبه يتصور أنه صواب؟ كتبت مقالا طويلا فى الرد عليه ونشر فى إحدى الجرائد المعارضة. كان المقال لا يخرج قط على حدود الأدب والتهذيب ولا يكاد يتضمن أى سخرية أو عبارة جارحة. وكانت أقسى عبارة فيه، فى نظرى، العبارة التى وردت فى مطلع الكلام والتى أشرت فيها إلى دهشتى الشديدة من اشتراك الأستاذ فى هذا العدد اللانهائى من الندوات والمؤتمرات التى تعقد للترويج لفكرة السلام مع إسرائيل، فلا تكاد تخلو ندوة أو مؤتمر من اسمه كأحد المتحدثين، وقلت: «إن الله وحده هو

الذى يعلم سبب ذلك». أى أنى سمحت لنفسى أن أعبر عن حيرتى وشكى فى أن تكون هناك أسباب أخرى لتكرار اشتراكه فى الترويج للتعاون مع إسرائيل غير مجرد اعتقاده بصحة هذا الموقف.

كان هذا كافياً بالطبع لقطع حبال الود بينى وبينه، وهو ما استمر يبعث الحزن فى نفسى كلما تذكرته، وظللت أشعر بالأسف والحزن كلما تذكرت ما فعلت مع هذا الأستاذ العزيز القديم، ولكن دون أن يكون لدىّ أى شك، مع هذا، فى أنه كان على خطأ وأنى على صواب. وظللت من حين لآخر أستعيد الجملة التى بدأت بها مقالى ضده «الله وحده هو الذى يعلم سبب اشتراكه المتكرر فى كل ندوة تعقد لترويج فكرة السلام مع إسرائيل»، وأقول لنفسى: هل كان من الضرورى أن أكتب هذه العبارة بالذات؟ ألم يكن من الممكن أن أكتب المقال كله وأعبر عن كل حججى، باستثناء هذه العبارة؟

ثم انتهزت فرصة لأتصل به تليفونيا لأهنئه بقدوم عام جديد، وكم كانت فرحتى أن وجدته متقبلا تماماً لهذه الخطوة منى، ويرحب بمكالمتى، ويتفق معى تماما عندما قلت إن ما حدث بيننا كان «كلاما فارغا لا أهمية له». ولكن فرحتى كانت مضاعفة عندما وجدته، بعد مرور بضع سنوات أخرى، يرجع عن موقفه السابق المؤيد لمشروع الشرق أوسطية ويشرع فى مهاجمته بعنف وبلا هوادة، ولم أجد أى سبب للشك فى أن الرجل قد اكتشف خطأه وكان من النزاهة والشجاعة بحيث أعلن على الملأ ما يعتقد الآن أنه الصواب. لم أحاول قط أن أستدرجه إلى الاعتراف بخطئه القديم، ولكن كان واضحا لكل منا أنه هو الذى تغير فى هذا الأمر، وأنه تبين أن الحق كان معى. عندما تأكد كل منا من ذلك عادت علاقتنا إلى صفائها القديم، بل وأصبحت لعدة شهور أقوى مما كانت فى أى يوم من الأيام، إذ أضيف إليها الآن شعور كل منا بأن الكمال مستحيل، وأن كلاً منا به من أوجه الضعف ما يفرض عليه أن يكون أكثر صبراً مع صاحبه. على أن هذا لم يستمر طويلا، إذ مرض الرجل فجأة مرضا بسيطا تحول بسرعة إلى مرض خطير، وكان عمره قد قارب الخامسة والثمانين، وإذا بنا نفقده فجأة، وكان قبل ذلك بأيام قليلة ملء السمع والبصر.

(٩)

البعث

تعرفت خلال سنوات الجامعة، لأول مرة، على فكرة «العروبة والوحدة العربية». حدث هذا عن طريق تعرفي على مجموعة من الطلبة العرب، من الأردنيين والسوريين واللبنانيين، الذين كانوا يدرسون في كلية أو أخرى من كليات جامعة القاهرة، وشديدي الحماس للقومية العربية والوحدة العربية، من الخليج إلى المحيط. كان معظمهم أعضاء في حزب نشأ في سوريا، وقالوا لنا: إن اسمه «حزب البعث العربي الاشتراكي». ولكن حتى من لم يكن منهم بعثيا، كان يؤمن بالقومية أكثر من أي مصري كنت أعرفه في ذلك الحين. وقد أثار هذا لديّ بعض الدهشة في بداية الأمر: أن يكون حماس اللبناني أو السوري أو الأردني لتكوين أي نوع من الوحدة مع مصر أقوى بكثير من حماس أي مصري لذلك. وقد أدى تعرفي على هؤلاء الطلبة العرب وما دار بيننا من أحاديث إلى ابتداء قراءاتي في تاريخ القومية العربية، ومزايا الوحدة الاقتصادية، وكتابات ساطع الحصري وغيرها في الدفاع عنها، وإلى اقتناعي بسلامة الفكرة، وخطأ المشككين فيها. ولكن هذا الاقتناع اكتسب شكلا جديدا تمامًا بعد أن سافرت إلى لبنان وسوريا في سنتي ٥٣ و١٩٥٤، وتكوّنت لديّ مشاعر نحو العروبة والقومية العربية تكاد أن تكون جديدة عليّ تماما. ثم تدعمت نفس المشاعر بزياراتي المتتالية لبلاد عربية أخرى في المغرب والمشرق. يجب أن أعترف بأن إقامتي بالكويت، رغم أنها كانت أطول منها في أي بلد عربي آخر، وكذلك زياراتي لأبو ظبي، لم تزد مشاعري العربية قوة، وإن لم تضعفها، إذ كان الكويتيون مكتفين بأنفسهم إلى حد كبير ولا يميلون إلى أي نوع من التآلف مع الوافدين العرب إلى بلادهم، وفي أبي ظبي لم أقابل من أهل البلاد من

لمست فيه حماسا للعروبة. ولكن هذين البلدين كانا هما الاستثناء، وكانت كل زيارة لى لأى بلد عربى آخر تدعّم شعورى بالانتماء العربى وتقويه. هذا الشعور الذى أثارته زياراتى الأولى للبنان وسوريا، لم يفارقنى حتى الآن، رغم كل ما مر بالعرب من أحداث مريرة طوال الخمسين عامًا التى انقضت على رؤيتى لأول بلد عربى خارج مصر.

ما الذى رأيته فى لبنان وسوريا فى ذلك الوقت مما غرس فىّ هذا الشعور القوى بالانتماء العربى؟ إنه لم يكن مجرد حماس الناس هناك للعروبة بأكثر مما لمسته فى أى وقت فى مصر، ولا نظرتهم الخاصة والمتميزة جدًا إلى مصر والمصريين، ولا حبهم واحترامهم العميق لأدباء مصر وكُتّابها وزعمائها الوطنيين، ولا معرفتهم الوثيقة بتاريخ مصر وولائهم العميق للغة العربية والأدب العربى. لقد لمست كل هذا حقا، ولكنى فوق ذلك لمست بوضوح تام أن ما يجمع بيننا أهم وأقوى بكثير مما يفرّقنا: لغتنا وثقافتنا وموسيقانا وطريقة استجابتنا للأحداث، وقيمنا الأخلاقية ونمط علاقاتنا الاجتماعية.. إلخ. وهذا الذى لمسته أولاً فى لبنان وسوريا عدت فلمسته المرة بعد الأخرى فى البلاد العربية الأخرى. أثّر فى نفسى تغلغل جذور الثقافة العربية فى العراقيين، وإجادة اللغة العربية لدى الأردنيين، بل وحتى لدى ملكهم وأمرائهم، وحب المتعلمين المغاربة لمصر وعرفانهم بجميل مصر وأدبائها، وبفضل الأزهر على من جاء منهم إلى مصر ليدرس فيه، وعشق التونسيين وتذوقهم العميق للموسيقى العربية، وتعلقهم الشديد بالمغنين والملحنين المصريين، وكذلك حب اليمنيين لمصر وعرفانهم لجميلها بمساعدتها لهم فى ثورة ١٩٦٢ والحرب التى تلتها، ومتابعة المثقفين اليمنيين لكل ما ينتجه مثقفو مصر وأدباؤها وصحفيوها، وقرب روح الفكاهة عند اليمنيين منها عند المصريين. أوقف رجل يمنى لا أعرفه سيارته إلى جانبى وأنا أسير فى أحد شوارع صنعاء، عندما رأى من ملامح وجهى أنى مصرى، وجاء يحيينى، وإذا به يشكرنى على ما فعلته مصر من أجل اليمن. وكان بعض الأطفال اليمنيين الصغار يستوقفوننى أيضًا فى الطريق ليعرضوا علىّ ما يحملون من كراريس وهم عائدون من المدرسة مفتخرين بما تعلموه، وهم يتوقعون منى، أنا المصرى، أن أفرح بدورى بما حققوه. وكان أغلب

المدرسين فى اليمن فى ذلك الوقت (أوائل الثمانينات) لا يزالون من المصريين الذين جاء بعضهم ليقضى شهور السنة الدراسية فى بعض القرى اليمنية النائية فى أعلى الجبل، من دون أى وسيلة من وسائل الراحة والترفيه المتاحة فى مصر أو فى العاصمة اليمنية. فى الكويت لم ألمس مثل هذه المشاعر نحو مصر والمصريين إلا عند بعض كبار السن، ولم ألمس مثلها قط عند شباب الكويتيين. قال لى أحد المسئولين الكويتيين مرة معبرا عن أسفه لجهل معظم الشباب الكويتى بفضل مصر على الكويت: «إنه يرجح أنه لو فتح كويتى أدراج المكاتب الحكومية بالكويت لوجد فى بعضها أقلاما وكراريس مكتوبًا عليها (هدية من المملكة المصرية)، ترجع إلى أيام الملكية فى مصر عندما كانت الكويت فقيرة لدرجة اضطرارها إلى الاعتماد على كرم الحكومة المصرية وسخائها فى إرسال المدرسين وبعض المواد التعليمية إلى الكويت دون مقابل».

فى أول زيارة لى لبيروت فى ١٩٥٣ قال لى بعض الأصدقاء اللبنانيين إنهم درسوا فى كتاب المطالعة وهم تلاميذ صغار بعض القطع النثرية من تأليف أبى أحمد أمين. وعندما سمعت إشارات متكررة إلى أحمد أمين هناك استقر فى ذهنى أن أحمد أمين معروف فى لبنان أكثر منه فى مصر. وتكرر ذلك فى بلاد عربية أخرى خاصة العراق واليمن، حيث قال لى أحد المثقفين اليمنيين: إن نسختين من مجلة الثقافة التى كان أبى يرأس تحريرها، كانتا تصلان إلى صنعاء فى كل أسبوع خلال الثلاثينات والأربعينات، ثم لا تلبث النسختان أن تدور بمدن اليمن الرئيسية حتى لا ينتهى الأسبوع ويأتى العدد الجديد حتى تكون النسختان قد أصبحتا مهلهلتين لكثرة الأيدى التى تداولتهما.

وفى جلسة من جلسات القات فى صنعاء، ضمّت بعضا من كبار المسئولين اليمنيين، أخذ شاعر يمى كبير يحكى لنا، رهو يعلمنى فى نفس الوقت كيف أميّز بين الورقة الطيبة من القات وغيرها، كيف قرأ مؤخراً عن شجار عنيف نشب بين صحفى مصرى وقانونى مصرى كان وقتها يشغل منصبا خطيرا يدعى «المدعى الاشتراكى»، واتخذ موقفا مخالفا للقانون والضمير إرضاء للحكومة، وكيف أضحك الصحفى مصر كلها على هذا القانونى، فإذا باليمنيين الحاضرين كلهم

ينصتون بشغف إلى هذه القصة العارضة فى الحياة السياسية المصرية وكأنها تمس شأنا خطيراً من شئون اليمن.

أما مثقفو البحرين فلا يتحدثون كثيرا عن فضل مصر على الثقافة المصرية لأنهم، كبارهم وصغارهم، يعتبرون هذا من قبيل تحصيل الحاصل. وقد قابلت وزير التعليم البحرانى، وكان أيضًا رئيسًا لناد عريق فى البحرين (نادى العروبة) فوجدته يعرف من تفاصيل حياة الملحنين المصريين الكبار، كالقصبجى وزكريا أحمد، وترتيب ظهور أغانى أم كلثوم وعبد الوهاب القديمة ما لم أكن أعرفه. وعندما زرت لبنان فى التسعينات وتعرفت على أسرة سحاب الفذة، التى أنتجت «سليم» قائد الفرقة القومية للموسيقى العربية بالقاهرة، و«فيكتور» المؤرخ وأستاذ السياسة بالجامعة اللبنانية، ولكنه أيضًا مؤرخ عظيم للموسيقى العربية، و«إلياس» أكبر الإخوة الثلاثة، والكاتب السياسى المتميز بدوره، ذكرت لفيكتور كيف بدأت معرفتى به بقراءتى لمقال مدهش نشره فى جريدة الحياة بمناسبة وفاة المطرب المصرى «كارم محمود» وهو - أى كارم محمود - وإن كان قد حقق درجة لا بأس بها من الشهرة، لم يكن قطعا فى الصف الأول ولا الثانى من المطربين المصريين، فإذا بى أجد فيكتور سحاب وقد كتب عنه مقالا يحصى فيه كافة أغانيه وأفلامه وتواريخها، ويحلل بدقة مزايا صوته، ويحدد بالضبط دوره فى تاريخ الأغنية المصرية. وجلست أتفرج على الإخوة الثلاثة، إلياس وسليم وفيكتور، يتذاكرون ويتسامرون بتذكير بعضهم البعض بأهمية الأداء الذى قامت به أسمهان، المطربة اللبنانية التى حققت شهرتها فى مصر، لإحدى أغنياتها القديمة، وسجّله له أحد الهاوين فى الثلاثينات دون أن يذاع قط على الملأ، وكيف يختلف هذا الأداء عن أدائها لنفس الأغنية فى سنة أخرى.. إلخ.

بعد ذلك ببضع سنوات كنت أحضر مؤتمرًا فى تونس فأخذ أحد الاقتصاديين التونسيين من المشتركين فى المؤتمر يحدثنى عن مدى تعلق التونسيين بأم كلثوم حتى إنه عندما جاءت أم كلثوم لتقديم حفلة غنائية فى تونس باع أحد معارفه بعض أثاث منزله ليشترى بثمنه بضع تذاكر للحفلة. لم أزر السودان قط للأسف، ولكنى عرفت كثيرين من السودانيين عن قرب، ولمست فيهم نفس الدفء فى المشاعر الذى

لمسته لدى بقية العرب، وسهولة التفاهم الروحى بينهم وبين المصريين، وقدرتهم على فهم النكتة المصرية بنفس المعنى بالضبط الذى يفهمها به المصرى.

لم أصادف أى شىء يشبه هذا الولاء والحب والاعتراف بالجميل نحو مصر والمصريين فى أى بلد من البلاد الإفريقية التى زرتها، لا فى غرب أفريقيا ولا شرقها. ربما عبّر بعض الإفريقيين عن احترامهم لجمال عبد الناصر ولكن هذا شىء مختلف تماما. كذلك لم أشعر بذلك التقارب والاتفاق فى المشاعر والمشارب اللذين شعرت بهما فى كل البلاد العربية التى زرتها، عندما زرت إستانبول، مما جعلنى أشعر بغلبة رابطة اللغة والثقافة على رابطة الدين. بل قابلت أمثلة كثيرة جعلتنى ألاحظ كم يعنى نفس الدين أشياء مختلفة جداً عند الشعوب المختلفة، فالإسلام فى تركيا له طابعه المميز جداً وملامحه الخاصة جداً إذا قورن به فى البلاد العربية. نعم إن له ملامحه الخاصة أيضًا التى تختلف بين بلد عربى وآخر، ولكنى لم أشعر بأنى أسمع شيئاً غريباً علىّ عندما سمعت الأذان لصلاة الفجر فى صنعاء، بل ترك فى نفسى أثرا أقوى مما كان للأذان فى مصر، ربما لجمال صوت المؤذن وحسن أدائه.

* * *

أعود إلى هؤلاء الأصدقاء من الطلبة العرب الذين تعرفت عليهم فى سنوات دراستى الجامعية، وكان معظمهم من الأردنيين والسوريين واللبنانيين، وأكثرهم أعضاء فى حزب «البعث العربى الاشتراكى». قالوا لنا: إن مؤسس الحزب أستاذ سورى اسمه ميشيل عفلق، وأهم أنصاره: صلاح البيطار، الذى أسس مع الأستاذ ميشيل حزب البعث فى سنة ١٩٤٢، ثم انضم إلى هذا الحزب أكرم الحورانى، زعيم الحزب الاشتراكى فى سوريا أيضًا، وتكوّن من الحزبين «حزب البعث العربى الاشتراكى». كانوا مجموعة من الشبان الناضجين الودودين، بهم درجة من الجدية والاهتمام بالسياسة والقضايا العامة تفوق بكثير ما كان شائعا بين الطلبة المصريين، فانجذبنا إليهم، وكان من الواضح أنهم حريصون على أن ننضم إلى حزبهم ومن ثم يؤسس للحزب لأول مرة فرع فى مصر، ونقلوا إلينا قول ميشيل عفلق: إن الحزب لا مستقبل له إن لم يدخله مصريون. كان أول من التحق بالحزب من المصريين على

مختار، الذى كان صديقا لى منذ كنا فى الثانية عشرة من عمرنا، وكان طالبا فى كلية الطب عندما تعرفنا على الطلبة البعثيين، وكنت أنا فى السنة الثالثة فى كلية الحقوق. كنت العضو التالى من المصريين، ومن ثم تكوّن من على مختار ومنىّ أول «خلية» من خلايا حزب البعث فى مصر فى ١٩٥٤، وسرّنا بالطبع أن نسمع أن ميشيل عفلق عبّر عن فرحه بهذا الخبر.

لم يمض وقت طويل حتى انضم إلى الحزب مصريون آخرون، ولكنى لا أظن أن العدد تجاوز المائتين فى أى وقت من الأوقات. وعندما تخرجت فى كلية الحقوق فى ١٩٥٥، جاءنا عضو قديم فى الحزب أكبر منا بعدة سنوات وأكثر تجربة (حسّان الوظائفى) وأخبرنا أن قيادة الحزب فى دمشق قررت تعيينى أنا مسئولا عن الحزب فى مصر مع أنى لست بالضرورة أكثر الأعضاء المصريين جدارة بذلك (وكان يقصد دون شك أن على مختار أجدر وأكفأ)، ولكن السبب فى اختيارى هو أنى أنهيت دراستى وأصبح لدىّ وقت أكبر يمكن تخصيصه للحزب (إذ لم يكن مختار قد تخرج بعد فى كلية الطب). وعلى الرغم من أنى قبلت ذلك وأصبحت مسئولا عن فرع مصر من حزب البعث، فقد ظل على مختار هو الدينامو المحرك بنشاطه والتزامه اللذين لم يفارقاه قط.

لم يكن من الصعب علينا أن نقتنع بمبادئ حزب البعث، فهى تتلخص فى شعارات ثلاثة بدت لنا بديهية، الحرية والوحدة والاشتراكية. إذ من الذى يمكنه الاعتراض على الحرية، بمعنى التحرر من الاحتلال الأجنبى وتطبيق الديمقراطية السياسية؟ وأما الاشتراكية فكان قد بدأ تعاطفى معها منذ سمعت عنها لأول مرة. وأما الوحدة العربية فهى وإن لم تكن فى أى يوم من الأيام تشعل حماس المصريين مثلما تفعل بشعوب المشرق العربى، فقد اقتنعت بوجاهتها منذ أن زرت بيروت ودمشق فى ١٩٥٣، ورأيت بعينى كيف تثير فكرة الوحدة العربية عواطف الشباب اللبنانى والسورى، وأن ما يوحّد بيننا أهم بكثير مما يفرّقنا. وقد قوّى هذا الشعور ما أخذت أقرأه عن مزايا الوحدة الاقتصادية والسياسية وعن تاريخ الحركة القومية العربية بتأثير أصدقائى الجدد.

كانت هذه هى أول تجربة لى، وآخر تجربة أيضًا، فى الانضمام لحزب سياسى،

وهى تجربة تكاد تكون صبيانية أكثر منها تجربة جادة فى العمل السياسى، إذ لم أكن قد بلغت العشرين عندما انضممت لحزب البعث، وتركته وأنا فى الثالثة والعشرين. والراجح أن السبب الأساسى لدخولى فى هذه التجربة كان سببا اجتماعيا ونفسيا أكثر من أى شىء آخر. وأقصد بالسبب «الاجتماعى والنفسى» الميل الطبيعى فى مثل سنى إلى الاشتراك فى عمل جماعى مع شباب فى نفس السن يعبر فيها كل منا عن شخصيته التى بدأت فى التكوّن، ويأمل كل منا فى أن يحصل من خلاله من الآخرين على قدر من المودة والتقدير يدعم به ثقته بنفسه.

ولكن لابد أن أذكر الأثر الذى تركته فى نفسى شخصية ميشيل عفلق. كانت آخر مرة رأيت فيها ميشيل عفلق وجها لوجه فى نوفمبر أو ديسمبر ١٩٥٧ أى منذ ما يقرب من خمسين عاما، وربما كان وقتها قد تجاوز الأربعين بقليل وكنت أنا فى الثانية والعشرين. وقد ظلت أخباره تأتينى بين الحين والآخر، خلال هذه الفترة وحتى وفاته فى مطلع التسعينات. كان من بين هذه الأخبار ما يؤكد فكرتى الطيبة عنه ولكن كان فيها أيضًا، لو كان صحيحا، ما كان جديرا بتغيير موقفى منه وإساءة الظن به. ولكنى ظللت دائما، وحتى الآن، لا أميل إلى قبول أى نقد يوجّه إليه مما يطعن فى صدقه أو إخلاصه أو نزاهته، وأميل إلى الاعتقاد بأن رجلا مثله لا يمكن أن يكون له يد فيما ارتكبه حزب البعث، وما ارتكب باسم البعث، من جرائم وأخطاء، بل أرجح أن اسمه قد استخدم فى تبرير هذه الجرائم والأخطاء، فى سوريا تارة وفى العراق تارة أخرى. كما أميل إلى الاعتقاد بأن إقامة ميشيل عفلق فى العراق خلال حكم صدام حسين كانت من قبيل الإقامة الجبرية، استخدم خلالها اسمه دون أن يسمح له هو نفسه بأن يفعل أو يقول ما يريد. أما ما أعلنه حزب البعث العراقى بعد موت ميشيل عفلق من أنه اعتنق الإسلام قبيل وفاته فلا أصدقه أيضا، وأرجح أن صدام حسين وجد فى نشر هذه الإشاعة ما قد يفيده هو شخصيا لسبب أو آخر.

إنى أتذكر ميشيل عفلق رجلا وسيما، على وجهه دائما ابتسامة مشرقة وصادقة تعكس نفسا صافية وكريمة. كانت روحه أقرب إلى روح الشاعر منها إلى روح

الزعيم السياسي. بل إني كنت كثيراً ما أتعجب كيف يصمد رجل كهذا لأعاصير السياسة ومؤامراتها وهو هذا الرجل الرقيق الذي يبدو وأنه تجرحه النسمة العابرة. لابد أننا نحن الشباب المصريين المنضمين حديثا للبعث قد جلسنا مع ميشيل عفلق عشر مرات أو أكثر في النصف الثاني من الخمسينات، في مجموعات صغيرة كثيراً ما لا يزيد عدد أفرادها عن اثنين أو ثلاثة بالإضافة إليه هو. كان يستقبلنا في شقة مفروشة في إحدى العمارات الضخمة بشارع قصر النيل، اعتاد أن يستأجرها كلما جاء إلى القاهرة، ويصحبنا إلى مكان قريب كقهوة «لاباس» في نفس الشارع أو صالة أو شرفة فندق سميراميس القديم المطل على النيل، فنجلس إليه ليتكلم ونكتب، ثم نعد ما يكتبه للنشر بعد عودتنا إلى بيوتنا. كان يقول إنه لا يحب (بل ربما قال إنه لا يستطيع) أن يمسك بالقلم لتدوين أفكاره على الورق، بل يفضل أن يتكلم ونحن نكتب. وكنا إذا انصرفنا عنه نستغرق أحيانا في الضحك ونحن نقلد طريقته في الكلام، إذ كان يبدو لنا وكأن ساعات طويلة تنقضي بين كل كلمة تصدر من فمه والكلمة التالية، ونستغرب أنه لا يزال يتذكر المبتدأ الذي لا يأتي خبره إلا بعد انقضاء هذا الوقت الطويل. ولكن الكلام كان يبدو لنا في النهاية جميلاً جداً ومقنعا، وأظن أنه كان كذلك بالفعل. أحيانا لم تكن الجلسة تسمح بالكتابة فكنت أصغي إليه بكل حواسي ثم أعود إلى البيت فأعبر عن المعاني التي فهمتها منه واحدا بعد الآخر، ثم نتدارس هذه الأحاديث في اجتماعاتنا الحزبية.

ربما أتذكر وجهه أحيانا وهو مقطب أو مستغرق في التفكير، ولكني لا أتذكره قط غاضبا. بل كان دائما، كلما ذكر أمامه اسم واحد من مخالفيه في الرأي أو نقل إليه نقد، مهما كان قاسيا، ترتسم على وجهه نفس الابتسامة الصافية ويقول ما معناه أنه يفهم تماماً الدوافع التي دفعت منتقده إلى قول مثل هذا الكلام. وقد كان يبدو دائماً فرحاً بنا نحن البعثيين المصريين الجدد، وكبير الأمل فيما يمكن أن نصنعه، ولم يصل إلينا قط ما يدل على غضبه منا إلا عندما نشرنا بعض أحاديثه التي ألقاها في القاهرة في كتيب صغير دون أن نضع على كل حديث منها التاريخ الذي قيل فيه، إذ اعتبر تأريخ هذه الأحاديث مهما للغاية. ولكني أذكر غضب أكرم الحوراني

الشديد منا عندما وزعنا منشوراً خلال أزمة تأميم قناة السويس، بعد وقوع التأميم وقبل الهجوم العسكرى على مصر، وذلك لأننا ذكرنا فى المنشور اسم الولايات المتحدة الأمريكية كواحدة من الدول المعادية لأهدافنا القومية (وكنت أنا المسئول عن ذلك) وقال لنا: «بل إننا نعوّل على أن تتدخل الولايات المتحدة لمصلحتنا وتقف إلى جانبنا».

* * *

استمر لقائى المتكرر بميشيل عفلق لمدة سنتين أو ثلاث (٥٥-١٩٥٧)، لم يضعف خلالها ولاؤنا وحبنا واحترامنا له، مع تحفظ بسيط يتعلق بتطورنا الفكرى. كنا قد بدأنا نقرأ، فى أواخر هذه الفترة، بعض الكتابات الماركسية التى تتعارض منطلقاتها وروحها العامة مع منطلقات ميشيل عفلق وطريقة تفكيره. وكان من السهل، فيما أظن، أن تسلب الماركسية لبّنا، ونحن فى هذه السن الصغيرة، وأن نرى فيها صلابة وقوة وحسما لم نكن نجده فى أفكار البعث. كانت ميتافيزيقية وروحانية ميشيل عفلق أبعد كثيرا، بالمقارنة بالماركسية، عن متناول شباب فى العشرين من عمرهم، يريدون أفكارا كاملة الصنع وجاهزة للتطبيق، وصارمة فى تمييزها بين الأبيض والأسود، التقدمى والرجعى، الوطنى والخائن. وكان التفسير المادى والاقتصادى للأمور أقرب إلى جذب شباب فى هذه السن من أقوال ميشيل عفلق التى من نوع القول «إن القومية حب» مثلا، والتى كانت كثيرا ما تُذكر من جانب أعداء البعث على سبيل السخرية من إغراق ميشيل عفلق فى المثالية.

أذكر مرة أننى قررت، أنا وعلى مختار، أن نواجه ميشيل عفلق بشكوكنا بصراحة، وأن نحاول أن نستخرج منه تعبيرا واضحا وكاملا عن موقفه من بعض الأفكار الأساسية فى الماركسية. ذهبنا إليه، وكان اللقاء فى صالة فندق سميراميس الجميلة والواسعة. وأذكر أننا كنا نوجّه إليه هذه الأسئلة الحاسمة أثناء قيام عازف البيانو فى الصالة بعزف بعض المقطوعات الموسيقية الكلاسيكية. سألناه أولاً عن موقف البعث من المادية الديالكتيكية، ولا أدرى ما الذى كنا نريده منه بالضبط. هل كنا نتصور أن أى حزب سياسى لابد له، لكى يستحق هذا الاسم، أن يكون له

موقف فلسفى من علاقة المادة بالفكر، ومن مبدأ التناقض، وعما إذا كان التغير الكمى ينقلب فجأة إلى تغير كيفى؟ يبدو أن هذا هو ما كنا نظنه، ولهذا لم نسترح وقتها بالمرة لإجابة ميشيل عفلق على هذا السؤال. لقد ابتسم الرجل ابتسامة عريضة عندما سمع سؤالنا، ولابد أنه كان يشعر ببعض الإشفاق علينا، أو لعلنا كنا نذكره بصباه وشبابه. قال إن هذه الموضوعات كانت تشغله فى وقت مبكر من حياته أثناء دراسته فى باريس، وأنه حسم رأيه فيها حينئذ (وأذكر أنه قال إن فلسفة هنرى برجسون كانت أشد جاذبية له بكثير من الماركسية) وأنه لم يقرأ أو يفكر فى هذه الأمور منذ وقت طويل، وأن علينا، إذا أردنا إجابة شافية على مثل هذه الأسئلة، أن نجلس مع منيف الرزاز (أحد الأعضاء البارزين فى حزب البعث) فهو كفيل بالرد عليها.

لم يشبع هذا الرد غليلنا بل ربما شعرنا بأنه رد ضعيف، أو حتى ظننا أنه يتهرب من الإجابة. وكذلك لم يعجبنى رده على نقدنا لتعريف القومية المنسوب إليه فى قوله إن «القومية حب». ولا أدرى أيضًا سبب سخطنا الشديد على هذا القول. ربما كان السبب أننا سمعنا بعض الماركسيين يسخرون منه؛ لأنه لا يفسر القومية تفسيرا اقتصاديا كما يفعلون هم، فيعتبرونها مجرد مرحلة تاريخية لابد أن يجرى تجاوزها بتغير الظروف. قال الأستاذ ميشيل إنه قال هذا فى حديث مع تلاميذ صغار فى إحدى المدارس عندما سأله أحدهم عن القومية، وأراد أن يعطيه إجابة يستطيع التلميذ الصغير فهمها واستيعابها. إنى الآن أعتبرها إجابة جيدة وقريبة جدا من الحقيقة، سواء كان السائل طفلا أو بالغا رشيدا، ولكننا لم نقتنع بها فى ذلك الوقت، واعتبرنا أن منتقدى الحزب على حق إذ يتهمونه بالغيبية والعاطفية المفرطة.

ذكرت أن آخر مرة قابلت فيها الأستاذ ميشيل كانت فى أواخر سنة ١٩٥٧، قبيل سفرى فى البعثة إلى إنجلترا. جاءنا الأستاذ ميشيل وقتها مبتهجا ومتهللا، فكان قد عاد لتوه من مقابلة جمال عبد الناصر، وقال إنه سعيد تمامًا لأن الرئيس عبد الناصر وافق أخيرا على دخول مصر فى وحدة مع سوريا، إذ استطاعوا فى النهاية إقناعه، وأنهم قبلوا الشرط الذى وضعه عبد الناصر بحلّ حزب البعث، واعتبروا أن تحقيق

هذه الخطوة الرائعة نحو إنجاز الوحدة العربية الشاملة يستحق أن يدفع من أجله هذا الثمن، وهو حل الحزب.

وقع علينا خبر حلّ الحزب وقع الصاعقة، واعتبرناه خطأ سياسيا كبيرا. ولكني الآن أعتبر أن ميشيل عفلق ورفاقه اتخذوا الموقف الصائب في هذا الأمر أيضاً، وإن كانت الظروف قد أظهرت بعد ذلك عكس ما كان يبدو لهم وقتها.

المهم أن كل شيء في ذلك الوقت كان يدفعني بعيدا عن حزب البعث: بدء مرحلة جديدة تماما من حياتي بسفري إلى إنجلترا لعدة سنوات، وشعوري بضرورة توجيه كل همي للدراسة، وانبهاري المتزايد بالأفكار الماركسية. وها هو الحزب على أي حال يحل نفسه بنفسه. فلما وصلت إلى لندن وقابلت بعض الطلبة البعثيين العراقيين، الذين كانوا يقضون معظم وقتهم في مقاهي لندن في مناقشات عقيمة أو في إصدار الأحكام على هذا الحاكم العربي أو ذاك، ويختلفون ويتشاجرون في عصبية شديدة حول ما إذا كان وصف الخيانة ينطبق على هذا أكثر مما ينطبق على ذاك، عندما رأيت ذلك لم أتردد في إعطاء أحدهم خطابا لتسليمه لبعض المسئولين عن الحزب في العراق أو دمشق، ويتضمن استقالتي من الحزب. كان هذا بعد شهور قليلة من وصولي إلى لندن في فبراير ١٩٥٨، وانقطعت بذلك كل علاقة لي بحزب البعث إلى الأبد، وإن كانت تلك الفترة القصيرة التي قضيتها عضوا في الحزب (٥٤ - ١٩٥٨) قد سببت لي متاعب كبيرة لعدة سنوات كثيرة بعد ذلك، مع حكومة بعد أخرى من حكومات الثورة في مصر. ولكن هذا ينتمي إلى مرحلة مختلفة من حياتي.

(١٠)

البعثــة

- ١ -

بعد تخرجي بعامين حصلت على بعثة حكومية للدراسة في إنجلترا للحصول على الدكتوراه في الاقتصاد، وأسفر الأمر عن قضائي ست سنوات (٥٨ ـ ١٩٦٤) في إنجلترا كان لها، كما توقعت، بالغ الأثر عليّ من كل النواحي.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أشاهد فيها إنجلترا، فقد قضيت فيها شهرًا قبل ذلك بسبع سنوات (١٩٥١) في زيارة لأخي عبد الحميد، الذي كان يحضر للدكتوراه في جامعة لندن، ولأختي فاطمة، إذ كان زوجها يعمل وقتئذ وكيلا لمكتب البعثات هناك. كان الفضل في هذه الزيارة المبكرة، وأنا لا أزال في السادسة عشرة من عمري، يرجع إلى أبي، بل لعله كان هو صاحب الفكرة أصلا. كان يسيطر على أبي الاعتقاد بأهمية تعلم لغة أجنبية في سن مبكرة، إذ لم يستطع أن ينسى معاناته في تعلم الإنجليزية على كبر، واضطراره إلى أن يعلم نفسه الإنجليزية وهو يقترب من الثلاثين، فكان يكشف عن معنى أبسط الكلمات في القاموس، وتمنى دائما لو كان قد بلغ مستوى أعلى مما بلغه في إجادتها. كان يقول إنه قبل تعلم الإنجليزية كان كمن له عين واحدة فأصبح له بعد تعلمها عينان. لم يترك أبي إذن فرصة تتاح لأي من أبنائه أو بنتيه لإجادة لغة أجنبية إلا وانتهزها. في سنة ١٩٥٠، أرسل أبي أخي حسين لقضاء عطلة الصيف في لندن، ثم أرسلني في العام التالي في رحلة مماثلة، وكنت قد أتممت لتوي امتحانات الثانوية العامة، فرحبت بالفكرة وركبت الباخرة من بورسعيد لمدة ثمانية أيام حتى وصلنا إلى ميناء ساوث هامتون بإنجلترا.

كنت فى ذلك الوقت صبيا مراهقا خجولا إلى درجة المرض، مهموما باستمرار بالأفكار التى تدور حول قصورى فى هذا الأمر أو ذاك، مع خوف مستطير من أن يكوّن الناس انطباعا سيئا عنى. لم تكن مثل هذه الحالة مما يجعل رحلتى إلى إنجلترا رحلة ممتعة على أى وجه. وكم أخجل من نفسى حتى الآن عندما أتذكر الجهد والتعب اللذين سببتهما لأصدقاء أخى عبد الحميد الذين ضيّعوا وقتهم فى أخذى من مكان لآخر لكى أتعرف على معالم لندن. ما كان أضيع وقتهم فى اصطحابى لرؤية برج لندن حيث أعدمت هذه الملكة أو تلك، وكنيسة وستمنستر حيث دفن عظماء الإنجليز، ومبنى البرلمان والمتحف الوطنى فى ميدان الطرف الأغر، الذى يحتوى على أجمل رسوم الفنانين الأوروبيين عبر العصور، ومتحف الشمع الشهير باسم منشئته (مدام توسّو).. إلخ.

لابد أنهم اعتبروا هذا الوقت ضائعًا، لا لأنى لم أستفد منه كثيرا، ولكن لأن استحسانى لما رأيته ولما كانوا يقولونه عنه كانت ضعيفة جدا ومخيبة للآمال. حققت الرحلة بالطبع أهم ما كان يهدف إليه أبى: تحسين لغتى الإنجليزية وتعرفى على نحو ما على العالم المتقدم. ولا شك أن بعض الأشياء المهمة قد دخلت عقلى لأول مرة واستقرت هناك إلى الأبد، ولكنى أيضًا تبينت، مع مرور السنين، أن هذه الرحلة كانت مجرد مثال واحد من أمثلة كثيرة صادفتها فى حياتى لقيام المرء بسبب حماقته بإفساد فرصة ذهبية للبهجة والاستمتاع بالحياة، إذ ينشغل بأفكار ممعنة فى السخافة تدور حول نفسه، ونفسه فقط.

لم يمتحنى أبى بعد عودتى فيما رأيت وما الذى استفدته منه. فهكذا كان أبى دائما، تخطر بباله أفكار سديدة فيما يتعلق بتربيتنا ويضحى بالمال اللازم لتنفيذها دون تردد، ولكن وقته كان دائما أثمن من أن ينفقه فى تبادل الحديث معنا أو فى محاولة اكتشاف ما يدور برءوسنا من أفكار.

هأنذا أعود الآن إلى إنجلترا بعد سبع سنوات، لايزال بى بعض الخجل القديم ولكنى كدت أشفى تماما منه. كنت مع هذا لاأزال فتى جاهلا بكل شىء إلا بما قرأت عنه فى بعض الكتب، التى لم تكن على أى حال أهم الكتب أو أفضلها،

قليل الخبرة بالناس وعديم الخبرة بالنساء. لم تكن لدىَّ ميزة بالمقارنة بمن فى مثل سنى من المصريين إلا أنى كنت متفوقا فى دراستى، وأفهم الإنجليزية إذا قرأتها بدرجة لا بأس بها، وإن كنت لا أجيد التعبير عن نفسى بها فى الحديث. فإذا بى الآن أسافر وحدى لأمضى عدة سنوات بعيدا عن الحماية التى كانت أسرتى توفرها لى دائما، وكأن أحدا قد رمى بى فى بحر متلاطم الأمواج علىّ أن أصارعها بقوتى المجردة إذا أردت البقاء على قيد الحياة.

لم أكن الآن ذاهبا فى فسحة قصيرة، بل ظافرا منتصرا فى بعثة حكومية إلى كلية إنجليزية لها شهرة طبقت الآفاق، وهى مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، قال لى أستاذى الدكتور سعيد النجار عندما علم بأنى ذاهب للدراسة بها: «إنى سائر بقدمى إلى عرين الأسد»، وحذرنى الدكتور زكى شافعى من أن أعود منها دكتورا فى الاقتصاد ولكن «أميا» فى كل شىء آخر. لا أظن أنى خيبت أمل هذا الأستاذ من أساتذة الاقتصاد أو ذاك، ولكن لاشك أن خاب أملى أنا فى علم الاقتصاد برمته.

- ٢ -

كان الأستاذ المشرف على دراستى منذ جئت إلى إنجلترا وحتى انتهيت من الماجستير هو ليونيل روبنز (Lionel Robbins)، وروبنز أستاذ مشهور بين الاقتصاديين، وكان من أهم أساتذة كلية لندن للاقتصاد ومن أكبرهم نفوذًا. كان موضوع تخصصه الأساسى هو تاريخ الفكر الاقتصادى، وإن كان السبب الأساسى لشهرته كتابا نشره فى أوائل الثلاثينات عن تعريف علم الاقتصاد، ظل، ولا يزال، من المراجع الأساسية فى تعريف هذا العلم وتحديد طبيعته ورسم الحدود الفاصلة بينه وبين غيره من العلوم. وكان الرجل نشيطا له دور مرموق فى الحياة الثقافية والسياسية فى بريطانيا، فهو عضو فى مجالس إدارة بعض المؤسسات والمتاحف الفنية الكبيرة، وعُيِّن عضوا فى مجلس اللوردات من بين من يعينون فيه بسبب إنجازاتهم الشخصية وليس عن طريق الوراثة، كما عهدت إليه رئاسة لجنة لتطوير

النظام الجامعي أصدرت تقريرا مشهورا عن حالة التعليم في بريطانيا ومستقبله، عُرف باسمه . (The Robbins Report)

كنت أعتبر إذن محظوظا إذ يكون روبنز هو المشرف على دراستي، وقد كنت بالفعل محظوظا، إذ أحسن الرجل معاملتي، وأظهر لي عطفا، وأعطاني من وقته أكثر مما كان يعطيه لتلاميذهم أساتذة آخرون أقل انشغالا منه . وكان دائم التشجيع لي، فكثيرا ما يودعني، وأنا خارج من غرفته، بعبارة رقيقة كنت أطير بها فرحا لعدة أيام، ليس فقط لما تنطوي عليه من رضا عن عملي ولكن لصدورها من شخص له أهمية روبنز . كان مشهوراً بأدبه وعذوبته وحسن معاملته لطلبته، وقد وجدته كذلك بالفعل، فكان أقسى ما صدر منه مثلا، في تقييمه لعمل قمت به، إذ لم تعجبه كثيرا ورقة كتبتها عن الاقتصادي البريطاني «مالثس»، قوله «إنني لم أحوّل الطين إلى كرستال» (you have not turned the mud into crystal) يقصد أنني فشلت في «فك طلاسم مالثس التي هي معقدة على أي حال» . وعندما انتهيت من الماجستير، واحتجت أن أحصل منه على تقرير يكتبه لإدارة البعثات المصرية يقيم فيه عملي، كتب تقريرا فيه الكثير من الإطراء ظننت أن إدارة البعثات أو كلية الحقوق سوف تستقبلني بسببه استقبالا رائعا عندما عدت في إجازة إلى مصر، فتفرش لي السجاجيد الحمراء وتعزف من أجلي الموسيقى . ولكني لم أجد شخصاً واحداً في مصر، لا في إدارة البعثات ولا في غيرها، قد قرأ هذا الخطاب، وإنما وُضع في ملف دون أن يطلع عليه أحد.

كانت جامعة لندن التي التحقت بها قد قررت، فيما يتعلق بالطلبة المصريين الذين لم يشكل علم الاقتصاد موضوع دراستهم الأساسية في مصر (كما هي الحال معي حيث كانت دراستي الأساسية في القانون) أن تعقد لنا امتحان تأهيل أو معادلة (Qualifying Examination) بعد عشرة أشهر من التحاقنا بالجامعة، للتحقق من أننا بلغنا مستوى في دراسة الاقتصاد يقارب مستوى خريجي الاقتصاد من طلبتهم، أو على الأقل يسمح لنا ببدء الدراسة لشهادة عليا، كالماجستير ثم الدكتوراه . كانت عشرة أشهر مهمة للغاية، إذ كنا في الحقيقة نبدأ مما يقرب من الصفر، وكان مستوى

معرفتنا بعلم الاقتصاد أكثر تدنّيا بكثير مما كان يدور بخلد المسئولين بجامعة لندن.
كان كل ما درسته فى علم الاقتصاد فى مصر لا يزيد على خمسة أو ستة كتب مبسطة للغاية، مكتوبة باللغة العربية، فى مبادئ النظرية الاقتصادية، وفى النقود والبنوك وفى التجارة الخارجية، وفى المالية العامة والضرائب، فضلا عن مقرر قصير بالفرنسية فى تاريخ الفكر الاقتصادى درسناه فى دبلوم الاقتصاد، وكان الغرض منه التقوية فى اللغة الفرنسية أكثر منه فهم ما حدث لعلم الاقتصاد، وراح أكثر جهدنا فيه فى البحث عن معانى الكلمات.

يكفى للتدليل على ضعف مستوانا فى الاقتصاد عندما وصلنا إلى لندن أن نظرية رجل شهير ومهم مثل جون مينارد كينز، لم يكن بمقدورنا أن نكتب عنها أكثر من فقرة قصيرة، إذ إننا، وإن كنا سمعنا اسمه أكثر من مرة أثناء هذا المقرر أو ذاك، لم يطلب منا دراسته بأى عمق فى الجزء الخاص بنظريته الذى ورد فى كتاب النقود والبنوك، والذى جاء فى آخر عشرين صفحة من الكتاب، واضطر الأستاذ تحت إلحاح الطلبة إلى حذفها من المقرر لتخفيف عبء الامتحان عليهم.

هكذا كان حالى عندما قابلت الأستاذ روبنز الذى عينته كلية لندن للاقتصاد مشرفا علىّ، لأول مرة بعد وصولى من القاهرة. كان جهلى حينئذ بمقدار جهلى، أمرا مفيدا للغاية، إذ لو كنت أعرف قدر هذا الجهل وأعرف فى نفس الوقت أهمية هذا الرجل الذى عين مشرفا علىّ، لو عرفت ذلك لما استطعت أن أفتح فمى بكلمة واحدة فى تلك المقابلة.

سألنى عما أقرأ الآن فلما قلت له اسم الكتاب، ارتسم على وجهه مزيج من الدهشة وخيبة الأمل. كان الكتاب ك. بولدينج: التحليل الاقتصادى (K. Boulding. Economic Analysis) وهو كتاب جيد فعلا، ويمكننى الآن أن أنصح بقراءته أى طالب فى مقتبل دراسته للاقتصاد، ولكنه كان كتابا مدرسيا يدرس طلبة جامعة لندن أمثاله فى السنة الأولى أو الثانية من دراستهم. ولابد أن الأستاذ روبنز كان يتوقع أننى قد تجاوزت هذه المرحلة منذ مدة طويلة. أضف إلى ذلك أنه كتاب أمريكى لا أظن أن الأساتذة الإنجليز كانوا يرشحون مثله لطلبتهم. لم ييأس الأستاذ

روبنز لحسن الحظ وقال لي إن هناك خمسة كتب عليّ أن أبدأ بقراءتها. ويبدو أن هذه القائمة هي ما كان ينصح بقراءته أي طالب يبدأ في دراسة الاقتصاد، لاعتقاده أنها تساعد على تكوين قاعدة سليمة وصلبة لفهم طريقة التفكير الاقتصادي. كانت هذه الكتب هي: ألفرد مارشال: «مبادئ الاقتصاد»، وفيكسيل «محاضرات في النظرية الاقتصادية»، وفرانك نايت «المخاطرة وعدم اليقين والربح» وباتنكين «النظرية النقدية»، بالإضافة إلى مجلد نشرته الجمعية الاقتصادية الأمريكية يضم أهم المقالات المتعلقة بنظرية الثمن والتي قدمت مساهمات مبتكرة في هذه النظرية خلال العشرين أو الثلاثين عاما الأخيرة. أعطاني روبنز أيضًا نسخًا من بعض الامتحانات القديمة، وطلب مني أن أجيب عنها وأعرض عليه الإجابة. وكانت الإجابة عن هذه الأسئلة تتطلب قراءات أخرى عبر تلك الكتب الخمسة.

كانت هذه الفترة - على قصرها - من أخصب فترات تكويني العقلي. لقد أدخلتني في عالم جديد تماما عليّ، وهو عالم ساحر وجذاب تعرفت فيه على عادات جديدة في التفكير والكتابة، اقتنعت بها، ثم اعتدت على ممارستها منذ ذلك الحين. أقصد بذلك عادات التفكير العلمي والتعبير عن الأفكار بأقصر وأوضح طريق، دون الاعتماد على المبالغة، أو اللعب بالألفاظ، أو إثارة العواطف من أجل الإقناع، ومحاولة منع التحيز المسبق من التأثير في سير الجدل وتقديم الحجج، فإذا بالتأثير النهائي للكتاب أو المقال العلمي لا يقل عن تأثير العمل الفني، وإذا بالعواطف تتأثر بسلامة المنطق ودقته وكأن المرء قد قرأ قصة ممتعة، أو استمع إلى قطعة من الموسيقى الجميلة. لم يكن كل ما قرأته في تلك الفترة، بالطبع، من هذا النوع الراقي. ولكني قرأت خلاله ما يكفي لأن يجعلني قادرا على التمييز بين النوع الراقي وغير الراقي من الكتابة في علم اجتماعي كعلم الاقتصاد.

يجب أن أعترف مع ذلك بأن ما يكاد يعادل عاما كاملا من الأعوام الستة التي قضيتها في إنجلترا في فترة البعثة ذهب في القراءة عن الماركسية. ذلك أني بعد نجاحي في امتحان المعادلة، عهدت الكلية للأستاذ روبنز بأن يكون المشرف عليّ في فترة دراستي للماجستير أيضًا. فلما قابلته للمرة الأولى بعد انتهائي من امتحان

المعادلة حاول أن يتبين نوع تفكيرى واتجاهه، فوجدنى أفتح معه على الفور موضوع الاستعمار البريطانى لمصر ودوره فى تعطيل قيام نهضة صناعية فى مصر، كما اكتشف فىّ ميولا اشتراكية وماركسية، وكنت قد دخلت هذه المرحلة من التفكير فى السنة السابقة على سفرى من مصر. قرّر الرجل بينه وبين نفسه، فيما يظهر، أن أفضل سياسة يتبعها معى أن يتركنى عدة شهور أقرأ فى أى اتجاه أحب، على أن يقترح علىّ من حين لآخر قراءة كتاب يعتقد أنه قد يصلح من مسار تفكيرى.

وهذا هو الذى حدث بالفعل. أخذت أقرأ كما يحلو لى وكأننى لست مطالبا بعمل أى شيء معين أو الحصول على أى شهادة، فإذا بكتاب عن الماركسية يقودنى إلى كتاب آخر عنها أيضًا، وإذا بنقد مشهور للماركسية يقودنى إلى رد أحد الماركسيين دفاعا عنها. أثناء ذلك كان روبنز يوصينى بقراءة كتاب بعد آخر، ككتاب «المجتمع المفتوح وأعداؤه» لكارل بوبر، أو كتاب شومبيتر عن «الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية»، وأمثالهما. وكنت عندما أناقشه فى إحدى الحجج التى قرأتها ضد الماركسية وأحاول الرد عليها، يرد علىّ بلطف قائلا: «لا تظن أن باستطاعتك إثنائى عن رأيى، فقد استثمرت الكثير من وقتى وجهدى خلال حياتى الطويلة لصالح الرأى المعارض لرأيك»، ولم يبد منه قط أى ضيق أو غضب من جرأتى الزائدة أحيانا، وظهورى بمظهر من يظن أنه يعرف الحقيقة كاملة. ولكن رأيى كان يتغير بالتدريج ودون شعور واع منى. ليس بالضبط بسبب قراءتى لكتّاب يعادون الماركسية، بل لتعودى خلال هذه الفترة على قراءة الرأى ونقيضه، ومن ثم اكتشافى أن المسألة لا يمكن أن تكون بالبساطة التى كنت أظنها فى البداية، وأن الأمر يحتاج إلى تأمل وروية أكبر. على أننى، رغم فتور حماسى للماركسية شيئا فشيئا بسبب هذه القراءات، لم أعتبر قط أن الوقت الذى أنفقته فى إنجلترا على القراءة فى الماركسية كان وقتا ضائعا. لقد كانت فترة نشاط ذهنى وحماسة فى القراءة، ولم يكن وراء قراءتى خلال هذه الفترة أى هدف غير الوصول إلى الرأى الصحيح فى هذه القضية أو تلك.

* * *

ثم جاءت أربع سنوات أخرى من القراءة فى الاقتصاد بهدف الحصول على شهادة الماجستير ثم الدكتوراه. وعندما أستعيد فى ذهنى ما قرأته فى هذه السنوات الخمس لا يدهشنى كثرة ما قرأته من كتب ومقالات فى الاقتصاد، فخمس سنوات من الانقطاع للدراسة، وفى مكان مثل جامعة لندن، ليست بالفترة القصيرة. وإنما الذى يدهشنى قلة ما أحرزته فيها من تقدم «عقلى» حقيقى نتيجة هذه القراءات فى الاقتصاد. نعم لابد أن النفع الذى حققته فى السنة الأولى قد تم تدعيمه وترسيخه فى السنوات الخمس التالية، ولكن «الاكتشاف» الحقيقى كان قد تم بالفعل فى تلك السنة الأولى. لاشك أيضًا أنى قد أحرزت بعض التقدم العقلى فى سنوات الماجستير والدكتوراه، ولكنه لم يكن بسبب قراءاتى فى الاقتصاد بل بسبب قراءات ومشاهدات أخرى. بل إنى لا أعتقد أننى أبتعد كثيرا عن الحقيقة إذا قلت إن أغلب قراءاتى فى تلك السنوات الخمس كانت قراءات «عقيمة»، اللهم إلا من حيث إنها أدت إلى الحصول على هاتين الشهادتين.

نعم قرأت بعض الكتب والمقالات البديعة فى الاقتصاد، خلال هذه الفترة، ولكن أكثر ما قرأته كان قليل الفائدة إلا من حيث تمكينى من الحصول على الشهادة المطلوبة. ولو أننى استقبلت من أمرى ما استدبرت، وكانت لى الحرية المطلقة فى تحديد ما أقرأ وما لا أقرأ، دون دافع الحصول على شهادة فى هذا العلم أو ذاك، لوضعت لنفسى برنامجا مختلفا تماما، ربما تضمن بعض الكتب القليلة فى الاقتصاد، ولكن الأرجح أنه كان سيتكون أساسا من قراءة بعض الكتب الكلاسيكية الأساسية فى الأدب والفلسفة والتاريخ، مما لم يتح لى قراءة أكثرها حتى الآن. كانت الفائدة التى يمكن أن أحصل عليها أكبر بكثير لو كنت قد قرأت فى ذلك الوقت كتاب الأمير لـ «ماكيافيللى» مثلا، أو كتاب جون ستيوارت ميل عن الحرية، وهما مما قرأته بعد ذلك، ولكن من المؤكد أيضًا، فيما يبدو لى الآن، أن كان من الأفيد لى أن أقرأ حينئذ كتاب جيبون عن سقوط الإمبراطورية الرومانية مثلا، أو بعض كتب دافيد هيوم فى الفلسفة مما لم أقرأه حتى الآن، ولا أظن أنه قد بقى من الوقت ما يسمح لى بذلك، بالمقارنة بعشرات الكتب والمقالات السخيفة

فى علم الاقتصاد، مما قرأته بالفعل فى تلك الفترة، ولم تترك فى نفسى أو عقلى أثرا يذكر.

* * *

أعلنت كلية لندن للاقتصاد أنها نظمت سلسلة من عشر محاضرات، يمكن لأى طالب بالكلية حضورها، ويلقيها أستاذ متخصص، لتدريب الطلبة على زيادة سرعتهم فى القراءة. اهتممت بالأمر إذ كان يضايقنى ما لاحظته من بطئى فى القراءة بالمقارنة بكثيرين غيرى، ولم يقنعنى قط الرأى القائل بأن سرعة القراءة تتعارض مع عمق التفكير، إذ لاحظت أن بطئى فى القراءة كثيراً ما يعود إلى قلة التركيز مع شرود الذهن إلى أشياء قد لا تكون لها أى صلة بالموضوع الذى أقرأ فيه. وهو ما أكده لى ما قرأته فى سيرة برتراندرسل الذاتية وهو يتكلم عن الاقتصادى الشهير كينز، إذ قال إنه كان يظن فى البداية أن كينز، وإن كان أسرع بديهة منه فإنه أقل منه عمقا، ثم تبين له أنه كان مخطئا، وأن كينز ليس فقط أسرع فهما بل وكذلك أعمق فكراً. ذهبت لحضور الدروس فأكد الأستاذ المحاضر لنا نفس المعنى، أى أننا يجب ألا نظن أننا سنخسر شيئا بزيادة سرعتنا فى القراءة، وأن البطء كثيرا ما لا يكون له أى مبرر أو نفع على الإطلاق. ثم بدأ يعرّضنا لتمرينات، منها أن يعرض على الشاشة أمامنا باستخدام الفانوس السحرى، صفحة بعد أخرى من كتاب ما، وفى كل صفحة يقع الضوء على السطر الأول بينما تبقى بقية الصفحة مظلمة، ثم يتحرك الضوء فيقع على السطر الثانى وحده ويصبح من المستحيل أن نقرأ غيره. وهكذا يتحرك الضوء إلى أسفل، من سطر إلى سطر. ويطلب منا الرجل أن نحاول أن نستوعب من الصفحة التى تضاء سطورها تباعًا على هذا النحو، أكبر قدر من المعلومات يمكننا استيعابه. وبعد هذا تزيد سرعة تحرك الضوء، فلا يبقى مسلطا على سطر معين إلا مدة قصيرة ثم تزداد قصراً، ثم يوزّع علينا بعض الأسئلة ليختبر كمية المعلومات التى حصّلناها. من التمرينات الأخرى أن يعرض علينا على الشاشة أيضًا صفحة تحتوى على نقد لكتاب أو فيلم، ولا تبقى الصفحة على الشاشة إلا مدة قصيرة للغاية، ثم يطلب منا أن نقول ما إذا كان هذا النقد فى صالح الكتاب أو

الفيلم أو فى غير صالحه . كانت الفائدة الوحيدة التى حصلتها من هذه الدروس اقتناعى برأى المحاضر وزيادة اقتناعى بفائدة الإسراع فى القراءة، ولكنى لم أستفد منها كثيراً فى زيادة سرعتى فى القراءة بالإنجليزية . الأمر الذى أحرزت تقدما فيه، ليس بسبب هذه السلسلة من المحاضرات بل بسبب شدة حاجتى، أثناء دراستى بإنجلترا، لتحقيق هذا التقدم، هو القدرة على تكوين رأى بسرعة فيما إذا كان كتاب ما، أو فصل فيه، أو مقال، يستحق أن أستمر فى قراءته أم لا . وهو أمر قد لا يقل أهمية عن سرعة القراءة نفسها . أذكر أننى فى إحدى مقابلاتى مع أستاذى روبنز ذكر لى أن علىّ قراءة كتاب شومبيتر فى تاريخ التحليل الاقتصادى . وهو كتاب مشهور، ويتمتع بتقدير الجميع، ولكنه يحتوى على نحو ١٢٠٠ صفحة من الحجم الكبير والبنط الصغير . فلما سألته بدهشة : «كل الكتاب؟» أجابنى بإجابة ظلت عالقة فى ذهنى وهى : «يجب أن تتعلم كيف تقفز فى القراءة!» (You have to learn how to skip!) وأظن أنه كان على صواب تمامًا، فقد اكتشفت، بعد أن تعلمت هذا القفز، حجم الفائدة التى يجنيها القارئ من ورائه، وكيف أنى أضعت وقتا كثيراً فى كتب سخيفة كان من الواجب علىّ تركها فى وقت مبكر .

يدهشنى الآن أيضًا طول الوقت الذى احتجت إليه لكى أتعلم كيف أن علىّ أن أضع ثقتى لا فى الكتاب، مهما بدا جذابا باسمه أو موضوعه، بل فى مؤلفه . وأن أدرك أن هناك بعض الكُتاب الذين يمكن أن يشعر معهم القارئ بالأمان، فيستطيع أن يطمئن إلى أن أى شيء يصدر عنهم سوف يكون على الأرجح جديرا بالقراءة، وأن عدد هذا النوع من الكتاب فى أى فرع من فروع المعرفة، أقل بكثير مما نظن، وأن نسبتهم إلى المجموع تميل إلى التضاؤل مع ازدياد عدد من يكتبون الكتب دون أن تكون لديهم فى الحقيقة الموهبة اللازمة، بل ولا حتى الأفكار التى تبرر قيامهم بتأليف الكتب أصلا، ومع ازدياد عدد الحاصلين على الشهادات أو من يقومون بالتدريس، وكذلك مع ازدياد قوة دافع الربح فى نشر الكتب وتقدم أساليب الدعاية والترويج لها .

* * *

عندما شرعت فى اختيار موضوع رسالة الماجستير، كنت قد بدأت أفقد حماسى للاقتصاد الماركسى، وللماركسية بوجه عام، الذى كان قد استمر معى منذ بدأت أقرأ عن المادية الجدلية والتاريخية قبل سفرى من مصر. أصبحت الآن أرى الماركسية كحلقة فى سلسلة طويلة من تطور الفكر الاقتصادى، قد تكون أفضل من الحلقات الأخرى فى أشياء ولكنها أسوأ فى أشياء أخرى. وراق لى أن يكون موضوع الرسالة المقارنة بين النظريات المختلفة فى موضوع الربح. وذكرت هذا الموضوع للأستاذ روبنز على أنه الموضوع الذى أريد كتابة الرسالة فيه، فإذا به ينظر إلىّ من فوق نظارته وقد رفع حاجبيه عاليا. كان يريد أن يتحقق من أننى بالفعل لا أفضل أن تكون الرسالة كلها عن جانب من جوانب الماركسية، إذ كان ميلى للماركسية قد اتضح له فى جلسات كثيرة سابقة. قال لى ما معناه: إننى يجب ألا أستبعد موضوعا من الكتابة فيه لمجرد أنه لا يشاركنى رأيى فيه، وإننى إذا أحببت أن أكتب فى الماركسية فإنه لن يرفض. ولكنى أكدت له أن هذا الموضوع هو ما أفضل بالفعل الكتابة فيه، فقبل وتم الأمر على هذا النحو.

عندما بدأت أقرأ استعدادا لامتحانات الماجستير فى توزيع الدخل ولكتابة الرسالة عن نظرية الربح، أصبت بشىء من خيبة الأمل. كنت أظن أننى بدراسة نظريات توزيع الدخل سوف أفهم العوامل التى تفسر انقسام المجتمع إلى طبقات، وتجعل توزيع الدخل أقرب إلى المساواة فى بعض الظروف منه فى غيرها. ولكنى وجدت الحقيقة تكاد أن تكون عكس هذا بالضبط. فعندما بدأ الاقتصاديون مناقشة موضوع توزيع الدخل بشكل علمى لأول مرة، وكان هذا على يد الاقتصاديين التقليديين فى بريطانيا، طرحوا الموضوع على أنه فى الأساس سؤال عن العوامل التى تحدد أجر العامل فى الساعة أو اليوم، ودخل مالك الأرض من الفدان الواحد، ودخل رب العمل كنسبة من رأس المال. ولم يهتموا كثيرا بشرح العوامل التى تحدد توزيع الدخل بين طبقات المجتمع ككل، ومن ثم لم يتطرقوا إلى مناقشة العوامل التى تحدد توزيع الملكية ابتداء، سواء ملكية الأرض أو رأس المال، ربما على اعتبار أن مناقشة مثل هذا هى مناقشة لـ «المؤسسات الاجتماعية» أو «النظام المؤسسى» وهو ما اعتبروه خارج نطاق تخصصهم. وعندما جاءت النظرية التقليدية الحديثة ابتداء

من ١٨٧٠ ، استقر هذا الاتجاه ولم يعد توزيع الدخل يعنى إلا هذه القضايا الجزئية الأقرب إلى نظرية الثمن منها إلى قضايا الاقتصاد السياسى .

هكذا وجدت نفسى مرة أخرى ، من أجل ضمان اجتياز الامتحان ، أقرأ إجابات عن أسئلة لم تكن تهمنى أصلا ، ولا كانت قط الدافع لى لدراسة علم الاقتصاد . وقد بدأت أتبين منذ ذلك الحين أن علم الاقتصاد وحده ، بحالته التى وصل إليها ، بل وربما منذ نشأته كعلم مستقل ، لم يعد يكفى لتقديم الحلول الصحيحة لمشاكل مهمة ، ولا حتى لفهم القضايا المهمة التى يشوقنا فهمها . ولكن ضرورات الامتحان والبعثة والوظيفة . . إلخ ، لا تسمح « بتضييع الوقت » فى فهم المشاكل الحقيقية ، وإنما يسمح الوقت المتاح فقط بالإجابة إجابات صحيحة عن أسئلة تافهة .

بدأت أتبين بالتدريج أن هذا الذى أدرسه فى لندن ليس هو فى الواقع ما كنت أريد دراسته ، ولكنى ، لحسن الحظ ، لم أكن حينئذ قد بلغت السن أو حققت من النضج ما يجعلنى أبتئس كثيراً لهذا الاكتشاف . كان المهم فى نظرى حينئذ هو «النجاح» طبقا للمعايير الجارية ، وقد «نجحت» بالفعل طبقا لهذه المعايير .

- ٢ -

عندما حصلت على الماجستير كان المطلوب منى ، طبقا لنظام البعثات المصرى أن أنتقل مباشرة إلى التحضير للدكتوراه ، إذ كان الغرض من البعثة أن يتم إعدادى للتدريس فى الجامعة ، ولا يتصور مدرس بالجامعة إلا إذا كان حاصلا على الدكتوراه . لم يكن الأستاذ روبنز يعرف ذلك ، ومن ثم قال لى بعد حصولى على الماجستير : «إنهم فى إنجلترا يفضلون ألا ينتقل الطالب من الماجستير إلى الدكتوراه مباشرة بل أن يقضى فترة بعد الماجستير يقوم فيها بعمل ما غير الدراسة ، ولو كان هذا العمل هو التدريس ، إذ إن هذا يتيح له فرصة أن يكتشف ما الذى يريد أن يعرفه بالضبط ، فلا يختار أى موضوع للدكتوراه لمجرد الحصول على الشهادة ، بل يختار موضوعا يشوقه بالفعل ويهمه أن يدرسه» . عندما قلت لروبنز إن نظام

البعثات المصرى لا يسمح بذلك لم يسعه إلا أن يقول لى آسفا: «ليكن إذن ما تريد، وما عليك الآن إلا اختيار الموضوع».

عندما عدت إلى روبنز بعد بضعة أيام بعدة موضوعات كلها تتعلق بالتنمية الاقتصادية فى مصر، قال إن علىّ إذن العمل تحت إشراف أستاذ آخر إذ إن هذه الموضوعات لا تدخل فى اختصاصه، ثم أخذ يمتدح أستاذة أمريكية اسمها «إيديث بنروز» (Edith Penrose)، انضمت حديثا لهيئة التدريس بالكلية، وأخذ يعدد مزاياها. فهى فضلا عن معرفتها الواسعة باقتصاديات الشرق الأوسط وكتاباتها الجيدة عن اقتصاديات البترول، تجيد اللغة العربية. لم أكن قد سمعت شيئا بعد عن هذه الأستاذة الأمريكية، ومن ثم لم يكن لدىّ سبب للاعتراض، وهكذا بدأت العمل معها.

حبَّذت بنروز (Penrose) أن يكون موضوع رسالتى جانبا من جوانب الضرائب الزراعية فى مصر على أساس أهميتها فى نظرها فى تمويل التنمية الاقتصادية، وبدأت بالفعل أقرأ فى الموضوع وكتبت فصلا أو فصلين عنه فيما بين يناير ويوليو ١٩٦١. ثم صدرت فى مصر قوانين التأميمات الشهيرة فرجح لدىّ أن الضرائب بصفة عامة سوف تفقد أهميتها فى مصر كمصدر من مصادر تعبئة رأس المال، وأن الملكية العامة سوف تحل محلها، فضلا عن أنى لم أجد فى موضوع الضرائب الزراعية ما يثير اهتمامى، ومن ثم أخبرت بنروز أنى سأغير الموضوع وأبحث عن موضوع آخر. وظللت أبحث وأفكر حتى اهتديت إلى موضوع مشكلة الغذاء فى مصر وعلاقته بالتنمية، فوافقت هى عليه دون حماس.

والحقيقة أنى أنا بدورى لم أكن متحمسا لهذا الموضوع الجديد. والذى أرجحه الآن هو أنى لم أكن لأتحمس لأى موضوع على الإطلاق يصلح كموضوع لرسالة دكتوراه فى الاقتصاد. فالشروط التى كان يجب توافرها لمثل هذه الرسالة كانت كافية لوأد أى حماس لدىّ. أول هذه الشروط بالطبع أن تكون فى الاقتصاد، وكانت قد بدأت تتضح لى حالة هذا العلم. ربما كان علىّ أن أقرأ بتعمق أكبر ما كتبه الاقتصاديون التقليديون عن أهمية توافر الغذاء الرخيص لاستمرار النمو؛ لإضفاء

الطابع النظرى على جزء على الأقل من الرسالة، حتى ولو كان قليل الفائدة من الناحية العملية. وربما كان علىّ أيضًا شرح المعادلة الرياضية التى تشتمل على العوامل المؤثرة فى الطلب على الغذاء، (وهى السكان والدخل ومرونة الطلب الدخلية على الغذاء) إذ رغم أن دور هذه العوامل في تحديد الطلب على الغذاء يبدو بديهيا ولا يكاد يحتاج إلى ذكر، فإن رسالة للدكتوراه بدون بعض المعادلات الرياضية قد لا تكتسب أى احترام. ربما كان علىّ أيضًا أن أقارن بين زراعة القطن وزراعة بعض المحاصيل الغذائية كالقمح، وأحدد أيهما أجدى لمصر من الناحية الاقتصادية، وأن أستخدم فى ذلك الأسلوب الحديث نسبيا والمعروف باسم تحليل «النفقات والمنافع». (cost/benefit analysis) إذ إن هذا سوف يضفى أيضا بعض الهيبة على الرسالة، وإن كنت جاهلا جهلا تاما بالجوانب الفنية فى الزراعة المصرية، ولا أكاد أستطيع أن أميّز بين حقل مزروع بالقطن وآخر مزروع بالقمح، ولا أعرف شيئا عن العوامل المتعلقة بالتربة والرى التى يعرفها أى مهندس زراعى، وقد تكون أهم بكثير من أى عامل اقتصادى، فى تحديد قرار المزارع فيما إذا كان سيزرع هذا المحصول أو ذاك. ولكن كل هذه المسائل المهمة من الناحية العملية لا تهم إذا كان الغرض الحصول على الدكتوراه. ومن المؤكد أن الأستاذة الأمريكية المشرفة لا تعرف بدورها الكثير عن هذه الأمور. سوف يكون بإمكانها اكتشاف خطأ منطقى هنا أو هناك، أو خطأ فى صياغة المعادلة المتعلقة بالطلب على الغذاء (وإن كانت، حتى فى هذه المسألة الأخيرة نصحتنى باللجوء إلى أحد الأساتذة المختصين بالاقتصاد القياسى للتحقق من أنى لم أرتكب خطأ فى شرح أو تطبيق هذه المعادلة). أما النتائج العملية للرسالة، وما إذا كان لها أى قيمة حقيقية فى رسم السياسة الاقتصادية فى مصر، زراعية أو غير زراعية، فلم تحظ منى ولا من الأستاذة المشرفة بدقيقة واحدة من التفكير.

خطر لى أيضًا أن أكتب فصلا فى الرسالة عن أثر تكوين السوق الأوروبية المشتركة على صادرات مصر من الغذاء. كانت هذه السوق قد تكونت منذ سنوات قليلة (١٩٥٨) والكلام عنها لا يتوقف، والكتب الجديدة تصدر عنها فى كل يوم،

ومن ثم كانت كتابة فصل عن هذا الموضوع دليلا على متابعة آخر موضات الكتابة الاقتصادية، شأنها فى ذلك شأن كتابة فصل عن تحليل «النفقات والمنافع». ولكن كانت القيمة العملية لهذا الفصل، بدوره، قليلة للغاية، فصادرات مصر من المحاصيل الغذائية فى ذلك الوقت كانت تافهة جدا، بالمقارنة بصادراتها من القطن. ولكن الموضوع كان «موضة شائعة»، كما كانت هناك بعض الجاذبية من الناحية التحليلية لبيان أثر اتساع السوق الأوروبى على بعض صادرات دولة من دول العالم الثالث، بالإضافة إلى أن مجرد إيراد أرقام حديثة عن السوق الأوروبية كان من شأنه أن يضفى جاذبية إضافية على الرسالة. لم أجد كل الأرقام التى أحتاجها فى مكتبة الكلية فذهبت إلى مكتبة حديثة أنشأتها السوق الأوروبية فى لندن، وجلست فيها بضعة أيام أنقل منها بعض الأرقام. فلما رآنى أحد موظفيها سألنى عما إذا كنت أحب أن أزور مقر السوق فى بروكسل وأقابل بعض المسئولين هناك، فرحّبت بذلك رغم أنى كنت قد حصلت على كل ما أحتاج إليه من أرقام من مكتبة السوق فى لندن، إذ بدت لى رحلة إلى بروكسل، تضاف إليها بضعة أيام فى باريس، مع خطيبتى الإنجليزية، على نفقة السوق الأوروبية المشتركة، شيئا لا يمكن رفضه، فضلا عن أن الأمر يبدو فخما فى عين كل من لا يعرف حقيقة «الذهاب إلى بروكسل فى مهمة علمية على نفقة السوق الأوروبية المشتركة»!

ذهبت إذن إلى بروكسل وباريس فى رحلة مبهجة، وجمعت بعض الأرقام الجديدة، وسألت بعض المسئولين هناك بعض الأسئلة التى لم يكن لها أى ضرورة. وكتبت الفصل الخاص بصادرات مصر إلى السوق الأوروبية، وكان هذا الفصل رغم انعدام قيمته العملية وضآلة قيمته الفكرية، يحتوى بالطبع على شىء «مبتكر»، مما تتطلبه رسالة للدكتوراه. وهذا هو المهم: أن يكون هناك شىء مبتكر، أى شىء لم يفعله أحد من قبل، مهما كان هذا الشىء المبتكر تافه القيمة. قرأت بعد ذلك ببضع سنوات مقالا لجراهام والاس، أستاذ العلوم السياسية الشهير فى بريطانيا، كتبه فى العقد الثانى أو الثالث من القرن العشرين عن حالة التعليم فى الجامعات البريطانية، شكا فيه من تفاهة الموضوعات التى يكتب فيها الطلبة

رسائلهم الجامعية، وكان مما قاله إن أرسطو، بكل عظمته، لو تقدم الآن بكتبه فى علم السياسة إلى جامعة بريطانية فلربما اعتبروها «أقل ابتكارا» مما يشترطونه الآن فى رسائل الدكتوراه، ومن ثم فلربما رفضوا منحه هذه الدرجة، ومع هذا فإن نفس الجامعة ربما منحت الدكتوراه لشخص موضوع بحثه هو ما إذا كان أرسطو يقطن فى المنزل رقم ٨، مثلا، أم رقم ١٠؟ إذ ربما كان هذا سؤالا لم يخطر لأحد من قبل أن يبحث عن إجابته!

* * *

لم يكن إتمام رسالة الدكتوراه أمرا صعبا إذن، ما دام مثل هذا هو المطلوب، وأنا على أى حال لا أجد التعبير بالكتابة عما يخطر بذهنى، مهمة صعبة مثلما كان يجده بعض زملائى فى البعثة. ولكن لاشك عندى فى أن هذه الدكتوراه قد استغرقت زمنا أطول مما تستحق. نعم، كان لهذه السنوات الثلاث التى قضيتها للحصول على هذه الدرجة بعض الفائدة فى القيام بالمزيد من التمارين العقلية، وإن كانت فترة الماجستير أكثر فائدة من هذه الناحية. كما كان لمجرد الوجود فى لندن هذه المدة الطويلة فائدة أكبر، لما أتاحه لى من قراءات فى غير الاقتصاد، ومن مشاهدة مجموعة من المسرحيات والأفلام وحضور بعض المحاضرات العامة وقراءة صحف ومجلات جيدة.. إلخ، مما ساهم بلا شك فى تقدمى الذهنى. ولكن كل هذا شىء وكتابة كتاب ممل عن «مشاكل الغذاء وعلاقتها بالتنمية الاقتصادية فى مصر» شىء آخر تماما.

ومع هذا فقد أعجبت الأستاذة بنروز بالرسالة، وكذلك الممتحنة الخارجية التى أتت من أكسفورد. ليس هذا فحسب بل لقد طلبت منى بنروز أن أعود بعد انتهاء الامتحان الشفوى، الذى هنأونى فى نهايته بالدكتوراه، بساعة أو بساعتين، لأقابل أحد الناشرين الإنجليز (فرانك كاس Frank Cass) لكى أتفق معه على المطلوب لنشر الرسالة فى كتاب. كان هذا فى حد ذاته يعتبر بالنسبة لشاب مثلى، نجاحًا كبيرًا، إذ كان من النادر قبل ذلك أن تنشر رسالة دكتوراه لطالب مصرى فى صورة كتاب، فى بريطانيا أو غيرها من الدول الأوروبية. وسررت سرورا عظيما بالطبع،

وقابلت الرجل واتفقت معه على إنهاء إعداد الرسالة للنشر خلال بضعة أسابيع، وكان من طلباته القليلة تقليل عدد الجداول لارتفاع تكاليف طباعتها. وقد أتممت هذا بسرعة، ربما في أقل من أسبوعين. واستغربت الأستاذة بنروز بشدة عندما أخطرتها بانتهائي من إعداد الرسالة للنشر في هذه المدة القصيرة، وأذكر أنها قالت لي: «لماذا هذا الاستعجال في إعداد أول كتاب يصدر لك على الإطلاق؟» ولكن الحقيقة أني كنت قد سئمت النظر إلى هذه الرسالة التي شغلتني كل هذا الوقت، كما أنها لم تكن تعبر عما في نفسي، بأي شكل من الأشكال: لا عن أفكار أعتبرها أفكاري، ولا عن مشاعر ملكت عليّ نفسي فجلست أعبّر عنها. نعم، لقد ظهر الكتاب وعليه اسمي بخط واضح، ومجلدًا تجليدا جيدا، وفيه كل المطلوب من كتاب كهذا، من الجداول والرسوم البيانية، إلى الإهداء وأسماء الأشخاص الذين لولاهم ما تمت كتابة هذا الكتاب، بما فيها اسم خطيبتي من باب التودد إليها. وقد أرسلت نسخة من الكتاب كهدية إلى كل من كان يهمني أن يعرف أن رسالتي للدكتوراه قد نشرت في كتاب في لندن. ولكني لا أذكر أني شعرت قط في أي وقت خلال السنوات الكثيرة التي مضت منذ صدوره، بأي رغبة في النظر إليه أو إعادة قراءة أي جزء من أجزائه. وسيظل هذا الكتاب في نظري رمزا باقيا لثلاث سنوات من عمري كان من الأجدى بلا شك أن تنفق على شيء آخر.

كانت فترة الاستعداد لامتحان المعادلة وللماجستير أكثر فائدة بلا شك من فترة الدكتوراه من مختلف النواحي، كما كنت خلالها أسعد حظا فيما يتعلق بالأستاذ المشرف عليّ. لقد كان الأستاذ روبنز ينتمي إلى جيل عظيم من الأساتذة البريطانيين الذين وصفهم هو نفسه في إحدى محاضراته بأنهم «ربما كانوا آخر جيل من أساتذة الاقتصاد الذين لديهم بعض المعرفة ببعض الأشياء الأخرى في خارج مجال تخصصهم»، بعكس الأستاذة إيديث بنروز التي أشرفت عليّ خلال فترة الدكتوراه، فقد كانت متواضعة القدر، سواء فيما يتعلق بمدى اتساع العلم، أو الجاذبية الشخصية. وعلى أي حال فخلال السنوات الست التي استغرقتها البعثة كانت ثقتي بالاقتصاد كعلم تضعف شيئًا فشيئًا، على الرغم من أني لم أغيّر رأيي

قط الذى أتيت به معى من مصر، فى أن الدوافع الاقتصادية تكاد تكون هى أهم عامل من العوامل المحركة للسلوك الإنسانى.

قبل أن أترك كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية نهائيا، بأسابيع قليلة، أعلن عن محاضرة عامة يلقيها أستاذ مرموق من أساتذة الكلية، وكان حديث العهد بالترقية إلى درجة الأستاذية، وفى سن صغيرة نسبيا، وانتهى لتّوه من تأليف كتاب فى مبادئ الاقتصاد، قُدر له بعد ذلك درجة كبيرة من النجاح، وانتشر استخدامه ككتاب مدرسى فى مختلف أنحاء العالم. وكان موضوع المحاضرة هو تجربته فى تأليف هذا الكتاب. ذهبت للاستماع للأستاذ ريتشارد ليبسى (Richard Lipsey)، وخلال المناقشة التى أعقبت المحاضرة، سأله أحد الطلبة سؤالا ظلت إجابة الأستاذ عليه عالقة بذهنى وظللت أقتطفها من حين لآخر لتلاميذى. كان السؤال: «إذا قدّر لك أن تعود إلى سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة عندما كنت على وشك دخول الجامعة، فهل تختار علم الاقتصاد موضوعا لتخصصك كما فعلت من قبل؟» وكانت الإجابة بالنفى، بل وبالنفى القاطع، وقال إنه كان يختار دراسة التاريخ بدلا من الاقتصاد. وعندما سئل عن السبب قال: «سأروى لكم قصة حدثت لى وتوضح سبب خيبة أملى فى علم الاقتصاد». قال إنه كان منذ وقت قصير يعدّ محاضرة طلبتها منه الجمعية الملكية لتقدم العلوم، وكان الموضوع يتطلب إعداد جدول إحصائى يبين تطور الأسعار عبر فترة زمنية ما، ولتكن ١٩٣٠ ـ ١٩٦٠ مثلا. وأعدّ الرجل المحاضرة وأعطاها لسكرتيرته لتكتبها على الآلة الكاتبة، فأخطأت السكرتيرة وكتبت الأرقام الدالّة على الأسعار مقلوبة، فجاء الرقم الخاص بسنة ١٩٦٠ مثلا وكأنه الرقم الخاص بسنة ١٩٣٠ وهكذا. وعندما قرأ الأستاذ الجدول مكتوبا على هذا النحو لم يفطن لأول وهلة للخطأ الذى حدث، ووجد أن من الممكن أن يفسر الأرقام، وهى مقلوبة على هذا النحو، بنفس النظرية التى استخدمها لتفسير الأرقام وهى مرتبة الترتيب الصحيح، ربما مع تعديلات طفيفة أو تحفظات بسيطة فى التفسير لا تؤثر كثيراً على النتيجة التى وصل إليها فى نهاية المحاضرة. عندما اكتشف الأستاذ الخطأ الذى حدث هاله أن تكون هذه هى حالة

علم الاقتصاد، أو حالته الراهنة على الأقل. وتعجب من هذا العلم الذى يمكن لنظرياته أن تفسر الشىء ونقيضه بنفس الدرجة من اليقين. هذا ـ على حد قوله ـ هو ما يجعله يعتقد أنه لو عاد إلى صباه لاختار علما آخر يتخصص فيه غير الاقتصاد.

ـ ٤ ـ

فى الوقت الذى كنت أستعد فيه لأول امتحان لى فى لندن (امتحان المعادلة) كان أخى أحمد يقضى بضعة شهور للتدريب فى شركة سموندس فى مدينة نورنبرج الشهيرة بمحاكمة مجرمى الحرب. كانت ألمانيا قد قسمت إلى قسمين، شيوعى يخضع للنفوذ السوفيتى فى الشرق، ورأسمالى يخضع للنفوذ الأمريكى فى الغرب، وكانت برلين وإن كانت تقع بأكملها فى داخل ألمانيا الشرقية، قد قسمت بدورها إلى قسمين شيوعى ورأسمالى، ولكن كان لا يزال من المسموح به فى تلك السنة (١٩٥٨) التنقل بين برلين الغربية والشرقية.

ذهبت لزيارة أخى أحمد فى نورنبرج ووجدتها فرصة ذهبية لقضاء بضعة أيام فى برلين للمقارنة بين النظامين الرأسمالى والاشتراكى عن طريق المقارنة بين برلين الغربية والشرقية. كنت فى ذلك الوقت أكثر تعاطفا بكثير مع الماركسية، مما أصبحت عليه فيما بعد، ومستعدا للدفاع عن أشياء فيها تبين لى فيما بعد أنه لا يمكن الدفاع عنها. ومع ذلك لم يسعنى، حتى فى ذلك الوقت، إلا أن أعترف ببعض أوجه النقص فيما رأيته فى برلين الشرقية. ففى خطاب طويل أرسلته من برلين إلى العائلة فى القاهرة أقارن فيه بين قسمى المدينة، كتبت ما يلى:

برلين فى ١٩/ ١٢/ ١٩٥٨

والدتى العزيزة، عزيزىّ حافظ وحسين

أكتب لكم من برلين وقد قضيت فيها حتى الآن خمسة أيام، ولا أظن أن هناك مكانا هاما فى برلين الشرقية أو الغربية لم أشاهده. وعلى هذا فأنا مؤهل الآن لأن أحدثكم عن ألمانيا وعلى الأخص عن الفرق بين شرق برلين وغربها.

عندما وصلت إلى نورنبرج لم يكن يخطر ببالى أن بإمكانى رؤية برلين، وعلى الأخص، أن أتمكن من دخول برلين الشرقية. ولكن تبين لى أن الأمر سهل، وأن دخول ألمانيا الشرقية - فيما عدا برلين - هو المستحيل. قطار واحد يغادر نورنبرج إلى برلين يقطع رحلته فى تسع ساعات، والرحلة كلها تقع خلال الليل، وربما كان هذا مقصودا لعدم إتاحة الفرصة لمشاهدة أى شىء من ألمانيا الشرقية، فبرلين، كما لا يخفى عليكم، تقع فى المنطقة السوفيتية.

فى أثناء مرور القطار بالمنطقة الشرقية صعد بعض رجال البوليس الشرقى وفحصوا جواز سفرى ومنحونى تأشيرة لبضعة أيام فى برلين. وكان هذا أول شىء أراه من العالم الشيوعى: وجوه مرهقة بالعمل ولكن معاملتهم طيبة. فى القطار تبادلت الحديث مع امرأة ألمانية - هى الوحيدة التى كانت تعرف الإنجليزية فى العربة التى كنت بها. وهى تعمل فى نورنبرج ولكن أمها تقيم فى المنطقة الروسية. وقد سألتها كيف سمحوا لها - وهى من الغرب - بالذهاب إلى أمها فى شرق ألمانيا فى بلدة غير برلين، فقالت إنها تحاول الحصول على إذن منذ أكثر من عشرة أشهر، وإنها كانت تنوى زيارة أمها فى الصيف فلم تتمكن، وأخيرا سمحوا لها بزيارتها فى الكريسماس. حينما سألتها عما إذا كانت تفضل الشرق أم الغرب ابتسمت وقالت: «لماذا أقيم إذن فى الغرب؟ هذا هو أقصى ما تمكننى الدبلوماسية من أن أقوله لك». . . كنت على كل حال مهيئا نفسيا لتقبل فوارق ضخمة بين الشرق والغرب، ولكن جاء الواقع لا يقل فى تأثيره عما تخيلته. فالمقارنة فعلا شيّقة.

برلين تشبه فى نظرى رجلا يلبس بنطلون بدلة ردينجوت وجاكتة قديمة مهلهلة. والجاكتة المهلهلة تشير بلا شك إلى شرق برلين. وأنا متمسك بتشبيه شرق برلين بالجاكتة القديمة المهلهلة أكثر من تمسكى بالجزء الآخر من التشبيه. فى شرق برلين - دون غربها - تجد صبية بين السادسة عشرة والعشرين يبدو عليهم إرهاق العمل، يرتدون ملابس رخيصة، لا يعبأون بهندامهم، ويشربون السجاير والبيرة بكثرة، مما لا يتفق وعمرهم، ولكنهم مؤدبون ومخلصون وتحس أنهم ناضجون قبل الأوان (مثال لأدبهم أنهم أسرعوا بإحضار كرسى لى فى مقهى بمجرد إدراكهم أنى أجنبى،

وأوسعوا لي مكانا في مائدتهم). هذا الوصف ينطبق على البنات كما ينطبق على الأولاد.

كذلك المحلات في برلين الشرقية قريبة الشبه جدا بالمحلات الصغيرة التي تجدها في مكان كـ «الظاهر» بالقاهرة. الذوق في التنسيق محط جداً، التراب يعلو المعروضات، الفاترينات كثيرا ما يترك جزء كبير منها خاويا، كما أن أصناف البضاعة من نوع ردىء أو متوسط غالبا. كذلك، جزء كبير من الملابس التي يرتدونها هي من نوع الملابس الرخيصة المعروضة عندنا في العتبة أو شارع عبد العزيز.

إن جزءاً كبيراً من برلين الشرقية يجعلك تحس كأن الحرب لم تنته إلا منذ أيام قليلة لا منذ ثلاثة عشر عاما، فالمباني المهدمة والأراضي الخاوية لا نهاية لها.

شارع واحد جميل جدا وبذلت فيه كل عناية، هو طريق ستالين، وهو شارع يبلغ طوله حوالي طول شارع فؤاد، صفت المباني الضخمة على جانبيه، وكلها بناها الروس على طراز واحد جميل، والمحلات التجارية في هذا الشارع رائعة التنسيق. وفي منتصف الشارع تمثال لستالين، وبجواره مكتبة ضخمة اسمها مكتبة كارل ماركس، تحوي بالطبع كل كتب ماركس وإنجلز ولينين بالألمانية ولكنها لا تحتوي من الأدب الروسي غير كتب جوركي. جميع المحلات بهذا الشارع تحمل على أبوابها وفاتريناتها الحرفين: H O وهما اختصار لكلمتين ألمانيتين بمعنى مؤسسة تجارية وكلها ملك الدولة، بدون استثناء، من مطاعم إلى مراقص إلى مكتبات إلى أكشاك لبيع الجرائد. هناك بعض المحلات الصغيرة في برلين الشرقية متروكة للأفراد مع فرض ضرائب مرتفعة جداً، ولكن حتى هذا قليل.

في برلين الشرقية أيضا حديقة رائعة الجمال أقامها الروس تخليدا لذكرى الجنود السوفيت الذين ماتوا في الحرب. في هذه الحديقة رأيت أشد ما رأيته من التماثيل تأثيرا في النفس: وهو تأثير مستمد من ضخامتها ومن الأفكار التي تعبر عنها. من هذه التماثيل تمثال للوطن الأم تبكي أبناءها الذين ماتوا في الحرب، وتمثالان لجنديين روسيين راكعين تحية لذكرى الجنود، وتمثال ضخم في الوسط لجندي روسي

يحمل طفلا فى يده اليسرى وسيفا بيده اليمنى. فى أرض الحديقة دفن سبعة آلاف جندى سوفيتى. على أن الأثر الطيب الذى تركته الحديقة فى نفسى ضعُف جدا عندما قال لى شاب ألمانى عند خروجى إن هذه الحديقة سُخّر الألمان فى بنائها ليلا ونهارا خلال عامين كان الألمان يقاسون فيهما الجوع.

من الأشياء الطريفة فى برلين الشرقية خلوّها من الإعلانات من النوع الذى تعرفه فى الدول الرأسمالية. فى محطات مترو الأنفاق مثلا مساحات من الجدران مخصصة للإعلان ولكن لا إعلان فيها. كل ما تجده من إعلانات هو من النوع الإخبارى: بخصوص سيرك روسى مثلا، أو مباراة كرة قدم، أو معرض، أو بيان بالروايات الموجودة بالمسارح المختلفة، أو بعض الدعاية للشيوعية بمناسبة مرور أربعين عاما على الثورة. ونظرًا إلى أن ترك الجدران بلا إعلانات أو أوراق ملونة يجعلها كئيبة المنظر، فقد عمدوا أحيانا إلى لصق عدة نسخ من الإعلان الواحد جملة فى مكان واحد وبلا مبرر.

راعنى فى البداية أن أجد البائعات فى المحلات لهن وجوه تخلو من أى جمال، وأكثرهن متقدمات فى السن، وذكرنى منظرهن بوجوه النساء اللاتى رأيتهن مرة فى حديقة الأورمان بالقاهرة يوم شم النسيم واللاتى جئن إلى الحديقة بالأرواب وبوابير الجاز. وطبعا لا مجال لمقارنة هؤلاء بالوجوه الصبحة النضرة التى تصادفك فى أى محل رأسمالى. ولكن أليس هذا مما يُحمد للنظام الاشتراكى؟ أليس من هؤلاء النساء من تشتغل بالدعارة فى النظام الرأسمالى لعدم وجود عمل؟ وهل الفتاة الجميلة هى وحدها التى يحق لها أن تحصل على عمل شريف؟ لهذا تعودت بعد الصدمة الأولى أن أمر لرؤية هذه الوجوه فى المحلات الشرقية.

حينما تدخل محلا لا يقابلك بطبيعة الحال التّملق الكريه المعهود فى المحلات الرأسمالية ولا محاولة لخداعك، فلا يمكن إذن أن تنتهى الصفقة بأن تشترى حذاء واسعًا أو قماشا يتبين لك فيما بعد أنه لو كانت لديك فرصة التروى ما اشتريته، فالبائعة بالطبع لا مصلحة لها فى ترويج البضاعة وهى تكتفى بوصفها لك. ومع هذا فلم ألحظ من البائعين أى تكاسل. اشتريت من هناك مفكرة ونتيجة للحائط فما

راعنى إلا أن البضاعة سلمت إلىّ ملفوفة فى ورق من النوع الذى نسميه فى مصر «ورق لحمة». طبعًا، فما هو الداعى إلى أن يلفوها لك فى ورق مزركش أو يربطوها بشريط من حرير؟! الحكومة على ما يبدو ليست حريصة على أن تعود إلى الشراء منها! أما المفكرة، فهى مملوءة بعبارات مكتوبة بالخط الأحمر فى أسفل كل صفحة عن تواريخ ميلاد كارل ماركس وإنجلز ولينين (ولكن ليس ستالين). وبهذه المناسبة فإن كارل ماركس وإنجلز حظيا فى ألمانيا الشرقية، باعتبارهما ألمانيين أيضاً، بتمجيد لا أظنهما كانا يحلمان به. هناك مثلا مقاطعة كاملة باسم ماركس، وميدان باسم ماركس وإنجلز، وكتبهما تملأ فترينات المكتبات.. أرادت ألمانيا الغربية أن تظهر تسامحها فأطلقت هى الأخرى اسم كارل ماركس على أحد شوارعها. وأظن أن هذا ما كان ليحدث لولا المنافسة مع الشرق. وعلى أى حال فشارع كارل ماركس فى الغرب لا يقارن من حيث الطول والأهمية بالشارع المسمى باسم الفيلسوف «كانت»، وهذا كاف للتدليل على سوء النية!

لا داعى بالطبع لأن أتكلم عن التسهيلات الاجتماعية فى ألمانيا الشرقية فهى معروفة: التعليم مجانى، الطب مجانى، السكن رخيص جدًا، الطالب معتنى به من كافة النواحى. كذلك المسارح وقاعات الموسيقى كثيرة. وأسوق إليكم بعض أمثلة للأسعار نقلتها من الفترينات وتدل على العموم على أن مستوى المعيشة معقول جدا:

فرن بوتاجاز بموقدين ٧ جنيهات، فانلة صوف ٦٠ قرشا، كرافتة ٣٠ قرشا، بيجامة صوف ٣ جنيهات، شراب نايلون للسيدات ٧٠ قرشا، قماش بدلة صوف (المتر) ٣ جنيهات، حذاء وجيه جنيهان، قميص شيك ٣ جنيهات، بلوزة دانتلا جميلة جنيه واحد، بالطو نسائى جميل ١٥ جنيها، آلة تسجيل ٦٠ جنيها.. إلخ.

كذلك، تناولت غذائى هناك مرة، وكان يتكون من قطعة كبيرة من الكفتة مع بطاطس بالمايونيز، بما يعادل ثمانية قروش.

سؤال أخير هام: هل الشعب سعيد هناك؟ لم أوفق حتى الآن فى الدخول فى حديث محترم مع ألمانى، والسبب هو جهلى بالألمانية وجهلهم بأى لغة أجنبية.

على أن الذى أسمعه دائما ممن له مدة طويلة هنا أن الشعب غير سعيد بالحياة فى الشرق. ومن ملاحظاتى البسيطة أن الصبية العمال الذين أشرت إليهم من قبل تلهفوا على السجاير التى عزمت بها عليهم؛ لأنها من السجاير المصنوعة فى الغرب، وأننى حينما استخدمت الكلمات الألمانية المكسرة التى أعرفها وبالاستعانة بيدىّ للقول بأن برلين الشرقية أحسن من الغربية، لمجرد جسّ نبضهم، أبدوا استغرابهم من قولى ولكن بمجرد التعبير بالوجه دون أن يتكلموا، ولا أدرى هل هذا بسبب الخوف أو لعدم معرفتهم لغتى.

ليس هناك أى حاجز يمنع المرور بين برلين الشرقية والغربية، فالترام ومترو الأنفاق يمران بدون توقف بين القسمين. على أن هناك عقبات اقتصادية. فنظرا إلى أن الحكومة فى ألمانيا الشرقية تدعم الكثير من السلع فقد عمدت هذه الحكومة إلى منع بيع أى شىء فى برلين الشرقية ما لم يقدم المشترى ما يثبت حصوله على إذن بالإقامة فيها، وهذا الإذن هو غير الإذن بدخول برلين بصفة عامة. فهو لم يعط لى مثلا رغم أنى أستطيع دخول برلين الشرقية والغربية. وعلى هذا فأنا مثلا لا أستطيع قانونا شراء أى شىء من برلين الشرقية، ولا حتى تناول الشاى فى مطعم ولا دخول سينما. على أن الذى يحدث أنهم يتساهلون مع الأجانب أمثالى، إذ إن الإجراء موجه أساساً إلى الألمان المقيمين فى الغرب. والذى يفعله الطلبة العرب هنا أنهم يستبدلون بالمارك الغربى أربعة ماركات شرقية ويذهبون إلى برلين الشرقية فيشترون حاجيات الأسبوع ويعودون، وبهذا يكونون فى الواقع قد دفعوا ربع التكاليف العادية.

أما برلين الغربية فهى مدينة من ذهب، الأضواء تتلألأ طول الليل، المبانى عالية وفاخرة، والمحلات رائعة التنسيق.. إلخ. والواقع أن الأمريكان بصفة خاصة لم يدخروا وسعا فى محاولة تجميلها. فبرلين ليست إلا مكانا لتنافس الشرق والغرب، كل ما هنالك أن الغرب متهور وطائش ينفق بلا حساب، والشرق عاقل أو قليل الموارد. فى أثناء مرورى بجولة ببرلين الغربية كان المرشد يقول لنا كل حين وآخر: «هذا المبنى الجميل هو هدية من الحكومة الأمريكية، هذه المكتبة هدية من أمريكا،

هذه الجامعة بناها فورد . . إلخ» . والمساعدات الأمريكية هى العذر الذى يقدمه الروس لتبرير تأخر مستوى المعيشة فى شرق برلين عن غربها .

خادمة باللوكاندة قالت لى اليوم إنها هربت من شرق برلين منذ عام تاركة عائلتها ، وإنها لا تستطيع العودة الآن وإلا حبسوها ، ولا تستطيع ترك برلين إلا بالطائرة لأنها لا تستطيع المرور بأراضى ألمانيا الشرقية وإلا حبسوها . وإنها إذا استولى الروس على كل برلين سترحل إلى إنجلترا أو كندا . اليوم فى قهوة جلست بجوار عامل ألمانى يجيد الإنجليزية لحسن حظى . هو عامل منجم وملابسه قذرة للغاية . سألته أيهما يفضل الشرق أم الغرب؟ فقال الغرب ، ولكنه لم يُبْد أسبابا مفهومة . وفى النهاية قال وهو يضحك : إنهم فى الشرق ليس لديهم روح (have no souls) ولكنى لم آخذ جملته بشكل جدى لأنى أشك فى أنه يعرف معنى ما يقوله .

لا أستطيع بسهولة أن أستخلص حكما نهائيا ، ولكنى أظن أنى مددتكم بعناصر تساعد على تكوين هذا الحكم . وعلى كل حال فالإنصاف يستلزم إتقانا للغة الألمانية والبقاء مدة أطول بكثير والتغلغل فى الحياة الاجتماعية . أما عنى أنا فقد تمتعت بالرحلة ، واستفدت منها أكثر . حضرت فرقة برلين السيمفونية ثلاث مرات ، وفرقة أوبرا برلين مرتين ، وسأذهب إليها غدا مرة أخرى لقضاء رأس السنة . رأيت فيها «حكايات هوفمان» و«عطيل» وسأرى غداً «حلاق أشبيلية» . ورأيت متحف برلين الضخم ، ورأيت فيه «رأس نفرتيتى» وحجرتين مملوءتين بالآثار المصرية والسورية .

كنت فى حفلة لفرقة برلين السيمفونية اليوم ، ولأول مرة استطعت أن أقدّر دور المايسترو . كان المايسترو اليوم رجلا غير عادى اسمه «هربرت فون كاريان» كان التفرج عليه متعة فى حد ذاته ، فحركات يديه كانت كرقص الباليه ، وكأنه بعصاه يعزف جميع الآلات فى الأوركسترا . وقد ظل الجمهور يصفق له أكثر من خمس دقائق . وعند انتهاء العزف قفزت فتاة جالسة أمامى لأنها لم تستطع تمالك نفسها من السرور . وقد عرف أفراد الأوركسترا أن التقدير موجه للمايسترو ، فانسحبوا بعد منتصف التصفيق وتركوه يتلقى الباقى وحده . وقد تضمن البروجرام قائمة بالأسطوانات التى سجلتها شركة «كولومبيا» بقيادة هذا المايسترو .

ملحوظة : أخبرني أحمد أن والدتي دخلت المستشفى مرة أخرى بعد سفرى . وقد أقلقنى هذا كثيراً خصوصاً وأنى عرفت من هذا أنكم لا تكتبون إلىّ بكل أخباركم . على العموم ، أنا راجع فى الصيف لأعرف الحق من الباطل !»

ـ ٥ ـ

كانت فترة البعثة هى فترة وقوعى فى الحب الحقيقى لأول مرة وزواجى ممن أحب . ففى يوم من أيام ١٩٦٢ ، تعرفت على فتاة إنجليزية جميلة كانت صديقة لطالبة عراقية تدرس الاقتصاد فى نفس كليتى ، بينما كانت هى (جان) تدرس علم الاجتماع فى كلية بدفورد (Bedford) ، بلندن أيضاً ، وتأتى من حين لآخر إلى كليتنا لتقرأ فى مكتبتنا الأكثر غنى ، أو لحضور إحدى المحاضرات العامة المتاحة للجميع . عرفتنى عليها صديقتنا العراقية فجذب انتباهى جمالها ووداعتها وإخلاصها فى التعبير عما تعتقده أو تشعر به . دعوتها إلى مصاحبتى للعشاء ثم للسينما فقبلت ولكنها اعتذرت عن الخروج معى بعد ذلك لقرب الامتحانات وحاجتها إلى توجيه كل وقتها للاستعداد لها . كان هذا الاعتذار سببا كافيا تماما لأن أتصوّر أننى لم أعجبها ، فامتنعت فوراً عن ملاحقتها . وقد قالت لى فيما بعد : إنها استغربت هذا التصرف منى واستاءت منه ، أما أنا فكم كان استغرابى وفرحى عندما التقينا مصادفة فى حفلة أقامتها نفس الصديقة العراقية بعد ثلاثة أو أربعة أشهر ، ووجدت (جان) تقابلنى بفرح حقيقى وكأنها عثرت على حبيب مفقود . ومنذ ذلك اليوم لم نفترق يومًا واحدًا لعدة شهور أو ربما لعدة سنوات . وعندما قررت فى أحد أيام سنة ١٩٦٣ ، أن أعرض الزواج عليها ، ولم يكن قد مر أكثر من ستة شهور على أول لقاء لنا ، اتخذ هذا العرض بالزواج صورة طبيعية للغاية ، وكأنه يتعلق بأمر من أمور الحياة اليومية . كان السبب واضحا لى تمام الوضوح ولا يدع مجالا للتردد . كان قد مرّ على التقائنا الحاسم الذى لم نفترق بعده ، ثلاثة أو أربعة أشهر لم أشعر قط قبلها بمثل ما شعرت به خلالها من سعادة ، وعندما سألت نفسى عما إذا كان من الممكن أن أتصور نفسى وأنا أشعر بسعادة أكبر مما أشعر به الآن ، كانت الإجابة قاطعة

بالنفى ، فلم أر سببًا للتردد فى أن أعرض عليها الزواج . جاء عرضى هذا بالزواج بدوره بشكل بسيط وتلقائى وكأنه لا ينطوى على أى خطر أو أهمية إذ سألتها : «هل تأتين معى إلى مصر عندما أنتهى من الدكتوراه؟» سألتنى بدهشة وسرور عما أعنيه، فلما أوضحت لها ما أعنيه كان عرضا بالزواج، وقبلته هى بلا تردد . تلت هذا فترة قصيرة من التفكير من جانبى ، ولكنه لم يكن ترددا ولا نكوصا . فقد بدأت أفكر فيما إذا كان لما فعلته بعض الآثار السلبية التى يجدر بى أن أتروى بشأنها : هل من الحكمة أن أتزوج من إنجليزية؟ هل أضحى بسبب ذلك ببعض المزايا فيما يتعلق بمستقبلى المهنى وسعادتى؟ هل ستستسيغ هى الحياة فى مصر؟ هل ستؤثر العلاقات السياسية بين مصر وإنجلترا على علاقتنا؟ ما أثر مثل هذا الزواج المختلط على الأولاد؟ المدهش أن كل هذه الأسئلة وأمثالها لم تخطر ببالى قط بعد أن تم زواجى بالفعل، بل ولم تستغرق منى وقتا طويلا حتى قبل الزواج . ولا أظن أنها شغلت بالها هى ، قبل الزواج أو بعده .

كانت هناك بالطبع المشكلة التى تواجه أى زوجين وهى ما يترتب على الزواج من تضييق شديد لدائرة الحرية المتاحة لكلا الطرفين . كان الزواج من أجنبية يحمل فى طياته مزايا لا يستهان بها فى هذا الأمر ، ولكنه كان أيضًا يجلب أعباء إضافية . فالزوجة الأوروبية ، خاصة إذا كانت متعلمة ، هى فى أغلب الأحوال أكثر استقلالا واكتفاء بنفسها من الزوجة المصرية ، وأكثر قدرة على الاستغراق فى أشياء تجلب لها السرور بمعزل عن الرجل ، ولكنها من ناحية أخرى ، بحكم وجودها فى بلد غير بلدها ، وبعيدة عن أهلها ، أكثر اعتماداً على رجلها الذى تركت كل شىء من أجله . فإذا أضفنا إلى هذا ما قد ينقضى من سنوات قبل أن تجيد الزوجة الأجنبية الكلام باللغة العربية وفهمها ، وبدرجة تسمح لها بالتصرف بالكفاءة اللازمة ، أصبح العبء الملقى على الزوج ، خاصة فى السنوات الأولى ، عبئا مضاعفا .

لا أنسى مثلا يوم ذهبنا إلى محل شركة إيديال فى وسط القاهرة ، فى الأيام الأولى التالية لوصولنا إلى مصر بعد الزواج ، لشراء الدواليب اللازمة لتأثيث المطبخ ، فأخذ الموظف المسئول يعرض علينا كل الاحتمالات الممكنة بالأحجام

والأشكال والألوان المختلفة لنختار من بينها ما يناسب ذوقنا ومقاسات الحوائط . . إلخ . لم يكن لدىّ أى اهتمام حقيقى بالأمر ولم أكن لأبالى على الإطلاق بما إذا كان اللون أبيض أو أسود، والدواليب مرتفعة أم منخفضة، ولكن المهمة يجب أن تتم، ولا يجب أن أبدى مشاعرى الحقيقية بأن الأمر كله لا يهمنى، كما أن زوجتى لم تكن تستطيع، حتى لو تركت الأمر كله لها، أن تتفاهم مع العاملين بالمحل، إذ لم تكن معرفتها باللغة العربية بالدرجة التى تمكنها لا من التعبير عما تريده ولا من فهم ما يقال لها . سرعان ما وجدت نفسى فى موقف لا أحسد عليه على الإطلاق، إذ تحولت خلال دقائق إلى مجرد مترجم ينقل المعانى المطلوب نقلها، من الزوجة إلى الموظف، ومن الموظف إلى الزوجة، ونسيت خلال قيامى بهذه المهمة الصعبة، وما أصابنى بسببها من إعياء، أن من الممكن جداً أن أدلى أنا برأيى فى الموضوع وأننى سأكون أحد المستفيدين من المطبخ فى نهاية الأمر .

كان لابد أن أتحلى فى هذه المواقف بدرجة عالية من الصبر، كما كان يجب عليها هى أن تتحلى بدرجة أكبر من الصبر، ليس فى مثل هذه المواقف وحدها، بل وفى التأقلم على الحياة المصرية التى تجعلها، فى كل خطوة تخطوها، تواجه أنواعا من السلوك مختلفة تمامًا عما اعتادته فى بلادها . فى كل هذه الأمور أعتبر نفسى زوجا سعيد الحظ، إذ ظهر أن لزوجتى درجة من الصبر والحكمة تفوق ما يمكن لأى امرئ أن يتوقعه، وتفوق بكثير ما رأيته من معظم الزوجات الأجنبيات اللاتى جئن مع أزواجهن المصريين للعيش فى مصر . فقد أحبت زوجتى مصر والمصريين حبا حقيقيا، وفهمت مزاياهم وصبرت على عيوبهم، وتعاطفت تعاطفا حقيقيا وعميقا مع فقراء المصريين، يزيد عن تعاطفى معهم، وأظهرت كرما نادر المثال فى الإنفاق عليهم ومحاولة حل مشاكلهم . ظهر منها هذا الكرم أيضًا وطيبة القلب فى معاملتها لأفراد أسرتى فاكتسبت حبهم جميعًا، وفى معاملتها لأبويها ولأولادها وأحفادها، فكانت هى الابنة المفضلة لأبيها وأمها، ومصدرا مستمرا للسرور والبهجة لهما وللأولاد والأحفاد كما كانت لى .

إنى أكتب هذا بعد مرور أكثر من أربعين سنة على زواجنا . وهو أمر لا يمكن

الاستهانة به : أن يعيش رجل مع نفس المرأة لمدة أربعين عاما ، كما أنه أمر يستحق عليه كل من الرجل والمرأة التهنئة : أن يصبر كل منهما على الآخر طوال هذا الزمن . لا يقل عن هذا أهمية ، فيما أظن ، أنه لم يخطر ببالى قط ، خلال هذه المدة كلها ، أن كان من الأفضل ألا يستمر هذا الزواج ، ولا خطر لى قط أن كان من الأفضل لى أن أتزوج بغيرها أو ألا أتزوج على الإطلاق . أما زوجتى فلا أستطيع بالطبع أن أقطع بما إذا كان قد طاف بذهنها مثل هذا الخاطر . إنها كثيرا ما كتبت لى بضع كلمات فى مناسبة الاحتفال بهذه الذكرى أو تلك ، من ذكريات زواجنا ، فقالت إنها تعتبر نفسها سعيدة الحظ جداً بهذا الزواج . ولكنى أكثر ثقة بحسن حظى بهذا الزواج منى بحسن حظها هى .

(١١)

ثورة يوليـو

لم يكن أبى بطبعه يحب السياسة وحديثها، وكان يميل إلى الاعتقاد بأن من يشتغل بالسياسة لابد أن يكون لديه، بصفة عامة، ميل طبيعى للخداع والكذب. لا أتذكره قط وهو يتكلم عن سعد زغلول أو مصطفى النحاس، اللذين ملكا قلوب كثيرين من المصريين، وشغل الحديث عنهما الكثير من الأسر المصرية لعدة أجيال. ولا أتذكره قط وهو مشغول بتخمين من سيشكل الوزارة الجديدة، فالجميع فى نظره سواء، أو الفروق بينهم أتفه من أن تستحق أن ينشغل بها. كان الاستثناء الوحيد من ذلك هو محمود فهمى النقراشى الذى تولى رئاسة حزب السعديين وجاء رئيسا للوزراء فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وقُتل على يد أحد الإخوان المسلمين. كان أبى يحب النقراشى ويثنى عليه لخلقه لا لسياسته. ولا أزال أذكر كم كان حزنه شديدا عندما سمع بمقتله.

أتذكر أيضًا أنه عبّر عن رضاه التام بقيام ثورة ١٩٥٢، مثل الغالبية العظمى من المصريين الذين لم يأسف منهم عدد يذكر على ذهاب الملك فاروق. ولكن صحة أبى كانت قد تدهورت، ونظره قد ضعف لدرجة أضعفت من حماسه للثورة، وجعلته يصرف الباقى من همته إلى محاولة إتمام الجزء الأخير من سلسلة كتبه عن الإسلام قبل أن يصبح عاجزًا تمامًا عن ذلك.

غنّى عن البيان أن أمى لم تكن تهمها أمور السياسة فى قليل أو كثير، فلا هى تتابع أخبارها فى الراديو أو الصحف، ولا هى تسمع من زوجها ما يثير اهتمامها بهذه الأمور. الأمر الذى قد يكون أكثر مدعاة للدهشة أنه، من بين ثمانية من

الأولاد والبنات، لم يُظهر ولد واحد أو بنت واحدة اهتماما كبيرا بالسياسة باستثناء أصغرهم جميعا وهو أنا.

بدأ هذا الاهتمام بالسياسة من جانبي في سن مبكرة للغاية، كما يبدو من مذكراتي التي بدأت أكتبها وأنا في الثانية عشرة من عمري، وكنت أقسّم ما أكتبه فيها في كل يوم إلى قسمين: قسم شخصي وعائلي وآخر يحمل عنوان «أحداث سياسية». واستمر هذا الاهتمام بالسياسة بشكل أو آخر حتى الآن، كما يظهر مما أكتبه من مقالات بين الحين والآخر في بعض صحف المعارضة. وقد حاولت أن أفسر هذه الحالة الاستثنائية في عائلتنا (أقصد حالتي)، فخطر لي أنه قد يكون التفسير هو نفس تفسير طموحي منذ سن صغيرة إلى أن أصبح كاتبا كبيرا، وهو أنني كنت أصغر الأولاد في أسرة كبيرة العدد. وأقصد بهذا التفسير أني قد أكون، بسبب ضآلة مركزي في الأسرة، قد كرهت الأمر الواقع الذي يجعلني دائما في آخر الصف، ويعطي للآخرين امتيازات لا أتمتع بها لأني أصغرهم جميعا، فتولد لديّ إحساس دفين بالظلم ومن ثم استعداد للتمرد والاحتجاج، وجد عدة منافذ له كان منها منفذ المعارضة السياسية. ومع هذا ربما كان في هذا بعض الظلم لنفسي، وأن المسألة قد لا تكون بهذه البساطة، والدافع قد يكون أنبل من ذلك. فأنا أتذكر كيف كنت في سن مبكرة أكثر اهتماما بحال الفقراء من بقية إخوتي، وأكثر استعدادا للإنفاق عليهم من مالي من بقية أفراد أسرتي باستثناء أبي. وأني كنت أدافع عن خادم أو خادمة عوملا بقسوة، أو ظننت أنهما عوملا بقسوة، أكثر مما كان يفعل أي أخ أو أخت لي. ومن ثم قد يكون مصدر اهتمامي بالسياسة هو هذا الاستعداد للتعاطف مع المظلوم أكثر من مجرد كراهيتي لتعرضي أنا شخصيا للظلم من بقية إخوتي. ولكن من الممكن جداً أيضًا أن يكون هذا التعاطف مع المظلومين سببه شعوري المستمر بأني واحد منهم.

على أي حال، فعلى الرغم من أني بدأت كتابة مذكرات عن الأحداث السياسية وأنا في الثانية عشرة فإن عمري السياسي الحقيقي هو عمر ثورة يوليو ١٩٥٢. لقد حدث حتى قبل ١٩٥٢ من الأحداث السياسية ما ترك بعض الأثر في نفسي،

ولكنها كانت آثارا عابرة قصيرة العمر بحكم صغر سنى وانشغالى بأمور أكثر ملاءمة من السياسة لصبى فى بداية سن المراهقة. لقد تعلمت كراهية إسرائيل منذ قيام حرب فلسطين فى ١٩٤٨، وكنت فى الثالثة عشرة من عمرى. وهتفت مع زملائى فى المدرسة فى نفس السن، مطالبين بجلاء الإنجليز ووحدة وادى النيل. وفرحت فرحا حقيقيا وأنا فى الخامسة عشرة عندما فاز مصطفى النحاس وحزب الوفد فى ١٩٥٠ فى أول انتخابات نزيهة عرفتها مصر لفترة طويلة من الزمن، واشتركت فى مظاهرة (وكنت وقتها طالبا فى المدرسة السعيدية التى لم يكن طلبتها يكفّون عن الخروج فى مظاهرات) احتفالا بهذا الفوز، وهتفت «يحيا الشعب وصوت الشعب» ليرد علىّ من حولى، فنبهنى أحد المتظاهرين الأكبر سنا إلى أن هذا الهتاف خطر، لأنه سوف يصمنى على الفور بالشيوعية. كنا نقرأ فى ذلك الوقت مقالات فتحى رضوان وأحمد حسين النارية فى صحف اشتراكية تهاجم الملك بصراحة، وتدعو إلى تحديد الملكية الزراعية بخمسين فدانا. وقد اعتقدت فى ذلك الوقت أن هذه الدعوة معقولة تمامًا وأن العدل أن تكون الأرض «لمن يزرعها». وعبّرت عن هذا الرأى مرة أمام مستأجر أرض زراعية كان أبى يملكها فى محافظة المنوفية، فابتسم المستأجر ساخرا، ولابد أنه تمنى فى داخل نفسه أن أظل على هذا الرأى حتى بعد أن نرث الأرض عن والدى. لا عجب إذن أن كان سرورنا غامرا بقيام الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وكنت حينئذ فى السابعة عشرة من عمرى، وأن تبادلت التهانى مع أصدقائى بفرح حقيقى، عندما شاهدنا سيارات الجيش تسير ببطء شديد على كورنيش الإسكندرية، وقد وقف عليها بعض الجنود الفخورين بأنفسهم، وهم يلوّحون بأيديهم للناس المصطفين على جانبى الطريق وهم يصفقون ويهتفون لهم.

* * *

أصبت بأول خيبة أمل فى الثورة عندما سمعنا فى مارس ١٩٥٤ بنشوب خلاف بين رجال الثورة وعزلهم لمحمد نجيب من رئاسة الجمهورية. كنا نعشق محمد نجيب عشقا، ففضلا عن ارتباط اسمه بالثورة منذ أول ساعة، كان للرجل صفات شخصية شديدة الجاذبية، إذ بدا عليه الإخلاص التام والنزاهة والتواضع الحقيقى،

مع ميل واضح للفكاهة دون أن يفقد احترام الناس له. لم نكن نعرف لأى عضو آخر فى قيادة الثورة أى دور مهم فيها، وكان اسم جمال عبد الناصر لا يزال اسما مغمورا لا أهمية له. كنت وقتها فى السنة الثالثة فى كلية الحقوق، وهاجت الجامعة هياجا شديدا غضبا على عزل محمد نجيب، وكان قادة هذا الهياج من الإخوان المسلمين الذين كانوا يقفون إلى جانب نجيب. ولا أزال أذكر خطبة ألقاها حسن دوح، وكان من قادة الإخوان فى الجامعة، وخطيبا موهوبا، دعا فيها إلى رفض الرأسمالية والاشتراكية والتمسك بالإسلام. وبلغ حماس الطلبة منتهاه عندما اقتطف آية قرآنية وهو يصف دعوته قائلا إنها «لا شرقية ولا غربية»، «زيتونة مباركة». وقد ظل هذا الاقتطاف من القرآن الكريم عالقا بذهنى أتذكره كلما لاحظت مدى قوة تأثير الدين فى المصريين، وكيف أن نفس الفكرة التى يمكن أن يقابلها الناس ببرود، يمكن أن تثير حماسهم بشدة إذا عبر عنها تعبيرا دينيا.

وقد انضممت إلى اعتصام قام به الطلبة فى داخل قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة مصممين على عدم ترك مكانهم حتى يعود محمد نجيب إلى منصبه. وقد أرسل قادة الثورة إلينا من يحاول أن يثنينا عن عزمنا فلم نقبل، وفرضت حراسة قوية حول أبواب الجامعة تمنع أى شخص من الانضمام إلى المعتصمين، ولكن ترحب بخروج أى طالب إلى غير رجعة. وكنت أنوى قضاء الليلة معهم لولا أن جاءنى من يقول إن سيدة تسأل عنك على سلم قاعة الاحتفالات، فخرجت إليها فإذا بها والدتى، رأيتها واقفة على سلم قاعة الاحتفالات بشبشبها وطرحتها السوداء، وقد راعها أن تسمع بانضمامى للطلبة الثائرين فقررت أن تأتى على الفور لإخراجى. كانت أمى تنزعج دائما بشدة من أى إضراب فى الجامعة، وتخاف خوفا حقيقيا من أن تصيب أحد منا رصاصة أو ضربة بالعصا على رأسه. وكان لها حيلة دأبت على استخدامها منذ سنين طويلة، كلما سمعت بحدوث إضراب، وهى أن تأخذ من حذاء كل ابن من أبنائها فردة واحدة وتضعها كلها فى دولاب وتغلقه بالمفتاح. كانت هذه طريقة سهلة ولكنها فعّالة جدّا لمنع اشتراكنا فى الإضراب، إذ كيف يخرج أحدنا بفردة حذاء واحدة؟ ولكن هذا الاعتصام فاجأها دون استعداد

فخرجت على عجل دون أن تعنى حتى باستبدال شبشبها بحذاء، واستقلت أول تاكسى تراه إلى جامعة القاهرة.

عندما أوقفها الضابط الواقف على باب الجامعة وسألها عما تريد قالت: «إنكم تضربون أولادنا فى الداخل»، فقال لها بأدب: إنهم لا يضربون أحدا، وإنهم يرحبون بأى محاولة من جانبها لإخراجنا إن استطاعت. فاستمرت فى سيرها حتى قاعة الاحتفالات، وكان ذهولى لرؤيتها بهذه الحالة، وخجلى من زملائى المعتصمين كافيين لأن أترك الاعتصام وأن أعود معها صاغرا إلى البيت.

لم يستمر الاعتصام طويلا، بل ربما لم يستمر أكثر من بضع ساعات أخرى، إذ أعلن قادة الثورة عودة محمد نجيب، بناء على قرار ماكر، كما تبين لنا فيما بعد، بالانحناء للعاصفة حتى يهدأ الناس، على أن يعزلوه فيما بعد عندما يأخذون للأمر عدّته ويحسنون الاستعداد له. كان من بين ما رتب للتخلص من محمد نجيب نهائيا، إخراج مظاهرات تهتف ضد الدكتور السنهورى الفقيه الكبير، والذى كان وقتها رئيسا لمجلس الدولة ومن المناصرين لمحمد نجيب. وخرج العمال المدفوعون بالطبع من رجال الثورة المنشقين على نجيب، يهتفون «يسقط السنهورى الجاهل»، واقتحموا عليه مبنى مجلس الدولة فى الجيزة واعتدوا عليه وشجوا رأسه بلوح الزجاج الذى كان يغطى مكتبه. كان تأثرى، أنا وزملائى فى كلية الحقوق، شديدا بما حدث للسنهورى، ففضلا عن أنه كان أقرب أصدقاء أبى إلى قلبه، كان يتمتع بمكانة عالية لدى طلبة الحقوق، فقررنا أن نذهب لزيارته فى المستشفى ومعنا باقة ورد تحمل إهداء من طلبة كلية الحقوق، وقمنا بذلك بالفعل مما يدل على أن الدولة البوليسية لم تكن قد اشتد عودها بعد فى مصر، إذ لم يكن مثل هذا العمل ليمرّ بسهولة لو كان قد حدث بعد سنوات قليلة.

كانت صحة أبى وقتها قد تدهورت بشدة، فنبهت علينا أمى بألا نخبره بما حدث للسنهورى خشية المزيد من التدهور. ومع ذلك فكان السر أكبر من قدرتها على كتمانه فسرعان ما أخبرته بنفسها بما حدث. وقد مات أبى بعد هذا الحادث بشهرين (٣٠ مايو) ولكن السنهورى كان قد خرج من المستشفى، ولا أعرف بالضبط لماذا لم

تسل دموعى على أبى، إلا عندما رأيت مدى حزن السنهورى عليه وهو يسير فى جنازته .

نشأ لدىّ فى ذلك الوقت شعور قوى بكراهية جمال عبد الناصر . ولم يكن هذا وقتئذ غريبا بالمرة . لقد اقترن بدء تردد اسمه بانقلاب الثورة على نفسها، وبتوجيه انتقادات غير مقنعة وغير مفهومة لرجل كنا نحبه كل هذا الحب، وهو محمد نجيب . وقد سمعنا أن عبد الناصر كان له الدور الأكبر فى ترتيب الاعتداء على السنهورى، وأنه ذهب مع ذلك لزيارته فى المستشفى فرفض السنهورى مقابلته .

كان ذلك البيان غير المقنع وغير المفهوم الذى أذيع علينا لتبرير خروج محمد نجيب من منصبه مجرد بداية لسلسلة لم تنته من استخدام حجج وشعارات ملتوية، وتسمية الأشياء بغير أسمائها الحقيقية، من تسمية الهزيمة العسكرية بـ «النكسة» إلى تسمية انقلاب صاحب سلطة على صاحب سلطة آخر بـ «ثورة التصحيح» . . إلخ، مما لم يكن معهودا فى عصر ما قبل ١٩٥٢ . ثم لم ينقض وقت طويل على الانقلاب على محمد نجيب حتى جرى توقيع اتفاقية الجلاء فى ١٩٥٤، التى كرهناها أيضًا كرهًا عميقًا، إذ كانت تنص على حق الإنجليز فى العودة إلى احتلال قناة السويس لدى حدوث أى اعتداء أو تهديد بالاعتداء على أى دولة من الدول العربية أو على تركيا، وكان مثل هذا النص هو الذى أثار المصريين ضد مشروع صدقى - بيفن (١٩٤٦) وأدى إلى سقوط إسماعيل صدقى من الحكم . بدت لنا إذن اتفاقية الجلاء نكوصا مشينا عن الآمال القومية، وثارت شكوك قوية فى وطنية عبد الناصر، ولهذا لم أشعر بأى تعاطف معه عندما حدثت محاولة الاعتداء عليه فى ميدان المنشية بالإسكندرية فى ١٩٥٤، وكنت أكثر ميلا إلى تفسير الحادث بأنه مدبر من الحكومة نفسها لتبرير القبض على بعض خصومها . وشعرت بالامتعاض الشديد عندما سمعت ما قاله عبد الناصر للناس بعد إطلاق النار عليه مباشرة، إذ كان تعبيره عن تعجبه من أن يطلق أحد النار عليه هو «أنا الذى علمتكم العزة والكرامة»، فقد وجدت فى هذه العبارة ما لا يطاق من الغرور من ناحية، وإهانة للمصريين من ناحية أخرى . كما أنى استبعدت أن تتوافر لأى شخص البديهة الحاضرة لهذه

الدرجة بعد إطلاق النار عليه مباشرة، إلا إذا كان يعرف بإطلاق النار مقدما. في أعقاب هذا الحادث مباشرة خرجت أم كلثوم بأغنية جديدة مطلعها «يا جمال يا مثال الوطنية، أجمل أعيادنا القومية، دى نجاتك يوم المنشية»، فلم أصبر على سماعها، وكنت أغلق الراديو بمجرد أن تبدأ، مع أنى كنت أيامها مغرما بأغانيها وأنتظر أى أغنية جديدة لها بفارغ الصبر.

لم أكن وحدى أشعر بهذا الشعور المعادى لعبد الناصر فى ١٩٥٤، بل كان يشاركنى فى ذلك الكثيرون، خاصة بعد أن سمعنا بفصل كثير من أساتذة الجامعة من اليساريين والإخوان المسلمين، والقبض عليهم لمجرد إبدائهم لآراء، أو الشك فى أن لديهم آراء معادية للنظام. ولكن حدث فى العام التالى مباشرة ما بدأ يشيع مناخا جديدا، وبدأت ألاحظ فى بعض المجلات المتعاطفة مع اليسار نغمة جديدة فيها تعاطف مع عبد الناصر. كان السبب فى ذلك مؤتمر باندونج، حيث بدأ ظهور شعارات الحياد الإيجابى وعدم الانحياز، وبدا من حكومة الثورة أنها سوف تسير فى نفس الاتجاه الذى رفع شعاراته نهرو وسوكارنو وتيتو. ولكن التغير الكامل فى موقفنا ومشاعرنا تجاه عبد الناصر جاء فى ١٩٥٦، بإعلانه المفاجئ تأميم قناة السويس. لم نصدّق آذاننا ونحن نسمع الخبر، وكانت فرحتنا واعتزازنا بأنفسنا ومصريتنا أكبر مما يمكن وصفه.

* * *

كانت السنوات الست (٥٨ - ١٩٦٤) التى قضيتها فى البعثة فى إنجلترا، سنوات حافلة بالأحداث الحاسمة فى تاريخ مصر السياسى والاقتصادى، وتشكل فى الحقيقة «الحقبة الناصرية» بالمعنى الدقيق، إذ كانت السلطة التى يتمتع بها عبد الناصر والسمات الأساسية لسياسته، أضعف بكثير قبل هذه الفترة وبعدها. كانت وحدة مصر وسوريا قد أعلنت وأنا فى الباخرة فى طريقى إلى البعثة (فبراير ١٩٥٨)، ثم سمعنا بعد ذلك بشهور قليلة بقيام الثورة العراقية (يوليو ١٩٥٨)، ثم بتطورات مثيرة فى الأردن ولبنان كانت تؤذن كلها بنهضة قريبة للعرب، أو هكذا كنا نظن، وبدت الوحدة العربية الشاملة قاب قوسين أو أدنى. فلما أعلن عبد الناصر قوانين

التأميم فى ١٩٦١ بلغ حماسى ذروته وظننت، مثل كثيرين غيرى، أن آمالنا الكبرى على وشك أن تتحقق.

كان الجميع يتكلمون عن العرب، والصحف البريطانية لا تكف عن الكلام عما يفعله العرب، والكتب الجديدة تصدر كل يوم عن مغزى الثورة المصرية أو العراقية، أو عن القومية العربية ومستقبلها، وعن تاريخ العرب وطريقة تفكيرهم، ناهيك عن جمال عبد الناصر ودوافعه الظاهرة والخفية، ومختلف العوامل التى أثرت فى تكوين شخصيته وآرائه.. إلخ. لم تكن المشاعر التى تحيط بنا فى إنجلترا مشاعر ودية فى الغالب، إذ كان الإنجليز لا يزالون يذكرون أننا السبب فيما تعرضوا له من إهانة ومذلة خلال الأزمة التى خلقها تأميم عبد الناصر لقناة السويس، والتى بدت وكأنها بداية الانحدار المستمر للإمبراطورية البريطانية. ولكن هذا الشعور العدائى لم يكن يظهر بصراحة إلا من جانب الطلبة اليهود، الذين كانوا ينتهزون أى فرصة للانتصار لإسرائيل والإساءة لسمعة العرب. عندما حلت ذكرى إنشاء دولة إسرائيل فى ١٥ مايو سنة ١٩٦١، خطر لمجموعة من الطلبة العرب فى كلية لندن للاقتصاد، كنت أنا من بينهم، أن نكتب منشورا من صفحة واحدة تلخص الحجج العربية فى قضية فلسطين، ونوزعه على الطلبة. وقد كتبت أنا هذا المنشور فى عشر نقاط، لا يزيد كل منها على سطر أو سطرين، ووقفنا أمام باب الكلية منذ الصباح نعطى نسخة لكل طالب أو أستاذ يجتاز الباب. وجن جنون الطلبة اليهود، ولم تمض ساعة أو ساعتان حتى رأيناهم يوزعون منشورا مضادا يردون فيه على كل نقطة من نقاطنا العشر، وينزعون من الحوائط ما كنا قد ألصقناه بها من نسخ منشورنا.

لم يستمر حماسنا وتفاؤلنا طويلا، فلم تمض عدة شهور على صدور القوانين الاشتراكية فى مصر حتى حدث انفصال مصر وسوريا (سبتمبر ١٩٦١)، ولم يفلح قيام ثورة فى اليمن بعد شهور قليلة من التخفيف من شعورنا بالإحباط لفشل الوحدة. ثم تتابعت الأحداث والانقلابات فى العراق وسوريا مما جعل حلم إتمام الوحدة العربية أبعد فأبعد عن التحقيق. ثم حدث (فى ١٩٦٣) أن تسلمت الحكم فى سوريا والعراق فى نفس الوقت، حكومتان بعثيتان، كلتاهما من أتباع ميشيل

عفلق، وجاء وفدان من الدولتين إلى مصر للتباحث فى إقامة وحدة جديدة تمحو آثار الانفصال بين مصر وسوريا وتضيف إليهما العراق. ساورنا بعض الأمل وقتها ولكنه سرعان ما تبدد عندما سمعنا بتشدد عبد الناصر فى رفض الخضوع لإرادة حزب البعث، وتشدد الحكومتين البعثيين فى رفض أى وضع يمكن أن تتكرر فيه أخطاء الوحدة السابقة. وقد سمعت أثناء هذه المباحثات خطبة لجمال عبد الناصر وردت فيها سخرية جارحة من ميشيل عفلق، ومن تلعثمه وتردده فى الكلام، وقد آلمتنى هذه الحملة بشدة، إذ فضلا عن حبى القديم لميشيل عفلق وتقديرى له، لم أجد أى مبرر لاستخدام سلاح الإهانة الشخصية لكسب معركة سياسية. لقد جلب علىّ هذا الغضب الذى شعرت به بسبب هذه الخطبة، آثارا وخيمة استمرت تلاحقنى عدة سنوات، ولعلها لم تنته إلا بعد وفاة عبد الناصر وقيام أنور السادات بإحراق الملفات التى كانت تحتوى على تقارير المخابرات والمباحث عن كل من تفوّه بكلمة ضد النظام المصرى. وكنت أنا من بين الآلاف التى كتبت عنهم مثل هذه التقارير، وربما كان ملفى قد بدأ فتحه بمناسبة ما قلته تعليقا عما دار فى هذه المباحثات بين عبد الناصر وزعماء البعث.

ذلك أنه فى تلك السنة (١٩٦٣) التى دارت فيها المباحثات بين عبد الناصر وقادة حزب البعث، تصادف أن كنت فى مصعد كلية لندن للاقتصاد ورأيت معى فى نفس المصعد شابا طويلا عريضا له ملامح مصرية واضحة، كنت أراه حينئذ لأول مرة. سألته عما إذا كان مصريا فأجاب بالإيجاب، وقال: إنه وصل حديثا من مصر والتحق بنفس كليتنا كطالب ماجستير فى العلوم السياسية. تبين أيضًا من الحديث أنه يجد صعوبة فى العثور على سكن ملائم، فاتفقنا على اللقاء بعد انصرافنا من الكلية لمساعدته فى حل هذه المشكلة. وهو ما حدث بالفعل. لم يكن ليخطر ببالى قط أن نظام المباحث والمخابرات المصرى قد وصل إلى هذه الدرجة من النشاط والانتشار، أو أن مصر قد أصبحت دولة بوليسية إلى هذه الدرجة. كنت قد تركت مصر منذ أكثر من خمس سنوات، وقد وقعت خلال هذه الفترة أحداث التأميم، وانفصال سوريا عن مصر، واشتداد الخلاف بين النظام المصرى ونظم عربية أخرى، وهى أحداث جعلت النظام المصرى ينشغل أكثر فأكثر بحماية نفسه وتتبع الأعداء

والخصوم الحقيقيين والمحتملين بدرجة لابد أنها زادت عن اللازم، وخلقت أجهزة وهيئات يستفيد أصحابها استفادة شخصية من نمو هذه الطبيعة البوليسية للدولة، بصرف النظر عما إذا كانت الدولة فى حاجة حقيقية إليها أو لم تكن. لقد عرفت فيما بعد أن هذا الرجل الطويل العريض الذى قابلته فى مصعد كلية لندن للاقتصاد لم يكن إلا مبعوثا من أحد أجهزة المباحث المصرية للتجسس على الطلبة المصريين فى لندن، وكتابة التقارير عنا وإرسالها أولا بأول إلى القاهرة. وقد وجد الرجل بغيته وكتب عنى تقريرا سيئا للغاية حفظ فى ملفى، أو فتح به ملفى بالمخابرات المصرية. فما الذى دفعه إلى هذا بالضبط؟

كانت جمعية الطلبة العرب بإنجلترا قد قررت تنظيم مؤتمر لمناقشة الأوضاع العربية، وطلبت منى أن ألقى محاضرة فيه ففعلت. وكنت قد سمعت قبل إلقائى المحاضرة ببضعة أيام عما دار بين عبد الناصر والبعثيين، وهجومه العنيف على شخصية ميشيل عفلق. وقد أدى ذلك بى إلى تضمين محاضرتى نقدا لما دار فى مباحثات الوحدة، وثناء على بعض أفكار البعث، بل وبعض السخرية من بعض عبارات «الميثاق» الذى كان قد أصدره عبد الناصر فى أعقاب الانفصال، ولم أكن أعرف مدى التبجيل والاحترام الذى فرضه النظام على الناس لهذا الميثاق. لا أكاد أذكر شيئا أكثر من هذا عن محتوى كلمتى، ولكننى أذكر، وربما كان هو السبب الأساسى لمحنتى، أنه أثناء النقاش الذى أعقب المحاضرة، قام ذلك الشاب المبعوث من المباحث المصرية فقال شيئا فى الردّ علىّ، فصدرت منى عبارة قاسية تسخر منه هو شخصيا. وربما كان هذا هو ما اعتبره الرجل غير مغتفر ولا يمكن السكوت عليه، وليس ما وجّهته من نقد للنظام المصرى أو ثناء على البعث.

لم أعلق أهمية كبيرة وقتها على ما حدث، وانصرفت لإتمام رسالة الدكتوراه التى كانت قد أوشكت على الانتهاء، ولكنى فوجئت بعد نحو شهر بمدير البعثات المصرى (محمد فتحى) يستدعينى لمقابلته فى مكتبه. فى هذه المقابلة اتضحت لى خطورة ما صنعت، إذ كان الرجل مشغولا انشغالا غير معهود بما قلته وما لم أقله فى المحاضرة، واستخدم كل الوسائل الممكنة لكى يجعلنى أسلّم له النص المكتوب

للمحاضرة فرفضت، وقلت له إنى أعتبر من حقى أن أقول ما أشاء وأن أرفض، إذا أردت، أن أذكر له بالضبط ما قلته. عدت إلى مسكنى دون أى شعور بالخوف بل ربما كنت فخورا بنفسى. كان من بين ما قاله لى مدير البعثات إن لديهم طرقا لإجبارى على تسليم المحاضرة، فسألته عن كنه هذه الطرق فلم يجب. وقد استبعدت جدا أن يصدر قرار بإنهاء بعثتى وإعادتى إلى مصر قبل إنهاء الدكتوراه. وبالفعل، ثبت أن النظام المصرى لم يكن بمثل هذه القسوة أو الحماقة. فقد كتب مدير البعثات تقريرا للقاهرة (كما أخبرنى هو نفسه بعد مرور هذه الواقعة بسنوات عديدة) يقول فيه إنه ليس هناك مصلحة فى اتخاذ أى إجراء ضدى وأنا فى إنجلترا، وأنه يتوقع «أن يجرفنى التيار» عندما أعود إلى القاهرة فأكف عن العناد والتمرد. نعم، لم يكن النظام البوليسى فى مصر من القسوة بحيث يفسد علىّ الشهور الباقية لى فى إنجلترا أو يحرمنى من إتمام دراستى، ولكنه كان من الشدة بحيث سبب لى فيما بعد من المتاعب والمخاوف والآلام ما لم تكن هناك أدنى حاجة إليه.

من ذلك ما حدث عندما وطئت قدمى لأول مرة أرض مصر بعد انتهاء بعثتى، بل وحتى قبل أن تطأ قدماى أرض مصر. كنت فى طريق عودتى النهائية إلى مصر بعد انتهاء بعثتى، ومعى زوجتى الإنجليزية التى تزوجتها بمجرد حصولى على الدكتوراه فى إبريل ١٩٦٤. وكانت تأتى إلى مصر لأول مرة، وكل منا فى غاية السعادة والاستبشار ببدء حياة جديدة فى مصر التى كنت أفتقدها بشدة. كان سفرنا بالباخرة، وكانت باخرة مصرية اسمها «الجزائر» تسير بين ميناءى البندقية والإسكندرية. قضينا على الباخرة ثلاثة أو أربعة أيام كنت خلالها أكاد أطير فرحا وحماسا كلما سمعت أغانى مصرية، وكان مطلع أغنية (قلنا حانبنى وآدى إحنا بنينا السد العالى) من أوليات الكلمات العربية التى تعلمتها زوجتى. فلما وقفت الباخرة فى ميناء الإسكندرية وظننا أن ما علينا الآن إلا النزول إلى أرض مصر، فوجئنا بأن المسألة ليست بهذه البساطة، فقد رأينا طابورا من الضباط يصعدون إلينا فى الباخرة وعلى وجوههم سمات غاية فى الصرامة والتجهم، فتعد لهم مائدة طويلة فى إحدى صالات الباخرة، ويصطف المسافرون أمامهم لكى يقدموا للضباط أوراقهم وجوازاتهم. لم يخطر ببالى قط أن أكون أنا واحدا ممن يترقبون

وصوله. كنت قد حذّرت زوجتى بأنها قد تصادف مشكلة بسيطة عند وصولها إلى مصر بسبب أزمة جديدة بين مصر وبريطانيا كانت قد نشأت مؤخراً عن الدعم الذى كان يرسله عبد الناصر للثائرين ضد بريطانيا فى عدن، ولكنى طمأنتها بأنه حتى لو سألوها بعض الأسئلة فإنها لن تكون مشكلة كبيرة. كان الذى حدث هو العكس بالضبط، إذ ما إن جاء دور زوجتى وتبين الضابط أنها بريطانية حتى هشوا لها، وأخذوا يجرّبون معرفتهم بالإنجليزية فى عبارات الترحيب بها فى مصر، ولكن ما إن اطلعوا على اسمى ونظروا فى بعض القوائم التى يحملونها حتى أظلمت وجوههم، وظهر عليها ما يدل على أنى رجل أخطر بكثير مما كنت أظن، ولوّح أحدهم لى بذراعه، وأمرنى بغلظة بأن أقف جانبا حتى يفرغ من سائر المسافرين ثم سوف يكون له شأن معى. عندما فرغ بالفعل من سائر المسافرين انصرف بكل انتباهه إلىّ، وأمطرنى بالأسئلة التى لم يوجهها لأحد غيرى، وهو يكتب إجاباتى باهتمام، وعندما عرف كل شىء عنى أطلق يده فى احتقار، بمعنى أنه يمكننى الآن أن أنصرف.

لم يكن هذا هو بالضبط الاستقبال المطلوب لدى عودتى لوطنى بعد بعثة ست سنوات حصلت فيها على الدكتوراه. ولكن هذا الاستقبال المهين لم يكن بأية حال أسوأ ما تعرضت له بسبب تلك المحاضرة الملعونة التى ألقيتها فى لندن، وعبارة السخرية التي خرجت مني دون تفكير وأغضبت مبعوث المباحث المصرية. فبعد وصولى إلى مصر بأسابيع قليلة ذهبت أنا وزوجتى إلى الإسكندرية لاستلام ما سبق لنا شحنه من متاع، وأثناء سيرنا على الكورنيش إذا بى أرى شخصا يقفز من أحد الأتوبيسات ويجرى ورائى مناديا اسمى. فلما تفحصته وجدته الطبيب المصرى الطيب الذى كان يرافقنا فى رحلة الباخرة من البندقية إلى الإسكندرية، وهو طبيب الباخرة التى يسافر معها جيئة وذهابا. وكان قد رآنى وهو راكب فى الأتوبيس فقفز منه لأن لديه شيئا مهما يريد أن يقوله لى. عندما بلغنى سألنى وهو فى غاية الاندهاش: «ما الذى فعلته بالضبط؟» فلما استوضحته ما يقصد قال إنه فهم من الضباط الذين صعدوا إلى الباخرة عند وصولنا إلى الإسكندرية أننى فعلت شيئا

خطيرا استوجب وضعى تحت المراقبة، وحذّرونى من أن أقوم بأى عمل يثير الشكوك لأنى بالفعل مراقب.

حدث بعد هذا أن أستاذا بكلية حقوق عين شمس التى التحقت بها مدرسا للاقتصاد بمجرد عودتى من البعثة (وهو ما كان مقررا منذ الإعلان عن هذه البعثة) أخبرنى بأن هناك شخصا مهما يريدنى أن أقابله. كان هذا الشخص المهم (هو الدكتور حسين كامل بهاء الدين الذى صار وزيرا للتعليم بعد هذا بسنين كثيرة وفى مناخ سياسى مختلف تمامًا) مسئولا فى ذلك الوقت عن منظمة الشباب التى كان النظام قد أنشأها حديثا لتكوين كوادر ثورية ومؤمنة بأهداف ثورة يوليو. وكان هذا المسئول قد طلب من زميلى بكلية الحقوق تعريفه على من يتوسم فيه الخير من أساتذة الكلية الشبّان، ويعتقد أن أفكارهم متفقة مع أهداف النظام. وقال لى هذا الزميل إنه ذكر اسمى للمسئول الخطير فحدد لى موعدا للمقابلة.

ذهبت لمقابلته ودار بيننا حديث عن الاشتراكية والرأسمالية، اعتقدت أنه لابد أن يكون قد ترك أثرا طيبا لديه، بدليل أنه أصرّ على توصيلى بسيارته من مكتبه بجاردن سيتى إلى مسكنى بالمعادى. صحيح أنه طوال هذه الرحلة لم ينبس ببنت شفة لسبب لم أفهمه حتى الآن، إلا أنه لم يبد لى أن هناك أى سبب لأن يرفض أن يعهد إلىّ بمسئولية ما فى منظمته. ثم فاجأنى زميلى بالكلية بإخبارى بأن المسئول الكبير قال له إنى لا أصلح للعمل معهم «لأن لى تاريخا»، وإنهم يريدون «أشخاصًا بلا تاريخ»! وقد أكدّ لى أن هذا هو الذى يريدونه بالفعل. إن كثيرين ممن استعانوا بهم فى تلك الأيام والأيام التالية كانوا من النوع الذى لا يؤمن بشىء على الإطلاق، ألقوا محاضرات على الشباب فى الاشتراكية فى ذلك الوقت، أى فى منتصف الستينات، ثم ألقوا محاضرات وكتبوا مقالات فى التنديد بالاشتراكية فى السبعينات، وأصبحوا وزراء فى الثمانينات أو التسعينات.

* * *

على أن الذى أصابنى بآلام نفسية مبرحة، لم يكن هذا الحادث أو ذاك، بل ما حدث فى ١٩٦٦، أى بعد مرور سنتين على عودتى من إنجلترا، عندما تلقيت دعوة

من جامعة لندن لحضور مؤتمر بعنوان (مصر منذ ١٩٥٢)، إذ طلب منى أن أكتب بحثا عن تطور الاقتصاد المصرى منذ الثورة. كان فرحى بهذه الدعوة عظيما لأكثر من سبب. فمن ناحية كانت هذه أول مرة أدعى فيها للاشتراك فى ندوة أو مؤتمر علمى باعتبارى «أستاذا» لا «تلميذا». والدعوة تجيئنى من جامعة لندن التى درست فيها، فهأنذا إذن أعامل من هذه الجامعة كأستاذ لا كتلميذ. والمؤتمر قد دعيت إليه أيضًا شخصيات مهمة علميا أو سياسيا، فهناك الأستاذ السويدى هانسن، وأساتذة آخرون فى الاقتصاد من أكسفورد ولندن، والذى دعى إلى الكلام عن تطور الثقافة فى مصر هو الدكتور لويس عوض، وعن التطور السياسى مالكولم كير من جامعة كاليفورنيا، وخالد محيى الدين من مصر. أضف إلى هذا أن المؤتمر يعقد فى لندن التى عشت فيها ست سنوات ولم أرها منذ سنتين، حتى بدأت أشك فى أن تلك السنوات الست لم تكن حقيقية بل كانت حلما. لقد مررت خلال هذه السنوات الست بتجارب عميقة الأثر فى نفسى، عاطفية وجنسية وفكرية، وعدت بعدها شخصا كنت أشعر أحيانا بأنه شخص مختلف تماما عن ذلك الذى ذهب إلى لندن فى ١٩٥٨. فما أروع أن أرى تلك الشوارع من جديد وأركب قطار الأنفاق من جديد، وأشم رائحته مرة أخرى، وأطوف بحجرات كلية لندن للاقتصاد التى شعرت وأنا جالس فيها بأشد المشاعر قوة، من منتهى الفرح إلى منتهى البؤس.

كان هذا هو معنى أن أذهب إلى لندن لحضور ذلك المؤتمر فى ١٩٦٦، وكان من الطبيعى أن تذهب معى زوجتى الإنجليزية فتزور أبويها، ولكن بصحبة زوجها الأستاذ المدعو من جامعة إنجليزية، وليس زوجها التلميذ الذى لا يدرى أحد ما الذى يمكن أن يكون عليه مستقبله.

كان السفر من مصر فى ذلك الوقت أمرا صعبا ويستلزم إجراءات لا نهاية لها، بل إن جواز السفر نفسه لم يكن من السهل أبدا الظفر به. وإذا حدث وظفر المرء به فإن الدول التى كان يسمح لصاحب الجواز بالسفر إليها قليلة جدًا ومذكورة على سبيل الحصر، فتضاف الدولة المطلوبة عندما يثبت عدم وجود مانع سياسى من الذهاب إليها، وتكاد أن تكون كل الدول مما يوجد معها «مانع سياسى» لسبب أو آخر. لابد أيضًا إذا كنت أستاذا بالجامعة أو ذا وظيفة لها أى شأن على الإطلاق، أن

تحصل على موافقة مكتب الأمن. و«مكتب الأمن» كان بالنسبة لنا اسما مخيفا لمكان غامض، مملوء بالملفات والتسجيلات التي تسجل فيها أي بادرة أو هفوة أو فكرة قد تكون قد خطرت ببالك، ويشتم منها بعض الخطورة على النظام.

كنت أعرف كل هذا، وكان من النوادر المنتشرة في مصر في ذلك الوقت أن تمثال أبي الهول عندما عبر له جمال عبد الناصر عن إعجابه الشديد به وسمح له أن يطلب أي شيء قد يرغب فيه، طلب أبو الهول «تأشيرة خروج». وشاع أيضاً وقتها تحوير لعبارة مصطفى كامل الشهيرة فأصبحت: «لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا بالخارج!». كنت أعرف كل هذا ومع ذلك، وعلى الرغم مما كنت قد صادفته حتى الآن من متاعب بسبب «تقرير لندن»، لم أكن أتصوّر أن تصمم جهات الأمن إلى هذه الدرجة على منعي من السفر. ظللت نحو ثلاثة أشهر أجري وراء استمارة الأمن، فيقال لي «تعال بعد أسبوع» ثم بعد أسبوع آخر، ثم يقال لي إن المباحث هي المعترضة، ثم يقال بل المخابرات العامة.. إلخ حتى اضطررت وأنا في حزن شديد أن أرسل برقية اعتذار عن حضور المؤتمر، وسافرت زوجتي بدوني وكل منا يشعر بالأسى الشديد إذ نفترق، لأول مرة منذ زواجنا، بسبب اعتراض المخابرات العامة على سفري. عندما سمع خالد محيي الدين بما حدث لي، وكان رغم خروجه منذ عشر سنوات من مجلس قيادة الثورة، لا يزال على علاقة قوية بالكثيرين من رجال الثورة والممسكين بالسلطة، وكنت أنا صديقا لشقيقه عمرو محيي الدين، طيّب خاطري وطمأنني بأنه سيحل لي المشكلة.

ومرت أيام أخرى طويلة دون أن يظهر أن خالد محيي الدين قد صادف أي نجاح، وقال لي مستغربا: «إن موضوعك كالولادة المتعسرة» ثم أضاف إنه لا حلّ إلا أن يأخذني من يدي ويذهب لمقابلة شعراوي جمعة شخصيا، وكان وقتها وزيرا للداخلية ومن أهم المسئولين عن الأمن في مصر. ذهبنا لمقابلته في مبنى فخم في مصر الجديدة كان يسمى وقتها «بمقر الحكومة المركزية»، ورأيت شعراوي جمعة بمجرد أن دخل عليه خالد محيي الدين يحتضنه في مودة بالغة، فاستبشرت خيرا، وظننت أن مشكلتي على وشك الانتهاء. ولكن سرعان ما خاب ظني إذ ما إن فتح

خالد محيى الدين موضوعى حتى بدأ شعراوى جمعة يقدم له مبررات الإجراءات المتخذة ضدى. كان أول ما قاله هو أنى بعثى، فأثار هذا دهشتى الشديدة وانفعالى. وقلت لشعراوى جمعة ما معناه: «هل مما يلوث سمعة شخص فى نظركم أنه عندما كان فى التاسعة عشرة من عمره تحمّس للاشتراكية والوحدة العربية والحرية؟ وهى أشياء لم يكتشف النظام المصرى محاسنها إلا بعد ذلك بخمس سنوات أو أكثر، واتحدتم مع سوريا على أساسها، وكان البعثيون حلفاءكم وأنصاركم؟» لم يرد شعراوى جمعة على هذا، ولكنه أضاف «إن هناك أيضًا ما يدل على أنك فى إحدى محاضراتك فى كلية الاقتصاد (فى سنة ١٩٦٥، عندما كنت أدرس مقررا فى تاريخ الفكر الاقتصادى) قلت شيئا يسىء إلى النظام. لم أرد على هذا الاتهام لأنى لم أستبعد أن يكون قد صدر منى فى ذلك الوقت نقد لجانب أو آخر من سياسة النظام، ولكن أذهلنى أن أسمع ما معناه أن هناك من يقدم تقارير للمباحث العامة حتى عما يقوله أستاذ فى الجامعة لا فى محاضرة عامة أو مؤتمر سياسى بل فى مقرر عن «تاريخ الفكر الاقتصادى».

انتهت المقابلة دون أى وعد بشىء. ورجعت إلى بيتى حزينا، وأبرقت إلى زوجتى بأنه ليس هناك أمل فى حضورى إلى إنجلترا. لهذا كان استغرابى شديدا والمفاجأة سارة للغاية عندما تلقيت مكالمة تليفونية من خالد محيى الدين بعد هذه المقابلة بنحو أسبوع يخبرنى فيها أن مشكلتى قد حلت، وأن بإمكانى الذهاب إلى مكتب الأمن لاستلام الموافقة على طلبى للسفر. وكان هذا هو ما حدث بالفعل، وحصلت فعلاً على تأشيرة الخروج وأصبح السفر ممكنا فجأة، وأبرقت من جديد إلى منظمى المؤتمر فى لندن وإلى زوجتى بأننى سأحضر.

لم يكن من السهل أن تعود إلىّ الطمأنينة الكاملة بعد كل ما مررت به من عذاب وإثارة للآمال ثم إحباطها. وأذكر أننى عندما حكيت القصة لصحفى كبير ومناضل قديم (محمد عودة) حذّرنى بظرفه المعهود من المبالغة فى التفاؤل. قال إنه حتى بفرض أنى ركبت الطائرة المتجهة إلى لندن، وصعدت الطائرة فى الهواء، فإنهم قادرون على إعادتها إلى مطار القاهرة وإخراجى من الطائرة. قال: إننى لا يمكن أن

أطمئن تماماً إلى خروجي من مصر إلا عندما تتجاوز الطائرة الأميال البحرية الأربعة عشرة التي تدخل في دائرة السيادة المصرية . بعد هذه الأميال لا تستطيع السلطات المصرية إرجاع الطائرة الأجنبية إلى أراضيها . وقد حكى له كتأييد لنظريته ما حدث لصلاح جاهين، الشاعر الشهير، بعد ركوبه الطائرة، ولم تكن الطائرة قد عبرت بعد هذه الأميال، فأعادت السلطات المصرية الطائرة إلى مطار القاهرة . وإذا بصلاح جاهين يسمع اسمه ينادى في ميكروفون الطائرة ويطلب منه النزول، وما إن نزل منها حتى طارت الطائرة من جديد . ولما ذهب إلى سلطات الأمن التي أمرت بعودته، اكتشف أنه حدث خطأ في الاسم، إذ كان الشخص المطلوب القبض عليه شخصا آخر باسم صلاح محمود جاهين، تاجر حشيش، وهو غير الشاعر صلاح جاهين . ولكنني سافرت وعبرت الأميال البحرية ولم يحدث شيء .

* * *

كانت هذه مجرد حادثة واحدة من سلسلة الأحداث التي قضت شيئا فشيئا على شعوري بالتعاطف مع نظام عبد الناصر . هذا التعاطف الذي بدأ مع تأميم القناة في ١٩٥٦ ، وبلغ أوجه مع تأميمات ١٩٦١ ، ثم أصابه أول شرخ في ١٩٦٣ لما سمعته عن موقف عبد الناصر من ميشيل عفلق .

كنت عند عودتي من البعثة في ١٩٦٤ متحمسا لاشتراكية عبد الناصر . ومن ثم فإنني عندما طلب إليّ أن أدرِّس مقررا بعنوان «الاشتراكية العربية» في كلية حقوق عين شمس ، كأحد واجباتي في التدريس، رحبت بشدة ووجدتها فرصة لكتابة كتيب صغير في الاشتراكية أعبِّر فيه عن موقفي منها ومن الماركسية . لم أكن متحمسا لتسمية ما يطبق في مصر «الاشتراكية العربية»، إذ لم أكن مقتنعا بأن هناك مثل هذا التنوع بين الاشتراكيات مما يسمح بتسمية إحداها بالعربية وأخرى بالإفريقية وثالثة بالهندية . . إلخ، خاصة أن درجة الابتكار النظري في التجربة المصرية، فيما يتعلق بالاشتراكية، بدا لي، وقتها على الأقل، شبه منعدم . لهذا صممت عندما عرض عليّ زميل في حقوق القاهرة أن نكتب كتابا مشتركا في الاشتراكية، على تسمية الكتاب بالاشتراكية وليس الاشتراكية العربية . وجاراني هذا الزميل سنة

واحدة، ثم نصحه البعض بعدم الاشتراك معى فى السنة التالية، ونبّهه إلى أن الجزء الذى كتبته أنا فى الكتاب المشترك، وإن كان قد احتوى على نقد للماركسية، فإنه يبدى تعاطفا معها أكثر من اللازم، وأن من دواعى الحيطة على أية حال أن يعتبر التجربة المصرية متميزة عن غيرها، وقد يكون المسئولون فى الحكومة أكثر تعاطفا مع اعتبار اشتراكيتهم عربية من اعتبارها نسخة من الماركسية. انفصل عنى إذن هذا الزميل وكتب كتابا وحده فى الاشتراكية العربية وكتبت أنا كتابا مستقلا بعنوان «مقدمة إلى الاشتراكية» درسته لعامين تاليين حتى وقعت حرب ١٩٦٧.

قبيل وقوع هذه الحرب استدعانى مدير الجامعة مرة ليحاول إقناعى بحذف الجزء الذى انتقد فيه اعتبار اشتراكيتنا متميزة عن اشتراكية غيرنا، فرفضت ذلك. ولكن كتابى لم يعجب أيضًا الماركسيين؛ بسبب نقدى الشديد للمادية الجدلية ونظرية القيمة الماركسية. ورأوا أن من واجبهم أن يرسلوا إلىّ ماركسيا من الضليعين فى الاقتصاد ليقنعنى بأن نظرية العمل فى القيمة أفضل من نظرية العرض والطلب فى تفسير الثمن، وكنت قد قلت فى كتابى إن نظرية العمل فى القيمة، التى تبناها ماركس، قد تكون أفضل من غيرها من حيث إثبات الاستغلال ولاعتبارات أخلاقية وسياسية، ولكنها ليست أفضل من نظرية العرض والطلب فى شرح محددات الثمن. فلم ينجح هذا الماركسى فى إقناعى وظل هذا الجزء كما هو فى الكتاب.

على أى حال أدى قيام حرب ١٩٦٧ إلى إراحة الجميع من مثل هذه المشاكل. فقد أرسلت إلى عميد كليتى (إسماعيل غانم) اعتذارا عن تدريس مقرر الاشتراكية، وكان قد أصبح من الواضح لى الآن أن مشكلتنا الآن ليست هى الاختيار بين الاشتراكية والرأسمالية، بل هى مشكلة الديكتاتورية والديمقراطية، وأننا لسنا فى حاجة إلى المزيد من الاشتراكية بل إلى المزيد من الحرية.

كنت وثيق الصلة بهذا العميد وشديد الإعجاب به، ومن ثم ساءنى ما لاحظت عليه من استياء لاعتذارى عن تدريس الاشتراكية، وإن كنت أعتقد فى تعاطفه مع موقفى الذى لم يمنعه من التعبير عنه إلا ما يشعر به من حرج أمام المسئولين الكبار فى

الجامعة والحكومة. أبدى بعض زملائى فى الكلية استغرابهم الشديد من هذا الاعتذار، إذ كان تدريس الاشتراكية وغيرها من المقررات المسماة بـ«القومية»، كالتعاون والمجتمع العربى، فرصة ذهبية لتكوين ثروة لا بأس بها، وذلك إذا استطاع الأستاذ أن يدرسها فى أكثر من كلية، وعلى الأخص فى الكليات ذات الأعداد الغفيرة من الطلاب. وكنت أعرف فعلا أستاذا كتب مجلدا ضخما سمّاه «الاشتراكية العربية» باعه بثمن مرتفع فى الكليات الثلاث أو الأربع التى كان يدرّسه فيها مما سمح له بشراء سيارة مرسيدس حمراء كان يتنقل بها من كلية إلى أخرى. وقد رآه أحد التلاميذ يركب السيارة بعد أن أنهى محاضرة فى الاشتراكية العربية، فسأله ساخرًا: «طيب.. هذه هى العربية يا دكتور، فأين الاشتراكية»؟

* * *

عندما قامت الثورة فى يوليو ١٩٥٢ كنت أصغر من أن يثور فى ذهنى أى تساؤل عن وجود أى علاقة محتملة بين هذه الثورة والسياسة الأمريكية فى المنطقة، كما كان فرحنا بقيام الثورة شديدا لدرجة كان من شأنها وحدها أن تمنع من أن تنصرف أذهاننا إلى تفسيرها بأى عامل آخر غير الشعور بالواجب الوطنى لدى الضباط الذين قاموا بها.

كان من الممكن جدًا، لولا هذين العاملين، أن يثور فى أذهاننا بعض الشكوك فى سنة ١٩٥٢ حول علاقة الثورة بالولايات المتحدة. كانت كل الدلائل تشير إلى أنه لولا تأييد الولايات المتحدة لحركة الجيش فى ٢٣ يوليو ما كللت هذه الحركة بالنجاح، خاصة مع وجود القوات البريطانية على طول قناة السويس. كان من المعروف لنا أيضًا، حتى فى ذلك الوقت، أن أول عمل قام به الملك فاروق عندما طلب منه الضباط المصريون توقيع وثيقة التنازل عن العرش فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢، كان اتصاله التليفونى بالسفير الأمريكى ليعرف موقفه، فإذا بالسفير ينصحه بالتنازل. ثم كان من أوائل أعمال الثورة إعدام عاملين (الخميس والبقرى) بتهمة الشيوعية. وفى ١٩٥٤ كان من المعقول أن يثور فى أذهاننا بعض الشك فى أن تكون الاتفاقية التى وقعها الإنجليز مع قادة الثورة بالجلاء عن مصر قد تمت بدعم

من الولايات المتحدة لمصر وضغط أمريكى على الإنجليز . وأذكر أننى بعد هذه الاتفاقية بقليل عبّرت فى نقاش مع أحد البعثيين الأردنيين (حسّان الوظائفى) عن رأيى فى أن ثورة ١٩٥٢ هى حركة مدعومة دعما تاما من الأمريكيين، فرفض الرجل هذه النظرة رفضا تاما واستخفها . ولكنى أعتقد الآن أننى كنت على صواب . بل إنى لا أستبعد أيضًا أن فكرة تأميم قناة السويس فى ١٩٥٦ كانت بدورها بتأييد أمريكى بل وربما أيضًا بإيعاز أمريكى . أذكر أننى قرأت فى كتاب «دورة كاملة» (Full Circle)، وهو السيرة الذاتية لأنتونى إيدن، رئيس وزراء بريطانيا خلال أزمة السويس، ما أوحى لى بهذا المعنى . من المفيد أيضًا أن نتذكر أن المعونات الغذائية التى بدأت تتدفق على مصر ابتداء من ١٩٥٨ ، كانت عاملا مهما فى تسهيل برنامج التنمية الطموح فى مصر حتى منتصف الستينات، إلى جانب المساعدات السوفيتية ، وأن هذه المعونات الأمريكية لم تتوقف إلا فى ١٩٦٥ .

فى مذكرات أحد قادة الثورة المصرية (لعله عبد اللطيف بغدادى) قرأت أيضًا أنه فى اجتماع لقيادة الثورة فى أواخر١٩٥٧ ، عندما عُرضت للمناقشة فكرة الاتحاد مع سوريا، دافع عبد الناصر عن الفكرة، فلما اعترض أحد الحاضرين عليها، وكان معروفا بعلاقته الطيبة مع الأمريكيين، قال له عبد الناصر ساخرا : «طيب، روح اسأل أصحابك الأمريكان»!

ولكن العلاقة مع الأمريكيين لم تكن على ما يرام فى ١٩٦٤ . ففى تلك السنة بدأ عبد الناصر يشير إلى تهديدات الولايات المتحدة له بقطع المعونة إن لم يكف عن استخدام مواقف معينة فى سياسته الخارجية لا ترضى عنها الولايات المتحدة . وبدأ يستخدم عبارات عنيفة فى مهاجمة الولايات المتحدة مثل قوله المشهور فى إحدى الخطب : «إذا لم يعجب الولايات المتحدة ما نفعله فلتذهب لتشرب من البحر، فإذا لم يكفها البحر الأبيض فلتشرب من البحر الأحمر» . لابد أن سقوط نيكروما وسوكارنو وبن بللا وغيرهم من القادة الذين كانوا يتبعون سياسة مشابهة لسياسة عبد الناصر، قد أصاب عبد الناصر بالقلق، وخاصة عندما أخبرته الولايات المتحدة بالفعل فى ١٩٦٥ بأنها ستوقف معوناتها الغذائية له بسبب عدم رضاها عن مواقفه

فى الكونغو، وكان عبد الناصر محقا فى هذا القلق بالطبع، كما تبين من الهجوم الإسرائيلى على مصر سنة ١٩٦٧.

فى هذه الفترة الحرجة (٦٤ ـ ١٩٦٧) كان من بين ما خطر لعبد الناصر من أفكار لتجنب المصير الذى تعدّه له أمريكا تكوين قاعدة جديدة له من المثقفين، ينظّمون فيما يشبه الحزب السرى خارج نطاق الحزب الحاكم، أى خارج نطاق الاتحاد الاشتراكى، بحيث يسهل الاتصال بهم وتكليفهم بأعمال لحماية النظام ودعمه، بدلا من الاعتماد على أشخاص قد يكونون أسهل قيادا، ولكنهم لا يؤمنون حقا بمبادئ النظام، وإنما يخدمونه مدفوعين بمصالح شخصية بحتة، ومن ثم لا يمكن الاعتماد عليهم إذا واجه النظام أزمة حقيقية مع قوة خارجية.

أعتقد الآن أن مثل هذا الدافع كان وراء ذلك التنظيم الذى دعانى خالد محيى الدين، ذات يوم فى ١٩٦٥، للانضمام إليه، والذى لا أدرى حتى الآن ما إذا كان جزءا مما يسمى بـ «التنظيم الطليعى» أو كان شيئا آخر موازيا له. كان المطلوب هو حضور اجتماعات دورية برئاسة خالد محيى الدين، يحضرها نحو ثمانية أو عشرة أشخاص، لتبادل الرأى فى الأحوال السياسية، وقراءة بعض البيانات التى ترسل إلينا من حين لآخر من «قيادة التنظيم»، ولكن لم يحدث قط أن كلفنا بأى عمل آخر غير هذا. فرحت فى البداية بأن أدعى للاشتراك فى هذا التنظيم «الخطير»، والقريب إلى هذا الحد من السلطة. كما كان من الشائق الاستماع لخالد محيى الدين فى بداية كل اجتماع وهو يحكى لنا بعض الأسرار السياسية التى يسمعها إما من عبد الناصر مباشرة أو من أشخاص قريبين جدًا منه. ولكنى سرعان ما مللت الأمر برمّته. فمن ناحية لم يقل لنا أحد قط، على أى نحو مقنع، ما الغرض الحقيقى من هذه الاجتماعات الدورية؟ ومن ناحية أخرى، لم يكن أحد من الحاضرين، باستثناء خالد محيى الدين، ممن يشوقنى اللقاء بهم على هذا النحو المنتظم وعلى فترات جد قصيرة. كان معظمهم من الماركسيين القدامى الذين اعتقلوا لفترة أو أخرى أيام غضب عبد الناصر على الشيوعيين، وكان حماسهم وثوريتهم أقوى بكثير من قدرتهم على التحليل والإقناع. ومع مرور شهر بعد آخر بدأ البعض، وكنت

أحدهم، يعبرون عن بعض الانتقادات للنظام بسبب قلة ما يتيحه من حرية التعبير عن الرأى. فما إن تكرر هذا النقد مرتين أو ثلاثًا حتى أخطرنا بأن هذه الاجتماعات سوف تتوقف لفترة ما وسيعاد بعدها الاتصال ببعضنا، ولكن علينا جميعا أن نقدم بعض الأسماء والعناوين لأشخاص نرى فيهم الصلاحية والكفاءة للانضمام لمثل هذا التنظيم، فحمدت الله على انتهاء الأمر، ولم أجد أى مبرر لأن أذكر لهم أسماء أشخاص أعتقد فعلا فى صلاحيتهم وكفاءتهم، إذ خطر لى أن هذا الطلب قد يكون مجرد طريقة لجمع أسماء كل من يمكن أن تكون لديه اعتراضات أو انتقادات للنظام ممن يريد النظام تتبعهم أو مراقبتهم. ذكرت لهم فقط اسمين أو ثلاثة كنت أعرف أن أصحابها ممن كانوا يحضرون بالفعل اجتماعات مشابهة، ومن ثم لا يمكن أن يصيبهم من السوء أكثر مما أصابهم. بعد انقضاء نحو أربعين عاما على هذه التجربة، تصادف أن قابلت فى إحدى الندوات، شابا اتجه إلىّ وعرّفنى بنفسه قائلا: إنه يحضر للدكتوراه فى العلوم السياسية فى إحدى الجامعات الإقليمية فى مصر، وسألنى: عما إذا كان يستطيع أن يوجّه إلىّ بعض الأسئلة تتعلق برسالته. كان موضوع الرسالة هو «التنظيم الطليعى»، ولكن أكثر ما أدهشنى هو قوله إنه يعرف أننى كنت «مرشحا» للعضوية فى هذا التنظيم، ولكنه لا يعرف ما إذا كنت قد حصلت على العضوية التامة بالفعل. سألته: كيف عرف هذا، إذ إنى لا أعرف أنا شخصيا ما إذا كان هذا التنظيم الذى كنت أحضر اجتماعاته مع خالد محيى الدين هو ما يعرف باسم «التنظيم الطليعى». وقلت له: إننى أسمع منه الآن، ولأول مرة، أننى كنت فقط «مرشحا» للعضوية. قال: إنه عرف ذلك من بعض الوثائق التى كانت فى حوزة شعراوى جمعة وأمثاله وأفرج عنها فى عصر السادات، وإنه قام بتصوير بعض هذه الوثائق، وإنه وجد اسمى فى بعض الأوراق وقد كتب بجواره عبارة (مرشح خالد محيى الدين). وبتبادل الحديث مع هذا الشاب توصلت إلى استنتاج أن خالد محيى الدين كان قد رشحنى، ولكنى لم أقر بالعضوية؛ بسبب ما كان يُنقل عنى من حديث ينطوى على انتقادات للنظام، مما جعل المسئولين يستنتجون أننى لست من أفضل العناصر التى يمكن الاعتماد عليها «لحماية النظام» فى حالة تعرضه للتهديد، من الخارج أو الداخل. كما خطر لى أن من الممكن جدًا

أن يكون ما كتب عنى من تقارير بناء على هذه الاجتماعات كانت من بين أسباب منعى من السفر إلى الخارج فى ١٩٦٦ لحضور مؤتمر جامعة لندن.

* * *

فى نفس هذه الفترة الكئيبة (٦٤ ـ ١٩٦٧) حدثت بعض الأحداث شديدة السخافة لبعض الأشخاص القريبين جدا لى. فقد اعتقل فجأة صديقى على مختار ووضع فى سجن القلعة لمدة أسبوعين دون أى سبب واضح. كان مختار يعاون شخصا مهما فى الاتحاد الاشتراكى من المسئولين عن الشئون العربية (فتحى الديب) والأرجح أن سبب اعتقاله لم يكن إلا خلافًا شخصيًا بين هذا الشخص المهم وبين شخص آخر أهم منه، فأراد الثانى أن ينكلّ ببعض رجال الأول. وقد حاولت أن أستعين بخالد محيى الدين لإطلاق سراحه فأخبرنى بأنه لا يملك فى مثل هذه الأمور شيئا.

وبعد هذا بشهور قليلة، كان أخى الأكبر محمد، الذى كان وقتها رئيسا لمجلس إدارة شركة صناعية كبرى هى إيديال، يحتسى القهوة فى الصباح قبل أن يذهب إلى مكتبه، فإذا به يقرأ فى جريدة الأهرام خبر إحالته على المعاش (وكان فى التاسعة والأربعين من عمره). وعرف فيما بعد أن السبب هو شكوى تقدم بها أحد العمال المهمين فى اللجنة النقابية بالاتحاد الاشتراكى، ويمثل الشركة التى يرأسها أخى، وقال فيها إن أخى لا يؤمن بالاشتراكية إيمانا كافيا ويعامل العمال بغلظة.

حدث أيضًا فى نفس هذه الفترة (١٩٦٤)، أن ذهب أخى عبد الحميد مرة إلى المركز القومى للبحوث، حيث كان يقوم بتجارب علمية مهمة يقود فيها مجموعة من الطلبة النابهين، إلى جانب عمله كأستاذ فى كلية الهندسة بجامعة عين شمس، فلم يجد أى أثر لكل الأجهزة التى كان يستخدمها فى بحوثه، وقيل له إنها نُقلت فى اليوم السابق، دون إذن منه، إلى مركز الطاقة الذرية فى أنشاص لأن مسئولا كبيرا سوف يفتتح هذا المركز بعد يوم أو يومين. فامتنع أخى عبد الحميد منذ ذلك اليوم عن الذهاب إلى مركز البحوث وإلى كلية الهندسة، وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره، وظل فى بيته بلا عمل حتى اليوم.

* * *

كان النظام يضيّق الخناق على الناس أكثر فأكثر كل يوم، وأظن الآن أن السبب الأساسي لذلك ربما كان ازدياد شعور عبد الناصر بأن الولايات المتحدة تعمل على الإيقاع به وتدبر له فخا للوقوع فيه، فاشتد شعوره بالشك في الناس وازدادت إجراءات الأمن قسوة. كان المرء منا يخاف أن يتكلم في السياسة في حضور أى شخص غريب، في سيارة تاكسي أو أمام زميل جديد في الجامعة لم يتحقق بعد من ميوله السياسية، أو حتى أمام فراش الكلية التي يحضر له القهوة والشاي، خشية أن يكون ممن استوظفتهم المخابرات أو المباحث العامة. أما التليفون فكنا واثقين من أنه مراقب، ومن ثم كان من دواعي الحيطة عدم التفوه في التليفون بالتعليق على أى شخصية سياسية مهمة أو إجراء مهم اتخذته الحكومة. وأما الخطابات فكان بعضها يأتي وقد تم فتحه وقراءته وأعيد لصقه بورقة كتب عليها «فتح بمعرفة الرقيب».

حدث مثلا لأخي عبد الحميد، وكان قد بدأ يفكر في الهجرة من مصر بعد حادث نقل أجهزته دون إذنه إلى أنشاص، وأخذ يراسل بعض الجامعات الأمريكية بحثا عن وظيفة فيها، أن تلقى مكالمة تليفونية تستدعيه لمقابلة وزير التعليم (كمال الدين حسين). فلما ذهب استقبله الوزير بلطف وترحيب، ثم سأله بعتاب عن السبب الذى يجعله يريد أن يترك جامعته في مصر ويهاجر إلى أمريكا، وتبين من الحديث أنه اطلع على كل مراسلاته مع الجامعات الأمريكية، ثم قال لأخي عبد الحميد ملاطفا: «هوّه إحنا عندنا كم واحد زيّك يا دكتور عبد الجليل؟».

وحدث أيضًا (في ١٩٦٨ أو ١٩٦٩) أن كنت في حجرتي في كلية الحقوق عندما دخل عليّ أحد الزملاء الحديثي العهد بالعودة من فرنسا، هائجا وغاضبا إذ إنه كان قد سمع لتوّه بخبر اعتقال أحد أساتذة كلية الآداب لأنه قال شيئا في محاضرة له لم يعجب الحكومة. وسألني وهو في غاية الاضطراب: «ما الذى يمكن لنا عمله من أجل الإفراج عنه»؟ وأثناء حديثنا دخل فرّاش من فراشي الكلية يحمل لنا القهوة، وسمع طرفًا من الحديث وخرج. كان هذا في نحو الواحدة أو الثانية بعد الظهر، وكنت قد دعوت إلى العشاء مدير الجامعة (د. إسماعيل غانم) وزوجته، إذ كانت علاقتي قد قويت به أثناء عمادته لكلية الحقوق. ووصل المدير وزوجته إلى بيتي في

نحو الثامنة مساء فإذا به بمجرد وصوله يقول: «ما الذى جرى بينك اليوم وبين الدكتور..؟»، يقصد المحادثة التى جرت منذ بضع ساعات فى مكتبى مع هذا الزميل الجديد. وأضاف قائلا: إن جهات الأمن اتصلت به لكى تعرف المزيد عن هذا الزميل الجديد، أما أنا فإنها تعرف كل شىء عنى. وكان معنى هذا أنه خلال ساعات قليلة وصل إلى جهات الأمن مضمون محادثة لى مع زميل لى، جرت فى غرفة مغلقة إلا لدقيقة واحدة أو دقيقتين فُتح خلالهما الباب لاستلام القهوة، وقامت هذه الجهات بتحليل الموضوع واتخاذ قرار بشأنه، ثم تم إبلاغ مدير الجامعة به وطلبوا منه اتخاذ اللازم.

* * *

كان أثر هزيمة ١٩٦٧ علينا أشبه بتعرضنا لصدمة قوية ومفاجئة من سيارة مسرعة أثناء عبورنا الطريق. وأصبنا بذهول تام استمر أياما وأسابيع قبل أن نستطيع التفكير فى الحادث بتأن ونستخلص منه أى مغزى أو عبرة. كان أحد ردود الفعل لهذه الصدمة، الاستغراق الهستيرى فى ترديد النكت الجديدة التى اخترعت فجأة للتعليق على ما حدث. ذلك أن مواجهة هذه الكارثة الكبيرة بانتقاد الحكومة سرا أو علنا لم يكن كافيا بالمرة للتعبير عما فى صدورنا، ونحن على أى حال لم نكن قادرين على تحديد مدى مسئولية الحكومة عما حدث بالمقارنة بمسئولية القوى الخارجية. والمعلومات التفصيلية عما حدث لم تكن متوافرة، وما كنا نسمعه منها كان متضاربا ويؤدى إلى تفسيرات متناقضة.

كان الحزن عميقا ولكن الذهول كان أكبر، وخيبة الأمل أعظم وأخطر. هل كان إذن كل هذا الكلام الذى ظللنا نسمعه خلال السنوات العشر السابقة عن بناء جيش قوى، وعن كل هذه الصواريخ التى سُمى بعضها بالقاهر والظافر، وعن قدرتنا على استعادة حقوق الفلسطينيين.. إلخ، هل كان هذا الكلام كله كذبا وتمويها؟ ولماذا إذن كان كل هذا التقييد للحريات والتدخل فى حياة الناس اليومية؟ هل كان هذا فقط لصالح النظام وليس لصالح القضايا الوطنية؟ لم تنجح بالطبع أى محاولة من جانب النظام فى كسب تعاطف الناس من جديد. كان الكسر أعمق من أن

يحتمل أى رأب أو إصلاح. حاولت الحكومة التظاهر بأنها ستعطى الناس حريات أكبر، وصدر بيان ٣٠ مارس فى ١٩٦٨ واعداً الناس ببعض الإصلاحات، ولكن الناس فهمت المقصود من ذلك. سمحت الحكومة بالفعل بهامش أوسع قليلا من حرية النقد وبتمثيل مسرحيات (مثل «أنت اللى قتلت الوحش» لعلى سالم) تتضمن نقدا مباشرا للحكومة، على أساس أن السماح ببعض التنفيس عما تضيق به الصدور قد يمنع انفجاراً أكثر تهديداً للنظام. ولكن هذا التساهل ظل فى دائرة ضيقة للغاية، وما أسرع ما كانت الحكومة تعود إلى تحذير الناس من تجاوز حدود الأدب. أذكر أن يوسف إدريس كتب مقالا قصيرا فى هذه الفترة فى جريدة الأهرام، فى أعقاب خطبة ألقاها جمال عبد الناصر على العمّال، وعرّف فيها الحرية بأنها حرية الحصول على رغيف الخبز، فاعترض يوسف إدريس على هذا التعريف القاصر للحرية وقال: إن الحرية أكثر من ذلك. فمُنع يوسف إدريس من الكتابة فى الأهرام بسبب هذا المقال لفترة طويلة.

حاول جمال عبد الناصر، فى سبيل تهدئة مشاعر الناس، أن يعين بعض الوزراء ممن يتمتعون بسمعة طيبة بين الناس فى استقلال الرأى والنزاهة والجرأة فى الحق، مثل الدكتور حلمى مراد. ولكن عبد الناصر لم يحتمله مدة طويلة إذ وجده أكثر جرأة فى الحق من اللازم وأخرجه من الوزارة. أثناء ذلك كانت مقالات محمد حسنين هيكل الأسبوعية فى الأهرام، والتى كانت تحمل عنوان «بصراحة» تثير أعصابنا، إذ بدلا من التعبير عما تضطرم به صدور الناس وتقديم إجابات صريحة على ما لديهم من أسئلة، كانت تثير قضايا مفتعلة أو تقدم إجابات ملتوية للتغطية على ما حدث من فشل، أو لتبرير إجراءات لا تتمتع بأى شعبية. كنا مع ذلك نواظب على قراءة هذه المقالات، لا أملا فى أن نحصل منها على تفسير لما حدث، بل لمجرد أن نعرف، ولو عن طريق التخمين وفك الألغاز، ما يدور فى ذهن الحكومة أو ما تنوى أن تصنعه.

بعكس ذلك بالضبط كانت أشعار أحمد فؤاد نجم التى غناها الشيخ إمام وسمعناها لأول مرة فى تلك الفترة، تعبّر بالضبط عما كنا نشعر به من سخرية مريرة

من النظام وشعاراته، ومن حزن عميق وإحباط إزاء ما حدث للوطن. كان انفعالنا شديدا إذن ورضانا كاملا على سخرية نجم وإمام المُرّة مما حدث في ٥ يونيو:

«الحمد لله خبّطنا تحت بطاطنا

ياماحلى عودة ضباطنا من خط النار

يا أهل مصر المحمية بالحرامية

الفول كثير والطعمية والبّر عَمار»

كما كدنا نبكي حزنا لدى سماع أغنية نجم وإمام:

«ناح النواح والنوّاحة على بقرة حاحا النطّاحة

والبقرة حلوب تحلب قنطار

لكن مسلوب من أهل الدار

• • •

والبقرة تنادي وتقول ياولادي

وولاد الشوم رايحين في النوم.. إلخ».

لا عجب إذن أن تلقيت خبر وفاة جمال عبد الناصر في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ بهدوء شديد، وبمشاعر فيها من دهشة المفاجأة أكثر مما فيها من حزن. كنت في بيروت في رحلة عمل قصيرة عندما سمعت الخبر، ولم يكن سماعي به عن طريق الراديو أو التليفزيون أو الصحف، بل عن طريق أصوات البنادق التي أطلقها اللبنانيون ودخان الحرائق التي أشعلوها في الشوارع للتعبير عن حزنهم. كان جمال عبد الناصر لا يزال يمثل في أعينهم رمزا لأهداف الوحدة العربية، ومقاومة الاستعمار، والدفاع عن مصالح الفقراء، أما بالنسبة لي فقد كانت هذه نظرتي لعبد الناصر في السنوات الخمس أو الست الأولى التالية لتأميم قناة السويس في ١٩٥٦، ولكن خلال الخمس أو الست سنوات السابقة على وفاته لم أشاهد أي تقدم نحو تحقيق هذه الأهداف، بل رأيت انكسارات مهمة في الجبهات الثلاث، فضلا عن التراجع المخزي في قضية الديمقراطية والحريات الشخصية. كانت مشاعري نحو عبد الناصر عند وفاته في ١٩٧٠ أقرب إلى مشاعري نحوه في ١٩٥٤، عندما

غضبنا على طريقة معاملته لمحمد نجيب، منها إلى مشاعرى نحوه فى ١٩٥٦ عندما أمم قناة السويس، أو فى ١٩٦١ عندما أصدر القوانين الاشتراكية. ولم تتغير مشاعرى نحو عبد الناصر مرة أخرى إلا فى منتصف السبعينات، عندما رأيت حجم التنازلات التى بدأ يقدمها أنور السادات لإسرائيل والولايات المتحدة، وبدأت إنجازات عبد الناصر فى مجالات الاقتصاد والسياسة الخارجية والعربية تبدو لى فى ضوء مختلف تمامًا، وإيجابى للغاية، بمقارنتها بخطايا السادات فى كل هذه المجالات. كما بدا هامش الحرية الذى سمح به السادات بالمقارنة بالقيود التى كان يفرضها عبد الناصر، مكسبا ضئيلا، بل وفى كثير من الأحيان شكليا وقليل الجدوى.

* * *

كان أنور السادات نائبا لرئيس الجمهورية عندما مات جمال عبد الناصر فجأة، ومع هذا فقد أصبنا بالدهشة إذ رأينا أنور السادات يصبح رئيسا للجمهورية. كان الرجل منذ سمعنا اسمه لأول مرة بعد قيام الثورة فى ١٩٥٢ يثير السخرية والرثاء أكثر مما يثير الاحترام أو الحب. وكان كل ما يصل إلينا مما يتعلق بسلوكه أو أقواله أو مواقفه يؤكّد صحة هذا الموقف السلبى منه ويقوّيه. كانت صورته فى أذهان الناس صورة رجل غير جاد، مغامر ولكن لمصلحته الخاصة لا من أجل مصلحة أكبر وأهم، كثير المزاح، وقليل الصبر على القراءة أو التفكير أو العمل الجدى، مع إفراط فى الحرص على الفخفخة والمظاهر الكاذبة. وكان هناك انطباع عام بأن هذه الصورة التى فى أذهاننا للسادات هى نفسها التى توجد فى أذهان بقية أعضاء قيادة الثورة عنه، بمن فيهم جمال عبد الناصر، الذى كانت تصلنا قصص عن نوع العلاقة القائمة بينه وبين السادات تنطوى كلها على قليل من الاحترام وكثير من نفاد الصبر من جانب عبد الناصر، وعلى كثير من الرياء والاستعداد لإراقة ماء الوجه من جانب أنور السادات. بدا استلام السادات للسلطة فى البداية وكأنه شىء مؤقت لن يدوم طويلا فى مواجهة رجال أشداء من نوع على صبرى وشعراوى جمعة، ولكن انقلاب ١٥ مايو ١٩٧١ قضى على هذا الظن وأدى إلى امتلاك السادات للسلطة لمدة عشر سنوات حتى مقتله فى ١٩٨١.

لم أكن أعلق أى آمال على استلام السادات للسلطة، ولكنى أيضاً لم أكن أحمل مشاعر ودية على الإطلاق لمن هزموا فى انقلاب مايو وأودعوا السجن بعد انهزامهم، إذ كانت أسماؤهم مرتبطة ارتباطا وثيقا بالطابع البوليسى للنظام، من ناحية، كما أننى، من ناحية أخرى، لم تكن لدىّ أى ثقة بأن لديهم إخلاصًا حقيقيا للاشتراكية. كان شعورى إذن إزاء انقلاب ١٥ مايو هو فى الأساس شعور باللامبالاة، وإن كنت أجد تسميته بـ«ثورة التصحيح» تسمية طريفة للغاية، إذ لم يكن من الواضح لى ما هو الأكثر وما هو الأقل صحة، ما قبل ١٩٧١ أو ما بعدها، كما لم يكن واضحا لى كيف يكون أنور السادات قادرًا على تصحيح أى شىء على الإطلاق.

لم يمض عام على هذا الانقلاب حتى بدا وكأن صبر الناس قد بدأ ينفد، إذ كانت سيناء لا تزال محتلة، بعد مرور خمس سنوات على هزيمة ١٩٦٧، ولم تسفر حرب الاستنزاف ولا مجىء أو ذهاب المبعوثين الوسيين من الأمم المتحدة أو الولايات المتحدة أو غيرهم عن أى تقدم فى إجلاء الإسرائيليين. وعبّر بعض الكُتّاب والصحفيين الكبار عما نشعر به من تذمّر، وقام الطلبة بمظاهرات عنيفة للاحتجاج فقابلها السادات بشدة أفصحت لأول مرة عن كذب ادعاءاته عن ميوله الديمقراطية، فعزل الصحفيين المحتجين أو نقلهم إلى وظائف مهينة، واستخدم ألفاظا غير لائقة فى وصف بعض كبار الكُتّاب الذين أيدوا هؤلاء الصحفيين، كما اعتقل أو فصل من استطاع أن يضع يده عليهم من الطلبة.

ثم حدثت مفاجأة أكتوبر ١٩٧٣، إذ وصل إلى أسماعنا فى ٦ أكتوبر، ودون أية مقدمات، خبر عبور الجيش المصرى لقناة السويس ونجاحه الباهر فى تحطيم خط بارليف. كان شعورى لدى سماع الخبر، كما كان شعور الكثيرين، مزيجا من الفرح وعدم التصديق، وكذلك شيئًا من الخوف من أن يكون وراء هذا الحادث المبهج جداً، أشياء أخرى خفية وأقل مدعاة للبهجة. ولكن كانت لهفتنا إلى أى تغير مفرح، فى تلك الحالة البائسة التى كنا نعيش فيها، تدفعنا إلى طرد أى شك من الذهن وإلى الانغماس مع الآخرين فى الفرح والتفاؤل.

على أن هذا الفرح لم يستمر، على الأقل فيما يتعلق بي، لأكثر من أسبوعين، إذ شعرت بأن أشد مخاوفي قد بدأت في التحقق، عندما سمعت أنور السادات لأول مرة بعد عبور الجيش المصري إلى سيناء في ٦ أكتوبر، يتكلم عن «السلام» ومزاياه. شعرت وكأن قلبي يسقط في صدري عندما سمعته يخطب في مجلس الشعب ويؤكد أن هدفه هو السلام، وكان قد أصدر أمرا للجيش بالتوقف وعدم الاستمرار في التقدم نحو الممرات في سيناء. أذكر أني بعد الخطبة بساعات قليلة كنت في سيارة تاكسي في ميدان التحرير، وإذا بسائق التاكسي ينفجر غاضبا وهو يقول: «سلام إيه وهباب إيه؟ إحنا لسّه أخذنا بثأر أولادنا اللي ماتوا ولاّ حتى أخذنا سيناء؟» وكان بهذا القول يعبر عما يدور في ذهني بالضبط، وقد تخيلت وقتها هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية في ذلك الوقت، وهو جالس إلى مكتبه في واشنطن ويرسل إلى السادات أولاً بأول ما يرى أن على السادات أن ينطق به بالضبط، جملة جملة. أذكر مدى حزني واكتئابي وأنا جالس إلى مكتبي في الجامعة الأمريكية وعازف عن تبادل الكلام مع أي شخص، وأفكر في طبيعة المؤامرة التي لم يكن لديّ أي شك في أنها تُحاك لنا.

كنت قد قرأت في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ الرواية الشهيرة (١٩٨٤) للكاتب الإنجليزي جورج أورويل، التي يصف فيها عالما مخيفا يعامل فيه الناس كقطيع من الأغنام، ويساقون إلى مصير مجهول، تحقيقا لمآرب مجهولة لحكام مجهولين، ويتعرضون أثناء ذلك وفي كل يوم لأخبار مزيفة عن حروب لم تنشب، ويسمعون فيها عن انتصارات لم تحرز، تذيعها وزارة تسمى وزارة الحقيقة مع أن موظفيها لا عمل لهم إلا تزييف التاريخ والحاضر والمستقبل. كان ما حدث لمصر منذ الهجوم الإسرائيلي في١٩٦٧، وحتى بدأ كلام السادات عن السلام مع إسرائيل، يبدو لي غير مفهوم بالمرة، ولكنه يكاد يقطع بوجود مؤامرة ضد مصر والعرب مرسومة بكل دقة من قبل أن يبدأ تنفيذها، ولكنها لا تتكشف لنا إلا بالتدريج وبجرعات صغيرة للغاية. دفعني ذلك إلى أن أقرأ رواية أورويل من جديد فوجدتها ملائمة جدّا لحالتي النفسية ولنوع ما كان يدور بذهني من خواطر.

* * *

كانت خيبة الأمل التى أحدثتها فى نفسى تطورات السياسة المصرية بعد عبور الجيش لقناة السويس فى أكتوبر ١٩٧٣، أحد الأسباب التى ساعدت على ذهابى للعمل فى الكويت فى فبراير ١٩٧٤. وقد ظلت الأخبار تأتينا، طوال الأربع السنوات التى قضيتها هناك، بنبأ سيئ بعد آخر، أو هكذا بدت هذه الأخبار لى على الأقل. فقد بدا لى أن السادات، على نحو لا يقبل الشك، وكأنه لا يفعل أكثر من تنفيذ مخطط أمريكى/ إسرائيلى. كان من عناصر هذا المخطط تصالح تدريجى مع إسرائيل، وهو ما انتهى بعقد معاهدة للصلح المنفرد ومهينة للغاية فى ١٩٧٩، سميت بـ «معاهدة السلام»، وذلك فى أعقاب مفاجأته المذهلة التى أصابتنى بغم شديد، بزيارته لإسرائيل فى نوفمبر ١٩٧٧، التى سميت بـ «المبادرة». كان من عناصر هذا المخطط أيضًا فتحه لأبواب الاقتصاد المصرى أمام الواردات ورءوس الأموال الأجنبية بلا ضابط وعلى حساب الصناعة المصرية، وهو ما سمى بـ «سياسة الانفتاح الاقتصادى» التى دشنت فى ١٩٧٤، فضلا عن استعداده الدائم لقبول ما يمليه عليه صندوق النقد الدولى والبنك الدولى وما تطلبه منه الإدارة الأمريكية بل وإسرائيل، بما فى ذلك استعداده لبيع أراضى هضبة الأهرام بما تحتويه من آثار لشركة أجنبية، واستعداده لتوصيل مياه النيل لإسرائيل، وعمله على تفكيك أواصر الوحدة العربية، والتأكيد على المصالح الخاصة لمصر وكأنها تتعارض مع مصالح بقية العرب. اقترن كل هذا بسلوك يومى من جانب السادات لم أجد فيه إلا باعثا على الاحتقار بل والاشمئزاز. فبينما كان يأتى فى كل يوم خبر جديد ينبئ برضوخه الذليل للرغبات الأمريكية، وتنفيذ ما يطلب منه لصالح إسرائيل، كنا نشاهد صوره وهو يغير ملابسه بحسب المكان الذى يوجد فيه أو المناسبة التى يحتفل بها، فهو مرة يرتدى زيا عسكريا يبدو فيه فخورا بما يزينه من نياشين وأوسمة، دون أن نعرف له تاريخا لأداء عسكرى يستحق عليه مثل هذه النياشين والأوسمة، ومرة يرتدى العباءة ويحمل السبحة إذا كان فى قريته ميت أبو الكوم خلال شهر رمضان، متظاهرا بالورع والتقوى، ومرة أخرى فى بدلته الأوروبية الأنيقة التى تجعله يستحق، فى نظر بعض المجلات الأمريكية، لقب «أشيك» رجل فى العالم. وهو يجرى حديثا مع مذيعة تليفزيونية يتكلم فيه عن نفسه كلاما يثير النفور الشديد لكثرة

ما يحتويه من فخر لا مبرر له بنفسه وتاريخه. فإذا سئل مرة عن أهم ما قرأه من كتب ذكر كتاب أبى «فيض الخاطر»، الذى يضم مقالات أبى فى مختلف الموضوعات والتى سبق نشرها فى مجلات غير أكاديمية. ويذكر اسم الكتاب خطأ فيسميه «خواطر»، ويقول أيضًا لكى يدلل على سعة إطلاعه، إنه قرأ المراجع التى ذكرها أبى فى نهاية كتاب «خواطر»، والكتاب بحكم طبيعته لا يذكر اسم أى مرجع على الإطلاق.

* * *

لا عجب أن بدأت صورة جمال عبد الناصر فى ذهنى تكتسب ملامح مختلفة تمامًا. بدا عبد الناصر رجلا محترما للغاية بالمقارنة بخليفته، وبدا أن من الممكن جدًا أن نغفر له معظم أخطائه بعد أن رأينا أفعال السادات. تقييد الحريات؟ فما هو نوع تلك الحريات التى منحها لنا أنور السادات؟ نعم، أصبح من الممكن الكلام فى التليفون أو التاكسى وفى المحاضرات وكتابة الخطابات دون خوف من عملاء المباحث العامة أو الرقيب، كما أصبح من الممكن السفر إلى أى مكان فى العالم دون تأشيرة خروج، وهذا كله مما لا يستهان به، ولكن السادات لا يزال هو الحاكم بأمره الذى لا يلتزم باستشارة أحد، وهو يصف ديمقراطيته بأن لها «أنيابا» ويهدد معارضيه بـ «الفرم».. إلخ. وليس فى تاريخ السادات السياسى ولا فى طبيعته الشخصية ما يدل على أنه أقرب فى مزاجه إلى التسامح مع الرأى المخالف، بل إن غروره الذى لا أساس له ومستوى ذكائه الذى يبدو محدودًا، إذا قُورن بعبد الناصر، يؤهلانه أكثر من غيره لممارسة حكم ديكتاتورى وللبطش بمعارضيه. لهذا كنت أميل إلى الاعتقاد بأن ما سمى بـ «ديمقراطية السادات» كان أقرب إلى أن يكون جزءًا من التصور الأمريكى لهذه المرحلة من مراحل تطور مصر، منه إلى ميول السادات الشخصية وطبيعة مزاجه. كان من المطلوب بالطبع، فى تلك الفترة، تشويه سمعة عبد الناصر، تمهيدا لنقض سياساته المختلفة فى الاقتصاد والعلاقات الخارجية والعربية وعلاقة مصر بإسرائيل. وكان هذا التشويه لسمعة عبد الناصر وعهده يتطلب إتاحة درجة من حرية النقد التى يسهل الرجوع عنها متى تمت المهمة التى جاء السادات من أجلها.

باختصار، كانت كل توجهات أنور السادات، فيما عدا إتاحته مزيداً من الحريات الشخصية، ضد توجهاتي ومعتقداتي من أساسها. فقد كنت ضد الانفتاح الاقتصادي، أو على الأقل ضد هذا النوع من الانفتاح الذي أدخله السادات وسماه أحمد بهاء الدين «انفتاح سداح مداح»، وكنت ضد تصالحه مع إسرائيل دون أي تنازل من جانبها لصالح الفلسطينيين، وكنت ضد تنكره للوحدة العربية، وضد خضوعه الذليل لأمريكا والمؤسسات المالية الغربية. وفي كل هذه الأمور بدت مواقف عبد الناصر مشرّفة للغاية.

منذ منتصف السبعينات إذن أصبحت على استعداد لنسيان كل ما ارتكبه عبد الناصر من أخطاء، فإذا ذكرت أمامي اعترفت بها على مضض لشعوري بأن القضية الآن أصبحت أخطر بكثير، وأن التضحية ببعض الحريات السياسية والشخصية أهون من كل هذه التضحيات التي يطلبها منا السادات. ولهذا السبب شعرت باستياء شديد عندما قرأت كتاب توفيق الحكيم «عودة الوعي» الذي كان الغرض من كتابته على الأرجح، التقرب من السادات عن طريق تشويه سمعة عبد الناصر. فلما رد عليه محمد عودة بكتاب «الوعي المفقود» تعاطفت تماماً مع سخرية عودة من توفيق الحكيم، شأني دائما مع كل ما قرأته لمحمد عودة سواء قبل ذلك أو بعده.

حدثت زيارة السادات للقدس أثناء إقامتي بالكويت، وقد فوجئت بها وسخطت عليها مثلما فوجئ وسخط الكثيرون. وقد أراد أحد السياسيين الكويتيين أن يعقد ندوة في التليفزيون الكويتي يستضيف فيها ثلاثة أشخاص: أحدهم فلسطيني، والثاني مصري معارض للزيارة، والثالث مصري مؤيد لها، أو على الأقل لا يعارضها معارضة تامة. وعرض عليّ أن أكون المصري المعارض فقبلت، وكان الفلسطيني أستاذا للعلوم السياسية في جامعة الكويت، والمصري الآخر وزيرا مصريا سابقا في إحدى حكومات السادات وذهب بعد خروجه من الوزارة للتدريس في جامعة الكويت. عندما بدأت المناقشة والتسجيل، بدا على الوزير السابق أنه فوجئ بشدة هجومي وهجوم الزميل الفلسطيني على زيارة السادات لإسرائيل، كما فوجئ على الأرجح، بفشله في تقديم حجج مقنعة لتأييد الزيارة، أو على الأقل في العثور

على بعض مبررات لها. وفوجئت أنا إذ وجدته يدافع عن هذه الزيارة طالما كان الميكروفون مفتوحا والتسجيل جاريا، بينما يقول لنا إنه يؤيد موقفنا المعارض للزيارة تمام التأييد، عندما نكون فى فترة استراحة ويكون الميكروفون مغلقا. وقد أدهشنى هذا التقلب دهشة كبيرة إذ ربما كان هذا أول مثال أصادفه لمثل هذا السلوك، وإن كنت قد رأيت شبيها له، عدة مرات، بعد ذلك. ثم زادت دهشتى عندما سمعت أن هذا الوزير السابق، بمجرد انتهاء التسجيل، جرى إلى وزير الإعلام الكويتى، وشرح له ما حدث، وألحّ عليه فى أن يأمر بمنع إذاعة هذه الندوة فى التليفزيون؛ لأنها لابد أن تسىء إلى العلاقة بين مصر والكويت. والأرجح أنه تبين بعد انتهاء الندوة كم كان دفاعه عن الزيارة ضعيفا، ومن ثم فإذاعة الندوة لابد أن تسىء إلى مركزه فى عين النظام المصرى، إذ ستظهره عاجزاً عن التصدى لبعض الصبية المتمردين من أمثالى وأمثال زميلى الفلسطينى. كما سمعت أن هذا الوزير السابق جرى أيضًا إلى السفير المصرى بالكويت ليطلب منه نفس الطلب، وكانت النتيجة أن منعت إذاعة الندوة ولم يرها أحد من غير المشتركين فيها.

أما الطامة الكبرى، وهى توقيع السادات لاتفاقية الصلح مع إسرائيل فى كامب دافيد فى ١٩٧٩، فقد حدثت أثناء وجودى بالولايات المتحدة عندما كنت أقوم بالتدريس والبحث كأستاذ زائر فى جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس. وقد زاد من حزنى وغضبى اللذين أثارتهما قراءتى لنصوص هذه الاتفاقية البالغة السوء، ما رأيته بعينى على شاشة التليفزيون عندما صدرت عبارة من بيجين، الذى كان يوقع على الاتفاقية باسم إسرائيل، وبصفاقته المعهودة، عبارة معناها أن «اليهود هم الذين بنوا الأهرام فى مصر»، إذ لم يبدر من السادات أى احتجاج أو بدا عليه الغضب، بل بدا عليه فقط الحرص على أن يبقى الجو وديا، وألا يصدر منه ما يغضب بيجين الواقف بجانبه، أو الرئيس الأمريكى كارتر الذى كان يرعى الاحتفال.

* * *

ليس عجيبا إذن أن كان ابتهاجى شديداً عندما سمعت فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ بمقتل أنور السادات. ففضلا عن الارتياح الذى بعثه فى نفسى اختفاء هذه الشخصية التى

لم تكن تثير لدى إلا مشاعر الغضب والنفور، بدا لى هذا الذى حدث للسادات وكأنه عقاب لائق لما ارتكبه فى حق مصر والعرب من أخطاء.

ولكن حدث فى العام التالى (١٩٨٢) ما زاد من سرورى وتفاؤلى. بدأ الرئيس الجديد حسنى مبارك حكمه بإطلاق سراح السياسيين والمثقفين الذين كان قد اعتقلهم السادات بسبب وبلا سبب فى سبتمبر السابق على وفاته، واستقبلهم حسنى مبارك فى قصره فى إشارة واضحة إلى أن عهدا جديدا من الحريات سوف يبدأ. وبالفعل، عادت الصحف التى كان قد صادرها السادات إلى الظهور، وأخذت تنشر مختلف الآراء بحرية لم نعهد مثلها منذ قامت ثورة ١٩٥٢. واختفت من الصحف والمجلات مظاهر التملق الكريه التى شاعت فى عصر السادات بما فى ذلك تمجيد سيدة مصر الأولى التى كانت صورها وأخبارها تملأ وسائل الإعلام على نحو لم تعهده مصر فى عهد الملكية. وسمعنا أن أوامر صارمة صدرت من رئاسة الجمهورية تمنع نشر صور سيدة مصر الأولى الجديدة إلا بإذن خاص من الرئاسة؛ تجنبا لإشاعة سخط مماثل لما شاع فى عهد السادات. وبالفعل أصبح من النادر نشر هذه الصور وقلّت بشدة عبارات المديح والنفاق الموجهة لرئيس الجمهورية.

دفعنى حماسى وسرورى بهذا الذى يحدث إلى الكتابة بكثرة لصحف المعارضة فى مختلف الموضوعات السياسية والاجتماعية. وكنت قد عدت نهائيا من إقامة طويلة بالخارج، أربع سنوات فى الكويت ثم سنة فى الولايات المتحدة، واستبشرت خيرا بمستقبل مصر. وبدا لى من الملائم أن أتناول فى بعض مقالاتى فترة الثلاثين عاما السابقة كلها، وهى الثلاثون عاما التى انقضت على قيام ثورة يوليو، وأقارن بين حكم عبد الناصر وفترة حكم السادات، كما أشير إلى العناصر المشتركة بينهما، والتى نأمل فى العهد الجديد، أن نرى نهاية لها. انتقدت نظام الدولة «الخانقة» فى عهد عبد الناصر، والدولة «الرخوة» فى عهد السادات، وبينت أن لا هذه ولا تلك تحقق أهداف الأمة. كما انتقدت الإهمال النسبى للزراعة فى عهد عبد الناصر والإهمال المطلق لها فى عهد السادات. انتقدت أيضا سيطرة من أسميتهم بـ «ذوى

الدم الأزرق» (فى مقال بهذا العنوان) الذين تربعوا على أريكة الحكم فى عهد عبد الناصر، ثم استمروا متربعين عليها فى عهد السادات، دون مزايا خاصة تؤهلهم لذلك، ووجدتهم يشبهون أعضاء الأسر المالكة فى الدول التى تطبق النظام الملكى، إذ يتوارث أفراد أسرة معينة حكم البلاد وكأن «دما أزرق» يسرى فى عروقهم، مختلفا عن الدم الذى يسرى فى عروقنا. نشرت هذه المقالات وأمثالها فى مجلة «الأهرام الاقتصادى» التى كان يرأس تحريرها فى ذلك الوقت اقتصادى وطنى شجاع هو لطفى عبد العظيم، استغل جوّ الحرية المتاح وقتها فأفسح صفحات مجلته للجميع. أثارت هذه المقالات بالطبع غضب بعض المسئولين من المتحمسين للسادات، والمستفيدين منه، ولكنها أغضبت أيضًا بعض المتحمسين لعبد الناصر، حتى عاتبنى مرة الناصرى العتيد محمد عودة، على ما اعتبره قسوة زائدة فى مقالاتى على «ثورة يوليو». على كل حال لم تدم هذه الحال طويلا، فبعد نحو عام من بداية حكم مبارك تبين لنا أن آمالنا فى حرية حقيقية للصحافة، كان مبالغا فيها جدًا، وسرعان ما عادت القيود شيئا فشيئا، بما فى ذلك عزل لطفى عبد العظيم من رئاسة تحرير الأهرام الاقتصادى وتعيين شاب آخر مكانه، أكثر تفهما للمطلوب، ولم أنشر فى هذه المجلة أى شىء منذ ذلك التاريخ. ثم ظهر لنا أيضًا شيئًا فشيئًا بأننا كنا مخطئين فى التفاؤل، ليس فقط فيما يتعلق بالحريات، بل وبأشياء أخرى كثيرة.

فبعد عشرين عاما من استلام مبارك للسلطة تبين لنا أن نفس أسباب السخط على سياسات السادات استمرت فى عهد مبارك، وأن الفرق الوحيد بين العهدين هو فى أسلوب تطبيق هذه السياسات. كان السادات يطبقها بجرأة قد يحسده البعض عليها، ويعبر عنها بطلاقة لسان وكثيرا ما يطبقها بصفاقة، أما فى عهد مبارك فكانت نفس السياسات تطبق دون ضجة ودون تهييج للناس. من التعبيرات الطريفة التى كانت تقال فى وصف طريقة السادات فى التعامل مع تركة عبد الناصر، وتسخر من تكرار السادات للقول بأنه «ماشى على خط عبد الناصر» أن السادات يمشى فعلا على خط عبد الناصر، لكن ومعه «أستيكة» أو «محاة»، أما عن طريقة مبارك فى التعامل مع تركة السادات، فأظن أن من الممكن القول بأنه كان

يمشى على خط السادات بالضبط ولكن دون أن يخبرنا قط بذلك، ودون أن يعترف بذلك صراحة، ولكن أيضا دون أن ينفيه. كان هذا صحيحا فى السياسة الاقتصادية، والسياسة إزاء إسرائيل والعرب، وفى الموقف من الولايات المتحدة، على السواء.

كتبت مرة بعد سنوات قليلة من بداية حكم مبارك مقالا فى جريدة الأهالى المعارضة، بعنوان «ما سر كراهية حسنى مبارك لسياسة الصدمات الكهربائية؟». وكان هذا تعليقا على عبارة صدرت من الرئيس مبارك استخدم فيها تعبير «الصدمات الكهربائية» لوصف أسلوب السادات فى الحكم (وربما أسلوب عبد الناصر أيضًا) وقال إن أسلوبه هو مختلف عن ذلك. وقد فسرت هذا الاختلاف بأن الوظيفة التاريخية لعصر السادات، وهى فى الأساس «تصفية تركة عبد الناصر» كانت تتطلب شيئا شبيها بالصدمات الكهربائية، ولكن عندما قتل السادات فى ١٩٨١ كانت هذه الوظيفة قد تم تحقيقها، فلم تعد ثمة حاجة فى العهد الجديد لمثل هذه الصدمات.

* * *

فى سنة ٢٠٠٢، كان لابد أن تكثر الندوات والمؤتمرات والاحتفالات بمرور ٥٠ عاما على قيام ثورة يوليو. وقد دعيت للكلام فى بعض هذه الندوات، وكانت فرصة جيدة للنظر إلى نصف القرن بأكمله لاستخلاص العظات والعبر. وهذا هو ما حاولت أن أفعله عندما دعيت للكلام بهذه المناسبة مرة فى محاضرة فى مركز رامتان (متحف طه حسين)، ومرة فى اتحاد الكُتّاب. لم يدر بخاطرى تحويل هذه المناسبة إلى فرصة لتمجيد عبد الناصر ونقد السياسات التى تتخذها الحكومة الحالية، بل رأيت أن التناول الوحيد الملائم هو محاولة تشخيص وتقييم الخمسين عاما بأكملها. فلما نظرت إلى هذه الفترة كلها لم أجد تشخيصا لها أفضل من أنها كانت خمسين عاما مما يمكن أن يسمى بـ«العصر الأمريكى»: عصر بدأ بانتهاء الحرب العالمية الثانية ولا نزال نعيش فى ظله حتى الآن. نعم كانت هناك بالطبع فروق مهمة بين عهد عبد الناصر وعهدى السادات ومبارك، ولكن من الخطأ فى

رأيى تجاهل أوجه الشبه، ومن المهم أن نرى كيف انعكست هذه السيادة الأمريكية على الفترة بأسرها بعهودها المختلفة. بينت فى المحاضرتين أن هذه «السيادة الأمريكية» انعكست على طريقة الحكم ونوع الحكم، وعلى كثير مما اتخذته الثورة المصرية من إجراءات ومواقف سياسية واقتصادية، وعلى نمط الحياة والعلاقات الاجتماعية فى مصر، وعلى علاقات مصر العربية والخارجية، وعلى فلسفة التنمية.. إلخ.

كنت أعتبر من المسلم به، أثناء إعدادى للمحاضرتين، أن ما سأقوله لن يعجب الانفتاحيين والساداتيين، ولكنى كنت قد تعودت على هذا منذ فترة طويلة، وعلى عدم المبالاة به. ولكن خطر لى أيضًا أثناء إعدادهما أننى سأقول كلاما لن يسرّ الناصريين كثيراً. وكان هذا مصدرا لبعض التساؤل من جانبى عما إذا كان من الحكمة أن أفعل هذا فى ظروف ترجح فيها بشدة كفة أعداء الناصرية، وتتراجع فيها سياسات ناصرية كثيرة مما لا أحب أن أراه يتراجع. فضلا عن أن الناصريين يعتبروننى من رجالهم وأنصارهم، وهو تشخيص صحيح فى معظمه، وإن لم يكن صحيحا صحة كاملة للأسباب التى حاولت أن أبيّنها فى الصفحات السابقة. فهل من مصلحتى أن أفقد صداقة هؤلاء وتقديرهم لى؟

تشجعت وقلت ما يدور بنفسى كما هو. ولكن حدث أن الأسف والدهشة اللذين أصابا بعض أصدقائى الناصريين مما قلته فى المحاضرتين فاقا ما كنت أتوقع، بل وأصابانى أنا بالدهشة، إذ لم أكن أظن أن حماسهم لعهد عبد الناصر وتغاضيهم عن مساوئ ذلك العهد وأخطائه قد وصلا إلى هذا الحد.

دهشت أنا أيضا وأسفت، خاصة عندما فوجئت بدهشة وأسف بعض الشباب الناصرى من الصحفيين الذين أكنّ تقديرا فائقا لهم، وإعجابا شديدا بموهبتهم ووطنيتهم واستعدادهم للتضحية. ولكن دهشتى سرعان ما زالت، عندما تذكرت أعمارهم، وإن لم يزل أسفى. فهؤلاء لم يتجاوز عمرهم الأربعين، ومن ثم كانوا أطفالا صغارا عندما كنت أنا فى الثلاثين، وكنت قد عدت لتوى من بعثتى فى إنجلترا، وعندما رفضت إجراءات الأمن إعطائى تأشيرة الخروج لأنى كنت فى

صباى متحمسا لمبادئ الحرية والوحدة والاشتراكية، وعندما بدأت أنا وكثيرون من جيلى نسمع ونتعاطف مع أغنية أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام الجميلة:

«ناح النوّاح والنوّاحة على بقرة حاحا النطاحة..

والبقرة تنادى وتقول يا ولادى..

وولاد الشوم رايحين فى النوم.. إلخ».

كنت قد جاوزت الثلاثين من عمرى عندما تعاطفت أنا وغيرى مع هذه الأغنية بسبب سخطنا الشديد على ما حدث فى ١٩٦٧. أما هؤلاء الصحفيون الشبان، من الناصريين المتحمسين، فكانوا حينئذ فى نحو الخامسة من عمرهم.

طاف بخاطرى، عندما تبينت أثر حديثى على الشباب الناصرى المتحمس، هذا الخاطر الحزين: «هل هناك أى أمل حقيقى فى أن ينقل أى جيل تجربته للجيل الذى يليه؟ أم أن من المحتم على كل جيل أن يمرّ بالتجربة بنفسه، وأن يستخلص كل جيل بنفسه ما يستطيع استخلاصه من تجربته هو، دون أى أمل فى أن يحصل على أى مساعدة من الأجيال السابقة؟».

(١٢)

عين شمس

في شهر مايو ١٩٦٤، ركبت باخرة مصرية من ميناء البندقية في إيطاليا، وبصحبتي زوجتي الإنجليزية، في طريق عودتي النهائية إلى مصر. كانت فرحتي بالعودة، ومعي شهادة الدكتوراه وزوجة أحبها، يصعب وصفها. كان راديو الباخرة يذيع علينا أغاني مصرية باستمرار، فتصيبني رعشة من الانفعال والحماس للأغاني العاطفية والوطنية على السواء، وكانت زوجتي ترى انفعالي وفرحي فتصيبها عدوى الحماس بدورها.

قضيت العشر السنوات التالية، فيما بين عودتي إلى مصر وذهابي للعمل في الكويت في أوائل ١٩٧٤، مدرسا ثم أستاذا مساعدا في كلية الحقوق بجامعة عين شمس. وكانت كلية الحقوق هي محور حياتي العامة طوال هذه الفترة.

كنت في هذه الفترة في عنفوان شبابي (إذ بدأت التدريس فيها وأنا في التاسعة والعشرين من عمري وتركتها قبل أن أبلغ الأربعين) مليئا بالآمال لنفسي وأسرتي وبلدي، وتسيطر عليّ بعض المبادئ الأخلاقية والاجتماعية بقوة أكبر منها في أي وقت قبل ذلك أو بعده. وكانت هذه أول وظيفة لي، باستثناء السنتين اللتين قضيتهما بعد تخرجي مباشرة في مجلس الدولة، وكنت حينئذ لا أزال صغيرا ساذجا لا يزيد عمري كثيرا على العشرين. ومن ثم فقد كان دخولي جامعة عين شمس مدرسا دخولا للحياة العامة لأول مرة، بعد فترة طويلة من الحرية، وهي فترة الدراسة في إنجلترا التي لم أكن أحمل فيها أي مسئولية إلا القراءة والكتابة للحصول على الدكتوراه.

فوجئت في حقوق عين شمس بعالم غريب تماما، فيه القليل مما يبهج والكثير مما يجلب الإحباط وخيبة الأمل. كان العميد رجلا لا غضاضة به على الإطلاق، قويا صارما لطيف المعشر مع من لم يرتكب خطأ، وذا مبادئ لا يحيد عنها، استمدها من تربية صعيدية ملتزمة، في أسرة ميسورة لم تعان شظف العيش وتتمتع باحترام مجتمع القرية التي نشأ فيها وتولى أبوه عموديتها. وقد أصبحت بمجرد عودتي عضوا في قسم الاقتصاد. وكان القسم يتكون من أستاذين يكبرانني بأكثر من عشر سنوات، ومدرسين في مثل سني عادا مؤخراً من بعثتيهما في الخارج، أحدهما من فرنسا والآخر من الولايات المتحدة.

كان رئيس القسم (الدكتور حلمي مراد) رجلا فذا بكل معاني الكلمة، يندر أن يصادف المرء مثيلا له. شعرت نحوه بالمودة والاحترام منذ أول يوم عرفته فيه، وظلت هذه المودة وهذا الاحترام ينموان مع الوقت، إذ لم أشهد منه أي موقف يضعف من هذه المشاعر، حتى وفاته في منتصف التسعينات وهو يشرف على الثمانين. لم أشعر بمثل هذه العواطف نحو الأستاذ الآخر في القسم الذي كان رجلا غزير العلم نظيف اليد، ولكنه كان مكتفيا بنفسه أكثر من اللازم، لا رغبة لديه في أن ينشئ أي علاقات قوية مع أي شخص خارج أسرته الصغيرة، فظل قليل الأصدقاء والمعارف، يؤدي عمله ويؤلف بعض الكتب إرضاء لنفسه، حتى مات وحيدا في باريس، ولم أر رثاء له في أي جريدة أو مجلة مصرية أو عربية رغم كثرة تلاميذه وكتبه.

أما زميلي العائد من فرنسا والذي التحق بنفس الكلية وفي نفس السنة التي التحقت بها فيها، فكان أيضًا رجلا مكتفيا بنفسه ولكنه كان ودودا، لطيف المعشر، ذا شهامة، وعلى استعداد كامل للمساعدة طالما أن هذا لا يتطلب منه جهدا زائدا أو عناء. كان يؤمن إيمانا قويا بقاعدة: «عش واترك الآخرين يعيشون». لديه من الموارد الذاتية النفسية والعقلية ما يكفل له حياة هانئة، ولا يحتاج إلى شيء يتوقف الحصول عليه على إرادة الآخرين، فهو يشعر بأنه قادر دائما على الاستغناء عنهم. ولكنه لا يحمل أي حقد أو غيرة من الآخرين، إذ إنه لا يتمنى لنفسه شيئا مما يتوافر لهم، ولا يستطيع أن يوفره لنفسه دون مساعدتهم.

كان من الواضح أنه وضع لنفسه هدفا محددا وواضحا فى عينيه تمام الوضوح، والمطلوب هو فقط السعى إليه دون انحراف والوصول إليه بأقل نفقة ممكنة. إنه إذن «الاقتصادى» بامتياز، لا يضيع وقته فى كلام لا فائدة فيه، أو ماله فيما لا يجلب له نفعا مؤكدًا. لا يهمه رأى الناس فى قليل أو كثير، إذ ما أهمية رأيهم وهو واثق تماما مما يريد ومن صحة الطريق الذى يسلكه؟ وهم على أى حال لا يملكون الإضرار به إذ إن لديه من الذكاء ما يمكنه من اكتشاف الضرر قبل وقوعه، ولديه من الهمّة والنشاط ما يمكنّه من الحيلولة دون وقوعه.

كان يعرف قدر المال جيدًا ولكنه كان قادرا أيضا على الاستمتاع بالحياة: بالأكل الطيب، والمشروب الجيد، والبيت الجميل، والجو المعتدل، بالإضافة إلى الوجه الحسن. تزوج من فتاة ألمانية لطيفة ووديعة، هيأت له بيتا مريحا، وتركته يسعى لتحقيق أهدافه دون منغّصات وأنجبت له ولدين ذكيين. وقد ساعدها كونها ألمانية، فيما أظن، على أن تقدر كفاءة زوجها حق قدره، إذ كانت هى نفسها تقدر الكفاءة فى كل شىء مثل تقديره.

أما زميلى المدرس الآخر العائد حديثا من الولايات المتحدة فكان من نوع مختلف تماما. رجل صغير الحجم ليس لجسمه معالم محددة، وكان مثل كثيرين ممن عرفت يعتمد فى حديثه على الكليشيهات من أمثال: «حمداً لله على السلامة» أو «كل سنة وأنت طيب» أو «ربنا يجعل العواقب سليمة» وهكذا. وإذا حدث وفُتح موضوع يبدو أنه يهمه الكلام فيه حقا، وعبّر فيه عن مشاعره بتلقائية، وهو أمر نادر الحدوث، فالأغلب أن يتعلق الموضوع بكسب مادى يأمل فى تحقيقه أو يشكو من ضياعه منه بدون وجه حق.

ثم مرت السنوات وحصل زميلى هذا على إعارة إلى إحدى الدول العربية وعاد منها بسيارة مرسيدس فاخرة، كان منظره وهو يقودها إلى داخل جامعة عين شمس يلفت النظر بسبب المفارقة بين ضآلة حجمه ـ حتى ليكاد لا يستطيع النظر من الزجاج الأمامى ـ وحجم السيارة وفخامتها. ولكنى كنت ألاحظ أيضًا أنه، إذا تصادف أن وصل إلى باب الجامعة فى سيارته المرسيدس وأنا وراءه فى سيارتى

الصغيرة والقديمة، هبَّ بواب الجامعة واقفا لتحيته وفتح له الباب على مصراعيه، ثم يجلس مباشرة غير عابئ بي وأنا أمرّ من نفس البوّابة، ولا يكلف نفسه عناء رفع يده لتحيتي. وكنت أفسّر هذا الفارق الواضح في المعاملة بالفارق الواضح جدًا بين السيارتين.

لم يكن هذا الاهتمام الزائد بكسب المال ظاهرة استثنائية، إذ سرعان ما اكتشفت أن الظاهرة عامة، وأن الاستثناءات وإن كانت موجودة فهي قليلة. وهنا لابد أن أعترف بأن واحداً من تحيزاتي القوية والثابتة في ذهني منذ زمن طويل وتأبى أن تفارقني، هو هذه الفكرة: أن الحرمان المادي في الصغر أمر خطير للغاية إذ يترتب عليه في الغالب مادية مفرطة في الكبر. هكذا كنت أميل دائما، كلما رأيت شخصا يسيطر عليه حب المال، إلى البحث عن سبب ذلك في ظروف نشأته، وكلما وجدت شخصا كريما سخيا ومستعدا للتضحية بالكسب المادي من أجل فكرة أو مبدأ افترضت على الفور أنه لم يصادف حرمانا في صباه. والحقيقة أني لم أصادف في حياتي أمثلة كثيرة تدحض نظريتي هذه، وصادفت الكثير جدا مما يؤيدها، ولكني على استعداد بالطبع للاعتراف بأن هناك حالات غير عادية تعجز هذه الفكرة البالغة البساطة عن تفسيرها.

كانت الغالبية العظمى من أساتذة ومدرسي كليتي في عين شمس ذوي أصول ريفية واضحة، لا تزال تظهر، حتى لدى كبار السن منهم، في طريقة حديثهم وضحكهم وإشاراتهم بالأيدي واختيارهم لملابسهم.. إلخ. كما أني كنت أعرف عن بعضهم أنهم صعدوا إلى مراكزهم الاجتماعية الحالية من بدايات اجتماعية متواضعة. كانت غالبية من كان منهم في سني أو أصغر، ممن استفادوا من مجانية التعليم التي أدخلها طه حسين في ١٩٥٠، ثم عممها جمال عبد الناصر بعد ذلك بسنوات قليلة، وما كان يتصور أن يتموا تعليمهم الجامعي لولا هذه المجانية. إذن فقد كانت نظريتي تنطبق على هؤلاء، ولكن استرعى انتباهي أن كثيرين ممن كانوا أكبر سنا مني بكثير كانت لديهم نفس الخصلة، وهي اعتبار كسب المزيد من المال سببا كافيا للتضحية بكثير من الأشياء الأخرى.

كان الأمر كله صورة مصغرة لحالة المجتمع المصرى ككل: مجتمع مكتظ بالسكان، لا ينتج ما يكفي لتوفير حياة لائقة للجميع، فيتنافس الجميع على الكسب المادى ويحاولون دون جدوى إخفاء هذه المنافسة والتظاهر بعكسها. وحدّة هذه المنافسة تضعف بشدة من احتمال وجود أى تعاطف حقيقى، إذ إن الجهد المطلوب لتحقيق الهدف لا يترك بقية للتعاطف الحقيقى مع الآخرين. هذه الأعداد الغفيرة من السكان هى المسئولة فى النهاية عن هذا التنافس الحاد، ولكنها هى نفسها التى تخلق فرصا لزيادة الكسب المادى إذا استطاع المرء أن ينتج سلعة تحتاج إليها هذه الأعداد الغفيرة، كالكتب الجامعية مثلا.

كان التكالب على تدريس المقررات الدراسية فى الفصول ذات الأعداد الكبيرة من الطلاب يصل أحيانا إلى درجة يصعب على العقل تصديقها. كما كانت المنافسة بين الأساتذة على التدريس فى هذه الفصول تكوّن المحور الأساسى الذى تدور حوله أحاديثهم. حضرت مرة جلسة من جلسات مجلس الكلية، بعد ترقيتى إلى درجة أستاذ مساعد، حيث طرحت مسألة الخلاف بين قسمين من أقسام الكلية حول من الذى يقوم بتدريس مقرر باللغة الفرنسية أدخل حديثا فى الكلية. كان القسمان يتنافسان على الاستقلال بتدريس هذا المقرر ويقدم كل منهما الحجج لتأييد أحقيته به. لم يذكر من بين هذه الحجج ما يدره المقرر من كسب مالى، مع أن جميع الحاضرين والمناقشين كانوا يعرفون جيداً أن هذا هو السبب الوحيد لهذه المنافسة الحادة. وبعد أن استمرت المنافسة فترة طويلة دون أن يتنازل أحد القسمين عن موقفه، تجرأ أستاذ عجوز ممن لا ينتسب إلى هذا القسم أو ذاك، وممن رأوا عهدا ماضيا من عهود الجامعة فى مصر لم يكن للكسب المادى فيه هذه الأولوية العالية، بل كان الأساتذة فيه يتنافسون فى الأساس على أشياء أخرى غير المال، تجرأ هذا الأستاذ العجوز وسأل ببراءة عما إذا كان الأستاذان المتنافسان يجيدان اللغة الفرنسية التى سوف يدرس بها هذا المقرر. فإذا بنا نكتشف أن مستوى كل منهما فى هذه اللغة لا يسمح مطلقا بقيامهما بتدريس هذا المقرر. سألت نفسى عندئذ: «كيف سيكون حال هذه الكلية عندما يتوفى هذا الأستاذ العجوز وأمثاله ممن لا يزالون يتذكرون ماضيا أقل تعاسة؟».

حدث لي حادث أفظع يدور أيضًا حول الكسب المادي. إذ جاءني طالب من طلاب الدراسات العليا ليقول لي إن مدرسا في قسم آخر غير قسم الاقتصاد وزّع على الطلبة بعض المذكرات في الموضوع الذي يدرّسه، واقتضى من الطلاب مقابل ذلك ثمنا ليس هينا، وأن جزءا من هذه المذكرات، الذي يصل إلى نحو عشرين صفحة، والمكتوب عليه اسمه باعتباره مؤلفها، مأخوذ بالنص من كتابي الذي كنت أدرّسه في النظرية النقدية بعنوان (الاقتصاد القومي) لطلبة السنة الثانية من سنوات الليسانس، وهو كتاب معدّ لطلبة مبتدئين في دراسة الاقتصاد، ولم أكن أتصور أن يدرّس لطلبة الدراسات العليا، ناهيك أن يضع شخص آخر اسمه بدلا من اسمي باعتباره مؤلفه، ولا يشير إلى الكتاب المأخوذ منه ولو في هامش صغير.

ذهبت أشكو لرئيس القسم، فاهتم بما أقول وراعه ما حدث مثل ما راعني، وأحضر كتابي ومذكرات زميلي وقارن بينهما، واستقر رأيه على أن خطأ جسيما قد ارتكب، وقال لي إن شكواي في محلها وأن عليّ أن أطلب منه ما أريد وسيقوم بتنفيذه مهما كانت درجة شدته. عندما وصل الأمر إلى أسماع زميلي مرتكب الجرم جرى إليّ مستعطفا ومعتذرا وراجيا مني العفو عنه، وكان أهم ما كان يذكره لي ويكرره أملا في أن يحظى بهذا العفو هو أنه على استعداد لأن يقتسم معي الربح الذي حققه من توزيع هذه المذكرات بأي نسبة أقوم أنا بتحديدها. وقد صرفت النظر عن الأمر برمته، ولم أطلب شيئا لا منه ولا من رئيس القسم، وسرعان ما نسيت القصة كلها.

كانت هذه القصة متسقة تماما مع أشياء أخرى تحدث في الكلية. كان المجلس الأعلى للجامعات يعلن بين حين وآخر عن الشروط التي يجب توافرها في «الكتاب الجامعي»، أي الكتاب الذي يؤلفه أستاذ الجامعة لطلبته ويضطر الطلبة لشرائه سواء أعجبهم الكتاب أو لم يعجبهم، بما في ذلك سعر الكتاب بالنسبة إلى حجمه، وذلك منعا لاستغلال الأساتذة لطلابهم. ومع ذلك كان بعض الأساتذة يتحايلون على هذه القواعد فيزيدون حجم الكتاب كل سنة بلا مبرر إلا زيادة السعر. وكان الناشرون يتسابقون بالطبع على طبع هذه الكتب الجامعية المضمونة التوزيع، بينما

يحاول بعض الأساتذة أن يحتفظوا لأنفسهم بالربح الذى يعود على الناشر، بأن يقوموا بتوزيع الكتاب دون الحاجة إلى ناشر، فيكلفون موظفا بالكلية ببيع الكتاب لحسابهم.

وهكذا أصبح تأليف الكتاب الجامعى جزءاً أساسيًا من نشاط الأستاذ إذ يشكل ما يحصل عليه من إيراد من ورائه الجزء الأكبر من دخله. ولكن الموضوع المطلوب التأليف فيه قد يكون جديدا تماما على الأستاذ، فإذا به لا يشرع فى الكتابة إلا بعد بدء التدريس، ويطبع من الكتاب ملزمة بعد أخرى توزع على التلاميذ منفصلة، أسبوعا بعد آخر، قبل أن يعرف الأستاذ ما الذى يمكن أن تحتوى عليه الفصول التالية. ومن ثم شاع بين الطلاب تعبير الذهاب لشراء ملزمة أو ملازم بدلا من شراء كتاب أو كتب.

كان الملحوظ أيضًا أن إدارة الكلية تتوجس شرا من الطلبة والأساتذة والموظفين على السواء، فتحيط الامتحانات بعدد من الإجراءات التى تشبه الإجراءات البوليسية خوفا من ارتكاب أى عمل من أعمال الغش المحتملة وهى كثيرة. فالأستاذ يطلب منه أن يودع نسخة من الامتحان فى خزانة حديدية فى حجرة العميد، ولا يسلمها العميد للطباعة إلا فجر يوم الامتحان؛ فيجلس الأستاذ إلى جانب الكاتب على الآلة الكاتبة لطبع الامتحان قبل موعد الامتحان بساعات قليلة، وتحاط الحجرة التى تجرى فيها الطباعة بحراسة مشددة، خوفا من تسرب الأسئلة إلى أيدى الطلاب قبل بداية الامتحان. والامتحان نفسه يجرى فى خيمة كبيرة تتسع للآلاف المؤلفة من الطلاب، يراقبهم مدرسون منتدبون من بعض المدارس الثانوية ويحصلون مقابل هذا على جنيه أو جنيهين يضافان إلى مرتباتهم الزهيدة. ولكن إدارة الكلية كما أنها لا تثق بتاتا فى الطلبة، لا تثق أيضًا فى هؤلاء المدرسين المنتدبين، إذ إن ضعف مرتباتهم قد يغريهم بعقد اتفاق مع بعض الطلاب ينطوى على غض البصر عما يرتكبه الطالب من غش، فى مقابل مكافأة يحصل عليها المدرس خارج خيمة الامتحان. ولهذا فإن أساتذة ومدرسى الكلية يتولون مهمة مراقبة الراقبين، والتحقق من عدم عقد مثل هذه الاتفاقات. والأستاذ

الجامعى يجد المهمة عسيرة للغاية، فالأعداد غفيرة، والظروف التى يجرى فيها الامتحان صعبة، فالجو حار، والأرض متربة، والكراسى التى يمكن لهم الجلوس عليها قليلة وخطرة، إذ لم تدق فيها المسامير بالحرص الكافى، فأصبح الجالس عليها مهددا بخطر تمزيق ملابسه. والطلبة شديدو الجرأة ومستميتون فى محاولة الغش بهدف النجاح بأقل جهد يذكر. فهم يتفننون فى مغافلة المراقبين، ومراقبى المراقبين، فلا ينظر أحد المراقبين يسارا إلا ويشرع الطلبة الجالسون فى ناحية اليمين فى تبادل المعلومات بسرعة، وغالبيتهم يعتقدون أن الامتناع عن مساعدة زميل جاهل يتنافى مع مبادئ الشهامة والمروءة. وفى كل سنة يبتكر الطلاب طرقا جديدة للغش لم تكن معروفة من قبل. فتبادل علبة سجاير كتب على ظهرها بعض الإجابات تحل محله الكتابة بخط صغير للغاية على ورقة لا تكاد ترى، يقوم الطالب بابتلاعها بسرعة إذا حدث ورآه المراقب وهو ينقل المعلومات منها إلى ورقة الإجابة. فإذا سئل الطالب فى ذلك أنكر بشدة ارتكابه أى عمل من الأعمال التى رآه المراقب يمارسها، ويحلف بأغلظ الأيمان مؤكدا براءته، ولا يستطيع أحد، فى هذه الحالة، توقيع أى عقوبة عليه، إذ إن لائحة الجامعة تشترط لذلك توفر «الجسم المادى للجريمة»، أى الورقة التى تم منها النقل، وجسم الجريمة قد أصبح الآن داخل معدة الطالب وليس هناك طريقة لاستخراجه منها إلا بقتله. والطالب قد يذهب إلى المراقب زاعما أنه فى أمس الحاجة إلى الذهاب فوراً إلى دورة المياه وإلا حدث ما لا تحمد عقباه. فيحيله المراقب إلى عميد الكلية، إذ ليس من بين سلطات المراقب البت فى مثل هذه الأمور الخطيرة. والعميد قد يقبل أو يرفض بحسب تخمينه عن شخصية الطالب الذى يأتى إليه. فإذا قبل أرسل معه ساعيا من سعاة الكلية الذى تعهد إليه مسئولية مصاحبة الطالب كظله، والدخول معه إلى دورة المياه ثم العودة به دون أن يسمح له بإخراج أى ورقة من جيبه. ولكن سعاة الكلية فى حالة يرثى لها من الفقر، والإغراء الذى يتعرضون له بالسماح للطالب بأن يفعل ما يشاء فى مقابل رشوة صغيرة، هو إغراء أقوى حتى مما يتعرض له المدرس المنتدب من خارج الكلية. وعميد الكلية رجل حصيف متمرس بالحياة ويعرف جيداً قوة الإغراء الذى يتعرض له الساعى المسكين، فيصرّ قبل أن يسمح للطالب بالانصراف مع الساعى

على أن يفرغ جيوبه من كل ما فيها أو أن يبين للعميد أنها خالية من الأصل. ومن ثم كان من المناظر التى اعتدت رؤيتها فى هذه الخيمة العظيمة منظر الطالب وقد أخرج البطانة الداخلية لجيبى سرواله ليؤكد للعميد استحالة أن يكون لديه أى نية للغش.

أما الطالبات فكن يعتمدن أحيانا على خجل المراقبين والأساتذة فيقمن بكتابة المعلومات على الجزء العلوى من جواربهن الطويلة أو حتى على الساق نفسها، الأمر الذى يدهش معه المرء من العناء الذى يبذلنه من أجل النجاح فى الامتحان، ويجعله يتساءل عما إذا كان كل هذا العناء الذى يتحملنه فى تلخيص الكتاب، ثم كتابة الملخص على مكان من أجسامهن يصعب على المراقب رؤيته، هو أقل من عناء قراءة الكتاب وفهمه. فى مثل هذه الحالة تعتمد الكلية على بعض الموظفات العاملات بها إذ تعهد إليهن مهمة تفتيش الطالبة المشكوك فى أمرها، أو اصطحابها إلى حجرة خاصة يجرى فيها التأكد مما إذا كان المكتوب فى ورقة الإجابة مطابقا بحذافيره للمدوّن على ساق الطالبة.

حدث مرة وأنا أراقب الطلبة فى أحد هذه الامتحانات أن لمحت من بعيد طالبة ممتلئة الجسم يوحى منظرها بأنها تقوم بعمل تخاف من اكتشافه، إذ تتطلع بين الحين والآخر يسارا ويمينا كالعصفور الخائف، ولا ترانى وأنا أراقب حركاتها من بعيد. بالاقتراب قليلا من الخلف تأكدت من أنها تنقل الإجابة من ورقة صغيرة، فلما أحست بوجودى فجأة أسرعت بإخفاء هذه الورقة الصغيرة تحت ذقنها الممتلئ وضغطت عليها إلى أسفل لكى تبقى الورقة بين ذقنها وصدرها، دون أن تقع على الأرض فأعثر على «جسم الجريمة»، ولا يصبح بإمكانها إنكار واقعة الغش، وهو يؤدى عادة إلى فصلها من الكلية لمدة عام على الأقل وقد يصل إلى الفصل الكامل من الجامعة. واجهتها بما رأيتها تفعله فأنكرت، فطلبت منها أن ترفع رأسها إلى أعلى فكررت الإنكار وأبت أن تحرك رأسها مع أنها كانت فى وضع مضحك للغاية إذ تصر على إنكار الغش بينما رأسها يضغط على صدرها بشكل غير طبيعى بالمرة. وأخيرا وقعت الورقة واقتدتها مع ورقتها إلى العميد.

لابد أن أسرة الطالبة قد فعلت المستحيل فى ذلك اليوم لمحاولة معرفة اسم أى

شخص يمكن أن يتوسط لدىّ لإنقاذ الطالبة. فعثرتْ بعد ساعتين على زميل قديم لى كان يدرس فى جامعة لندن فى نفس الوقت الذى كنت أدرس فيه هناك، رجانى دون جدوى أن أصفح عن الفتاة، التى ظهر أنها إحدى قريباته، وكان من الواضح لى أنه يشعر بدهشة حقيقية من أن أصر هذا الإصرار على معاقبتها.

بعد انتهاء معركة الامتحانات كانت تحلّ معركة «الكنترول»، ولا أدرى سرّ استقرار هذا اللفظ الأجنبى واستخدامه دون غيره، حتى من جانب من لا يعرف كلمة أجنبية غيرها من موظفى الكلية، للإشارة إلى تلك الظاهرة التى يصعب أن تجد مثيلا لها فى أى دولة أخرى، على الأقل بالشكل الذى كانت تمارس به فى مصر. فالكنترول فى الجامعات المصرية يعنى تجميع وترتيب الآلاف المؤلفة من أوراق الإجابة، ثم إخفاء أسماء أصحابها وتدوين الأرقام السرية عليها، ثم توزيع الأوراق على المصححين فى بيوتهم فى ظل حراسة مشددة خوفا من ضياع أو سرقة إحدى الأوراق فتضطر الكلية، طبقا للقانون، لاعتبار صاحبها ناجحا. ثم متابعة المصححين حتى ينتهوا من أعمالهم فى الوقت المحدد، ثم نقل الأوراق من مصحح لآخر، إذ إن من الممنوع منعا باتا انفراد مصحح واحد بتصحيح الورقة كلها. فإذا انتهى التصحيح أحضرت الأوراق كلها، تحت حراسة مشددة أيضاً، إلى غرف تقع فى بدروم الكلية، وهى ذات أقفال ومفاتيح يستحيل تزييفها، وذات نوافذ عليها قضبان حديدية. وتخصص غرفة لكل سنة دراسية، ويجتمع ثمانية أو عشرة أساتذة ومدرسين فى كل من هذه الغرف ويحكمون إغلاق الغرفة من الداخل، ثم يبدأون عملية قاسية قد تستغرق شهرا كاملا، وتبدأ فى كل يوم من الثامنة صباحا وقد لا تنتهى إلا فى منتصف الليل. هذه العملية تتكون من الخطوات الآتية:

١ ـ مراجعة كل ورقة على حدة للتأكد من أن كل إجابة قد تم تصحيحها ولم يغفل المصحح تصحيح سؤال أو قراءة بضعة سطور فى صفحة من صفحات ورقة الإجابة، إذ يجب على المصحح، أثناء تصحيحه، أن يخط بقلمه على كل صفحة بل وكل فقرة ما يدل على أنه اطلع عليها.

٢ ـ إعادة جمع درجات الإجابة للتأكد من أن المصحح لم يخطئ فى الجمع.

٣ ـ رصد الدرجات فى كشوف .

٤ ـ إذا كانت الدرجة النهائية عشرين ودرجة النجاح عشرة يجرى رفع كل تسع درجات ونصف إلى عشرة رأفة بالطلاب .

٥ ـ إذا تبين أن الطالب حصل على درجة أقل من ١٠ ! ولكنها لا تقل عن ٨ ، فى مادة واحدة أو مادتين فقط ، ترفع الدرجة إلى عشرة ، رأفة بالطلاب .

٦ ـ ثم يُصنف الطلاب إلى طلاب ناجحين وطلاب راسبين (عليهم أن يعيدوا السنة الدراسية) وطلاب متخلفين (أى يمكنهم الانتقال إلى السنة التالية ولكن مع إعادة الامتحان فى علم أو علمين)، وطلاب تعرض حالاتهم على لجنة الرأفة ، التى تقرر ما إذا كانت درجة أو درجتان هنا أو هناك ، قد تؤدى بهم إلى استحقاق درجة أخرى هنا أو هناك ، مما قد يؤدى بهم فى النهاية إلى النجاح .

٧ ـ تأتى بعد كل هذا بالطبع إعادة الأرقام السرية إلى أصلها ، أى تحويل الأرقام إلى أسماء ، وذلك قبل عرض النتيجة على العميد لاعتمادها .

حدث مرة حينما كنت عضوا من أعضاء «كنترول» السنة الثالثة ، أن كان من بين الطالبات فى تلك السنة زوجة أستاذ من أساتذة الكلية ، قرّرت فى سن متأخرة أن تواصل دراستها التى كانت قد انقطعت عنها بالزواج المبكر . كان زوجها يخشى رسوبها فطلب سرا من أحد الأساتذة المسئولين عن الكنترول أن يحاول معرفة الدرجات التى حصلت عليها . كان هذا ممنوعا منعا باتا ، أن يعرف أحد درجات أحد التلاميذ قبل أن تعلن النتائج رسميا . ولبى الأستاذ طلب زميله فاكتشف هذا أن زوجته حصلت على ٩ درجات فى إحدى المواد ، وعلى أقل من ذلك فى مواد أخرى مما يؤدى حتما إلى رسوبها . لم يسكت الزوج ، فذهب إلى أستاذ المادة التى حصلت فيها زوجته على ٩ درجات وقال له : «ما ضرّه لو رفع كل تسعة إلى تسعة ونصف شفقة بالتلاميذ المساكين؟» كان هذا سيؤدى فى الواقع إلى إنجاح عدد كبير من الطلاب فى هذه المادة ما دامت «تسعة ونصف» تتحول تلقائيا إلى عشرة . فهم أستاذ المادة مقصده ولبى طلبه ، فرفع درجات كل التلاميذ فى هذه المادة لكى تستفيد

الزوجة ويتحول حالها من الرسوب إلى النجاح . تم هذا العمل المشين فى سرية تامة ، ولكن مدرسا صغيرا من المشتركين فى أعمال الكنترول ، عرف بما حدث فصعد لتوّه للعميد وأخبره بالأمر . ثار العميد ثورة عارمة ، وكان رجلا عفيفا وصارما فى نفس الوقت (الدكتور إسماعيل غانم) ، وأمر بإعادة الأمور كما كانت ورضخ الأستاذ الزوج مرغما ، واضطرت الزوجة إلى إعادة السنة الدراسية من جديد .

كنا فى هذه الفترة العصيبة ، فترة الكنترول ، نرسل بأحد السعاة ، إذا حل وقت الغذاء ، ليشترى لنا سندوتشات من الفول والطعمية من محل قريب اسمه (نجف) اشتهر بجودة طعامه ونظافته ، فيدفع كل منا ثمن سندوتشاته ، وإذا أراد المزيد من الرفاهية طلب من الساعى أن يشترى له قطعة أو قطعتين من البسبوسة من محل ملاصق له اسمه «الدتشيس» أى الدوقة ، اشتهر بدوره بجودة حلوياته . فإذا جلب الساعى هذا كله مع أكواب الشاى سادت السعادة الحجرة لبضع دقائق تبادلنا خلالها بعض النكات ، لنفرج عن أنفسنا من عناء الكنترول . ولكن أستاذا بالغ الكرم (هو د . حلمى مراد) كان يتبرع من حين لآخر بشراء كمية من الكباب والكفتة ، لجميع أعضاء الكنترول من ماله الخاص . فكانت سعادتنا تتضاعف ويتكرر خلال تناولنا الطعام تعبيرنا عن شديد امتناننا له وثناؤنا على أريحيته .

❁ ❁ ❁

كان الدكتور حلمى مراد ، من بين كل من عرفتهم فى كلية حقوق عين شمس ، أقربهم إلى قلبى ، وقد تأثرت تأثرا شديدًا عندما وصلنى خبر وفاته وشعرت كما لو كنت فقدت أبا أو أخا . وإلى جانب حلمى مراد أتذكر بإعزاز ومحبة رجلين آخرين ، أحدهما الدكتور إسماعيل غانم الذى شغل منصب العميد لفترة قصيرة أثناء وجودى بالكلية ، ثم صار مديرا للجامعة ثم وزيرا ، ثم عرفته عن قرب من جديد عندما جاء إلى الكويت ، بعد تركه الوزارة ليعمل فى نفس المؤسسة التى كنت أعمل فيها ، وهى الصندوق الكويتى للتنمية . ثم اكتشف مرضه بسرطان الرئة وتُوفى به قبل أن يبلغ الستين من عمره . والآخر هو عمّ عوض فراش قسم الاقتصاد .

أما الدكتور حلمى مراد فكان رجلا وسيما ذكيا، سليم التقدير للأشخاص والمواقف، وذا ترتيب صحيح فى رأيى للأولويات، فلا يبالى بتوافه الأمور ويعطى الأمور المهمة حقها. كان أيضًا لطيف المعشر مجاملا، لديه كلمة لطيفة يقولها لكل شخص دون أن يشوبها أى نفاق. كان هكذا مع تلاميذه وزملائه وخدمه وفراشى الكلية على السواء. ولكنى رأيته أيضًا صارما وحازما مع الرؤساء والعظماء، لا يهابهم ولا تغرّه مظاهر مناصبهم. كان يطبق ذلك القول المأثور «كل كلمتك وامض»، إذ كان ما يهمه، فيما لاحظت، أن يقول الحق بصرف النظر عن نتائجه. لا ينتظر الحصول على مكافأة على قوله، ومستعد لتحمل نتائج هذا القول ولو كانت قاسية. ولكنه كان أيضًا عذب القول، يستسيغ النكتة اللطيفة ويضحك لها ضحكة قصيرة ولكنها صافية، وكثيراً ما تختلط عبارات المجاملة التى يقولها بخيط رقيق من السخرية التى لا تجرح أحداً.

عرفته لأول مرة عندما كان مدرسا للاقتصاد والمالية بحقوق القاهرة وكنت أنا حينئذ تلميذا صغيرا فى السنة الأولى أو الثانية، ولكنى لم أكن قط تلميذا له، ولم أعرفه عن قرب إلا بعد نحو عشر سنوات عندما عدت فى إجازة إلى مصر أثناء بعثتى بإنجلترا وكنت قد حصلت لتوى على درجة الماجستير، وكان هو رئيس قسم الاقتصاد بحقوق عين شمس التى كنت حصلت على بعثها، ومن ثم كان من المقرر أن أعود للتدريس بها بعد انتهاء دراستى بإنجلترا. ذهبت إلى الكلية أثناء هذه الإجازة للتعرف عليها، ولأخبر من لم يعرف بحصولى على الماجستير من جامعة لندن، فخورا بنفسى ولا أعرف بعد مدى جهلى وضآلة شأنى. عاملنى حلمى مراد معاملة لطيفة للغاية وكأنه فهم شعور شاب فى السادسة والعشرين مليء بالطموح المبالغ فيه، ولا يعرف شيئا بعد عن حقيقة الجامعة المصرية أو المجتمع المصرى. دعانى للعشاء فى مطعم هادئ فى وسط البلد، كنوع من الاحتفال بحصولى على الماجستير، وصبر علىّ أثناء العشاء إذ رحت أسأله عما إذا كان قد قرأ هذا الكتاب أو ذاك، وأستغرب أنه لم يقرأه. وكان من بين هذه الكتب فيما أذكر، كتاب لباربارا ووتين (Barbara Wooton: Laments for Economics) تنتقد فيه علم الاقتصاد بشدة. لم أدرك أيضًا مدى كرمه معى إذ أعطانى ساعتين أو ثلاث ساعات من وقته

وعاملني هذه المعاملة اللطيفة، إذ اعتبرت مثل هذه الدعوة للعشاء عملا طبيعيا من رئيس للقسم لزميل جديد سوف ينضم للقسم بعد سنوات قليلة. ولم أقدّر هذا الكرم منه إلا بعد أن رأيت كثيرين غيره، من أساتذة الجامعة أو غيرهم، وكيف يعاملون زملاءهم الصغار وغيرهم أيضاً.

بعد عودتي من البعثة كثرت مناسبات لقاءاتنا، حتى بعد أن ترك هو حقوق عين شمس إلى مناصب أعلى، وخاصة في الندوات والمؤتمرات الكثيرة التي تتناول مشاكل مصر الاقتصادية والاجتماعية المختلفة، وكذلك في المجلس الأعلى للعلوم الاجتماعية أو في جمعية الاقتصاد والتشريع. أذكر مرة أنه قال لي تعليقا على أحد المؤتمرات التي كانت منعقدة وقتها تحت شعار إصلاح التعليم في مصر، وسط صخب كثير ودعاية واسعة، وساخرا من كل هذا الصخب والإنفاق على مؤتمر لا يرى أي داع له: «إنهم لو فتحوا أي درج في أي مكتب بوزارة التعليم، لابد أنهم سيجدون تقريرا فيه كل الإجراءات المطلوب عملها لإصلاح التعليم في مصر، دون أي حاجة لمؤتمر جديد».

كنت ألاحظ عليه، بعكس غيره من الأساتذة، إذا رأيته في كلية الحقوق أو في جمعية الاقتصاد والتشريع، أنه كثيراً ما يضع يده في جيبه ليخرج ورقة نقدية ليدسها في يد هذا الفراش أو ذاك، فيلهج الفراش بالثناء عليه ويدعو له بطول العمر، فإذا جاءه تلميذ يسأله عن كتاب له أعطاه له نسخة كهدية، وإذا همّ بركوب سيارته، يجلس بجوار السائق لا في المقعد الخلفي. كما كان كتابه المقرر على الطلبة أصغر الكتب الجامعية حجمًا، وأقلهم سعرًا.

ثم شهدته يتدرج نائبا لرئيس جامعة القاهرة، ثم رئيسا لها، ثم وزيرا للتعليم، في أعقاب هزيمة ١٩٦٧، عندما شكل عبد الناصر حكومة تضم بعض الرجال الذين يتمتعون بسمعة طيبة لدى الناس، من حيث النزاهة واستقلال الرأي. ثم تتبعناه جميعا وهو يقوم بنشاط غير عادي كوزير ويحاول الإصلاح بالفعل، حيث رضي غيره بترك كل شيء على ما هو عليه، ثم يستقيل، أو بالأحرى يجبر على الاستقالة، عندما يصبح الإصلاح مستحيلا. ولكنه لمع بوجه خاص عندما بدأ

يكتب تلك المقالات الرائعة فى جريدة الشعب منتقداً عيبا بعد آخر فى سياسة حكومات السادات المتعاقبة، وينبه إلى ضرورة الإصلاح فى مجال بعد آخر من مجالات حياتنا السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية.

كانت تعاودنى الدهشة كلما قرأت مقالا جديدا له، من كل هذه الصلابة التى تكسوها أقصى درجات الهدوء وهذا الأدب الجم. كان يبدأ المقال هادئا فيناقش أكثر الموضوعات سخونة مناقشة العالم الرصين. فيعدد الحجج التى تؤيد رأيه، ولا يبدو غاضبا أو ساخطا، وإنما يبدو فقط وكأنه فكر مليا فى الأمر وانتهى إلى هذا الرأى الذى يطرحه، فإذا بك وقد انتهيت من قراءة حججه قد استبد بك الغضب، وغلى الدم فى عروقك، وضربت كفا بكف متعجبا من أن كل هذه الحجج الواضحة كالشمس لم تلفت نظر أولى الأمر. وتعجب أيضًا من أن يؤدى هذا الهدوء التام وهذا التحليل المنطقى الرصين إلى كل هذه المشاعر الفياضة لدى القارئ، وكل هذا السخط على ما آل إليه الحال.

كان يبدو وكأن مجموعة من المبادئ الأخلاقية والقانونية استقرت فى ذهنه ولا يستطيع أن ينساها. هى فى نظره من البديهيات ويدهشه ألا يراها الناس كذلك. من هذه البديهيات مثلا أن الوزراء جميعا مسئولون مسئولية تضامنية عما يفعله بقية الوزراء ورئيس الوزراء. ليس هناك شخص أكبر من أن يقال له أخطأت إذا أخطأ. لا فائدة من جمع المال إذا جاء عن طريق غير شريف. حاجة الإنسان إلى المال هى فى الحقيقة محدودة، فحاجات الإنسان الحقيقية قليلة. لا يمكن أن يرفع المنصب الكبير شخصا صغيرا، ولا الخروج من المنصب يجعل الكبير صغيرا. إذا قمت بعمل لأن هذا هو ما أملاه عليك ضميرك فلن يزيدك شرفا إشادة الناس بعملك، ولن يقلل من شرفك أن أحدا لم يشد به أو يذكره. لا فائدة من الطنطنة وعلو الصوت فى قول الحق، لأن الحق واضح بنفسه، ولا يحتاج إلى مكبر للصوت.

وهكذا كان يفاجئنا الدكتور حلمى مراد، المرة بعد الأخرى، بمقال يذكر فيه الناس بأشياء كانت فى الماضى تعامل كبديهيات ثم نسيها الجميع، مثل: أن الجامعة مكان لتلقى العلم وتوصيله للناس وليس لتحقيق الربح، أو أن القرارات المهمة فى

حياة البلد يجب أن تعرض على الناس للمناقشة قبل اتخاذها، أو أن الوزير الذى يُعْطَى هدية من دولة أجنبية يجب ألا يحتفظ بهذه الهدية لنفسه بل عليه أن يسلمها للدولة لأنه لم يحصل عليها لشخصه بل بحكم منصبه، أو أن الوزير النظيف أفضل من الوزير غير النظيف، أو أن الزعم بالتصدى للفساد يتناقض مع تقييد حرية الصحافة.. إلى آخر هذه البديهيات التى يراها حلمى مراد واضحة كالشمس ويرفض القول بأنها من مخلفات الماضى وأن عليه أن ينساها.

عُرضت عليه الوزارة فى وقت عصيب (١٩٦٨) فقبلها لأن تقلد الوزارة فى رأيه خدمة عامة وفرصة للإصلاح لا يمكن أن ترفض، مع أن غيره ممن كان لهم مثل معدنه ومزاجه وزهده رفضوا الوزارة إيثارا للهدوء والسلامة. قبل الوزارة وهو يعرف فى قرارة نفسه أنه لن يعمّر فيها طويلا. وقبله خرج من الوزارة فتحى رضوان الذى له نفس معدن حلمى مراد ونزاهته وصلابته، لأسباب شبيهة جدًا بالأسباب التى أخرجت حلمى مراد من الوزارة. والذى عينه وزيرا كان أقوى رجل فى مصر، لم تشهد مصر فى تاريخها الحديث من كان يثير الرهبة والخوف مثله. فرأى حلمى مراد أحد الوزراء، وهو وزير العدل، يتصرف على نحو لا يرضى حلمى مراد عنه، إذ أخرج الكثير من القضاة من مناصبهم ظلما وتملقا لصاحب السلطة. فاعترض حلمى مراد وهو وزير التعليم، فسأله عبد الناصر باستغراب شديد عما يجره إلى التدخل فيما لا يعنيه، على أساس أنه وزير التعليم وهذا أمر يتعلق بالقضاء ووزارة العدل. سمعنا وقتها أن جمال عبد الناصر - فى هذه المناسبة، أو فى مناسبة أخرى تكلم فيها أيضًا حلمى مراد بما لا يعجبه - أغلق الملف الذى أمامه وخرج من مجلس الوزراء غاضبا. وفسر حلمى مراد هذا الذى حدث، التفسير الصحيح، وهو أنه دليل على أن رئيس السلطة التنفيذية الذى اختاره وزيرا لم يعد راضيا عنه، وأن عليه بناء على ذلك، واحتراما لنفسه أيضًا، أن يقدم استقالته. ولكن المسألة لم تكن بهذه البساطة، فالخروج من الوزارة لم يكن بسهولة الدخول فيها، والعصر لم يكن عصر استقالات، بل إن من يختلف مع الرئيس لم يكن يسمح له بالاستقالة، بل يجب أن ينتظر حتى يصدر قرار بإقالته، فلا يتمتع بشرف ممارسة حق الاعتراض والاستقالة.

الأكثر مدعاة للإعجاب هو تصرف حلمى مراد بعد ذلك، فإنه لم يحاول قط، طوال العشرين عاما التى تلت هذا الحادث، أن يستغله لصالحه، مع أن هذا كان من أسهل الأمور بعد أن انقلب كل شيء بعد وفاة عبد الناصر رأسا على عقب. لم يخطر ببال حلمى مراد قط أن يستغل هذا الحادث للتقرب من الحكام الجدد، بل ولا أذكر أنه قال أى شيء يتضمن افتخارا أو زهوا بموقفه وشجاعته. كل ما صنعه أنه كلما حاول أحد أن يصور هذا الحادث على غير حقيقته، رد عليه حلمى مراد بهدوء كامل، وإيجاز شديد يتفق مع نفوره الشديد من أن يفاخر بتصرف بدا له بديهيا وطبيعيا تماما.

كان رجلا مستقيما بأجمل معانى هذه الكلمة، وكان ما رأيته من مواقفه من السلطة وحيرة السلطة معه يذكرنى بالمثل العامى الجميل «امش دوغرى يحتار عدوك فيك». ولكن هذه الاستقامة كانت تبدو لى أيضًا وكأنها لا تكلفه أى جهد، ومن ثم كان يبدو لى دائما سعيداً وراضيًا تمامًا عن نفسه فكيف «لا يحتار عدوّه فيه؟» إذ ما الذى كان يمكن تقديمه لحلمى مراد كوسيلة لإغرائه؟ وما الذى كان يمكن أن يصنع لإخافته؟

* * *

أما الدكتور إسماعيل غانم فلا أستطيع أن أزعم أن علاقتى به كانت علاقة صداقة حميمة، ومع ذلك فإنه من الأشخاص الذين لا أكف من حين لآخر عن تذكرهم رغم مرور أكثر من ربع قرن على وفاته، ولا أتذكره دون أن أشعر بالأسف لفقده.

كانت بداية معرفتى به بسبب علاقة رسمية بحتة، فقد كان أستاذا فى حقوق عين شمس عندما التحقت بها مدرسا صغيرا. كان يكبرنى بنحو اثنى عشر عاما، وقد دهشت دهشة عظيمة عندما رأيته لأول مرة. كان اسمه يتردد ذكره فى هوامش كتب القانون المدنى وأنا تلميذ فى كلية الحقوق، فاستقر فى ذهنى أنه أستاذ قديم عجوز، كما يتصور الشخص عادة شخصا مشهورا لا يكف اسمه عن التردد فى الصحف والكتب. فإذا بى أجد أمامى «شابا» فى مطلع الأربعينات، وسيما نحيفا ورقيقا، ثم وجدته رجلا عصريا متزوجا من هولندية ومواظبا على قراءة المجلات والصحف

الأجنبية، وشديد الاهتمام بالخلافات الأيديولوجية بين اليسار المصرى واليمين، مما كان لا يتسق مع الصورة التى أحملها فى ذهنى للقانون المدنى الذى كان يثير فى نفسى معنى التزمت بل وثقل الدم.

لم يمض أكثر من عامين أو ثلاثة على التحاقى مدرسا بالكلية حتى عين إسماعيل غانم عميدا لها، فارتاح الجميع لتعيينه، إذ كان إسماعيل غانم يتمتع بالاحترام المختلط بالحب من الجميع، ولم أسمع تلميذا من تلاميذه يتكلم عنه دون أن يشيد بفضله وكفاءته كمحاضر. كنت أشاهده أيضا وهو يراقب التلاميذ فى الامتحان. تلك الخيمة الهائلة التى تضم الآلاف المؤلفة من الطلبة، فلفت نظرى نفاد صبره مع من يحاول الغش، إذ يغلى دمه ويروح ويجىء فى عصبية ظاهرة فى محاولة مستميتة لمنع الغش، بينما يميل معظم الأساتذة إلى إراحة أنفسهم بترك مسئولية المراقبة إلى المدرسين المعينين من المدارس الثانوية، ويشغلون فى الحديث مع زملائهم أو فى تصحيح بروفات كتبهم.

بدا لى إذن من البداية أنه من نوع مختلف. وقد تأكد لى ذلك على مر الأيام. فمنذ شغل منصب العمادة حاول أن يرسى بعض التقاليد الخاصة التى كان يأسف على ضياعها. وحاول أن يبدأ العام الدراسى بإدخال نوع من المراسم تكسب الدراسة الجامعية بعض القداسة المفقودة، بأن يدخل العميد فى صحبة الأستاذ إلى المدرج، فى أول محاضرة لكل أستاذ، وكلاهما يرتدى الروب الجامعى، فيقدم الأستاذ للتلاميذ ويحثهم على الجدية والانضباط.

كان هذا فى ١٩٦٦، وكان عاما كئيبا فى تاريخ السياسة المصرية دشّن فترة طويلة من أكثر فترات التاريخ المصرى كآبة، ولكننا لم نكن ندرك ذلك بعد. كان من أكثر أعوام الناصرية شدة فى النظام البوليسى وتقييد الحريات. وكانت الاشتراكية العربية قد أصبحت مقررا مفروضا على جميع الكليات الجامعية، حتى الطب والهندسة، وكنت أقوم بتدريسها فى كلية الحقوق بمحض اختيارى، حيث كنت أعتبر نفسى اشتراكيا ولدىّ ما أقوله فى الأمر. كان إسماعيل غانم بدون شك ذا ميول اشتراكية حقيقية أيضًا، وذا علاقات قوية ببعض اليساريين المصريين دون أن يكون له نشاط

سياسي فعّال أو عضواً في أي من الحركات اليسارية. وكان لا يطيق بعض الأساتذة الذين كانوا يتظاهرون بأنهم ذوو ميول دينية والذين كان إسماعيل غانم يرى فيهم، بحق، نفاقا يخفون به نوازع تجارية ومادية بحتة.

ثم حدثت هزيمة ١٩٦٧، وكان شعورنا بمهانة الهزيمة شعورا يمزّق النفس، أساتذة وطلاّبا. ولم تمض بضعة شهور على الهزيمة حتى اشتعلت الجامعة بالإضرابات، فاضطر عبد الناصر إلى إغلاق الجامعات، وأصدر أثناء هذا الإغلاق بيانا اشتهر باسم «بيان ٣٠ مارس» في محاولة للتهدئة وبعث بعض الأمل في الناس في أن ثمة تغيرا سيحدث في طريقة الحكم. ثم أعلن أن الجامعات سوف تفتح يوم السبت، ودعت كل كلية أساتذتها للاجتماع قبيل إعادة فتح الجامعات، بتوجيه من الحكومة، لتلقن الأساتذة طريقة تعاملهم مع الطلبة وضرورة قيامهم بتهدئة التلاميذ والمحافظة على النظام. كان الأمر يبدو لي داعيا للرثاء والغضب. فبيان ٣٠ مارس بدا لي مجرد حيلة مكشوفة لامتصاص غضب الناس، وأنه لا يقصد به أي تغيير جدي. كما بدت لي تلك الاجتماعات مع الأساتذة مجرد مثل جديد لمحاولة الحكومة إرهاب الأساتذة وضمان سكوتهم عن الحق.

كان إسماعيل غانم لا يزال عميدا للكلية عندما وصلتني دعوته إلى حضور الاجتماع. فقررت بلا تردد عدم الذهاب. وكان غيابي عن الاجتماع كافيا لإثارته عليّ ثورة عظيمة. فدعاني للذهاب من البيت إلى مكتبه على الفور، وإذا بي أجده يعاملني معاملة العميد لواحد من المدرسين وقد نسي كل شيء، العلاقة الشخصية والظروف السياسية، ولا يسيطر على ذهنه إلا أمر واحد: مدرس بالكلية تخلف عن حضور اجتماع دعا إليه العميد. كنت بدوري في ثورة على طريقة معاملة إدارة الجامعة للأساتذة، وبررت غيابي بأني كنت أعرف بالضبط سبب الاجتماع، وهو إصدار الأوامر إلينا عن طريقة التعامل المطلوبة مع الطلبة، وأني أرفض ذلك، وأردفت قائلا: «إننا لم نعد قادرين على النظر إلى طلبتنا وجها لوجه». وفوجئت بردّه العفوي الذي يبين إخلاصه وصدقه «هوّه أنت لوحدك يا أخي اللي مش قادر تواجه عيون الطلبة، ما كلنا عندنا نفس الشعور؟».

كان فى حجرة العميد شخص آخر يحاول التهدئة، هو الدكتور محمد حافظ غانم، وكان وقتها وكيلا للكلية. ودق التليفون أثناء المشادة، فالتقط العميد السماعة وانتحى بى الدكتور حافظ غانم جانبا محاولا إقناعى بعدم الاسترسال فى مناقشة العميد. وإذا بصوت العميد وهو يتحدث فى التليفون يبدو عليه فجأة الاهتمام الشديد، ثم يدعو الدكتور حافظ غانم إلى التقاط السماعة إذ إن المكالمة له، والمتكلم من رئاسة الجمهورية.

كان عبد الناصر وقتها يشكل وزارة جديدة يحاول أن يدخل فيها بعض الأسماء الجديدة التى تتمتع بشعبية وبتقدير عام، ومن المعروفين بالنزاهة والاستقامة واستقلال الرأى، حتى ولو كان فى استقلالهم ما يهدد انفراده بالرأى، فى محاولة منه لتهدئة الرأى العام، وكانت هذه الفكرة هى التى أدت إلى دخول الدكتور حلمى مراد إلى الوزارة لأول مرة. كانت هذه الفكرة أيضا السبب فى هذه المكالمة التليفونية التى تمت فى مكتب إسماعيل غانم أثناء وجودى به. وقد تناقل الناس بعد ذلك قصة طريفة أعتقد أنها صحيحة، وهى أن عبد الناصر أثناء اختياره للوزراء الجدد عبّر عن رغبته فى أن يدخل الوزارة «غانم بتاع الحقوق»، دون أن يلتفت إلى أن فى كلية الحقوق غانمين وليس غانما واحدا، العميد والوكيل. وأغلب الظن أنه كان يقصد إسماعيل غانم، فهو، وليس الدكتور حافظ غانم، المعروف بميوله الاشتراكية وباستقلاله فى الرأى. ولكن لسبب ما عرضت الوزارة على الوكيل دون العميد، وشاهدت الدكتور حافظ غانم يتناول السماعة مرتعش اليد ثم يرتعش صوته وهو يسأل المتكلم عن طريقة الدخول إلى القصر الجمهورى. كان هذا الخطأ، إذا صحت الرواية، هو السبب فى وجود الدكتور حافظ غانم لنحو عشرة أعوام فى أعلى مستويات السلطة، فقد تنقل من وزارة لأخرى، ومن عهد عبد الناصر إلى عهد السادات، وانتهى به الأمر إلى أن يصبح المسئول الأول عن الاتحاد الاشتراكى، دون أن يترك فى الواقع أى أثر على الحياة السياسية للبلاد، فقد عرفت عنه الطاعة التامة للممسكين الحقيقيين بزمام الحكم.

أما إسماعيل غانم فقد ترقى فى عهد عبد الناصر من عميد للكلية إلى وكيل ثم

مدير الجامعة عين شمس، وكان شعورى وقتها أنه أكبر بكثير من أن يشغل هذه المناصب الإدارية مهما كان شأنها، فى وقت كان يستحيل على شخص يرغب رغبة حقيقية فى الإصلاح، مثل إسماعيل غانم، أن يكون له أثر يذكر فى ظل سيطرة المباحث العامة والمخابرات وقبضة عبد الناصر ورجاله الحديدية. وقد قلت له مثل ذلك عندما ذهبت لتهنئته فى مكتبه عند تعيينه وكيلا للجامعة، فكان رده أنه كان يتوقع بالطبع أنى سأقول مثل هذا الكلام. كان الرجل يعتقد مخلصا أنه أيا كان اعتراضنا على النظام الذى تدار به البلد فإن علينا ألا نرفض أية فرصة تتاح لنا للإصلاح «من الداخل»، وأن عملا واحدا إيجابيا يقوم به فى موقع هام أفضل مائة مرة من الاكتفاء بنقد النظام من خارجه، ثم القول بتشف فيما بعد «ألم أقل لكم؟». وربما كان الرجل على صواب، ولكن من المؤكد أنه هو نفسه اضطر إلى العدول عن رأيه مع تكرار خيبة الأمل، المرة بعد الأخرى.

حدثت وهو وكيل للجامعة حادثة ذات مغزى، إذ تلقى بعض الضوء على طبيعة النظام فى السنوات الأخيرة من عهد عبد الناصر، وعلى شخصية إسماعيل غانم. كانت الحكومة لا تزال مصرة على تدريس مقرر الاشتراكية العربية وبقية المقررات التى سميت بـ «القومية»، كالمجتمع العربى والنظام التعاونى. وكنت قد قمت بتدريس الاشتراكية العربية فى كلية الحقوق خلال السنوات الثلاث السابقة على حرب ١٩٦٧. ثم حدثت الهزيمة ولم أعد أتصور أن أدخل إلى المدرج لأحاضر التلاميذ عن مزايا الاشتراكية، فى وقت كان قد استقر شعورى مع عدد غفير من الناس على أنه لا صلاح للبلد إذا استمر نظام عبد الناصر فى ديكتاتوريته. كان إسماعيل غانم عضوا فى اللجنة التى تختار القائمين بتدريس المقررات القومية. وقررت اللجنة أن أقوم بتدريس الاشتراكية فى كليتين أخريين غير كلية الحقوق، ولكنى اعتذرت عن تدريسها فى الكليات جميعا، بما فى ذلك كليتى. وأذكر أن إسماعيل غانم سألنى وقتها موبخًا عن سبب اعتذارى، فقلت «لأسباب أيديولوجية». ولم تعجبه الإجابة ولكنه لم يحاول إقناعى.

تحولت قصة إسماعيل غانم إلى ما يشبه الكوميديا فى عصر السادات بعد أيام

عبد الناصر الدرامية، وقبل أن تنتهي حياته فجأة نهاية مأساوية في الكويت. ففي سنوات السادات الأولى، التي كان ما زال خلالها يستعين ببعض ذوي الكفاءة والإخلاص، عين إسماعيل غانم وزيرا للثقافة. وقضى الرجل بضعة شهور يدرس شئون الوزارة حتى اكتشف أن حجم الفساد فيها، وألاعيب الممثلين والممثلات في تعاملهم مع القطاع العام، أكبر بكثير من قدرته على الإصلاح، فذهب إلى السادات طالبا إعفاءه من الوزارة وإعادته إلى الجامعة. فقبل السادات وعينه مديرا لجامعة عين شمس. وظن إسماعيل غانم أنه بذلك يعود إلى مكان يمكنه فيه أن يمارس بعض الاستقلال، فإذا بزميل قديم له في كلية الحقوق، يتمتع باحتقاره واحتقار غيره، يعيّن وزيرا للتعليم العالي ويرأس بذلك المجلس الأعلى للجامعات مما يشل إسماعيل غانم وغيره من مديري الجامعات ويضيع أي فرصة لإصلاح الجامعة. فلما عرض على إسماعيل غانم بعد سنوات قليلة أن يشغل هو منصب وزير التعليم العالي لم يتردد في قبوله، إذ رأى، على حد قوله لي، أن من الأهون عليه أن يكون هو الوزير من أن يخضع لرئاسة وزير أهوج لا يحمل له أي احترام. على أن هذه أيضاً لم تدم طويلا، إذ سرعان ما تبين له من جديد استحالة تعاونه مع الحكومة، فاستغنت الحكومة عن خدماته وعاد من جديد أستاذا في كلية الحقوق. سألته مرة عن سبب غضب الحكومة عليه وتركه الوزارة نهائيا فروى لنا عددا من القصص من بينها القصة التالية التي يستحيل عليّ نسيانها

كان يجلس في مكتبه، وزيرا للتعليم العالي، وقد بدأ يحس بعدم ارتياح «الجهات العليا» له بما في ذلك وزير الداخلية الذي كان يساوره الشك في أن إسماعيل غانم يحمل اتجاهات يسارية أكثر من اللازم، وليس صارما بالدرجة اللازمة مع الطلبة الثائرين ضد الحكم. واتصل به تليفونيا وكيله القديم الدكتور حافظ غانم الذي كان قد أصبح مسئولا عن الاتحاد الاشتراكي يخبره عن اجتماع سوف يجري عقده بين قرينة الرئيس وبين العلماء المصريين في الخارج الذين جاءوا إلى مؤتمر في مصر. وحاول إسماعيل غانم الاعتذار عن حضور الاجتماع فقال حافظ غانم إن هذا مستحيل وهو وزير التعليم. وذهب الوزير على مضض إلى الاجتماع حيث استمع إلى السيدة جيهان السادات تحكي للعلماء المصريين قصة

دارت بينها وبين هنرى كيسنجر. كانت تخبرهم بافتخار شديد كيف أنها استطاعت بمهارة الحصول من هنرى كيسنجر على تبرع ببضعة ملايين من الدولارات لمؤسسة الوفاء والأمل، إذ قالت لكيسنجر إن مساعدة أمريكا لإسرائيل خلال حرب ١٩٧٣ قد كلفتها الكثير بسبب كثرة عدد المعوقين، فإذا بكيسنجر يرسل لها، بمجرد عودته إلى أمريكا، شيكا ببضعة ملايين من الدولارات. شعر إسماعيل غانم بالاشمئزاز الشديد، ولكنه لم يستطع أن ينبس بحرف، بل اكتفى بأن طأطأ رأسه ناظرا إلى الأرض. ثم رفع رأسه لينظر كيف كان وقع القصة على الحاضرين فإذا به يجد الجميع يبتسمون ابتسامات عريضة، يعبرون بها عن إعجابهم الشديد بمهارة السيدة جيهان ووطنيتها. ولكنه لمح أيضًا وجه السيدة جيهان الذى تبين منه أنها لاحظت أنه لم يشعر بنفس الإعجاب الذى يشعر به الباقون. بل زاد الطين بلة أنه ما إن تغير الموضوع وبدأت مناقشة مشكلات العلماء المصريين بالخارج حتى انفجر إسماعيل غانم ثائرا على أحد الآراء المطروحة، مفرّجا بذلك عن شعوره بالغضب عما كانت تقوله زوجة الرئيس منذ لحظات، وإن اتجه بغضبه اتجاها مختلفا تمامًا. ساء ذلك أيضًا قرينة الرئيس إذ تسببت ثورته فى تعكير صفو الاجتماع الذى كانت ترعاه وتشمله بعطفها.

سألته أيضًا ضاحكًا عما إذا كان لمنصب الوزارة أية ميزة كانت تكفى لأن يتمسك به. قال إن لمنصب الوزير ميزتين وحيدتين. الأولى: تتعلق «بالنطاط». إذ يخصص لكل وزير، عدا السيارة أو السيارتين الحكوميتين، والسائق الخصوصى، شخص آخر يعرف بـ«النطاط»، وهو شخص يجلس إلى جوار السائق وتنحصر مهمته فى القفز من السيارة قبل وقوفها لكى يفتح للوزير الباب. قال إن هذا النطاط مع ذلك سبب له مشكلة. فقد استهجن إسماعيل غانم بشدة أن تكون هذه هى كل مهمة الرجل فقرر أن يستفيد منه على أى نحو آخر. كانت زوجة الوزير دائمة الشكوى من أنها لا تستطيع الحصول على زبد، فخطر له أن يكلف النطاط بشرائه، فيوفر على زوجته عناء الوقوف فى طابور الجمعية. طلب الوزير إذن من النطاط أن يذهب ليبحث له عن زبد ثم صعد إلى مكتبه. فإذا بالتليفون يدق بعد ساعة فى مكتبه وإذا بالمتحدث مدير مكتب وزير التموين مستفسرا من وزير التعليم العالى «كم كيلو من الزبد بالضبط يريد؟».

قال إن هناك ميزة أخرى لمنصب الوزير لا يمكن التهوين من أمرها. ذلك إنه بجلوس الوزير فى قاعة اجتماعات مجلس الوزراء، وقبل أن يدخل رئيس الوزراء، كثيرا ما يأتى موظف إلى الوزير فينحنى هامسا فى إذنه ليخبره بآخر ما وصل إلى الجمعية التعاونية من سلع، للوزير الأولوية فى الحصول عليها، وكان آخر ما يذكره هو شحنة من البطاطين الصينية كانت قد أرسلت كجزء من معونة صينية لبعض المحتاجين فى مصر، فإذا بالموظف يسأله عما إذا كان الوزير يرغب فى إرسال بعضها إلى بيته.

لم يتحمل إسماعيل غانم طويلا العودة كأستاذ فى كلية الحقوق، هذا المنصب الرفيع الذى كنا جميعا نعتبره أسمى من أى منصب آخر، وهو بالفعل كذلك حتى يمر المرء بتجربة مثل تجربة إسماعيل غانم. لم أمرّ أنا بمثل هذه التجربة، ولكنى أستطيع أن أتصور شعور رجل وصل إلى أعلى المناصب وأصبح بهذه الدرجة من القرب من مركز اتخاذ القرارات ثم يتبين عجزه عن القيام بأى إصلاح. بعد هذا قد يبدو له الاستمرار فى التدريس والبحث من قبيل العبث، إذ ألم يكن الهدف من التدريس والبحث هو الإصلاح فى النهاية؟ فما جدوى هذا كله إذا كانت فرصة الإصلاح غير موجودة أصلا؟ لقد قابلت وزيرا يمنيا سابقا مرّ بمثل هذه التجربة ثم أدمن الخمر، ولكن الأكثر حدوثا هو أن يبحث الرجل المصاب بخيبة الأمل عن وظيفة مربحة عالية الدخل وقليلة المسئوليات. هكذا قبل إسماعيل غانم وظيفة مستشار قانونى بالكويت، وهو آخر من كنت أتصور أن يقبل مثل هذه الوظيفة. ولكنى فوجئت يوما وأنا أعمل مستشارا اقتصاديا بالصندوق الكويتى بإسماعيل غانم، يأتى لينضم إلينا فى عمل لا يتطلب جهداً كبيراً ولا ألمعية زائدة، ولكنه مجز ماديا. كان هذا فى نظرى، بالنسبة لرجل مثله وفى مثل سنه، عملا من أعمال الاستسلام وإعلانا لليأس.

لم تمض ستة أو سبعة شهور على التحاق إسماعيل غانم بالصندوق الكويتى حتى اكتشف أنه مريض بسرطان الرئة، وذهب إلى نيويورك للعلاج ولكنه لم يدم طويلا. وبلغنا فى الكويت نبأ وفاته على بعد آلاف الأميال من وطنه الذى بذل كل جهده فى أن يفعل شيئا من أجله فلم يفلح.

* * *

الشخص الآخر الذى أحببته حبا جما ممن تعرفت عليهم فى كلية الحقوق كان عم عوض الساعى النوبى فى قسم الاقتصاد. كان يكبرنى بنحو عشرة أعوام، نحيفا وذا بشرة حالكة السواد. وكان يبش دائما لرؤيتى بل كان بشوشا على الدوام. لا أذكر أنى رأيته يوما متجهما ولا أنه شكا لى من شىء. كان ككل النوبيين الذين صادفتهم فى حياتى قنوعا، لا يسرف لا فى الأكل ولا فى الكلام. إذا وقع حادث سياسى هاج له طلبة الكلية وماجوا، لم يكن عم عوض يعلق عليه بأكثر من جملة صغيرة يعبر بها عن عجبه لما يحدث وقلة فائدته. ولكنى لم أشعر قط، مثلما كنت أشعر مع غيره، بأن امتناعه عن الكلام كان سببه الخوف، بل كان سببه مجرد إدراكه التام لقلة حيلته، وقلة حيلتنا جميعا، واعتقاده الجازم بأنه لا جدوى من كل ما نصنع أو نقول. اعتاد منى، كلما جاء إلى بيتى لعمل من أعمال الكلية أن أعطيه مجموعة من الملابس القديمة، فكان يقبلها بسرور ولكن دون أن يطيل عبارات الشكر مثلما كان يفعل غيره. كنت كلما غبت عن الكلية لمدة طويلة ثم أذهب إليها متشوقا إلى استعادة ذكريات الماضى، أسأل أول ما أسأل عن عم عوض. فلما قيل لى مرة «تعيش أنت»، كما كان لابد أن أتوقع أن يحدث يوما ما، شعرت بأن سببا مهما من الأسباب القليلة لذهابى إلى الكلية قد فُقد.

(١٣)

الكـويـت

ـ ١ ـ

فى أوائل سنة ١٩٧٣ دعيت للاشتراك فى مؤتمر الاقتصاديين العرب بالكويت، وإلقاء تعليق فيه عن التخطيط فى البلاد العربية كتبه الدكتور يوسف صايغ.

كانت هذه هى أول زيارة لى للكويت، وكانت الكويت فى تلك الأيام تتمتع بجاذبية شديدة لبقية العرب، بمن فيهم المثقفون. ذهب للعمل فيها بعض من كبار المثقفين العرب، وحققت مجلتها الشهرية «العربى» سمعة طيبة تحت إدارة مثقف مصرى كبير كان مديرا سابقا لجامعة القاهرة (الدكتور أحمد زكى)، وما كان أكثر ما يعقد فى الكويت من مؤتمرات وندوات عن مستقبل العرب وموقفهم من الحضارة الغربية.. إلخ. وإلى جانب هذا كان هناك بالطبع الرخاء الشديد مع السخاء فى الإنفاق.

كان المؤتمر جيد الإعداد، وكان الإنفاق عليه سخيا أيضًا، فحضره عدد كبير جدا من صفوة المثقفين والجامعيين العرب، وحظى بتغطية إعلامية واسعة تزيد حتى على ما تحظى به أمثال هذه المؤتمرات فى دولة صغيرة كالكويت.

استقبل تعليقى استقبالا طيبا للغاية، وفاق توقعاتى، ثم فوجئت بالدكتور زكريا نصر الذى كان يعمل وقتها فى الكويت رئيسا لقسم البحوث فى الصندوق الكويتى، يبلغنى عرضا من رئيس هذا الصندوق، عبد اللطيف الحمد، بالمجىء للعمل بالصندوق.

جاءنى هذا العرض فى يناير أو فبراير ١٩٧٣، فى أعقاب حماس وثناء شديدين

استقبلت بهما كلمتى فى مؤتمر الاقتصاديين، مما ضاعف من تقديرى لنفسى وأثار فىّ غرورا جعلنى أرفض العرض بإباء وشمم، رغم إلحاح حامله علىّ بالقبول، ومحاولة قوية من جانبه لتزيين الحياة فى الكويت فى نظرى. كان هذا الرفض يعتبر مدهشا جدًا لكل من سمعه، إذ كان المرتب الذى يحصل عليه المرء، فى مثل هذه الحالة، أضعاف ما يحصل عليه مثلى فى مصر، وكان أساتذة الجامعة المصريون يتكالبون على الحصول على أقل منه، إذ كانت المرتبات التى يدفعها الصندوق الكويتى أكثر بكثير من مرتبات جامعة الكويت، والعمل فيه تحيطه هالة من التبجيل لا يحققها العمل فى معظم المؤسسات الكويتية الأخرى.

لم تمض أكثر من ثمانية أشهر حتى تغير موقفى من هذا العرض تغيرًا تامًا. ففى أكتوبر قامت الحرب الشهيرة. وعلى الرغم من شدة التهليل الذى صاحبها لما اعتبر انتصارا عسكريا، أصابنى غم شديد بعد أقل من أسبوعين من قيامها، عندما رأيت موقف السادات وإعلان رغبته فى السلام، وبدا لى أن هناك خطة محكمة لدفع مصر دفعا إلى التصالح مع إسرائيل. وهو اعتقاد أكدته فى نظرى الاتفاقيات المتتالية التى عقدتها مصر مع إسرائيل حتى مقتل السادات فى ١٩٨١.

عندما أتذكر الآن كيف اشتدت رغبتى فى الذهاب للعمل بالكويت فى الشهور الأخيرة من ١٩٧٣، حتى كنت أرسل البرقية تلو الأخرى أستعجل الصندوق الكويتى فى إرسال تفاصيل العرض الذى يعرضونه علىّ، وأحثهم على ترتيب إجراءات سفرى إلى الكويت، عندما أتذكر ذلك لا أستطيع تفسير ما طرأ على موقفى من السفر للعمل فى الكويت إلا بعاملين: زوال ذلك الشعور المؤقت الذى سيطر علىّ خلال أيام مؤتمر الاقتصاديين فى الكويت، بالمبالغة فى قدر نفسى، وشعورى بالإحباط الشديد لما طرأ على الموقف السياسى المصرى فيما يتعلق بعلاقة مصر وإسرائيل.

وصلنى العرض المكتوب من الصندوق الكويتى بعد إلحاحى فى استعجاله، وما أسرع ما أنهيت إجراءات السفر فى مصر واعتذرت عن التدريس فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة خلال النصف الثانى من العام، حيث كنت قد انتدبت للتدريس

بها فى ذلك العام الدراسى، وأتممت واجباتى على عجل فى كلية حقوق عين شمس، التى كنت أدرس فيها مقررا فى التجارة الخارجية بالإنجليزية، دون حتى أن أخطر العميد أو مدير الجامعة أو أى شخص آخر بنيتى فى السفر. كان عزمى قد انعقد على السفر، ولم أكن أتوقع بالمرة أن توافق جامعة عين شمس على إعارتى للصندوق الكويتى، إذ لم تكن شروط هذه الإعارة متوافرة فى حالتى فى ذلك الوقت. ووطنت نفسى على الاستقالة إذا لزم الأمر. عرضت علىّ الجامعة الأمريكية زيادة مرتبى إذا قررت البقاء، فأجبت بأن من المستحيل على الجامعة أن تعطينى مرتبا ينافس المرتب الذى سأحصل عليه فى الكويت. وسافرت فرحا متفائلا بهذه التجربة الجديدة تماما علىّ، والتى كنت متلهفا على تذوقها ومعرفة كنهها، ورتبت مع زوجتى كيف تلحق بى فى الكويت هى وأطفالى الثلاثة، بعد أن أخبرها بترتيب مكان للإقامة لنا جميعا فى الكويت، وبعد أن أعثر على مكانين لبنتى وأكبر الولدين فى مدرسة ملائمة.

* * *

بعد وصولى إلى الكويت ببضعة أيام قابلت مصريا كان قد أمضى أكثر من عشرين عاما فيها وأوشك على مغادرتها والعودة نهائيا إلى مصر، فسألته عن رأيه فى الحياة فى الكويت بعد هذه الإقامة الطويلة فقال ضاحكا: «الدخول إلى الكويت كدخول فأر صغير فى زجاجة رأى بها قطعة كبيرة من الجبن، أسالت لعابه، وجرى إليها دون أن يفكر فيما إذا كان سيستطيع الخروج من الزجاجة بعد أن يلتهم قطعة الجبن!».

وقد شاهدت هذا المنظر بعينى فى مصرى بعد آخر ممن ذهبوا إلى الكويت مدفوعين بالرغبة فى «تكوين أنفسهم»، باستخدام التعبير الشائع فى مصر وقتها، والذى كان يقصد منه توفير الشاب لمبلغ من المال، لا يستطيع توفيره فى مصر، فيمكّنه من الزواج أو شراء شقة أو سيارة، أو يودعه فى البنك ويحصل من ورائه على عائد يكمل به مرتبه البسيط فى مصر، ويلجأ إليه إذا طرأ طارئ. ما أكثر المصريين الذين ذهبوا إلى الكويت بدافع «تكوين النفس» هذا، ولكنهم لم يستطيعوا

الخروج بعد أن التهموا قطعة الجبن، إذ زاد وزنهم وترهلت نفوسهم وانفتحت شهيتهم للمزيد، وما كان يبدو كافيا فى البداية لم يعد كافيا، وما كان كماليا يسهل الاستغناء عنه أصبح ضروريا لا يمكن العيش بدونه.

وقد استمرت إقامتى فى الكويت أربع سنوات ونصفًا، ولم تعد لى بعد تركى لها أى رغبة فى العودة إليها إلا لحضور ندوة أو مؤتمر ليوم أو يومين، ولم يستمر سرورى بالإقامة بها أكثر من عام واحد بدأت بعده المنغصات. ولكن كان الخروج من الكويت بعد عام واحد مستحيلا، فكنت قد أجرت بيتى فى مصر لمدة أربع سنوات، وأولادى كانوا قد التحقوا بمدارس جيدة فى الكويت، وبدأوا هم وأمهم يعتادون الحياة الجديدة. ولم أكن واثقا على أى حال من صواب ترك كل هذه المزايا المادية الواضحة بعد عام واحد لأسباب قد أكون أنا المسئول عنها وليس أحد غيرى. ازداد الطين بلة بعد سنة أخرى، وتقدمت باستقالتى، وعزمت على العودة ولو اضطررت لاستئجار شقة أقيم بها حتى أستعيد بيتى من مستأجره. ولكنى سحبت الاستقالة عندما أرسل رئيس الصندوق من يسترضينى ويحاول استبقائى، فبقيت دون أن تعود إلىّ راحة البال أو الرضا عن حياتى بالكويت. واستمرت الحال على ذلك حتى تلقيت دعوة لقضاء سنة فى أمريكا أستاذا زائرا بجامعة كاليفورنيا، فأمسكت بهذه الفرصة بكلتا اليدين وانصرفت من الكويت غير آسف. ولم أندم على هذا قط، بل ظلت ذكرى تلك السنوات الأربع التى قضيتها فى الكويت، كلما عادت إلىّ، تثير فىّ الاستغراب أكثر من شىء آخر. فرغم أنها لم تخل من بعض الأيام السعيدة، خاصة فى السنة الأولى، فإنى أستغرب كيف انقضت كل تلك الأيام التى قضيتها فى الكويت، خاوية تمامًا وبلا أى معنى، وبدا لى الأمر أقرب إلى حال من أعطى حقنة مخدرة تبلد بسببها إحساسه، فقبل أشياء لم يكن من المتصور أن يقبلها لو كان فى حالته الطبيعية.

* * *

كان التخدير ناتجا مما يحاط به المرء، بمجرد وصوله، من درجة عالية جدًا من «الراحة». ويبدو أن الإنسان لديه استعداد طبيعى للاستجابة التامة لأى شىء يمنحه

الراحة، سواء كان مقعدا مثيرا أو سيارة مكيفة الهواء، أو الحصول على أصناف الطعام التى يحبها دون تعب، أو النوم فى مكان بلا ضوضاء، أو السير فى شارع مرصوف رصفا جيدا، ومضاء إضاءة قوية، فلا يهددك فيه خطر الارتطام بشىء غير متوقع، أو السقوط فى حفرة غير مرئية، أو صرف شيك دون انتظار فى طابور، أو استخدام تليفون لا تنقطع عنه الحرارة أبدا.. إلخ.

كان هذا المستوى الرائع من الراحة هو أول ما يصادفك فى الكويت. يفرجونك لدى وصولك على عدد من المساكن الفاخرة للاختيار بينها فتختار أحسنها. كلها مكيف الهواء، وكلها يحتوى على ثلاجة رائعة ومطبخ فسيح وأثاث مريح مستورد كله من الخارج. وتعرض عليك السيارات من مختلف الماركات والواردة من مختلف البلاد لتختار الماركة التى كنت تسمع عن مزاياها فى مصر ولا تستطيع اقتناءها، واللون الذى يعجبك بالضبط، فإذا بها أمام بابك بعد ساعة. وفواتير الكهرباء والتليفون والمياه لا تراها أصلا لأن الصندوق الكويتى يدفع قيمتها نيابة عنك ولا يحاسبك عليها. ورخصة السيارة وأى ورقة رسمية أخرى لا تحتاج من أجل تجديدها إلا أن ترسلها مع فراش الصندوق للمسئول عن الشئون الإدارية لكى يقوم باللازم ويعيدها إليك وأنت فى مكتبك. والعمل المطلوب منك القيام به بسيط للغاية، ولا يحتاج لمجهود يذكر، فيمكن إتمامه فى ساعة أو أقل فتبقى لك بقية ساعات النهار لتقرأ أو تكتب كما تشاء، أو تبادل زميلا لك الحديث فى أى موضوع مهم أو غير مهم.

راعنى مثلا بعد بدء عملى فى الصندوق بأيام قليلة، أن مرّ علىّ زميلى المصرى الذى يحتل الحجرة المجاورة لحجرتى، وكان اقتصاديا كبيرا ذا مقام كبير فى مصر وكنت أعتبره فى حكم أستاذ لى بحكم سنه وعلمه، فقال لى بمنتهى الجدية وهو يشير إلى إناء نحاسىّ كبير موضوع على الأرض بالقرب من المصعد، وفيه نبات أخضر جميل يسقى وينظف بعناية كل صباح، «ألا تعتقد يا جلال أن هذا الإناء يكون من الأفضل كثيراً لو تحرك عشرين أو ثلاثين سنتيمترا إلى اليمين؟». لم تصدّق أذنى أن تصدر هذه العبارة من الأستاذ الكبير، إذ لابد أن كان لديه من الفراغ

فى الوقت والذهن، ما يجعله يهتم بشىء كهذا، بل وأن يترك مكتبه ويأتى إلىّ لكى يقول لى ذلك. ولكن الأستاذ كان قد انقضى على مجيئه إلى الكويت أربع أو خمس سنوات، فخطر لى أننا جميعا لابد أن نصبح مثله، دون أن نشعر، بعد انقضاء بضعة شهور أخرى.

لقد تبلد الإحساس ووصل مفعول المخدر إلى المخ، وكان لابد أن نبحث عن شىء ننشغل به بدلا من كل تلك المشاكل اليومية التى كانت تشغلنا فى بلد حقيقى كمصر. أوَليس الكويت بلداً حقيقيًا؟ قال لنا مرة أستاذ مصرى ظريف ممن عاشوا فى الكويت مدة طويلة: إن الكويت تذكره بما كنا نفعله أحيانا ونحن أطفال إذ يقول أحدنا للآخر: «تعال نلعب مدرسة!» أو«تعال نلعب دكتور ومريض!» هكذا الكويت، فى نظر هذا الأستاذ، مجموعة من الناس قرروا أن يلعبوا، أو قرر لهم أحد أن يلعبوا، فأنشأوا دولة لها علم وسلام وطنى، وحكومة وبرلمان، وجامعة ومستشفيات، وبوليس ومحاكم.. إلخ.

والتشبيه مبالغ فيه بالطبع، ولكن من الممكن فهم المقصود منه عندما ترى الشوارع الرائعة بالغة الاتساع والمضاءة إضاءة باهرة لا يمكن أن تجد لها مثيلا فى دولة كمصر، ولكن دون أن ترى شخصًا واحداً يسير فيها، أو مطاعم ومحلات وفنادق فاخرة فيها كل ما تجده فى مطاعم ومحلات وفنادق باريس أو لندن، ولكنك تشعر فيها بوحشة شديدة لقلة من فيها من الناس. وأنت حيثما ذهبت، على الأقل طوال السنوات التى قضيتها فى الكويت، تفتقد بشدة منظر امرأة من أى نوع، ومن أى جنسية. فكل من تراهم رجال، وهو أمر مثير للأعصاب ويبعث بعد فترة على الاكتئاب، سواء أدركت السبب أو لم تدركه.

كنا طبعا نصطحب نساءنا إلى أمسيات العشاء الفاخرة التى كنّا نقيمها على التوالى على فترات جد قصيرة، بلا مناسبة ولا سبب إلا اختلاق وسيلة لتمضية ساعات المساء التى لا نجد فيها ما نعمله، وتسلية الزوجات اللاتى لا يجدن ما يمكن عمله حتى فى ساعات الصباح، وخلق فرص لهن لارتداء ثياب غالية ومجوهرات ثمينة ليس هناك أية فرصة أخرى لارتدائها. ولكن اختفاء النساء من الشوارع

والمطاعم والمحلات على هذا النحو كان يطبع الحياة اليومية فى الكويت بطابع ثقيل جدًا على النفس لا يمكن أن تعوضه الرفاهية المادية .

كنا نحاول التعويض عن جدب الحياة فى الكويت بعدة أشياء . كان المرتب الكبير يصل بالطبع فى أول كل شهر ، ولكنك لا تستطيع قضاء الشهر كله فى التفكير فى ضخامة المرتب ، وفى إعادة حساب مدخراتك من جديد . كانت هناك أنواع الطعام الفاخرة التى كنا نفتقدها فى مصر : كالجمبرى ومختلف أنواع المكسّرات المستوردة ، كالفستق واللوز ، كما كان بالمحلات كل ما يمكن أن تشتهيه من سلع لا تستطيع شراءها فى مصر إلا نسبة ضئيلة جدًا من الناس ، من الأثاث الاسكندنافى ، إلى الملابس الباريسية ، إلى الكريستال التشيكى ، إلى الأحذية الإيطالية . . إلخ . وكان من الممكن بالطبع شغل الأطفال باصطحابهم إلى محلات اللعب البديعة التى تحتوى على أضخم الألعاب التى تسير بالكهرباء ، مما لابد أن يخلب لب أى طفل مهما كان عاقلا . وهناك أيضا حمامات السباحة فى الفنادق الكثيرة ، التى يمكن لأى شخص دخولها طالما دفع رسم الدخول ، وهو فى متناول أيدينا جميعًا . صحيح أن النجيل المحيط بها ليس نجيلا حقيقيا بل مصنوع من البلاستيك ، وصحيح أن القائمين على خدمتهم رجال يخيم على وجوههم البؤس لافتقادهم لأسرهم التى تركوها فى مصر أو سوريا أو لبنان ، ولم يأتوا إلى الكويت إلا لنفس السبب الذى أتى بك أيضاً إليها ، ولكنهم لا يتلقون مرتبا يقارن بمرتبك ، وقد يسكن الثلاثة أو الخمسة منهم فى حجرة واحدة ضيقة . كل هذا صحيح فضلا عن أنك لن ترى امرأة واحدة فى حمام السباحة ، ولكنك تضمن على الأقل إذا أخذت أطفالك إليه ، أن تسليهم وتستمد بعض البهجة من سماع ضحكاتهم ومن ابتهاج زوجتك لنفس السبب ، مما يصرف عن ذهنك فكرة أنك قد أذنبت فى حق أولادك وزوجتك بمجيئك إلى الكويت .

الشىء الغريب حقا ، وهو ما قد يصعب أن يدركه من لم يعش فى مكان كالكويت لفترة طويلة ، هو أن القراءة ، التى كانت تشغل جزءًا كبيراً من وقتنا فى القاهرة ، أو حتى الاستماع إلى الموسيقى ، وهما ما قد تظن أنك لابد أن تمارسهما

بدرجة أكبر في بلد كالكويت، حيث لديك الوقت الكافي لأن تفعل أي شيء، سوف تجد نفسك أقل رغبة بكثير في ممارستهما مما كنت من قبل. ليس من السهل تفسير ذلك، ولكني أظن أن السبب هو أنه كما أنك لا تستطيع القراءة أو الاستماع إلى الموسيقى بسهولة في مكان صاخب يعج بالحركة والضوضاء، أو إذا كنت معرضا في أي لحظة للإزعاج بزيارة مفاجئة أو رنين جرس التليفون، أو إذا لم تكن تشعر بدرجة كافية من الراحة، كما لو كنت في مكان شديد البرودة أو شديد الحرارة، أو لا تجد مقعداً مريحا لتجلس عليه، إذا كان كل هذا قد يمنع من استغراقك في القراءة أو يضعف من رغبتك في الاستماع إلى الموسيقى، فإن العكس بالضبط قد يؤدي إلى نفس النتيجة. فالراحة المفرطة وخلوّ حياتك من أي إثارة أو أي قلق من أي نوع، ورتابة الحياة وخلوها من أي حادث مهم تتطلع إلى حدوثه أو تخشى وقوعه، أو بعبارة أخرى، خلو الحياة اليومية من أي شيء يمكن أن يزيد من قوة اندفاع الدم في عروقك أو يسبب لك بعض الإثارة، سواء كانت إثارة محبوبة أو مكروهة، يضعف ميلك إلى اتخاذ قرار بالجلوس للقراءة أو الاستماع إلى موسيقى. إذ ما هي المشكلة التي تريد أن تجد لها حلا في الكتب؟ ومن أي نوع من أنواع القلق أو التعب تريد أن تتخلص بالاستماع إلى موسيقى بيانو هادئة؟ وأي غضب تشعر به قد تساعدك على تهدئته سيمفونية من السيمفونيات؟

نعم، قد تقرأ وقد تسمع بعض الموسيقى، ولكن حتى القراءة والموسيقى تفقدان في الكويت جزءاً كبيراً من متعتهما لنفس السبب الذي تفقد بسببه أبهتها مصابيح الكهرباء الباهرة في الشوارع، وتفقد بسببه الفنادق والمحلات الفاخرة، بل وفي كثير من الأحيان أنواع الطعام الفاخرة نفسه، طعمها ونكهتها التي كانت لها في بلد آخر. كل هذا لم أدركه بوضوح طوال إقامتي بالكويت. لم تكن لديّ الرغبة، على الأرجح، في الاعتراف به لنفسي أو لغيري، بل كنا جميعا نبحث عن المبررات التي تسبغ العقلانية على قرار المجيء إلى الكويت واستمرار الإقامة بها. كما أن الراحة المستمرة، كما قلت، تعمل في العقل مثلما يعمل المخدّر الذي يجعل المرء يرى كثيراً من الأشياء على غير حقيقتها. لم يتضح لي كل هذا إلا بعد أن تركت الكويت

وعدت إليها فى زيارات قصيرة لبضعة أيام. حينئذ فقط كنت أقول لنفسى: «كيف وجدت من الممكن أن أعيش هنا هذا العدد من السنوات؟» بعد أن أدركت هذا أصبحت كلما جالت بخاطرى فكرة السفر من جديد للعمل فى إحدى دول الخليج، بسبب بعض الصعوبات أو المنغصات التى أقابلها فى مصر، أو بسبب عرض جديد يقدم إلىّ للعمل فى إحدى هذه الدول، أصرف الفكرة عن ذهنى بسرعة وسهولة وأعتبر الأمر مستبعدًا تمامًا ومفروغًا منه.

ـ ٢ ـ

كانت هناك منغصات من نوع آخر تتعلق بطبيعة العمل الذى كنت أقوم به فى الصندوق الكويتى، وعلى الأخص بكونى أستاذا جامعيا مصريا يعمل فى مؤسسة كويتية يرأسها شاب كويتى صغير السن، يحيط به من كل جانب رجال من العرب والأجانب، يطمحون إلى اقتناص أى فرصة قد تتاح لهم للإفادة من الثراء الفاحش لهذا الصندوق، ولا يمكن اقتناصها إلا بالتقرب من مديره.

كان ينهال على الصندوق عدد لا نهائى من الطلبات والعروض، من مختلف الدول الأوروبية والولايات المتحدة (وأقلها من الدول العربية)؛ طمعا فى الحصول على مغنم أو آخر من هذا الصندوق الثرى، ويتنافس أصحابها فى اختراع أى وسيلة جديدة لتحويل جزء من أموال الصندوق إلى جيوبهم. كانت تنهال الدعوات مثلا على مدير الصندوق لإلقاء محاضرة فى جامعة ما فى أمريكا أو أوروبا، أو أمام حشد من رجال المال والاقتصاد المرموقين، أو للتفضل بالموافقة على أن يصبح عضوا فى مجلس إدارة أو مجلس أمناء جامعة مرموقة هنا أو هناك، وكان الغرض دائما هو المال: فما هو أكبر عائدا من كسب مودة مدير الصندوق الكويتى الذى يتجاوز رأس ماله مليار دينار كويتى، أى أكثر من ثلاثة بلايين دولار أمريكى، عن طريق إحاطته بمختلف أنواع التبجيل والاحترام، والادعاء بأنه ليس هناك من هو أقدر منه على إلقاء محاضرة فى موضوع معين، أو إلقاء الضوء على مشكلة

اقتصادية صعبة، أو أن المطلوب هو الإفادة من خبرته الواسعة (وهو الشاب الذى لا يزال فى مقتبل العمر) فى إداوة هذا المعهد أو البنك . . إلخ؟

كان مدير الصندوق يقع أحيانا فى الفخ، ويصدق بعض هذه الادعاءات، إذ لابد أن من أصعب الأمور على شاب فى مثل سنّه، وجد نفسه فجأة على رأس هذه المؤسسة الثرية، ومحاطا بأشخاص لا هم لهم إلا تملقه والثناء عليه، أن يظل محصّنا ضد كل هذا النفاق، وأن يحتفظ باتزانه ولا يشتط فى تقدير نفسه. كان المدير كثيرا ما يقوم بتحويل هذه الدعوات والطلبات إلىّ، باعتبارى عضوا فيما كان يسمى فى الصندوق بـ«إدارة البحوث»، لإبداء الرأى فيما إذا كان من الملائم قبول هذه الدعوات والطلبات أو رفضها. وكنت أكتب نصيحتى برفض معظم هذه الدعوات، مبيّنا أنه لا مصلحة ترجى للصندوق، أو لدولة الكويت، أو للعرب من وراء قبولها.

كان اتخاذى لرأى فى مثل هذه الأمور سهلاً ولا يسبب لى أى عناء، وإن لم يحظ دائما برضا المدير. ولكن حدث مرة ما وجدت من الصعب جداً الوصول إلى قرار بشأنه، وظللت حائراً أبحث عن الموقف السليم عدة أيام بل وأسابيع. وتتلخص القصة فى أن أستاذا فلسطينيا مرموقا فى الاقتصاد، ويتمتع بشهرة واسعة فى العالم العربى (هو الدكتور يوسف صايغ) كان قد تعاقد مع الصندوق الكويتى قبل التحاقى بالصندوق ببضع سنوات على تأليف كتاب كبير عن الاقتصاد العربى، وعندما أتمّه وقدمه للصندوق أحال مدير الصندوق الكتاب إلىّ لإبداء الرأى فيه: هل استوفى الشروط المتفق عليها؟ هل يستحق المؤلف الآن أن يتسلم بقية المبلغ المستحق له؟ (وكان مبلغا كبيراً جداً بمعايير ذلك الوقت)، وهل أنصح الصندوق بقبول الطلب الذى تقدم به المؤلف بأن يقدم الصندوق دعما ماليا لطباعته وشراء بعض نسخه؟ كنت حديث العهد بالالتحاق بالصندوق، وكان لإدارة البحوث مدير مصرى كان هو الأجدر من حيث منصبه وخبرته بأن يقوم بهذه المهمة، ولكنه كان رجلا لا يحب المشاكل، فنصح مدير الصندوق بأن أقوم أنا بمهمة تقييم الكتاب بدلا منه. وقرأت الكتاب ووجدته لا بأس به ومستوفيا للشروط ولا غضاضة فيه إلا شيئا

واحدا استوقفني وهو أنه كان يحتوى على نقد شديد للحالة التعليمية فى الكويت. لم يكن ثمة خطأ في نظرى فيما قاله في ذلك، ولكني شعرت وقتها، بحكم عملي في مؤسسة كويتية، وقد طلب مني المدير الكويتي أن أقوم بتقييم الكتاب وتقديم النصح له بالسلوك الواجب إزاءه، بأن من واجبي أن ألفت نظر المدير إلى ما تضمنه الكتاب من نقد للكويت. عندما أستعيد القصة في ذهني الآن أعتقد أنني كنت أبالغ في أهمية الأمر كله، ولو ووجهت بهذا الأمر الآن لما استغرق مني التفكير والتصرف فيه بضع دقائق.

ولكني ضخمت وقتها من حجم مسئوليتي، فتصوَّرت من الممكن أن تنشر الصحف الكويتية، أو يثير أحد أعضاء مجلس الأمة ممن قد يكنون عداوة لمدير الصندوق لأى سبب، ما تضمنه الكتاب من نقد، ويتساءل: لماذا يوافق مدير الصندوق الكويتي على نشر مثل هذا الكلام عن الكويت؟ وتصورت أن المدير يمكن أن يفقد منصبه أو يتعرض لأذى بسبب ذلك الهجوم المحتمل، وأكون أنا السبب إذ لم ألفت نظره إلى ما تضمنه الكتاب، مع أنه ائتمنني على هذه المهمة لأنه لا يمكن أن يقوم بهذه المهمة بنفسه لكثرة مشاغله.

لابد إذن أن ألفت نظره للأمر، هكذا قلت لنفسي. ولكن كيف أسمح لنفسي بأن أقوم بعمل قد يؤدى إلى حذف نقد من الكتاب هو نقد في محله مائة بالمائة، ولا غبار عليه؟ المفروض من ناحية المبدأ أن يتحمل الصندوق مثل هذا النقد ولا يعترض عليه، ولكن المفروض أيضًا أن ألفت نظر المدير إليه ليتخذ هو القرار بشأنه. ولفت نظره إليه سوف يؤدى على الأرجح إلى حذف الحقيقة وإخفائها. فما الذى يمكنني أن أفعل؟ الصمت خطأ، والكلام سوف يؤدى على الأرجح إلى خطأ. انتهيت بعد عذاب طويل إلى الحل الآتي: أخبرت المدير بالأمر ونصحته بإعطاء المؤلف بقية المبلغ المستحق له على التأليف، ولكن فلنخيِّره بين أمرين: إذا أراد أن يقوم الصندوق بالإنفاق على طبعه فعليه أن يجرى التعديل على بعض الفقرات المتعلقة بنقد الحالة التعليمية في الكويت، ولكن من حقه أن يبقى الكتاب على ما هو عليه دون تغيير إذا قبل أن يتحمل بنفسه نفقات الطبع أو أن يبحث بنفسه عن ناشر. لم

أكن راضيا تماما عن هذا الحل ولكنى وجدته وقتها أفضل الحلول المتاحة، ووافق عليه المدير، وعرضته على المؤلف فاختار أن يجرى التعديل اللازم فى مقابل أن ينفق الصندوق على طباعته ويدعم عملية النشر. عندما واجهت المؤلف باقتراحى رأيت علامات الأسف على وجهه وشعرت أنا ببعض الخجل. وأظن أننى لو واجهت تلك المشكلة الآن لما قمت بلفت نظر المدير إلى ذلك النقد.

رأيت فى الصندوق الكويتى أيضًا ما أثار دهشتى الشديدة، إذ لم تكن لى تجربة بمثل هذا من قبل، وخيّب أملا غامضا كان لدىّ عندما بدأت العمل فيه. كان الصندوق قد ضاعف رأس ماله إلى ثلاثة أمثال ما كان عليه، كما سبق أن ذكرت، قبيل انضمامى إليه، فأصبح يربو على ثلاثة بلايين دولار، وهو مبلغ يسمح بتمويل العديد من المشروعات الكبيرة والمؤثرة فى عدة بلاد عربية، كما يغرى بشحذ الهمة وإطلاق العنان للخيال لما يمكن لمؤسسة عربية ثرية تحقيقه لتحقيق بعض الآمال العربية التى طال الشوق لتحقيقها. ألم يكن من الممكن مثلا محاولة تصور إستراتيجية لتمويل مشروعات تزيد من ربط العرب بعضهم ببعض بدلا من زيادة تفككهم؟ أو للنهوض بالبحث العلمى، أو لتحقيق نقل مثمر للتكنولوجيا المتقدمة على نحو يتفق مع الحاجات الحقيقية للعرب.. إلخ؟

الذى ظهر لى للأسف بعد شهور قليلة من بدء عملى بالصندوق، أن الصندوق الكويتى لسبب أو آخر يسير وراء البنك الدولى خطوة بخطوة، يستلهم منه الأفكار ويسير فى ركابه، ولا يجرؤ على اتخاذ خطوة من شأنها إغضابه، بل يقنع الصندوق بالدخول كشريك صغير للبنك الدولى فى تمويل المشروعات التى يختارها البنك الدولى ابتداء.

عندما اتضح لى ذلك تبين لى بوضوح تام أن الزيادة الكبيرة التى حدثت فى أسعار النفط (والتى أدت إلى زيادة موارد الصندوق الكويتى) لا تعنى بالمرة أى زيادة حقيقية فى قدرة العرب على تحقيق آمالهم، وأن القول بأن هذه الزيادة فى أسعار النفط تمثل فرصة ذهبية للعرب لتحقيق نهضتهم المرجوة، كلام لا أساس له من الواقع، طالما استمر فقدان العرب لإرادتهم وعجزهم عن اتخاذ أى قرار مهم دون

استئذان غيرهم . أما فقدان الإرادة والعجز عن اتخاذ قرار دون استئذان فلابد أنه يرجع إلى أسباب سياسية (بل ونفسية أيضًا) لا علاج له إلا بمواجهة أسبابه، أى أن العلاج لابد أن يكون أيضًا سياسيا ونفسيا .

- ٢ -

أتاحت لى وظيفتى فى الصندوق الكويتى بعض الفرص الذهبية لرؤية بلاد لا أظن أنى كنت سأحظى برؤيتها لولا عملى بالكويت . كان الصندوق يرسل البعثة بعد الأخرى إلى البلاد التى يريد تقديم المساعدة المالية لها . وكانت هذه المساعدة مقصورة فى البداية على البلاد العربية، ثم اتسع نطاقها فشملت كل البلاد الفقيرة فى إفريقيا وآسيا، بعد أن أدى ارتفاع أسعار البترول فى ٧٣ و ١٩٧٤ إلى تضاعف إيرادات الكويت، وتضاعف رأس مال الصندوق الكويتى .

لم يمض عام على التحاقى بالعمل بالصندوق حتى عرض علىّ رئيسه أن أسافر معه وزميل آخر كويتى بالصندوق فى زيارة لتسعة بلاد آسيوية نستطلع فيها حاجات هذه البلاد للمعونة، ونختار بعض المشروعات لتمويلها . قال لى إن السفر سيكون بطائرة خاصة، لا تتسع إلا لسبعة أشخاص، وإن المسافرين الوحيدين عليها هم نحن الثلاثة بالإضافة إلى طيار عراقى وخادم لبنانى، وأن الرحلة كلها لن تستغرق أكثر من ثلاثة أسابيع . كان هذا فى أوائل سنة ١٩٧٥، ولم يكن من الممكن أن أرفض عرضًا كهذا، إذ لم أتصور أن تتاح لى فرصة كهذه مرة أخرى فى المستقبل . صحيح أن المدة المقررة لنا فى كل بلد لم تكن تزيد على يومين، ولكن حتى هذه الزيارات السريعة يمكن أن تترك فى الذهن انطباعات قد تبقى مع المرء طوال العمر . وهذا ما حدث معى، فقد خرجت من كل دولة بانطباع أو فكرة لا تزال معى حتى الآن .

أثرت فى نفسى جدية الباكستانيين وحماسهم، أو ما بدا لى كذلك، وحكمة الهنود ورصانتهم ، وروح ماليزيا الشابة وحيويتها، وسلبية الإندونيسيين ويأسهم من الإصلاح، وصرامة أهل سنغافورة وانضباطهم، وبؤس بنجلاديش وقلة

حيلتها، وبراءة أهل نيبال وطيبتهم. كما لاحظت التفاوت المذهل فى توزيع الدخل والثروة فى تايلاند والفلبين، والفجوة الواسعة التى تفصل بين نمط حياة الأغنياء والفقراء فى كل منهما. ولكنى خرجت من الرحلة كلها بفكرة ألحت على ذهنى، وهى أن هناك ـ فيما بدا لى ـ أممًا يمكن وصفها بأنها أم عجوز وأخرى فتية. وهذا التمييز يتعلق بالموقف النفسى للشعب أكثر مما يتعلق بتاريخها أو نظامها السياسى أو الاقتصادى أو مواردها. والدول التى اعتبرتها دولا فتية تتقدم بسرعة، أو هى على الأقل مؤهلة للتقدم السريع، بينما الأم العجوز ثابتة فى مكانها لا تكاد تتحرك، وأملها فى التقدم ضعيف للغاية.

كانت الباكستان وتايلاند وماليزيا هى الدول التى شعرت بأنها «فتية»، بينما شعرت بأن الهند وبنجلاديش وإندونيسيا والفلبين كلها دول عجوز. ولكن لم أستطع الوصول إلى قرار واضح فيما يتعلق بنيبال أو سنغافورة، الأولى ربما بسبب فرط انعزالها عن العالم، وكأن قضية التنمية والتخلف لم تشغل بالها بعد، والأخرى ربما بسبب أنها مدينة أكثر منها دولة أو أمة.

كانت أهم السمات التى دفعتنى إلى وصف المجموعة الأولى بالفتوة، هى أن شعوبها بدت لى وكأنها تأخذ الأمور مأخذ الجد، يحاول عمالها إتقان ما يقومون به من أعمال، أو ما ينتجونه من سلع، ويشعرون بالفخر إذ يتقنون أعمالهم. أما شعوب المجموعة الأخرى فقد بدا لى وكأنهم يشعرون بأنه «لا شىء يهم»، وكأن لا شىء يستحق منهم بذل الجهد وتحمل العناء، وكأن العمل المتقن ليس أفضل كثيرًا من العمل غير المتقن: كل شىء سواء، والأمر كله فى نهاية الأمر عبث فى عبث.

قلت لنفسى إن الأمر لا يتعلق بدرجة الذكاء أو الحكمة. فمن يدرى، قد يكون من الحكمة حقا ألا يعلّق المرء أهمية كبيرة على أى شىء، وقد يكون صحيحا أنه «لا شىء يهم فى نهاية الأمر»، وقد يكون من الذكاء أو الفطنة عدم المبالغة فى تقدير النجاح، وألا نعلق أهمية كبيرة على ما لا يستحق كل هذا الاهتمام. ولكنى قلت لنفسى أيضًا: إن الذكاء والحكمة شىء، والنهضة والتقدم شىء آخر. الأمة العجوز قد تكون قد رأت فى تاريخها الطويل ما ثبّط همتها، ورسخ لديها الاعتقاد بأنه «لا شىء يهم

فى نهاية الأمر». وقد تكون الأمة الفتية، كالطفل الصغير أو الفتى اليافع، مفرطة فى ثقتها بنفسها وحماستها وتفاؤلها، وستتكفل الأيام، على أية حال، بردها إلى صوابها. نعم، قد تكون الأمة العجوز أكثر حكمة حقا، ولكن المستقبل والتقدم هما من نصيب الأمم الفتية، كما أن الشباب هم وحدهم أصحاب المستقبل.

عندما سألت نفسى عما إذا كانت مصر يمكن أن تصنف من بين الأمم الفتية أم العجوز؟ لم تكن الإجابة التى ملت إليها لأول وهلة باعثة على السرور. فالبلاد التى وصفتها بأنها عجوز كانت قد ذكرتنى بأمور كثيرة فى مصر. فالمصريون، إذا جاز التعميم، يميلون فيما يبدو إلى فلسفة «لا شىء يهم». ولكن سرعان ما طمأنت نفسى بعدة أمور. فأولا لا يمكن تلخيص أسباب نهضة الأمم فى عامل واحد نفسى، كما أن سيادة نفسيّة بعينها فى دولة ما لابد أن تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتركيبة الطبقية للمجتمع وكذلك بالتركيب العمرى للسكان، وكلا الأمرين، التركيب الطبقى والعمرى، يمرّان فى مصر بتغيرات عميقة قد تدفع إلى السطح بطبقة اجتماعية جديدة أكثر حيوية ونشاطا، وبأجيال جديدة أصغر سنا ومن ثم أشد رغبة فى التغيير وأكثر تفاؤلا بالمستقبل.

كما أن هناك سببا آخر للتفاؤل، إذا نظرنا إلى المصريين كجزء من أمة أكبر. فمن بين الشعوب العربية، فيما أرى، من هو أكثر «فتوة» بكثير من المصريين. إن المصريين بلا شك لا ينقصهم الذكاء ولا الحكمة. ولكن الذكاء والحكمة شىء، كما قلت، والاستعداد للنهوض شىء آخر. وقد يكون مستقبل الأمة العربية ككل رهنا بما ستفعله تلك الأجزاء من العالم العربى التى تتسم بدرجة أكبر من الفتوّة، حتى إن لم يكن لهم مثل ما للمصريين من تاريخ موغل فى القدم.

هكذا بدا لى الأمر فى ١٩٧٥، أى منذ ثلاثين عاما، وقد حدث خلال هذه الثلاثين عاما أشياء قد تؤكد صحة الفكرة، كالتقدم الاقتصادى السريع الذى حدث فى ماليزيا وتايلاند، وبطء النمو فى بنجلاديش والفلبين، ولكن حدثت أشياء أخرى قد يبدو تعارضها مع هذه الفكرة كالتقدم السريع الذى أحرزته إندونيسيا والهند. ولكن لا أظن أن معدلات النمو الاقتصادى تكفى للحكم عما إذا كان هذا

التميز بين الفتوة والشيخوخة صحيحا ومفيدا أو غير صحيح أو مفيد. فهناك عوامل أخرى عديدة، خاصة ما تعلق منها بالظروف الدولية، قد يتغلب أثرها على أثر الشيخوخة والفتوة.

ولكن بصرف النظر عن اختلاف البلاد التى رأيتها فى درجة الفتوة أو الشيخوخة، تركت كل من هذه البلاد فى ذهنى بعض الانطباعات القوية والذكريات التى ليس من السهل محوها. وسأنقل هنا بعض ما دونته من ملاحظات خلال هذه الرحلة الآسيوية.

«فى الباكستان رأينا العاصمة الجديدة «إسلام أباد» التى أسسها أيوب خان فى مطلع الستينات لتحل محل كراتشى، فوجدتها مدينة بالغة الجمال، تقع وسط حدائق لا نهاية لها، ولكنها أيضًا بلا شخصية ولا تاريخ. وقال لنا نائب وزير التخطيط الباكستانى: إن من مساوئ وجود كل الوزارات فى إسلام أباد، أن الموظفين لا يحتكون بالجمهور كما كانوا يحتكون بهم فى كراتشى. ولكنهم، من ناحية أخرى لا يعانون من التعطيلات الكثيرة التى يسببها وجود الوزارات فى وسط مدينة مكتظة بالسكان والمشاكل مثل كراتشى...

وفى الهند قابلنا من قيل لنا إنه أهم وزير فى الحكومة الهندية وهو المسئول عن التخطيط. رجل كبير السن وعظيم الهيبة أيضًا. يتكلم عن التخطيط كما لو كان يأخذ فى اعتباره خمسة أو ستة قرون وليس فقط سنوات الخطة الخمس. قال إن ما حققته الهند كبير إذا أخذنا فى الاعتبار أن الديمقراطية مسألة لا تحتمل النقاش. وفى كلامه عن الهند والغرب قال إن الغرب يشبه الديناصور فى قوته وجبروته، أما الهند فهى تشبه الحلزون (snail) بطيئة الحركة ولكنك إذا قطعتها نمت من جديد.

كنت قد كتبت قبل زيارتنا للهند بشهور قليلة كلمة ليلقيها مدير الصندوق فى واشنطن أمام لجنة التنمية فى الاجتماع المشترك لصندوق النقد والبنك الدولى، وبذلت فيها مجهودا كبيرا للتعبير عن وجهة نظر العالم الثالث. وقد تلقى المدير أثناء زيارتنا للهند، ثناء الكثيرين على هذه الكلمة وأبلغنى بهذا الثناء. وفى حفلة السفارة الكويتية فى دلهى عبّر وزراء كثيرون ممن كانوا قد استمعوا إلى الكلمة، عن

ثنائهم عليها، فشكرني المدير مرة أخرى عليها. ولكن يبدو أن الكلمة التي كتبتها كانت من النوع الذي يعجب ممثلي العالم الثالث أكثر مما تعجب ممثلي الدول الغنية، إذ إن مدير الصندوق أضاف بنبرة تجمع بين الجد والمزاح:

«من فضلك يا جلال، عندما تكتب لي كلمة أخرى في مناسبة كهذه حاول أن تكتب كلمة تُنسى مباشرة بعد إلقائها!»...

وفي كاتماندو عاصمة نيبال لاحظنا أن الفرق بين التوقيت النيبالي والهندي عشر دقائق، وقيل لنا إن سبب ذلك هو مجرد رغبة النيباليين في تمييز أنفسهم عن الهند. وقال لي مستشار بالسفارة المصرية في نيبال (وهي السفارة العربية الوحيدة هناك) إن شعور أهل نيبال نحو الهند مثل شعور السوداني نحو مصر: إذا أراد السوداني أن يقضي إجازة الصيف، قضاها في مصر، وإذا أراد الزواج تزوج من مصرية وبنى بيتا في مصر، ولكن لا يمكن أن يطمئن تماماً للمصريين!

سكان نيبال ١٢ مليونا، وشعبها طيب جداً وساذج جداً، وعنده روح مرح ودعابة رائعة. منتهى البساطة في المعاملة ولا وجود للبيروقراطية. حجرة الوزير مفروشة كحجرة في بيت متواضع في مصر، ويقدمون علبة السجائر على طبق، وإذا ضحكوا ضحكوا من قلوبهم ولمعت عيونهم. ونساؤهم جميلات. ولكن الفقر فظيع. متوسط الدخل ٩٠ دولارا. لا يميزون بين الملك والإله. أكثر من ٩٠٪ من السكان يعتمدون على الزراعة (لابد أن هناك علاقة بين ارتفاع نسبة التصنيع وثقل دم الشعب). ورغم أن وزير المالية كان زميلا لمدير الصندوق الكويتي في الدراسة في الولايات المتحدة فإنه عاملني نفس المعاملة التي يبديها للمدير. عينوا لنا موظفًا من وزارة الاقتصاد لمرافقتنا فدعوناه إلى الغذاء معنا في الفندق فقبل بخجل. وعندما جاء الخادم ليعرف طلباتنا كررنا ثلاث مرات على الموظف هل يريد شوربة أم عصيراً؟ فرد في المرات الثلاث: «كما ترون». وهو لا يعرف كيف يستعمل الشوكة والسكين. ويستخدم السكين في نقل الطعام إلى فمه. وقد رفض في خجل أن يأخذ بنصيحتنا أن يأكل بيده كيفما يشاء.

بعد وصولنا مباشرة إلى الفندق أخذونا للتفرج على مزار لبوذا (الذي ولد في

نيبال)، ورأينا مجموعة من النساء يتمسحن بالحجارة المحيطة به. والبلد كله رائع الجمال حتى خطر لى أنه يمكن قضاء إجازة ممتعة فيه مع أسرتى. ثم زرنا المتحف وهو يدعو إلى الاستغراق فى الضحك، إذ لا يكاد يحتوى على أى شىء ذى قيمة أو جمال، ومع ذلك فهم فخورون به جداً، وسألونا أكثر من مرة قبل مجيئنا إليه «هل رأيتم المتحف؟». فيه صورة كبيرة قبيحة للغاية للملكة فيكتوريا، وبقايا حوت لم يصطادوه طبعا فى نيبال التى ليس لها منفذ إلى البحر. ولكن الشعب لطيف جداً، فما إن رآنا بعض الأولاد ندخل المتحف حتى دخلوا وراءنا والتفوا حول مدير المتحف الذى يشرح لنا محتوياته لكى يلتقطوا منه بعض المعلومات المفيدة. أثناء تناولنا الطعام فى الفندق اشترك الخادم الذى يقدم لنا الطعام معنا فى الكلام، وهو ما لم يجرؤ عليه أى خادم فى أى بلد آخر مررنا به. شكا لى السفير المصرى فى نيبال من عدم اهتمام حكومته بعلاقتها بنيبال، وقال إن ما ترسله القاهرة للإنفاق على القضية العربية فى نيبال مائة جنيه فى السنة، وهو مبلغ لا يكفى للويسكى وحده. وقال إنهم أرسلوا إليه من القاهرة بعض الأفلام عن مصر والبلاد العربية، ولكن السفارة لا تملك ثمن جهاز لعرض هذه الأفلام. كما ذكر أن الجامعة العربية قررت فى يوليو الماضى تخصيص ٣٠٠٠ دولار للإنفاق على الدعاية للقضية العربية، فالتزمت السفارة ببعض الالتزامات ولكن المبلغ لم يصل حتى الآن.

وقد لاحظت أن المدير الكويتى فى حديثه مع النيباليين لم يذكر قط أى قضية عربية ولا مشكلة إسرائيل، رغم أهميتها فى حالة نيبال بسبب إقبالهم على التعاون مع إسرائيل التى أرسلت لهم خبيرا فى زراعة القطن، ولم تفكر مصر فى أن تفعل ذلك. المدير يتكلم دائما ككويتى، رغم أن من نقابلهم فى كثير من هذه البلاد لا يفرقون بين الكويتى والعربى، وكان رأى السفير المصرى أن أى معونة من الكويت سوف ينظر إليها على أنها معونة من العرب إلى نيبال. . .

فى داكا عاصمة بنجلاديش قابلنا رئيس الجمهورية مجيب الرحمن، وهو شخص بسيط ومتواضع ولكن يبدو عليه الإرهاق الشديد، وكأن الأربعة عشر عاما التى قضاها فى السجن تركت أثرا كبيرا عليه، فهو يلتفت منزعجًا إلى أقل صوت

يصدر من مساعديه . ويبدو من مقابلتنا لنائب الرئيس بعد الظهر أن هذا النائب قد يكون هو الرجل الأقوى والأكثر اتصالا بالأحداث والمشكلات . بدا على رئيس الجمهورية الاستياء عندما قال له مدير الصندوق «إن عندنا، نحن أيضًا فى العالم العربى بنجلاديشنا (our Bangladesh) كاليمن وموريتانيا» . وفى كلامه بعد المدير أخذ يفخر ببلده مستخدما كلمة «عندى» و«عندى» (I have, I have) مشيرا إلى ما فى بلده من أناناس وموز وأرض وصناعات . . إلخ .

فى طريق العودة من مقابلة رئيس الجمهورية قلت للمدير : «إن لدىّ فكرة جيدة . لماذا لا يتبنى الصندوق فكرة الإنفاق فى سبيل نشر اللغة العربية والثقافة العربية فى بلاد آسيا وإفريقيا المسلمة؟» ، قال : «وهل هذه فكرة جديدة؟ لقد عرضناها بعد زيارتنا لإفريقيا على مجلس الوزراء فقيل لنا اعرضوها على وزير الأوقاف الذى ركنها ولم يرد» . . .

عند وصولنا إلى بانكوك ، عاصمة تايلاند ، كان فى استقبالنا نحو تسعة أو عشرة أشخاص ، أحدهم تايلاندى كان زميلا قديما لمدير الصندوق ويعمل الآن فى منصب مهم بوزارة التخطيط ، وكان حتى وقت قريب مقربا جدا من رئيس الوزراء قبل أن يسقط ويأتى غيره . كما كان فى استقبالنا نحو سبعة أشخاص من المسلمين يمثلون هيئة اسمها مؤتمر المعلمين، تقوم بتدريس ونشر الدين الإسلامى وعلومه فى تايلاند . وقد بدا عليهم فرح شديد بنا حيث إننا قادمون من بلاد الإسلام الأصلية ونعرف العربية ، وهم فخورون بما يستطيعون نطقه من عدد قليل من الكلمات العربية . والمسلمون فى تايلاند يشكلون نحو ٥ ملايين من بين ٤١ مليونا (فى ١٩٧٤) ، وقيل لنا إنهم أقوياء ونشاطهم السياسى مؤثر ، ولهم ١٧ من ٧٥ مقعدا فى البرلمان . مرة أخرى خطر لى : كم يمكن للإسلام أن يكون قوة ، وكم نجهل ما لنا من أصدقاء وإخوان فى أركان الأرض المترامية . جلست مع بعضهم فى غرفة كبار الزوار منتظرين الجوازات ، وقالوا لى إنهم يهمهم جدًا أن نقوم بزيارة زعيمهم واستغربوا أنى لم أسمع باسمه من قبل ، وقالوا إن كل من يأتى من البلاد العربية يذهب لمقابلته ليحصل على بركاته . سألت مدير الصندوق عن رأيه فى زيارته ،

فسأل صديقه التايلاندى الذى أبدى ترددا في الإجابة فقرر المدير الاعتذار «لعدم التدخل في الأمور السياسية».

في الطريق لفت نظرى جمال نساء تايلاند، وبشرتهن الناعمة اللامعة، ورشاقة أجسامهن التي يبدو حرصهن على إظهارها بارتداء الجونلات القصيرة. ونزلنا فيما أظن أنه أجمل فندق رأيته في حياتى (أورينتال Oriental) ويطل على النهر. وأول ما لفت نظرى فيه كثرة البنات الجميلات العاملات فيه، وإقبالهن على الزائر بالابتسامات بسبب ودون سبب، فإذا رأونا نتجه إلى المصعد أسرعت واحدة إليه للضغط على الزر، وإذا جاءت أخرى لتأخذ منا الملابس المطلوب غسلها، نظرت مرة أخرى إلى الوراء قبل أن تختفى، لتعطيك ابتسامة جميلة.

أخذنا الزميل التايلاندى القديم بعد هذا للحلاقة. وأى حلاقة! صالون يتكون من دورين ومقسم إلى حجرات صغيرة بكل منها كرسى حلاقة واحد، وبابها ليس إلا ستارة، وجدرانها لا تصل بالضبط إلى السقف أو إلى الأرض ولكن لا يرى أحد من في الحجرة المجاورة، اللهم إلا كعب الفتاة التى تقوم بالحلاقة. ذلك أن الحلاّقة فتاة على درجة فائقة من الجمال، كان أول ما فعلته عندما دخلت أن مرت على فمها بقلم أحمر الشفاه وسألتنى وهى تضع ذراعها على كتفى: «هل تريد أيضا تدليكا؟» قلت: نعم. ومانيكير؟ قلت: نعم، وباديكير؟ قلت: نعم. وتنظيف الأذنين؟ قلت: نعم. فكانت النتيجة أن استغرقت الحلاقة ساعتين بالضبط، تفاصيلها على النحو التالى:

بعد أن تقص الحلاّقة شعرك بمهارة، تقوم بغسله، ثم تغسل الأذنين. وإذ وجدت حسنة على إحدى أذنىّ حاولت إزالتها بالصابون ضاحكة. فإذا كانت إحدى يديها غير مشغولة بشىء استخدمتها في مداعبة أصابعك أو شعر رأسك. ثم تأتى فتاة أخرى أجمل فتبدأ في تدليك وجهك بالكريم، وتستغرق في ذلك وقتا طويلا. وتستخدم في ذلك أصابعها بمهارة فائقة، وخاصة فيما بين العينين وحول الأذنين، ثم تضيف المزيد من الكريم وتعيد الكرة. في نفس الوقت تقوم الفتاة الأخرى بتدليك الجسم (دون خلع الملابس)، وقد ربطت بكفها جهازا كهربائيا

صغيرا أشبه بالمكوى يتحرك بسرعة فتتحرك يدها معه . وبعد هذا تستمر فى التدليك بيدها المجردة وهى تحرك جسمها باستمرار وكأنها تعجن فطيرة . خلال انشغال هذه وتلك تأتى المختصة بالمانيكير والبديكير (أى بأصابع اليدين والقدمين) فتأخذ يدا بعد أخرى وقدما بعد أخرى، بعد أن تقوم هى بخلع حذائك وجوربك وغسيل القدمين، ثم تقلم الأظافر وقد وضعت قدمك على رجلها لكى تسهل عملها، بحيث تستقر نصف سافك فوق فوطة تغطى إحدى رجليها، والنصف الآخر على رجلها نصف العارية . ثم تلبسك الجورب والحذاء . كلفنى كل هذا ١٢٠ بات، أى ما يعادل ستة دولارات، أضفت إليها دولارين بقشيشًا . إذن فالتكاليف الإجمالية ثمانية دولارات، بينما تتقاضى الفتاة منهن ما يعادل مائة وخمسين دولارا فى الشهر راتبًا .

بعد هذا ذهبنا لتلبية أجمل دعوة للعشاء تلقيتها فى حياتى، وكانت من وزارة المالية التايلاندية . كان العشاء فى مطعم يخلب البصر وكأنه مصنوع من الذهب الخالص . طُلب منا أن نخلع الأحذية قبل الدخول . ثم وُزعت علينا المشروبات قبل الجلوس . فلما جلسنا وضعوا أمام كل منا طبقا كبيرا تحيط به عشرة أطباق صغيرة فى أحدها دجاج، وفى الآخر سمك، وفى الثالث جمبرى، وفى الرابع لحم بالكارى . . إلخ . ثم جاءت خمس راقصات رائعات الجمال فرقصن أمامنا بأصابع الأيدى والأرجل وبالأعين، ثم قمن بتقليد كل منا عقدا كبيرا من الورد والياسمين .

فى مقابلة مع أحد كبار المسئولين فى وزارة المالية استمعنا إلى عرض لحالة تايلاند الاقتصادية ووصف لأهم مشروعاتهم، فى حجرة للاجتماعات لا أعتقد أنه توجد حجرة للاجتماعات بمثل فخامتها فى أغنى الدول . هذا البذخ وهذه الفخامة يتكرران كثيرا فى بانجوك، فى دولة لا يزيد متوسط الدخل فيها على ٢١٠ دولارات أمريكية سنويا . ومن ثم يسهل تخمين مدى سوء توزيع الدخل فيها . وقد قالوا لنا كلامًا كثيرًا عن سوء توزيع الدخل وأن بانجوك ليست تايلاند، وأن هناك مناطق غاية فى الفقر خارج العاصمة، ولكنى لا أظن أنهم يفعلون شيئا لعلاج ذلك، بل أنا على يقين بأن الأمر يزداد سوءا يوما بعد يوم . نحس فى تايلاند بأن الفساد متغلغل

فى أعلى مستويات الحكومة، وأن العلاقة وثيقة بين الموظفين الكبار والشركات الأجنبية والمحلية، ومن ثم لم يبهرنى كثيرا جمال المكاتب وحسن طباعة مجلدات وتقارير الخطة . . .

بمجرد وصولنا إلى جاكارتا عاصمة إندونيسيا تذكرت مصر، وشممت رائحة «الانفجار السكانى» . فالناس تمشى كالنمل فى الشوارع، ومع ذلك فالازدحام فى مصر أكثر وحالة الأتوبيسات أسوأ. على أن أكثر ما ذكّرنى بمصر الاجتماع الذى عقدناه مع وزير المالية وكبار المسئولين فى هذه الوزارة وممثل التخطيط . وأنا على قلة ما حضرته فى مصر من اجتماعات من هذا النوع، أكاد أجزم بأن صورة من هذا الاجتماع لابد أن تتكرر كثيراً فى مصر. فالوزير مرهق، ولا يعرف الإجابة عن سؤال المدير الكويتى عن الكمية التى تنتجها إندونيسيا من البترول، وينظر إلى مساعديه طالبا المعونة . والأكل يقدم لنا مع المشروبات فى اجتماعنا مع المسئولين، والمسئولون يقبلون على الأكل أثناء الاجتماع وكأنه هو الغرض الأساسى منه . وهم دائمو الحديث، بعضهم مع بعض، خلال الاجتماع، إما طلبا للمساعدة فى الإجابة عن سؤال صعب أو لمجرد التعليق، وكثيرا ما يكتمون الابتسام . والموظفون الصغار الجالسون لتدوين محضر الاجتماع يبدو عليهم السرور بالارتباك الذى يصيب كبيرهم فى الإجابة عن السؤال، والبديهيات التى يذكرها مدير الصندوق الكويتى يفتحون لها أفواههم تعجبا، وأسئلتهم يوجهونها لملء الوقت لا رغبة فى المعرفة. وقبل حضور ممثل وزارة التخطيط (الذى هو قطعا أقلهم جهلا وأكثرهم ثقة) كانوا يسألون عنه فى قلق خوفا من ألا يجىء، فلما جاء تنفسوا الصعداء . يحيل أحدهم الكلام إلى آخر دون سابق اتفاق، فإذا الذى يقدم على أنه سيتكلم عن ميزان المدفوعات يتكلم عن البنوك. وصور رئيس الجمهورية معلقة فى كل حجرة . . إلخ . ولكننا فى المساء قابلنا فى الفندق نائب رئيس البنك الدولى لشئون آسيا وسألناه عن إندونيسيا فامتدح الحالة فيها بشدة .

على أن ما لفت نظرى فى كلام نائب رئيس البنك الدولى أنه قال إن هناك ثلاثة أو أربعة ملايين من السكان فى جزيرة سومطرة يتميزون بحيوية وديناميكية غريبة

خلافا لبقية السكان، وإنهم مسلمون أصوليون وينتمى إليهم وزير المواصلات، وهو فى رأيه أكثر الوزراء نشاطا وتأثيرا، وإن هذه الفئة يتميز أفرادها بالحزم والصلابة وسرعة البت. . إلخ. وعلقت على ذلك بقولى إن علينا أن ندرس أسباب وجود طائفة معينة داخل كل دولة، تتميز بمثل هذه الصفات (كأهل دمياط فى مصر مثلا) فربما فهمنا شروط نجاح التنمية على نحو أفضل، فأيدنى بشدة.

لا أزال لا أدرى ما الذى يجعل شعبا عجوزا وآخر فتيا؟ ولكنى لاحظت (إن كان لهذه الملاحظة قيمة) أن قوة الشعور الدينى (وليس مجرد التمسك اللفظى بالدين) أكثر وضوحا فى الشعوب الفتية. فالشعور الدينى قوى فى نيبال وتايلاند، بينما يبدو الإندونيسيون والبنجلادشيون وكأنهم لا يبالون بشيء. وكلام نائب رئيس البنك عن قوة الشعور الدينى عند تلك الطائفة فى شمال غرب سومطرة يؤيد هذه الملاحظة».

* * *

تضافرت المنغصات التى قابلتها فى وظيفتى بالصندوق الكويتى، مع اشتداد قوة شعورى بأنى أعيش فى الكويت حياة غير طبيعية، فأصبحت أعيش خلال السنة الأخيرة من سنوات إقامتى بالكويت وكأنى فى انتظار حدوث شيء يدفعنى دفعًا لمغادرتها. وقد حدث هذا بتسلمى دعوة من صديق أمريكى، هو الأستاذ مالكولم كير (Malcolm Kerr) وكان أستاذا للعلوم السياسية فى جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس، ومديراً لمركز الدراسات العربية بها، لقضاء سنة فى تلك الجامعة أجمع فيها بين التدريس والبحث. قبلت على الفور وكأن الأمر لا يحتمل أى تردد. ولكن مدير الصندوق الكويتى كان كريما معى كعادته مع الجميع، فجدّد عقدى، الذى كانت مدته تنتهى خلال سنة إقامتى بالولايات المتحدة، دون أن أطلب منه ذلك، فأعفانى من القلق الذى كان لابد أن ينتج من التفكير فيما يمكن لى أن أفعله بعد انتهاء تلك السنة التى أقضيها بلوس أنجلوس، بعد أن كنت قد فقدت وظيفتى فى جامعة عين شمس بسبب تركى لها بدون إذن.

(١٤)

لـوس أنجلوس

عندما أتيحت لى فرصة لرؤية الولايات المتحدة لأول مرة فى سنة ١٩٧٨ ، كنت أظن أني سأرى فقط صورة مكثفة ومتطوّرة بعض الشيء من المجتمع الأوروبى ، الذى كنت أرى تطوره عاما بعد عام كلما قمت بزيارة أهل زوجتى فى إنجلترا. فإذا بى أشعر بمجرد أن وطئت قدماى أرض الولايات المتحدة وكأنى انتقلت إلى كوكب مختلف تماما عن كوكب الأرض، وأدركت على الفور بأن الذى أراه ليس مجرد «الظاهرة الأوروبية مكثفة» ولكن ظاهرة جديدة بمعنى الكلمة، حتى إنه كثيرا ما يخطر لى ، منذ ذلك الحين، أن وصف «الحضارة الغربية» بهذا الاسم سوف يتضح شيئًا فشيئًا أنه يحجب عن الأنظار حقيقة مهمة للغاية، هى هذا الاختلاف الشاسع بين نمطين من الحياة. صحيح بالطبع أن نمط الحياة الأمريكية نشأ أوروبيا فى الأساس، ولكن قد تكون الحضارة الإنسانية كلها، بهذا المعنى واحدة، إذ ساهم كل من الحضارات فى نشأة حضارة أخرى وتطورها. والتجربة الأمريكية تبتعد شيئًا فشيئًا عن الأصل الذى نشأت عنه حتى أنه عن قريب سوف يصبح من الممكن، بفرض أن هذا ليس ممكنا الآن، الكلام عن «حضارة أمريكية» لها سماتها المهمة التى تميزها عن كل ما عداها.

وجدت المجتمع الاستهلاكى متطورا إلى درجة مذهلة فى الولايات المتحدة، ولكنى وجدت أيضًا شيئا آخر لعله كان بدوره نتيجة لنمو المجتمع الاستهلاكى وانتشاره. هذا الشيء الآخر بلغ فى تطوره حدًا خطيرًا لم يكن من الممكن للعين أن تخطئه فى الولايات المتحدة، حتى إذا فات المرء الانتباه إليه فى المجتمعات الأوروبية. وأقصد بهذا «الشيء الآخر»، وبعكس الشائع عن الولايات المتحدة:

أفول الفردية وشيوع نوع من التفكير الشمولى الذى يطبع مختلف جوانب الحياة الأمريكية.

كنت قد قرأت رواية جورج أورويل (١٩٨٤) قبل ذهابى للولايات المتحدة بعدة سنوات، وكنت أعرف أن الرأى الشائع أن هذه الرواية وضعت أساسا لنقد النظام الشمولى فى الاتحاد السوفيتى، فالأخ الأكبر هو ستالين، وبوليس الفكر هو جهاز المخابرات الروسى.. إلخ. ولكنى وجدت فى الرواية أكثر من هذا بكثير، وقراءتى لأعمال أخرى لأورويل جعلتنى أعتقد أن ما كان يقلقه لم يكن النظام الشمولى السوفيتى أو الشيوعى فى حد ذاته، بل قدرة المجتمع التكنولوجى على قهر الفرد، وأن نمو قوة الدولة إنما هو نتيجة حتمية لنمو قدرة المجتمع التكنولوجية، وأن أورويل كان حريصًا جدًا على إتمام الرواية قبل أن يموت لأنه كان يشعر بأن من واجبه أن يحذر الناس من خطر يمكن جداً أن يحدث رغم انتصار الحلفاء على النازية والفاشية، وأن الدولة البريطانية نفسها يمكن أن تتحول إلى نظام شبيه بنظام (١٩٨٤) لو لم يأخذ الناس حذرهم ويفهموا الخطر المحدق بهم. فلما ذهبت إلى الولايات المتحدة التى كانت ولا تزال يضرب بها المثل دائما على أنها التجربة المناقضة تماما للتجربة السوفيتية، وأن النظام الديمقراطى فى أمريكا هو نقيض النظام الشمولى الذى يصوره أورويل، إذا بى أجد أن الحقيقة أبعد ما تكون من ذلك.

وجدت فى الأمريكيين أمة، وإن كانت تباهى بتشجيع الفردية والتميز، يعشق أفرادها أن يكونوا أعضاء فى فريق، يفعل كل منهم مثلما يفعل الآخرون، ويهتفون نفس الهتافات ويهيمون بنفس الأبطال أو النجوم. وهم يثقون فى رؤسائهم أكثر من اللازم ويقبلون ما يقال لهم بدون شك أو تمحيص، وهو ما يسهل مهمة الدولة فى حكمهم، إذ يبدو الأمريكيون وكأنهم أسهل أمم العالم حكما، وأكثرها انقيادا. يمكن أن تغير وسائل الإعلام مسار الرأى العام من اتجاه إلى نقيضه بمجهود بسيط، ولا يحتاج الأمر إلى استخدام الكثير من الحجج والبراهين، كما يحتاج هذا فى أوروبا، بل يحتاج فقط إلى بعض الإلحاح واستخدام نفس أنواع المؤثرات التى تستخدم فى الدعاية للسلع، وهى مؤشرات لا تخاطب المنطق بقدر ما تخاطب

اللا شعور . قرأت فى أول رحلة لى للولايات المتحدة مقالا «لناعوم تشومسكى» الذى يحمل عنوانا يلخص مضمونه وهو «حدود التفكير المسموح به» (Boundaries of Thinkable Thought)، وكنت أرى يوميا فى أمريكا ما يؤكد لى أن هناك مثل هذه الحدود التى لا يسمح بتخطيها، ليس فقط فى الفعل والكلام، بل وفى مجرد التفكير . لقد فسرت هذه السمة من سمات الحياة الأمريكية بما يتيحه التطور التكنولوجى أمام الشركات وأصحاب الأعمال من نشر الفكرة الواحدة والشعور الواحد بين الملايين من الناس فى نفس الوقت، وباتساع السوق الأمريكى الذى سمح بأن تستخدم وسائل التكنولوجيا المتقدمة فى أمريكا قبل غيرها . وسلطان الدولة، الذى يبدو ضعيفا ولكنه فى الحقيقة أقوى فى أمريكا منه فى الكثير من الدول المسماة بالشمولية، مستمد من قوة الشركات وأصحاب الأعمال . ومن ثم فليس صحيحا الظن بأن الخطر الذى يهدد الحرية الفردية واستقلال الرأى إنما يأتى فقط من ازدياد قوة الدولة، كما يظهر مثلا فى رواية ١٩٨٤، بل قد يأتى أيضا من ازدياد قوة الشركات وأرباب الأعمال الذى قد يؤدى إلى ازدياد سلطان الدولة .

لم أتحمس قط إذن لما يسمى بالديمقراطية الأمريكية بل وجدت فيها الكثير من الزيف والادعاء، إذ اعتبرت أن أقل أنواع النظم حرية وديمقراطية هى تلك التى يظن فيها الناس بأنهم أحرار ويتمتعون باستقلال الرأى والفكر دون أن يكونوا فى الحقيقة كذلك . بل اعتبرت أن مصر وأمثالها، مما شاع اعتبار نظام الحكم فيها شموليا، وهو بالفعل كذلك، قد ينعم أهلها بدرجة أكبر من الاستقلال وحرية التعبير عن النفس، مما يتمتع به الأمريكيون، لمجرد أن المصريين لا يعتريهم أى شك فى أى وقت فى زيف ما يزعمه نظامهم من ديمقراطية، ولا تثير فيهم الدعاية السياسية من خلال وسائل الإعلام إلا السخرية المعلنة أو الصامتة، بينما يبدى الأمريكيون استعدادا مدهشا لقبول ما تقوله لهم وسائل الإعلام .

* * *

كان ذهابى إلى الولايات المتحدة فى ١٩٧٨ كما ذكرت، تلبية لدعوة من الأستاذ الأمريكى «مالكولم كير» الذى كان وقتها مديرا لمركز بحوث عن الشرق

الأوسط يحمل اسم المستشرق «فون جروناباوم»، في جامعة كاليفورنيا بـ«لوس إنجلوس». وكان المطلوب مني قضاء عام دراسي في تلك الجامعة أقوم خلاله بتدريس بعض المقررات في التنمية واقتصاديات الشرق الأوسط، مع القيام في نفس الوقت بكتابة بحث عن الاقتصاد المصري ينشر ضمن مجموعة من البحوث عن التطورات الحديثة في اقتصاديات البلاد العربية. وقد رحبت بالدعوة بشدة، ولم أتردد لحظة في قبولها، ففضلا عن فرصة رؤية الولايات المتحدة لأول مرة (أو ما تكاد تكون أول مرة، إذ حدث أن زرت في نفس السنة مدينة «ماديسون» بولاية «ويسكونسن» للاشتراك في ندوة عن سياسة الانفتاح الاقتصادي)، كان شعوري قد أصبح قويا جدا بضرورة الرحيل عن الكويت.

وقد حققت هذه الرحلة إلى الولايات المتحدة الغرض منها: كتبت بحثا بالعربية أولاً نشر في صورة كتاب بعنوان (المشرق العربي والغرب)، ثم بالإنجليزية في كتاب مشترك بعنوان: الدول الغنية والفقيرة في الشرق الأوسط (Rich and Poor Countries in the Middle East)، والأهم من ذلك هو تعرفي على نمط الحياة الأمريكي مما لابد أن ترك أثرا عميقا في نفسي استمر معي حتى الآن، وساعد على بلورة أفكاري عن الحضارة الغربية والتغريب.

لم يكن انطباعي عن نمط الحياة الأمريكي إيجابيا بالمرة، وعلى الرغم من أني مع الوقت أصبحت أكثر استعدادا للاعتراف بأوجه إيجابية فيه، فإن موقفي السلبي منه لا يزال هو الغالب ولا يزال باقيا معي حتى الآن. كنت على استعداد، ولا أزال، للاعتراف بفضل التجربة (أو الحضارة) الأمريكية في الارتفاع بمستوى معيشة الشخص العادي أو المتوسط، ليس في أمريكا وحدها بل في العالم ككل. فالنموذج الأمريكي موجه في الأساس لخدمة الرجل العادي والمرأة العادية، متوسطي الذكاء والخيال والخلق، وهذا في رأيي هو السبب الحقيقي وراء انتشار النمط الأمريكي في الحياة، في مختلف بقاع الأرض، انتشار النار في الهشيم، وهذا هو سر جاذبيته. ولكن الوجه الآخر لهذا النجاح هو ما تتسم به الثقافة الأمريكية بوجه عام من تراجع مختلف أنواع الثقافة الرفيعة أمام ذلك التيار الكاسح الذي يخاطب أكثر نوازع الإنسان سطحية، والاستعداد للتضحية بالكيف لحساب

الكم، وإهمال ما لا يمكن قياسه وحسابه بالأرقام لصالح التقدم المادى البحت الذى يمكن قياسه وحسابه.

كرهت أيضًا ما لاحظته من ميل متأصل فى نفس الأمريكى لتفضيل كل ما هو مصنوع، طالما أنه قد صنع بمهارة، على كل ما هو طبيعى. وبدا لى أن للأمريكى غراما لا حد له بإثبات تفوقه على الطبيعة وقدرته على الاستغناء عنها. واستغربت بشدة كيف يمكن فى بلد تسخو فيه الطبيعة هذا السخاء على الإنسان أن يبدى الإنسان نحوها كل هذا العداء؟ رأيت مثلا فى ولاية كاليفورنيا، التى قضيت فيها معظم فترة إقامتى بالولايات المتحدة، ولا تكاد تضاهيها ولاية أمريكية أخرى فى جمال مناخها واعتداله على مدار العام، أنى أدخل بناء بعد آخر، ومقهى أو مطعما تلو الآخر، فماذا أجد؟ أجد النوافذ مركبة على نحو يجعل من المستحيل فتحها، أو مصنوعة من زجاج ملون يحجب ضوء الشمس عما وراءها، وأجد أجهزة تكييف الهواء شائعة الاستعمال على نحو يخيل إليك معه أنك فى أشد بلاد العالم حرارة وأقساها مناخا، وأجد المصابيح الكهربائية مضاءة فى وضح النهار، ولم لا؟ فقد يكون ضوء الشمس أشد قليلا أو أخف قليلا مما تريد فى لحظة بعينها، والحرارة أشد قليلا أو أخف قليلا مما تحب وتشتهى فى ساعة معينة من ساعات النهار أو الليل!

ثم ما هى هذه المعجزة الشهيرة فى كافة أنحاء الأرض، المعروفة بـ «ديزنى لاند» أو مدينة ملاهى ديزنى، فى جنوب لوس إنجلوس؟ مساحة فسيحة من الأرض تقوم عليها مبان متناثرة تقدم لك وسائل مختلفة للترفيه والتسلية، رائعة التنظيم والتنسيق حقا وبالغة النظافة والبهاء، ولكن شيئا واحدا يجمع فيما بينها: محاولة الإنسان الأمريكى أن يثبت أنه قادر على منافسة الطبيعة والتفوق عليها. ففى مكان منها يحاول مدرب سخيف أن يقنعك بأنه قادر على أن يجعل فرس البحر يأتمر بأمره، يرقص أو يلعب بالكرة أو يقبل امرأة جميلة نصف عارية. وفى مكان آخر تستقل مركبة تدور بك بسرعة بالغة المفروض أن تشعر معها بأنك تحوم فى مركبة فى الفضاء. والمكان كله لا نهاية فيه لما يبدو وكأنه حيوانات وليست فى الحقيقة كذلك، وطيور ليست بالطيور، وأشجار ليست بأشجار. فإذا أعياك هذا كله وذهبت إلى

مكان لتناول الطعام، فإنك ستجلس إلى مائدة تبدو وكأنها مصنوعة من الخشب ولكنها ليست كذلك، وسوف يقدم إليك شيء شبيه بالطعام ولكنه ليس طعاما، إذ إن من بين ما يغرم به الأمريكي أن يصنع لبنا خاليا من الدسم، وسكرا لا يحتوى على مادة سكرية، وخبزا لا يؤدى إلى السمنة، وقهوة لا تحول دون النوم.

فى حديقة أخرى من حدائق لوس أنجلوس رأيت شيئا مدهشا، ولكنه أيضًا أمريكى مائة بالمائة. كان هذا هو «سيرك الطيور»، وهو مسرح صغير يمكنك فيه أن تشاهد عرضا بالغ المهارة لا يختلف عن السيرك المألوف إلا فى أن أبطاله من الطيور وليسوا فيلة أو أسودا. وفيه ينتزع المروض التصفيق من الحاضرين لدى رؤيتهم طائرا، مثل الحمامة أو الديك أو الببغاء، رائع الألوان، وبالغ المهابة والجمال، يقف على قدم واحدة، أو يتسلق سلما، أو يخطو فوق مكعبات دون الوقوع فيما بينها من مسافات، أو يقوم بمختلف الألعاب البهلوانية وينحنى للجمهور لدى تصفيقه له فى نهاية العرض.

وقد ذكرنى هذا المنظر ببلادنا الفقيرة، وبما صنعه بنا الرجل الغربى مما يشبه ما صنعه المروّض الأمريكى. فها هى طيور لا تقل عن مروضها فى قدراتها وإمكانياتها ولكنها تفوقه مهابة، فهى تستطيع الطير حيث لا يستطيعه، وهى تهتم بصغارها حيث لا يبدى اهتماما كافيا بصغاره، وهى لا تكذب أو تنافق فى سبيل حصولها على الرزق، ولكن المروّض لا يريد أن يعترف لها بفضل إلا إذا نجحت فى تقليده، واستطاعت الوقوف على قدم واحدة ولعبت كرة القدم، وأظهرت من القدرات ما ليس لديها أدنى استعداد له أو حاجة إليه.

فى بلد له مثل ما للولايات المتحدة من موارد تبدو وكأنها لا حدود أو نهاية لها، كيف يكون لأهلها هذا الولع بالأرقام والحساب؟ أم أن وفرة الموارد كانت هى ذاتها دافعا لهذا الولع؟ ذلك أنى لم أصادف شعبا يستخدم فى كلامه العادى قدر ما يستخدمه الأمريكى من أرقام، ولا من هو أشد منه غراما بالتعبير الرقمى. فأسعار السلع بأجزائها العشرية، وسعة سيارته من البنزين، وعدد الأميال بين مكان وآخر، والوقت الذى تستغرقه رحلة أو تأدية عمل، حاضرة فى ذهنه دائما، يخطرك بها

دون أى جهد ويقارن بينها دون مشقة. والرجل لا يوصف بأنه طويل أو قصير، ولكن يقال لك إن طوله خمس أقدام وبوصتان، والمكان لا يوصف بأنه بعيد أو قريب وإنما تخبر عما تستغرقه الرحلة إليه من الدقائق بالسيارة أو بالطائرة. والشيء الذى لا يمكن حسابه بالأرقام يفترض ضمنيا أنه لا يستحق الاهتمام.

وقد لا يبدو فى هذا الميل الواضح إلى التعبير الرقمى غضاضة لولا أنه انعكس فى فكرة الأمريكى عن «الكفاءة». فالكفاءة لدى الأمريكى هى بوجه عام إنتاج أكبر قدر بأقل تكلفة، أو القيام بأكبر عدد من الأعمال فى أقل وقت ممكن، دون اهتمام كبير بالآثار التى لا يمكن تقديرها تقديرا رقميا. فما أسهل على الأمريكى أن يشعر بالرضا إذ يجد سيارته قد قطعت عددا كبيرا من الأميال، أو يجد نفسه قد أنجز عدداً كبيراً من الأعمال، أو زار عددا كبيرا من البلاد، أو شاهد عددا كبيرا من المتاحف، دون أن يعير اهتماما كبيرا لطبيعة الرحلة أو الغرض منها، أو للفائدة الحقيقية من العمل وجدواه، أو لما جناه من معرفة حقيقية بما زاره من بلاد أو شاهده.

فكثيرا ما يبدو لك الأمريكى «كأم العروس.. فاضية ومشغولة» (كما يقول التعبير المصرى الشعبى)، لا يطيق الكف عن الحركة والعمل. وكأن أى عمل مهما كان تافها أفضل من عدمه. لا يطيل البقاء فى مكان لأن فى انتظاره عملا آخر لابد من تأديته. يتناول طعامه بسرعة ثم يقفز إلى سيارته أو يتناوله أمام التليفزيون أو فى السيارة نفسها. فإذا دعاك إلى الغذاء فهو «غذاء عمل»، وإذا فكر فى أن يدعو معك شخصا آخر فلأنه يرى أن من المفيد أن يتعرف أحدكما على الآخر. وهو مغرم بجمع أسماء المعارف وعناوينهم، ويشعر بالفخر لكثرة معارفه واتصالاته هنا وهناك. فإذا زار بلدا فمن المهم ألا يقضى وقتا أطول من اللازم فى مكان واحد، فإذا تعذر عليه استيعابه فليلتقط له الصور. وبرامج التليفزيون الأمريكى تتميز بنفس الطابع: الكثرة على حساب الجودة، والسرعة على حساب العمق. وكثيرا ما يحدث ألا نجد من بين برامج العدد اللانهائى من القنوات التليفزيونية، التى يستمر بعضها طوال ٢٤ ساعة كل يوم، برنامجًا واحداً تشوقك رؤيته، أو فى العدد النهائى من صفحات جريدة الأحد إلا القليل مما يستحق القراءة. فإذا عرض

التليفزيون نقاشا أو ندوة فقلما تجد تعمقا فى التحليل أو إحاطة بالظاهرة التى يدور حولها النقاش من مختلف جوانبها. والمهم فى إعداد الأخبار أن تحتوى النشرة على أكبر عدد من الأخبار دون جهد يذكر فى تحليل أسباب الخبر أو آثاره. صحيح أنك تجد فى الحياة الثقافية الأمريكية الغث والسمين، ويمكنك إذا أردت، الاستماع إلى موسيقى رفيعة والعثور على تحليل جيد للأخبار، ولكن هذا ليس هو الطابع العام للثقافة الأمريكية السائدة.

* * *

تراسلت كالعادة، خلال العام الذى قضيته فى الولايات المتحدة، مع أخى حسين، وها هى مقتطفات من بعض خطاباتى إليه من لوس أنجلوس:

٢٥ / ١٠ / ١٩٧٨

أخى العزيز حسين، تحياتى وأشواقى (. . .)

الجميع يقولون إن لوس أنجلوس ليست أمريكا، أو هى أمريكا كما سوف تكون، فهى رائدة فى كل شىء، فى التكنولوجيا كما فى الجرائم. ولا تتصور صعوبة «حماية» الأولاد من هذا الجو المسموم الذى يحيط بهم من كل ناحية. حتى الأخبار فى التليفزيون لا تستطيع أن تأمن على أولادك منها. فالجو ينضح بالجنس والجريمة والمخدرات. . إلخ. كما أذهلنى أن وجدت كل واحد فى حاله، حتى الطلبة فى الجامعة، ويندر أن تجد أحدا يضحك. هل ألخص لك الصورة كلها فى كلمة واحدة؟ ١٩٨٤ . . هذه هى الخلاصة. لقد كان أورويل يتصور أن ١٩٨٤ هى مستقبل روسيا، ولكن يبدو أن أمريكا سبقتها إلى ذلك. وأعتقد أن أورويل ما كان ليصدّق عينيه لو كان رأى لوس أنجلوس الآن، فربما وجدها قد فاقت خياله. الناس على وشك أن يصبحوا ماكينات، والعائلة لم تعد موجودة، والكل يجرى من أجل الحصول على دولارات إضافية. كل هذا معروف من قبل؟ نعم، ولكنى لم أكن أتوقع أن أجد الحقيقة بهذه الدرجة من القرب من الموجود بالكتب. هذا لا ينفى أننا مبسوطون، وأشتغل الآن بجد على كتاب جديد، أعتقد أنه سيكون جيدا، ولابد أن أنتهى منه قبل عودتى ـ ولكن هذا النزول إلى لوس أنجلوس شبيه بالنزول على القمر!

كانت مشاهدتى لأمريكا والمعيشة فيها بضعة أسابيع كافية لأن أقرر أنه لابد من العودة والاستقرار فى مصر. العودة إلى الكويت تبدو لى من هنا أمرا مضحكا، لا أدرى بالضبط السبب. ولكنى عزمت (نهائيا إن شاء الله!) على العودة إلى مصر فى يوليو، وأن أذهب إلى الكويت لمدة أسبوع خلال الخريف، فقط لأحضر عفشى وأبيع سيارتى. من حسن الحظ أن لنا جيرانًا لهم أولاد فى سن أولادى، ولهم نظرة إلى الحياة فى أمريكا مثل نظرتنا (ولو أنهم أمريكان) ولا يسمحون للأولاد بمشاهدة التليفزيون على الإطلاق. (. . .)

أرجو أيضًا أن تذكر لى ولو كلمة سريعة عن انطباع الناس عن كامب دافيد. (لقد ابتأست كثيرا لها).

* * *

١٩ / ٢ / ١٩٧٩

أخى العزيز حسين، منذ مدة طويلة لم أسمع منك (. . .)

أخبارنا كلها بخير. وقد قضى والد جان معنا ثلاثة أسابيع ووالدتها شهرين. وسافرتْ منذ أيام، وأنا أرحب دائما بزياراتهما لنا بسبب الأولاد أساسا، الذين يفرحون كثيرا بهما. أما أخبار شغلى فقد وجدت بعد أسابيع من وصولى أن المطلوب منى هنا لا يشكل عبئا كبيرا. فالبحث المطلوب يمكن أن أنجزه فى الشهرين الأخيرين. وعندما حضرت بعض محاضرات التنمية الاقتصادية هنا، وهو نفس المقرر المطلوب منى تدريسه خلال الشهرين الحاليين، وجدت أن محاضراتى القديمة فى الجامعة الأمريكية تكفى وزيادة، فلا مستوى الأساتذة ولا الطلبة يتطلب أكثر من ذلك. لهذا عكفت فى الشهور الأولى على إعداد مادة الكتيب الذى كنت ارتبطت بكتابته لمركز دراسات الوحدة العربية (بيروت) وأنهيت إعدادها منذ شهر، وسأبدأ الكتابة هذا الأسبوع، وآمل أن أنتهى منه فى منتصف مايو. ولا أستطيع أن أقول الآن ما مدى رضاى عن المادة التى جمعتها، وسيتضح الأمر عندما أبدأ الكتابة، وسيكون عنوانه فيما أتصور (المشرق العربى والغرب: ١٧٨٩ ـ ١٩٧٥) وهو يتناول أساسا أثر اتصالنا بالغرب فى تعطيل النهضة العربية والوحدة العربية. ومن

الأشياء التى استرعت انتباهى جداً وإعجابى أثناء قراءتى، الحركة السنوسية فى ليبيا ومدى الشبه الكبير بينها وبين الحركة الوهابية وحركة المهدى فى السودان، مما يقطع بأن البلاد العربية لو كانت تركت وشأنها لأثمرت هذه البذور (فضلا عن حركة محمد على فى مصر) نهضة حقيقية.

ومن ناحية أخرى بدأنا، مع طول إقامتنا هنا، نقدّر بعض الجوانب الإيجابية فى الحياة الأمريكية. فالناس هنا بصفة عامة يذكروننى فى طباعهم، بطالب مصرى أرستقراطى لم يصادف مشكلة مادية قط، وتخرج فى مدرسة أجنبية فى مصر: الدماثة والرقة والسذاجة والتفاؤل والبساطة، مع عدم القدرة على تكوين علاقات اجتماعية عميقة، وغيبة أية رغبة فى التحليل وتقليب الأمر على وجوهه. فلعل الأمريكيين هم أكثر الشعوب التى أعرفها بعداً عن أن يوصفوا بالـ intellectuals، بل لعلهم ينفرون من أى جهد ذهنى يُبذل لوجه الله.

والماهية التى أتلقاها هنا تكفى لحياة مريحة وبعض الكماليات القليلة (كالسينما والمسرح) دون أى فائض. ولهذا تجدنى قد سحبت من مدخراتى «الكويتية» لأنفق على شراء السيارة مثلا، وبعض الرحلات التى قمنا بها مع والدى جان. ولكن ما أعتبره أهم أخبارى هو أنى تعاقدت مع الجامعة الأمريكية بمصر على وظيفة أستاذ زائر لمدة سنتين ابتداء من أول سبتمبر القادم. وبمجرد أن وقعت العقد معهم كتبت للصندوق الكويتى بأنى لا أنوى العودة إلى الكويت. لم أتردد كثيراً فى اتخاذ هذا القرار، لأكثر من سبب. فزيادة المدخرات كما تعرف لم تكن أبدا جزءاً من طموحى. وبعد مجيئى هنا بدت لى حياتنا فى الكويت لا معنى لها، خاصة بعد أن أصبحت حياة روتينية خالية من أى جديد. إنى أدرك تماما صعوبات الحياة فى مصر الآن (وقراءة الأهرام هنا تضخّم من شعورى بهذه المصاعب) ولكن الوجود فى مصر الآن بالنسبة لى يحمل من الاحتمالات ما أصبحت الكويت لا تقدمه لى. وإنى أعتبر الجامعة الأمريكية مجرد فترة انتقال يعقبها، إما الرجوع إلى جامعة عين شمس أو إلى جامعة إقليمية كالزقازيق أو المنصورة.

كذلك قررت ألا أكتب بعد الآن إلا باللغة العربية. فقد بلغ سأمى من الأجانب والمستشرقين أقصاه (. . .).

١٩٧٩/٤/١٠

أخى العزيز حسين، تحياتى وأشواقى (. . .)

اكتشفنا بعد أن قضينا هنا بضعة شهور مدى غنى الحياة الثقافية فى لوس أنجلوس. فالتنوع الهائل المعروف عن أمريكا فى السلع موجود أيضًا فى الثقافة. ولكن كما أن من الصعب اختيار نوع القميص الذى تشتريه بسبب وجود آلاف الأصناف، فإن من الصعب الاختيار بين الأصناف العديدة الموجودة فى الثقافة أيضا (. . .) ومع هذا فالناس هنا يجدون الحياة لا طعم لها (كما أن طعامهم أيضًا لا طعم له إطلاقا مهما كانت فخامة المطعم الذى تذهب إليه) وهذا الأمر يحيّرنى جدًا. فأنت تمشى فى الشارع فتجد البيوت غاية فى الجمال، والحديقة المحيطة بكل منزل بديعة التنسيق ولا ينقصها شىء. ومع هذا لا يمكن إلا أن تشعر بأن كل هذا لا طعم له. أنا لا أتعجب إطلاقا عندما أسمع أن واحدا من بين كل ثلاثة رجال هو مدمن خمر alchoholic أو يعانى من اكتئاب مستديم. فأنا لو عشت هنا ستين أو ثلاثًا لابد أن أصبح هذا أو ذاك! كما لا أتعجب من أن تقريبا كل امرأة نقابلها هنا مطلقة. إن الجميع يحاول أن يجد شيئا يعطى لحياته معنى، فإذا لم يجده فى امرأة جديدة أو لم يسمح له دخله بذلك لجأ إلى السكر أو المخدرات. ولكن السؤال: كيف عجز مجتمع بهذا الرخاء عن أن يعطى للحياة معنى؟ إنى أرفض التفسير الذى يقول بأن الرخاء نفسه هو المسئول. لا أعتقد ذلك، ولعلنى أصل إلى رأى قبل رحيلى!!».

* * *

لابد أن أروى هنا قصة مؤثرة ولكنها أيضا ذات نهاية محزنة للغاية، وهى قصة الأستاذ مالكولم كير، الذى كان له فضل ترتيب زيارتى لأمريكا، والذى عرفته عن قرب خلال ذلك العام الذى قضيته فى لوس أنجلوس، وتطور شعورى نحوه إلى شعور عميق بالاحترام والحب، وحزنت حزنا شديدا عندما سمعت بنهايته المأساوية فى بيروت بعد ثلاث سنوات من عودتى من لوس أنجلوس.

كانت أول مرة أقابل فيها مالكولم كير فى سنة ١٩٦٦، عندما اشتركت فى ندوة نظمتها كلية الدراسات الشرقية بجامعة لندن بعنوان «تطور مصر منذ ١٩٥٢»،

وكان هو أيضا واحدا من مقدمى الأوراق لهذه الندوة. أذكره وقد جاء إلىّ خلال الندوة يسألنى عن الكتب العربية التى صدرت عن اشتراكية عبد الناصر ثم وهو يكتب بعناية أسماء هذه الكتب ومؤلفيها بحروفها العربية. لم أره أو أسمع عنه بعد ذلك لمدة ثمانى سنوات، ولكن اسمه ذاع واشتهر خلال هذه السنوات، بين الأكاديميين المشتغلين بالشئون العربية، بسبب نشره لكتاب صغير سرعان ما أصبح يعتبر عملا كلاسيكيا فى موضوعه وهو كتاب «الحرب العربية الباردة» (The Arab Cold War)، الذى حلّل فيه تحليلا بديعا العلاقات العربية ـ العربية منذ صعود نجم عبد الناصر فى منتصف الخمسينات وحتى هزيمته فى ١٩٦٧. عندما أتذكر الآن مستوى الجودة التى حققها هذا الكتاب، وتميّز كتابات مالكولم كير الأخرى، أدرك كم كان الرجل مختلفا عن غيره من مُدَّعى المعرفة بشئون العرب والمسلمين. كان بالإضافة إلى جلده وإخلاصه في العملِ، يملك عقلا نفّاذا مع قدرة على الكتابة السلسة والواضحة التى كثيرا ما تقرب من التعبير الأدبى.

وقد أرسلت إليه نسخة من مخطوطة كتابى (تمدين الفقر) (The Modernization of Poverty) بعد فراغى منه، فقرأه بعناية وكتب لى ملاحظاته المفصلة، وحاول أن يساعدنى فى العثور على ناشر للكتاب. ثم عرض علىّ بعد ذلك ببضع سنوات ذلك العرض الذى أتى بى إلى لوس أنجلوس لمدة عام.

وفى لوس أنجلوس تعرفت على صفات جميلة أخرى فيه: فهو مضيف كريم، وسخىّ بوقته وجهده إذا احتاج أصدقاؤه إليه. ثم بهرنى كمحاضر وخطيب. استمعت له وهو يلقى محاضرة عن الاشتراكية العربية فى جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس، فوجدته يقول لمدة ساعة كلاما عميقا ودقيقا ومنظما، وبأسلوب فصيح، دون أن تكون أمامه أى ورقة تذكّره بما يجب عليه أن يقول. ثم بهرنى مرة أخرى بظرفه وهو يلقى الكلمة الرئيسية فى احتفال أقيم فى نفس الجامعة لإهداء جائزة مرموقة للأستاذ ألبير حورانى المؤرخ المعروف بجامعة أكسفورد.

كان مالكولم كير يجمع على نحو فريد بين منتهى الجدية والإخلاص لعمله، وبين إحساس قوى بالسخرية والمفارقات الكامنة فى الأشياء وفى تصرفات الناس،

مما كان يمنعه من أن يأخذ نفسه بجدية أكثر من اللازم أو أن يبالغ فى أهمية ما يصنعه . ولكن أكثر ما بهرنى فيه شجاعته . فبعد وصولى إلى لوس أنجلوس بأيام قليلة تلقيت منه دعوة للعشاء فى بيته البالغ الجمال فى منطقة باسيفيك بلاسيد (Pacific Palacaid)، المقام فى أعلى جبل وتطل حديقته مباشرة على المحيط . كان قد نشر قبل يوم الدعوة ببضعة أيام مقالا فى جريدة لوس أنجلوس تايمز، مقالا اعتبرته منظمة الدفاع اليهودية (Jewish Defense League) مفرطا فى تحيزه للعرب . وقد قال لى مالكولم كير إن رئيس تحرير الجريدة كان قد حذف بعض العبارات من المقال لهذا السبب، دون استئذان كاتبها . ثم حدث فى الليلة السابقة مباشرة على حفلة العشاء أن قام أفراد من هذه المنظمة اليهودية بإشعال حريق فى سيارته الواقفة أمام باب منزله، واستيقظ هو من نومه على رائحة الدخان المنبعث من السيارة المشتعلة، ثم تلقى مكالمة تليفونية، بعد أن حاول إنقاذ سيارته دون جدوى، من شخص يقول له إن الحريق أشعلته المنظمة اليهودية على سبيل العقاب له والتأديب وعندما سمعت الخبر فى الصباح ظننت أن مالكولم سوف يلغى حفل العشاء المزمع عقده فى نفس المنزل فى المساء، ولكنه قال إن كل شىء سيسير كما كان مخططا . وبالفعل ذهبنا إلى بيته ولم يبد عليه أن الحادث قد ترك فى نفسه أى أثر .

كانت هذه الشجاعة هى بالطبع ما أدت إلى مصرعه، وهو لم يتجاوز الخمسين من العمر . وقد قرأت وسمعت الكثير من الثناء عليه بعد وفاته وعن ظروف مقتله البشعة، ولكنى لم أسمع أحدا يحاول أن ينبس ببنت شفة عمن يمكن أن يكون قاتله أو عن دوافع هذا القتل . كان قد عرض عليه منصب مدير الجامعة الأمريكية فى بيروت فى أوائل الثمانينات أثناء اشتعال الحرب الأهلية، وكان ما نسمعه عن متاعب الحياة اليومية فى بيروت وخطورتها كافيا لإثناء عزم أى شخص عن الحياة فيها . ولكنه قبل الوظيفة، وبعد شهور قليلة سمعنا أن الرصاص أطلق عليه أمام مكتبه فى الجامعة فى بيروت، ولم يتجرأ أحد على أن يقول أو حتى أن يتكهن بشخصية قاتله أو سبب القتل . حتى زوجته، التى كنا نعرفها أنا وزوجتى جيدا، بدت عازفة تماما عن الخوض فى الموضوع، وكنت أشعر شعورا قويا بأنها تخاف أن تقول ما تعرفه .

(١٥)

الجامعة الأمريكية

عندما اتصل بى رئيس قسم الاقتصاد بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، فى أحد أيام سنة ١٩٦٦ ليعرض علىّ تدريس «تاريخ الفكر الاقتصادى»، إلى جانب عملى المعتاد بجامعة عين شمس، قبلت على الفور وبسرور. كان هذا العمل جذابا فى نظرى لعدة أمور. فتاريخ الفكر الاقتصادى كان دائما من أحب موضوعات الاقتصاد إلىّ، ولم يكن تدريسه متاحا لى فى كلية الحقوق إذ لم يكن من المطلوب لدارس القانون أن يعرف من علم الاقتصاد أكثر من مبادئه الأساسية. والتدريس فى الجامعة الأمريكية بالإنجليزية، مما لم يشكل أى صعوبة بالنسبة لى بل كان يتيح لى فرصة التعبير عن أفكار الاقتصاديين الكبار مباشرة كما عبّروا هم عنها دون ترجمة، كما يسمح لى بأن أطلب من الطلبة أن يقرأوا فى المكتبة ما لا أستطيع أن أطلبه من طلبة كلية الحقوق. والجامعة الأمريكية كانت تبدو لى من بعيد عالما جذابا أحب أن أدخله وأكتشف ما فيه، كما أن المكافأة المالية التى كانوا يعرضونها كانت عنصر جذب إضافى يعيننى على تلبية حاجاتى الجديدة التى يعجز عن الوفاء بها مرتب كلية الحقوق الهزيل، وأنا لا أزال أحاول أن أكمل فرش بيتى وأدفع أقساط الثلاجة والفرن.

ولم يخب ظنى فى أى من هذه التوقعات. دخلت مبنى الجامعة الأمريكية بالقرب من ميدان باب اللوق، فإذا بى أجدها كالواحة الصغيرة وسط صحراء واسعة مجدبة. كل شىء فيها هو عكس ما يجرى بخارجها. فبمجرد أن تتجاوز عتبة الباب تجد من النظافة والجمال ما لا تجد مثله خارج الباب. الحديقة يانعة ومبهرة الخضرة والأزهار، مما يعنى أن ثمة شخصا أو أشخاصا لا عمل لهم إلا

سقيها وتنسيقها. والحجرات والممرات نظيفة وتحتوى على كل الوسائل اللازمة للراحة والمساعدة على العمل دون تعكير ودون حاجة مستمرة للشكوى. والبنات الجميلات الناضرات التى تعرف كل منهن، حتى الأقل جمالا، موضع الجمال فيها فتبرزه، ولديها من المال ما يسمح باستخدام كل الأساليب اللازمة لتحقيق ذلك، من شراء الملابس المناسبة لها بالضبط، إلى الذهاب إلى كوافير كفء يساعدها على تحقيق هدفها.. إلخ. الأمر إذن فى مجمله مبهج تمامًا ولا عيب فيه. وهو فى كل هذه الأشياء وغيرها يكاد أن يكون النقيض التام لما كنت أراه فى جامعة عين شمس، حيث يخيّم على الطلبة الحزن والفقر، وحجرات الأساتذة مقفرة لا تحتوى كل منها إلا على مكتب وكرسى، إذ لم يفكر أحد أن يضع على النافذة ستارة جميلة أو على المكتب إناء للأزهار. والأرض بلاط لا يغطيه شىء، وكاف لإصابتك بالبرد إذا قضيت فى الحجرة ساعة واحدة فى الشتاء مما يدفعك إلى العودة إلى منزلك بأسرع طريقة، دون مقابلة الطلاب. والفراشون يخيم عليهم من الأسى وسوء الحال ما يخيم على التلاميذ والأساتذة. ودورة المياه النظيفة الوحيدة فى الكلية كلها موجودة فى الدور العلوى الذى تقع فيه حجرة العميد، وهى الحجرة الوحيدة التى تحتوى على سجادة ومروحة ومقاعد وثيرة. ولكن حتى دورة المياه هذه لها مفتاح يحتفظ به فراش العميد فى جيبه، وهو فراش طويل عريض اختير بعناية ليحرس مكتب العميد، وليفتح للعميد نفسه ولزواره المقربين، باب دورة المياه كلما احتاجوا لذلك. وبنات كلية الحقوق فيهن الجميلات بالطبع، فهن لا يختلفن فى المعدن الذى صنعن منه عن طالبات الجامعة الأمريكية، ولكن ظروفهن كلها لا تسمح بأن يظهر منهن ما قد يكون لهن من جمال: لا الملابس التى يرتدينها، ولا طريقة تسريحة الشعر، ولا المشية المتثاقلة، ولا خوفهن المستطير من أن يقترب منهن أى رجل. بل أتاح لى دخول الجامعة الأمريكية أشياء طيبة أخرى لم أكن أعرفها من قبل. فالمكتبة عامرة بالكتب والدوريات الجيدة، والطلبة يذهبون إلى المكتبة بالفعل ويستفيدون منها ولا يستغربون أن يطلب منهم الأستاذ أن يقرأوا فيها كتابا أو مقالة. والطلبة يقضون الجزء الأكبر من اليوم فى الجامعة، ما بين حضور المحاضرات والقراءة فى المكتبة، أو حضور محاضرة عامة لأستاذ زائر من مصر أو خارجها، أو

رؤية فيلم جيد من الأفلام التى ينظمها ناد للسينما، أو يحضرون مسرحية يمثلها الطلاب أو حفلة موسيقية يقيمونها، كما يستطيعون أن يتناولوا وجبة جيدة من الطعام، أعدت إعدادا جيدا فى مطبخ نظيف. كل هذا كان طلبة كلية الحقوق فى عين شمس محرومين تمامًا منه، ومن ثم فلا شىء كان يستبقيهم فى الكلية بعد انتهاء المحاضرات، أو حتى قبل انتهائها، إذ يصبح الأمر كله ثقيلا جداً على النفس يغرى المرء بمحاولة الهرب منه كلما أتيحت له الفرصة لذلك.

فلما عدت من لوس أنجلوس وأصبحت أستاذا متفرغا بالجامعة الأمريكية ابتداء من سبتمبر ١٩٧٩، أتاحت لى الجامعة الأمريكية أيضا فرصا لتدريس مقررات لم أكن أستطيع تدريسها بكلية الحقوق. فالتنمية الاقتصادية لم تكن مقررا مستقلا من بين مقررات هذه الكلية، ولا الاقتصاد المصرى، بل كان كل منهما، فى أحسن الأحوال، جزءاً يضاف دون تعمق لأحد المقررات الأخرى. وقد قمت بتدريس هذين المقررين، التنمية الاقتصادية والاقتصاد المصرى، لعدة سنوات فى الجامعة الأمريكية. ولكن التجربة المثيرة حقا والتى لم يكن من الممكن تصوّر تطبيقها فى جامعة من جامعات الأعداد الغفيرة فى مصر، هى تدريس مقرر يتكون من نحو اثنى عشر كتابا من الكتب الكلاسيكية فى موضوعات مختلفة، خلال فترة أربعة أشهر، هى طول أحد الفصلين المكونين للسنة الدراسية. كان على الطالب فى هذا المقرر أن يقرأ ويناقش كتبا كلاسيكية من نوع محاورات أفلاطون، ومسرحية من مسرحيات سوفوكليس، واعترافات سانت أوجستين، وكتاب الأمير لماكيافيلى، ومسرحية من مسرحيات شكسبير، إلى جانب بعض فصول من كتاب داروين، والبيان الشيوعى لكارل ماركس وإنجلز، وكتاب صغير لفرويد، وبعض الكتب الأدبية الشهيرة المعاصرة.. إلخ.

وقد اشتركت لعدة سنوات فى تدريس هذا المقرر، وهو ما كان يعنى أن ألقى خلال الفصل الدراسى محاضرة عامة واحدة، لجميع الطلاب الدارسين لهذا المقرر، عن أحد هذه الكتب المختارة. ثم ألتقى بمجموعة صغيرة منهم، يتراوح عددهم بين الثمانية والعشرة، مرتين فى كل أسبوع، لنناقش معا كتاب الأسبوع،

كما ناقش المحاضرة العامة التى سمعناها عن هذا الكتاب. أتاح لى تدريس هذا المقرر أن أقرأ بعض الكتب المهمة والرائعة التى لم أكن قد قرأتها من قبل، وإعادة قراءة كتب أخرى مهمة. وقد أثرت فىّ بوجه خاص كتب بعينها، فبذلت جهدا أكبر من المعتاد فى إعداد محاضراتى عنها، وأحيانا أيضًا فى القراءة فى أمور متصلة بها. من ذلك كتاب الأمير لماكيافيلى الذى وصفه بعض الكُتّاب بأنه «أول رجل عصرى»، فبذلت جهدا فى محاولة فهم هذه العبارة والتدليل على صحتها، وفى الربط بين الكتاب والفكر الاقتصادى الحديث من حيث العلاقة بين الغايات والوسائل. من هذه الكتب أيضًا كتاب ابن رشد «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» فبذلت جهدا فى محاولة فهم الأسباب الحقيقية للخلاف بينه وبين الغزالى. وأعجبت إعجابا فائقا برواية الكاتب النيجيرى المعاصر (أشيبى) «عندما ينهار كل شىء» (Things Fall Apart) وأبرزت فى محاضرتى عنها قضية اصطدام ثقافات العالم الثالث بالحضارة الغربية، وهو ما أبرزته أيضًا عندما حاضرت، أكثر من مرة، عن تلك الرواية الأثيرة لدىّ «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح. كنت قد قرأت مقدمة ابن خلدون قبل اشتراكى فى تدريس مادة تاريخ الفكر الاقتصادى، وأثار حماسى أن أكتشف أن كاتبا عربيا أحرز كل هذا التقدم فى صياغة بعض الأفكار الاقتصادية المهمة قبل آدم سميث بأربعة قرون، وشرحت هذا فى محاضراتى فى تاريخ الفكر الاقتصادى، ولكنى لم أكتشف أهمية كتاب حى بن يقظان لابن طفيل إلا بسبب اشتراكى فى تدريس هذا المقرر عن الكتب الكلاسيكية، واعتبرت هذا الكتاب من الدرر الثمينة، ولابد أن أبى كان قد شعر نحوه شعورا مماثلا هو الذى أدى به إلى تحقيقه ونشره ومقارنته بكتب عربية أخرى فى نفس الموضوع.

* * *

كل هذا جميل وعظيم جدًا، ولكنى مع مرور الوقت وتدريسى سنة بعد أخرى فى الجامعة الأمريكية حتى أصبحت هى مكان عملى الأساسى منذ ١٩٧٩ وحتى الآن، اكتشفت نقاط ضعفها، واتضحت لى مثالب ذكرتنى بمثالب كليتى القديمة فى

عين شمس، وهو ما ذكرنى بحوار طريف دار مرّة بين أبى وأخى الأكبر منذ أكثر من خمسين عاما. كان أخى محمد قد عاد منذ وقت قصير من أوروبا بعد أن قضى فيها عدة سنوات فى الدراسة للدكتوراه. ويبدو أنه فى الأسابيع الأولى التى قضاها فى مصر بعد عودته صادف بعض المتاعب غير المتوقعة، خيب خلالها بعض الناس أمله، أو لم ينفذوا ما وعدوه به، أو استغلوا نسيانه لبعض طرق التعامل فى مصر بسبب غيبته الطويلة. سأله أبى عن أحواله ورأيه عما رآه فى مصر بعد عودته فقال أخى بحزن: «الناس هنا يأكل بعضهم بعضا». ففكر أبى قليلا ثم رد عليه مبتسما «وفى أوروبا أيضًا، وإن كانوا هناك يأكل بعضهم البعض بالشوكة والسكين!».

حدث مثلا، عندما قامت حرب ١٩٧٣، وخشيت إدارة الجامعة الأمريكية أن تلحقها بعض المتاعب من جراء وقوف الولايات المتحدة إلى جانب إسرائيل ومدّها بالأسلحة لتعويضها عما فقدته فى هجوم أكتوبر، أن قرر رئيس الجامعة إغلاقها لأجل غير مسمى، وشكل لجنة من بعض الأساتذة والإداريين لمتابعة الموقف يوما بيوم، وإبداء النصيحة يوميا لرئيس الجامعة بما إذا كان الوضع أصبح يسمح أو لا يسمح بإعادة فتح الجامعة. وأخترت أنا عضوا فى هذه اللجنة التى كانت تجتمع كل يوم، وفى أوقات مختلفة من اليوم، وتحاط بهالة من الاهتمام، إذ يتوقف على قرارها (هكذا كنا نظن) تحديد الموعد الذى تعود فيه الجامعة إلى ممارسة نشاطها. كنت وقتها أكثر سذاجة بكثير مما أنا اليوم، فكنت أظن فعلا أن المقصود بهذه اللجنة ألا ينفرد أحد بالرأى، وأن يكون إغلاق الجامعة أو فتحها بقرار من العاملين فيها أو من يمثلهم. ظللنا نجتمع كل يوم، فى ساعات مختلفة من ساعات الصباح أو المساء، ويجلس معنا دائما نائب مدير الجامعة، وهو مصرى وثيق الصلة بالأمريكين وبالحكومة المصرية فى نفس الوقت، وكنا نعتبر أنفسنا أثناء ذلك أشخاصا مهمين للغاية. ألا يتوقف فتح الجامعة أو استمرار إغلاقها على قرارنا نحن، وعلى تقييمنا اليومى للوضع السياسى؟ كان نائب مدير الجامعة يأتى إلى الاجتماع فى كل مرة، بعد أن يجلس مع المدير ويتناقش معه فى خلوة. وفى أحد الأيام، بعد أن مضت أسابيع على هذه الاجتماعات المهمة، دخل علينا هذا النائب

وأخبرنا أنه آت لتوّه من مكتب مدير الجامعة وقد استقر رأى المدير على أن تفتح أبواب الجامعة غداً، ولم يترك لنا فرصة لمناقشة صواب هذا القرار أو خطئه، فانصرفنا في ذهول ونحن نتساءل عن جدوى كل اجتماعاتنا السابقة اللهم إلا التظاهر بالديمقراطية وتبادل الرأى.

حدث بعد هذا بقليل حادث آخر يستحق أن يروى. كان لأنور السادات، رئيس الجمهورية آنذاك، بنت تقدم لخطبتها أحد أبناء رجل ثرى ومن المقربين للسلطة، وكان وقتها رئيسا لمجلس الشعب. كان هذا الابن قد تخرج لتوّه من الجامعة الأمريكية، ولكن لم يكن قد وجد لنفسه بعد وظيفة يمكن أن تذكر إلى جانب اسمه فى الصحف، عندما يعلن نبأ خطبته لبنت السادات. واستقر رأى الأسرة على أن من الملائم جداً أن تذكر الصحف أن هذا العريس السعيد يشغل وظيفة معيد بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. ولم يكن هناك فى الحقيقة وظيفة بهذا الاسم، فأقصى ما يطمع فيه شخص حديث التخرج فى الجامعة الأمريكية إذا أراد أن يعمل فى الجامعة بعد تخرجه، أن يعين مساعد باحث، أى مساعدا لأحد أساتذة الجامعة لبضع ساعات كل أسبوع بمكافأة بسيطة، ودون أن يؤهله هذا على الإطلاق لوظيفة ثابتة فى هيئة التدريس بالكلية، بعكس وظيفة المعيد فى الجامعة المصرية التى تؤهل صاحبها بعد أن يحصل على الدكتوراه لأن ينضم إلى هيئة التدريس.

كان المقصود بالطبع أن يفهم قارئ الصحيفة المصرية الخبر بهذا المعنى الخاطئ، فيكتسب خطيب بنت السادات الاحترام الواجب. تم الاتصال بمدير الجامعة الأمريكية لإخطاره بالرغبة السامية، فنقلها بدوره إلى رئيس قسم الاقتصاد، وكان شابا أمريكيا يسارىّ الأفكار، وبوهيميا جريئا فى نفس الوقت، فنقل إلينا الخبر بالضبط، وقال لنا إن رغبة مدير الجامعة هى الاستجابة لرغبة رئاسة الجمهورية وأن الأمر بيدنا، نحن أساتذة القسم، لنقرر ما نشاء فيما إذا كنا نقبل تعيين هذا الشاب فى وظيفة مساعد باحث بالقسم. أضاف رئيس القسم إلى معلوماتنا أيضاً الخبر المثير الآتى: وهو أن مدير الجامعة قال له إنه فهم ممن اتصل به من الحكومة المصرية، أن مسألة اعتراف الحكومة بشهادة الجامعة الأمريكية أو عدم الاعتراف بها، (وكانت

مطروحة فى هذا الوقت، إذ لم تكن هذه الشهادة قد حصلت على هذا الاعتراف بعد) تتوقف على قرار قسم الاقتصاد بقبول أو رفض تعيين هذا الشاب المحظوظ .

كان تصرف رئيس القسم شريفًا مائة بالمائة، وإن كان قد وضعنا جميعا فى ورطة لا نحسد عليها . وكان اجتماعا مثيرًا ومسليًا للغاية، ذلك الذى عقدناه فى القسم لبحث الأمر . كنا أربعة أو خمسة بالإضافة إلى رئيس القسم . أما رئيس القسم فقد ترك لنا حرية اتخاذ القرار الذى يرضى ضميرنا . سأل أستاذ مصرى، من بين أعضاء القسم، عما إذا كان هناك متقدمون للوظيفة غير هذا الشاب، فقيل له إن هناك شابا واحدا آخر تقدم لها وهو حاصل على درجات أكبر . فاقترح هذا الأستاذ المصرى أن يعيّن الاثنان منعا للحرج وخروجا من هذه الورطة، فوافقنا على ذلك وتم التعيين . ولكن فوجئنا بعد فترة قصيرة للغاية، لعلها لا تزيد على شهرين من تاريخ نشر خبر التعيين فى الصحف، بخبر استقالة هذا الشاب المحظوظ من الوظيفة التى عيناّه فيها، بعد أن وضعنا كلنا فى هذه الورطة . وسمعنا بعد ذلك إنه اشتغل بعمل أكبر دخلا بكثير يتصل بتجارة التصدير والاستيراد .

* * *

كانت هناك بالطبع أشياء كثيرة مشتركة بين الجامعات المصرية والجامعة الأمريكية . كان من بينها ما لم يكن يخطر لى ببال عندما كنت لا أزال شابا غضا عائدا لتوّه من البعثة . كانت لا تزال لدىّ عندئذ فكرة مثالية أكثر من اللازم وغير واقعية بتاتا عن أستاذ الجامعة، أىّ جامعة، تتعلق بالاهتمام الحقيقى بالعلم، والانشغال المستمر بالقضايا الفكرية، بدرجة تفوق درجة اهتمامه وانشغاله بأى شىء آخر فلما رأيت أساتذة الجامعة عن قرب وجدت أنهم، باستثناء قلة نادرة للغاية، على عكس هذا تماما : رجال من لحم ودم، لهم تطلعاتهم المادية مثل غيرهم، وذوو أهواء وتحيزات صارخة تحكم آراءهم ومواقفهم . والذى وجدته أغرب من كل هذا أن صبرهم على أى مناقشة فكرية حقيقية ضئيل للغاية، وميلهم إلى تقليب الأمور على أوجهها المتعددة ضعيف أو غير موجود أصلا .

لقد تبينت مع مرور السنين، أن مدلول الكلمة الإنجليزية intellectual لا يتوافر

إلا فى عدد قليل جدا من الناس، وتوافره بين أساتذة الجامعة، مصرية كانت أو أمريكية، ليس أكبر بالضرورة منه بين غيرهم، وأن الحصول على الشهادات العالية، كالدكتوراه، من جامعات عظيمة، كهارفارد أو لندن أو أكسفورد أو باريس، لا يدل على أى شيء على الإطلاق فيما يتعلق بهذه الصفة. إن كلمة (intellectual) ليس لها فى الحقيقة مقابل شائع باللغة العربية، فهى بالطبع لا تعنى المتعلم ولا حتى المثقف، بل تشير إلى الانشغال المستمر، أو شبه المستمر، بأمور فكرية، أو رؤية المشكلة الفكرية وراء أى حدث أو ظاهرة من أحداث وظواهر الحياة اليومية (مما عبّر عنه تعبيرا طريفا كاتب إنجليزى كان يصف جورج أورويل، فقال عنه إنه لا يمكنه أن يخرج المنديل من جيبه ليمسح أنفه، دون أن تخطر بباله المشاكل الاخلاقية التى تثيرها صناعة المناديل!). هذه الصفة هى التى راعتنى ندرتها بين أساتذة الجامعة، مصرية كانت أو أمريكية، فإذا بى أجد لديهم نفس نفاد الصبر، عندما تثار أى مشكلة ذات طابع فكرى، الذى يمكن أن تجده عند أى مجموعة من الشباب صغار السن المشغولين بأى أمور صغيرة، أو عند رجال لا يعرفون القراءة والكتابة.

* * *

عندما جاءنى خطاب من الجامعة الأمريكية أثناء وجودى فى الولايات المتحدة فى سنة ١٩٧٩ يعرض علىّ العمل بها، ولم تكن لدىّ وقتها أية نية للعودة إلى العمل بالكويت، وكنت راغبا فى العودة إلى مصر بعد انتهاء عملى كأستاذ زائر بلوس أنجلوس، وجدت العرض ملائما لى تماما، وأرسلت باستقالتى إلى الكويت دون تردد على الإطلاق. خطر لى بالطبع خاطر يتعلق بأن الجامعة أمريكية وليست مصرية، وأن العمل بها قد يكون عملا غير وطنى. لم يكن من الواضح لى قط ما هو بالضبط الشيء «غير الوطنى» فى قيامى بالتدريس فى الجامعة الأمريكية. لقد درّست فيها سنوات عديدة قبل ذلك، أستاذًا لبعض الوقت أحيانًا، ومتفرغا فى سنوات أخرى، ولم أشعر قط بأنى أقوم بعمل غير أخلاقى، أو أنى بذلك أتنكر لوطنى وقومى. كانت الغالبية الساحقة من تلاميذ الجامعة الأمريكية مصريين مائة

بالمائة، ولمست لدى كثيرين منهم شعورا وطنيا قويا، بل لعل بعضهم كانوا يبدون لى أكثر قدرة على التعبير عن هذا الشعور الوطنى، من طلبة جامعة عين شمس مثلا، ربما لأن ما يتمتعون به من رخاء يسمح لهم بالانغماس، ولو بعض الوقت، فى رفاهية المشاعر الوطنية. كما أنى لم ألمس قط من إدارة الجامعة الأمريكية تدخلا فى النشاط السياسى للطلبة أكثر مما لمسته من إدارة جامعة عين شمس، بل كان من الواضح تماما لى أن الحكومة، ومعها إدارة الجامعات المصرية، أكثر حساسية بكثير لأى بادرة احتجاج أو تمرد من طلبة هذه الجامعات منهم لسلوك الطلبة فى الجامعة الأمريكية، لسبب بسيط وبديهى وهو كثرة العدد فى الأولى وقلته فى الثانية. ثم إنى لم أشترك قط فى أى عمل إدارى فى الجامعة الأمريكية يعرضنى لاتخاذ مواقف قد تتعارض مع مشاعرى أو موقفى السياسى. لهذا لم أتوقف طويلا عند ذلك التساؤل عما إذا كان فى التدريس بالجامعة الأمريكية شبهة أى سلوك «غير وطنى».

كان يطوف بخاطرى أحيانا، وإن لم يكن بكثرة، تساؤل عن التدريس بالإنجليزية على الرغم من اعتقادى الأكيد بأن نهضة أى أمة تتطلب تدريس العلوم بلغتها القومية، وتساؤل عما لابد أن يترتب على الدراسة بالإنجليزية فى جامعة هى أمريكية فى نهاية الأمر، من إضعاف التمسك بمختلف مظاهر الثقافة الوطنية. ولكنى لم أكن أيضًا أتوقف طويلا عند هذا التساؤل أو ذاك، إذ كان من الواضح لى أن المرء يصادف يوميا أمثلة لا حصر لها على إهمال اللغة القومية والتنكر للثقافة الوطنية حتى فى مؤسساتنا التى يفترض فيها حماية هذه اللغة وهذه الثقافة، بحيث تبدو أى جريمة قد ترتكبها الجامعة الأمريكية فى هذا الصدد كقطرة فى محيط، أو كذرة صغيرة من الملح تلقى فى بحر مالح واسع، لا يمكن أن تزيده ملوحة. ثم شعرت بأن المزايا المختلفة التى يوفرها لى العمل بالجامعة الأمريكية، تجبّ فى الحقيقة أى عيب من العيوب التى ذكرتها حالا، وأن راحة البال التى أحصل عليها من العمل فى مكان كالجامعة الأمريكية تسمح لى بالقيام بأعمال، لخدمة وطنى وتلاميذى، قد تمنعنى منها ظروف العمل فى جامعة مصرية. كم سررت إذن عندما قرأت قولا لذلك الكاتب الأثير لدىّ (جورج أورويل) يفسّر به إرساله لابنه بالتبنى إلى مدرسة من المدارس الأرستقراطية والمسماة فى إنجلترا Public Schools، على

الرغم من ميوله الاشتراكية وكراهيته للامتيازات الطبقية. قال أورويل تعليقا على ذلك: (نعم أنا ضد نظام Public Schools، وأؤيد إلغاءه، ولكن طالما هو موجود سأظل أرسل ابنى إلى مدرسة من هذه المدارس!). لقد فهمت هذا القول بمعنى تفضيل الواقعية الكاملة على الاستسلام للشعارات المجردة، وبمعنى الاعتراف بأن قدرة المرء منا على أن يحدث بعمله المنفرد تغييرا مهما فى النظام السائد قدرة محدودة جداً، وأنه قد تكون من الحماقة أن يضحى المرء بنفسه، أو بمصالح شخصية مهمة له أو لأسرته، فى سبيل التمسك بمبدأ عام لا توجد أمامه فرصة جدية للتحقق فى المدى المنظور.

ومع ذلك فقد اتخذت بعض الخطوات فى الشهور الأولى التالية لبدء عملى فى الجامعة الأمريكية كأستاذ متفرغ بها فى ١٩٧٩، للتحقق مما إذا كان هناك عمل آخر ملائم لى فى مكان آخر «مصرى مائة بالمائة». فقابلت مدير مركز الدراسات الاجتماعية والجنائية (الدكتور أحمد خليفة) وسألته عن الفرص المتاحة لى للعمل فى هذا المركز، فلم أجد منه تشجيعا ونصحنى أن أبقى حيث أنا. وسألت عن حالة الجامعات الإقليمية وما إذا كان من المناسب أن أتقدم بطلب العمل بها، فكان ما سمعته عن ظروف العمل بها كافيا لصرف نظرى عن ذلك. أما فكرة العودة إلى كليتى القديمة، حقوق عين شمس، فقد بدت مستحيلة من البداية بسبب ما لابد أن يترتب عن عودتى إليها من مزاحمة زملاء قدامى فيما يحققونه من دخل من كتبهم الجامعية. وهكذا انقضى العام بعد الآخر، وأنا أدرس فى الجامعة الأمريكية دون انقطاع إلا مرتين، مستفيدا مما تتيحه هذه الجامعة كل ست سنوات، من التفرغ للبحث لمدة سنة كاملة دون تخفيض فى المرتب. كانت نتيجة التفرغ الأول كتابتى لكتاب «قصة ديون مصر الخارجية من عصر محمد على إلى اليوم» ونتيجة التفرغ الثانى كتاب «كشف الأقنعة عن نظريات التنمية الاقتصادية».

* * *

باستثناء السنتين اللتين قضيتهما بعد تخرجى مباشرة فى وظيفة بإدارة الفتوى والتشريع بمجلس الدولة، والسنوات الأربع التى قضيتها فى الكويت كمستشار

اقتصادى للصندوق الكويتى، كانت وظيفتى الوحيدة منذ تخرجت هى التدريس فى الجامعة. وأعتقد الآن، كما كنت أعتقد دائما، أننى سعيد الحظ إذ اشتغلت بالعمل الذى يلائمنى تماما. فأنا أكاد أن أكون قد ولدت مدرّسا، أعشق موقف المدرسّ عشقا، ولدىّ القدرة على تبسيط الفكرة المعقدة، وأجد متعة فى توصيلها للآخرين. ومما أغبط نفسى عليه أنى على الأقل لم أجلب البؤس والمعاناة لتلاميذى، إذا حكمت على نفسى بناء على ما أسمعه من رأى تلاميذى فى محاضراتى ومعاملتى لهم. أما فيما يتعلق بدرجة نجاحى فى توسيع مداركهم وزيادة معلوماتهم فأنا أقل ثقة فى نفسى، إذ كنت دائما أخرج من المحاضرة وأنا أشعر بأنها كان من الممكن أن تكون أفضل بكثير، ولكن لعل هذا هو فى حد ذاته دليل على الأداء الجيد فى هذا الأمر أيضاً.

لقد مرّ علىّ الآن أكثر من أربعين عاما منذ ألقيت أول محاضرة جامعية لى فى كلية الحقوق بجامعة عين شمس (١٩٦٤)، فما أكثر إذن ما ألقيت من محاضرات! درّست بالعربية والإنجليزية، لصبية لم يبلغوا العشرين، ولرجال ونساء ناضجين يحضّرون للماجستير، فى جامعات مصرية وأمريكية، فى مصر وفى الولايات المتحدة، كما كنت أحيانا ألقى المحاضرة فى كلية حقوق عين شمس، ثم أذهب بعد انتهائها لإلقائها من جديد على طلبة كلية الشرطة، إذ كانوا يتقدمون لنفس الامتحانات ليصبحوا قانونيين وضباط شرطة فى نفس الوقت. ما أكثر المحاضرات إذن التى ألقيتها فى جامعات مصرية، وكذلك فى بعض الجامعات العربية كبغداد وصنعاء، وما أكثر المحاضرات العامة التى ألقيتها فى داخل مصر وخارجها، فى بيروت ودمشق والكويت وأبو ظبى وعمّان وتونس والجزائر، وفى خارج العالم العربى درّست فى لوس أنجلوس، وألقيت محاضرات عامة فى أكسفورد وطوكيو. وأستطيع بعد هذا أن أقول بكل ثقة «كم هى مهنة رائعة»!

أقول هذا بكل ثقة، ولكنى أعرف أيضا أنها ليست مهنة رائعة فى نظر الجميع. إنى أعرف أشخاصا من أصدقائى ومن أفراد عائلتى ممن أعتبرهم أذكى منى بكثير، أو أوسع ثقافة، أو أكثر نشاطا وأعلى همة، ولكنهم لا يطيقون فكرة أن يشتغلوا ولو

يوما واحدا بالتدريس. بعض هؤلاء يرون فى وظيفة التدريس تكرارا مملا لنفس الكلام عاما بعد عام دون إضافة تذكر. وبعضهم يفضلون توجيه طاقاتهم لمحاولة اكتشاف شىء جديد أو اكتساب معرفة جديدة، على إضاعتها فى محاولة توصيل معلومات معروفة أو نظريات مستقرة إلى آخرين، أو إفهام تلاميذ صغار، بعضهم لا يستحق أصلا بذل أى جهد معه. والبعض يفضل استخدام معرفته وعلمه فى صنع شىء له نتائج عملية مباشرة، كإنشاء مصنع أو إدارته أو استصلاح أرض، على تدريس شروط الإدارة الناجحة لشركة صناعية أو شرح الأنواع المختلفة للتربة أو الطرق المختلفة للرى.. إلخ. لابد أن مثل هذا هو الذى كان يقصده الكاتب الأيرلندى الشهير برناردشو فى عبارته الساخرة من التدريس والمدرسين: «من يعرف كيف يقوم بعمل ما، يقوم به بالفعل، ومن لا يعرف، يقوم بتدريسه».

هناك بعض الصحة، بلا شك، فى هذا القول، ولكنه قاس أكثر من اللازم. فالمدرس ليس دائما شخصا فاشلا دفعه فشله إلى الاشتغال بالتدريس، بل قد يكون دافعه إلى ذلك بعض الصفات الطيبة للغاية، كالتعاطف مع الآخرين، والقدرة على فهم نوازعهم واهتماماتهم، والحساسية لما يحبون سماعه وما يصيبهم بالملل. والشخص المفرط فى خجله من الناس أو خوفه منهم، أو المفرط فى الحساسية، لا يمكنه فيما أظن أن يكون أستاذا ناجحا. وكذلك الشخص الثرثار بطبعه، أو العاجز عن رؤية ما يضحك فى موقف ما، أو الذى يسىء تفسير ما يرتسم على وجوه تلاميذه أو المستمعين إليه.. إلخ. المدرس الناجح يحتاج إلى توافر صفات تقرب من صفات الممثل الناجح: لابد أن يهمه أن يحصل على إعجاب الناس وتصفيقهم، وتسّره بشدة رؤية وجوه المستمعين أو المتفرجين وقد علتها ابتسامة أو تعبيرات الدهشة أو الانفعال، ناهيك بالطبع عن قوة الصوت ووضوح نبراته وبعض الفصاحة. لابد أن بعض هذه الصفات تتوافر فىّ بدرجة معقولة، وإلا ما ظللت راضيا عن نفسى، بل وما استمر اشتغالى بالتدريس طوال هذه السنوات. ولكن لا شك أيضًا أن جزءا من نجاحى كمدرس يرجع إلى توافر بعض النقائص وأوجه الضعف. فقد كان دائما يهمنى رأى الناس فىّ ويهمنى الحصول على تقديرهم أو إعجابهم، بل ويبدو أنى كنت دائما أحتاج إلى ما يؤكد

لى هذا التقدير أو الإعجاب على فترات متقاربة ، وإلا بدأت أفقد الثقة فى نفسى . فكأن كل محاضرة جديدة كانت تعطينى هذه الفرصة ومن ثم أستعد لها تمام الاستعداد ، وأتخذ لها كل وسائل الحيطة وكأنى مقدم على معركة . لاشك أننى لم أكن قط شديد الثقة بنفسى ، وهو على الأرجح شعور ولد معى ولم تفلح ظروف أسرتى ونشأتى فى اقتلاعه . والذى يعانى من مثل هذا الشعور لابد أن يجد مصدراً مهمّا للسلوى والطمأنينة فى عمل كالتدريس أو التمثيل ، وأظن أن التدريس أدّى لى هذه المهمة بكفاءة عالية .

كان من الطبيعى أن أشعر بسرور مضاعف إذا لمست هذا الإعجاب أو التقدير فيما يرتسم على وجوه تلميذاتى ، خاصة الجميلات منهن . لقد كان لدىّ أيضًا شعور دفين منذ سن مبكرة للغاية ، بأن من الصعب جداً أن تعجب بى فتاة أو امرأة . لا أدرى من أين جاء هذا الشعور اللعين الذى لم يفلح قط فى القضاء عليه أى دليل يأتينى على عكسه . ولكن ها هى وظيفة التدريس تعطينى بعض التعويض ، وإن كان تعويضا بائسا للغاية ، عما حرمنى منه هذا الشعور تجاه المرأة . فكم تلقيت من تعبيرات الإعجاب والتقدير على وجوه تلميذات جميلات ، فى كل جامعة قمت بالتدريس فيها ، (باستثناء كلية الشرطة بالطبع حيث كنت ـ لهذا السبب بلا شك ـ أقل إقبالا على التدريس فيها منى فى غيرها) . وكم ظلت رؤية وجه جميل لطالبة معينة أو أخرى ، واستثارة تعبير الإعجاب منه ، حافزا إضافيا لدىّ للذهاب بحماس لإلقاء المحاضرة . وقد اعترف لى مرة أستاذ مصرى كبير بأن شيئا كهذا هو الشىء الوحيد الذى يجعله يطيق مهمة التدريس أصلا . وقال لى أستاذى روبنز مرّة ، فى حجرته بكلية لندن للاقتصاد ، إن الاشتغال بالتدريس به شبه بالزواج من امرأة دائمة الشباب . ولعله كان يقصد أن الأستاذ قد يستمر عاما بعد آخر فى تدريس نفس المقرر لتلاميذ من نفس العمر ، فإذا به يجدد شبابه باستمرار من اتصاله المستمر بتلاميذ لا يشيخون أبدًا . قد وجدت ملاحظته صحيحة ، ولكنى وجدت الملاحظة صحيحة بوجه خاص إذا كان بين التلاميذ بعض الفتيات الجميلات .

هذه الميزة المهمة التى كان يحققها لى التدريس ، وهى الحصول على إعجاب الناس وتقديرهم ، أو بالأحرى التصويت كل فترة وجيزة على تجديد الثقة بى ، ومن

ثم تجديد الثقة بنفسى، لابد أن كثيرين ممن احترفوا هذه المهنة يشتركون فيها معى، ولكنها على أى حال ليست الميزة الوحيدة التى كنت أجدها فى وظيفة التدريس. كان هناك بالإضافة إلى ذلك الحرية الرائعة التى يتمتع بها الأستاذ أكثر من أى موظف آخر، إزاء مرءوسيه، وهم الطلاب، وإزاء رؤسائه، وهم رؤساء الأقسام والعمداء ومديرو الجامعات. فمن المبادئ المستقرة وإن لم تكن مدوّنة، أن الأستاذ حرّ فى اختيار ما يقوله لتلاميذه، واختيار الطريقة التى يريدها للتدريس، وفى وضع ما شاء من امتحانات فى الوقت الذى يروق له، وفى تحديد الكتب التى يطلب من التلاميذ قراءتها.. إلخ. هناك بالطبع حدود لكل هذه الأمور ولكنها حدود فضفاضة جدًا وتترك للأستاذ سلطانا تصعب مقارنته بأى سلطان آخر. هكذا جرى تفسير مبدأ «الحرية الأكاديمية» حتى أصبح الأستاذ ملكا غير متوج، يرفض بإباء وشمم فرض أى قيد على حريته، وأصبح من أصعب الأمور على الطلاب أن يتخلصوا من أستاذ سيئ، إذ من يدرى، ألا يجوز أن يكون أستاذا عبقريا يطبق طريقة فى التدريس لم يسمع بها أحد، ولكنها أفضل فى الحقيقة من أى طريقة أخرى، وقد يؤدى المساس بحريته إلى تعطيل إبداعه وفقد المجتمع لثمار علمه؟

ولكن وظيفة التدريس أتاحت لى أيضًا مزايا أخرى كانت ذات أهمية كبيرة لى. فقد وجدت أن أفضل طريقة لفهم المشكلة المعقدة أن يضطر المرء إلى تدريسها، إذ إن الطلبة رقباء ممتازون على درجة فهم الأستاذ لما يقول، وهذا يجبر الأستاذ، ما لم يكن نصّابا، على فعل المستحيل حتى يصبح قادرًا على مواجهة أى سؤال لتوضيح ما يقوم بشرحه. والأساتذة الذين يتجرأون على أن يتكلموا عن أشياء لا يحسنون فهمها صنف نادر، والعادة أن ينفضح أمرهم. تتصل بذلك ميزة أخرى هى الابتكار، والاهتداء إلى أفكار جديدة. فالمحاولة المستمرة للتعمق فى الفهم استعدادًا لمواجهة التلاميذ كثيرًا ما تقود الأستاذ إلى أفكار جديدة قد يكون بعضها ذات قيمة. والحقيقة أننى مدين للتدريس بكثير من مقالاتى وكتبى، فإذا كان لبعضها بعض النفع فهو بلا شك نابع فى الأصل من خوفى من أن أقول كلاما غير مفهوم.

لكل هذا أعتبر نفسى سعيد الحظ، إذ كانت الوظيفة التى أكسب منها رزقى تجلب

لى كل هذا القدر من السرور والرضا عن النفس. ولهذه الأسباب أيضًا، أكثر من أى سبب مالى، لم أفكر قط فى أن أستبدل بمهنتى مهنة أخرى. حتى المرة الوحيدة التى تركت فيها التدريس للاشتغال بعمل آخر، كمستشار للصندوق الكويتى، كان فى ذهنى دائما أنها تجربة مؤقتة لا يمكن أن تستمر طويلا، وهذا هو ما حدث بالفعل.

* * *

لم أصادف أثناء عملى فى الجامعة الأمريكية الكثير من المشاكل من النوع الذى يثير قضية «أخلاقية». حدث مثلا بعد شهور قليلة من بداية عملى بهذه الجامعة للمرة الثانية كأستاذ لكل الوقت فى أواخر السبعينات، أن التحق بالجامعة، كتلميذ فى السنة الأولى، ابن شاه إيران. كانت الثورة الإسلامية فى إيران قد أطاحت بحكم الشاه ولجأت أسرته فى البداية للإقامة فى مصر خلال عهد السادات صديق الشاه الوفىّ. وكانت الأسرة تعتقد أو تأمل أن تكون الثورة الإسلامية قصيرة العمر، وأن تعود الأسرة إلى إيران فيجلس هذا الابن على عرش أبيه. خلال هذه الفترة لم تجد الأسرة مكانا للابن أفضل من الجامعة الأمريكية بالقاهرة. وكان أحد الفصول التى التحق بها الفصل الذى أدرس فيه مبادئ الاقتصاد. كان يحضر إلى الفصل محاطا بحراسة مشددة ويظل الحراس واقفين خارج الفصل طوال المحاضرة، وحتى يعودوا به إلى منزله. أذكر أنه حضر محاضراتى مرتين أو ثلاثًا ثم انقطع عن الحضور. وبعد بضعة أيام اتصل بى رئيس القسم ليقول لى إن رئيس الجامعة يرجو أن يكون من الممكن أن أذهب لإعطاء ابن الشاه دروس الاقتصاد فى منزله، إذ إن ظروف الابن وصعوبة حراسته تجعل من غير المستحب خروجه يوميا إلى الجامعة. أخبرونى أيضًا بأن بقية الأساتذة الذين يدّرسون له سوف يطلب منهم نفس الطلب، وأن بعضهم قد وافق بالفعل. واستغربت أن أسمع أن أستاذا أمريكيا كبيرا فى العلوم السياسية قد وافق على أن يذهب لإعطائه الدروس فى منزله، كما لم تعارض زميلة مصرية. لم يطل تفكيرى فى الأمر وسرعان ما رفضت. طبعا مرت بخاطرى صورة بعض السجاد الإيرانى وهو يصل إلى بيتى كهدية، أو شىء

ثمين آخر، ولكنى اعتبرت المسألة واضحة كالشمس، وأن الرفض هو الموقف الوحيد اللائق. بدت فى الأمر إهانة لا شك فيها للأستاذ، وتذكرت القصة التى حكاها لى د. عبد العظيم أنيس، أستاذ الرياضيات الجليل، عندما كان مكلفا بوضع أسئلة الثانوية العامة فى الرياضيات فاتصل به مكتب رئيس الجمهورية، وكان الرئيس فى ذلك الوقت أنور السادات، ليطلب منه أن يعطى دروسا خصوصية فى الرياضيات، لابن الرئيس. وكان الغرض بالطبع محاولة إغرائه بأن يساعد الولد على اجتياز الامتحان بتدريبه، على نحو أو آخر، على الإجابة على نفس الأسئلة التى سيتضمنها الامتحان. فلما اعتذر د. عبد العظيم عن القيام بهذه المهمة شارحًا لهم السبب، وهو أنه هو الذى يقوم بوضع الامتحان، لم يروا بالطبع وجاهة هذا العذر، إذ إن هذا العذر بالضبط هو ما جعلهم يطلبون منه القيام بالمهمة. رشح لهم د. عبد العظيم أستاذا آخر وامتدح قدراته وكفاءته، فاضطروا للتظاهر بالموافقة ولكن انتهى الأمر بأن سيارة من رئاسة الجمهورية كانت تذهب لإحضار الأستاذ إلى منزل الرئيس، يوما بعد يوم، ثم ترك الأستاذ ساعة أو أكثر فى حجرة الاستقبال، يقدم له خلالها مشروب بعد آخر، وتنتهى بأن يأتى شخص ليعتذر للأستاذ بأن التلميذ مشغول اليوم بحفلة عيد ميلاد مهمة أو بأى عذر طارئ آخر. تصوّرت الأستاذ المسكين، أثناء عودته ذليلا إلى منزله وحجم الندم الذى لابد أن يكون قد شعر به إذ قبل أن يقوم بهذه المهمة. ولم أستطع أن أتصور أن أضع نفسى فى مثل هذا الموقف. لم يلحّ علىّ أحد فى القبول، ولا أعرف ما إذا كان قد ذهب شخص آخر بدلا منى أو لم يذهب، ولكن لم تمض شهور قليلة حتى سمعنا أن أميرة الشاه قد تركت مصر بأمرها لتعيش فى مكان آخر.

* * *

ظل التدريس مصدراً لسرورى وتجديد رضاى عن نفسى عاما بعد عام، ولا يصيبنى منه السأم. ولكنى لاحظت أننى فى محاضراتى أميل أكثر فأكثر، مع تقدمى فى السن، إلى النفور من الخوض فى التفاصيل، ومن شرح نظريات وموضوعات كنت أعتبرها مهمة فى الماضى، فأصبحت أعتبرها قليلة أو عديمة القيمة، وإذا بى أشك فى قيمة تدريس كثير من النظريات المشهورة، التى ربما استمدت فتنتها من

أناقتها ودقتها دون أن يكون لها أى قيمة عملية، فدراستها ليست إذن أكثر من تمرين عقلى يمكن أن يحصل الطالب على نفس منفعته من أشياء أخرى قد لا تكون لها صلة بالعلم. لاحظت أيضًا زيادة اهتمامى بأن أذكر فى محاضراتى، أكثر فأكثر، الجوانب الشخصية للاقتصاديين الكبار الذين ندرس أفكارهم، كبعض المعلومات المدهشة عن تعليم جون ستيوارت ميل وشخصية أبيه، أو عن علاقة كينز ببعض الكُتّاب المشهورين من أعضاء جماعة بلومزبيرى، وحرص فرجينيا وولف على معرفة رأيه فى رواياتها، أو عن علاقة والد مالتس بجان جاك روسو.. إلخ. الطلاب يحبون دائما، بالطبع، أن يتطرق المحاضر إلى مثل هذه الأمور، ولكنى أصبحت أميل مع تقدمى فى السن إلى إعطائها أهمية أكبر من ذى قبل، بل وبدأت أشعر أن تأثير مثل هذه المعلومات فى النفس قد يكون أعمق وأكثر دواما، وربما أيضًا أفضل وأجمل، من تأثير المعرفة بالنظريات العلمية نفسها.

قد يؤيد هذا أننى لا أزال أتذكر حتى الآن ما قد يكون قد قاله أستاذ قديم لى، فى إحدى محاضراته، عن شىء لا علاقة له بالعلم الذى كان يدرسه، ولكنه يتعلق بجانب إنسانى أو أخلاقى عام. ومنذ وقت قريب وقع بيدى كتاب أستاذى القديم ليونيل روبنز، الذى أشرف على دراستى للماجستير فى إنجلترا، عن تاريخ الفكر الاقتصادى، وهو كتاب استخرجه تلاميذه مباشرة من محاضراته التى ألقاها بعد أن تجاوز سن الثمانين، وتعتمد اعتمادا كليا تقريبا على تسجيلات هذه المحاضرات، مع الحرص على عدم إجراء أى تعديل مهم عليها، إلا ما كان منها ضروريا تمامًا لاستقامة المعنى أو استكمال الجملة. لفت نظرى أن هذا الكتاب (أو هذه المحاضرات) كان مليئا بمثل هذه القصص والأخبار عن جوانب شخصية بحتة للاقتصاديين الذين يتكلم عنه، والتى تكشف عن جوانبهم الإنسانية، الصالح منها والطالح، أكثر مما تكشف عن مساهماتهم الفكرية. قلت لنفسى: «وما الذى نتوقعه غير ذلك؟ رجل يلقى محاضراته بعد أن تجاوز الثمانين، أى بعد أن اكتشف ما هو المهم فى الحقيقة وما هو غير المهم، فاتجه أكثر فأكثر إلى الحديث فقط عما ينفع الناس. ويمكث فى الأرض».

(١٦)

«ماذا حدث للمصريين؟»

فى أعقاب توقيع أنور السادات الاتفاقية المعروفة باسم «اتفاقية السلام» مع إسرائيل فى مارس ١٩٧٩، أصبحت كلمة «السلام» فجأة من أكثر الكلمات تداولا فى مصر، فأصبح رئيس الجمهورية الذى وقع الاتفاقية يوصف بأنه «بطل السلام»، وأحيانا «بطل الحرب والسلام»، وأعلن عن أن ترعة جديدة ستشق لتوصيل مياه النيل إلى سيناء وأطلق عليها «ترعة السلام»، وشاع استخدام «السلام» كاسم للمحلات والمطاعم والفنادق الجديدة. وكان لابد أن تمتد الظاهرة لتدخل فى مقرراتنا التعليمية أيضًا.

ففى صيف ١٩٨٠، عادت ابنتى من امتحان الشهادة الابتدائية الذى جلس فيه أكثر من ٦٠٠ ألف تلميذ وتلميذة متوسط أعمارهم ١١ ـ ١٢ سنة، ودخل معهم أكثر من نصف مليون أسرة مصرية تمثل أكثر من ٥٪ من مجموع الشعب المصرى. وأصابنى الذهول عندما قرأت ورقة امتحان اللغة العربية.

فالامتحان يتكون من عشرة أسئلة (بما فى ذلك أسئلة الخط والإملاء) كانت أربعة منها تتعلق بالسلام. فسؤال المحفوظات يبدأ بالعبارة الآتية «أشرقت يا يوم السلام»، وسؤال النحو يطلب إعراب «رفرفت راية السلام»، والفعل المضارع المطلوب استخراجه من القطعة هو «يشيد العالم بحب مصر للسلام»، والموضوع المختار من موضوعات القراءة المقررة يتكلم عن استرداد مصر لقناتها «لتثبت للعالم رغبتها فى السلام». بل ولم يجد واضعو الامتحان فى القرآن الكريم ما يطلب من التلاميذ شرحه إلا «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا»، ولم يجدوا فى السيرة النبوية إلا أن «مولد الرسول صلى الله عليه وسلم كان يوم السلام».

استبد بي الغضب لدى قراءة ورقة الامتحان وجلست لكتابة مقال تساءلت فيه عن الدافع الذى يجعل الممتحن يتصور أنه ليس هناك قيمة من القيم تستحق الاهتمام والغرس فى نفوس التلاميذ غير تلك التى تتعلق بقضية سياسية، وعما إذا كان الدافع إلى اهتمام الممتحنين بها هو دافع آخر غير مداهنة الحكام. وأرسلت المقال إلى جريدة الأهرام اليومية ولم أستغرب أنه لم ينشر. فقبع المقال فى أحد أدراجى حتى حاولت مرة أخرى بعد نحو سنة ونصف، إذ أرسلته بالبريد العادى لمجلة «الأهرام الاقتصادى» التى كان يرأس تحريرها رجل شجاع ووطنى هو د. لطفى عبد العظيم، وكم كان سرورى عندما فوجئت برؤية المقال منشورا بالمجلة (فى عدد ٢٥ يناير ١٩٨٢)، وعنوان المقال على غلافها. ولم أستغرب نشر المقال هذه المرة، إذ كان رئيس الجمهورية قد قُتل قبل نشر المقال بنحو أربعة أشهر، ولأسباب ليست منبتة الصلة باتفاقية «السلام».

كما هى عادتى، لم أتأكد من أن المقال جيد إلا عندما قال لى بعض من قرأه إنه جيد، وكانت هذه بداية شعورى بأننى قد أكون أكثر من اقتصادى. كان هذا منذ ٢٤ عامًا، ولم أتوقف منذ ذلك الوقت عن الكتابة فى الأمور العامة، وكأنى عثرت فجأة، عن طريق كتابة هذا المقال ونشره، على حرفتى الأصلية التى تنكرت لها منذ قررت دخول كلية الحقوق وأنا فى السادسة عشرة من عمرى. شجعنى بالطبع على الاستمرار فى كتابة هذه المقالات الاستقبال الجيد الذى حظيت به مقالاتى التى نشرتها بعد ذلك فى مجلة الأهرام الاقتصادى ثم فى جريدة الأهالى، بعد عودة جرائد المعارضة التى أغلقها السادات إلى الظهور. كانت أفضل هذه المقالات، فى رأيى، تلك التى تجمع بين الخاص والعام، أى بين تجربة شخصية خاصة بى ومشكلة عامة ذات مغزى، تتعلق بأحوال مصر والمصريين. كان مقالى عن أسئلة امتحان الابتدائية من هذا النوع، إذ جمعت فيه بين تجربة ابنتى الشخصية والفساد الذى ينطوى عليه إجبار التلاميذ على التعبير عن موقف سياسى خاطئ اتخذته الحكومة، كما كان من هذا النوع أيضًا مقال آخر لى بعنوان «مذكرات مثقف مصرى عن وقائع تجديد رخصة سيارته»، احتوى على وصف مفصل، خطوة خطوة، لمعاناتى فى تجديد رخصة سيارتى، وهى معاناة استمرت أربعة أيام كاملة انقطعت فيها تمامًا عن

العمل للتفرغ لتجديد الرخصة، ولكنه يلخص أيضًا مشكلة عامة هى ما يعانيه المصريون جميعا فى تعاملهم مع البيروقراطية المصرية.

تبين لى بكتابة مقال بعد آخر من هذا النوع أن هذا هو أحب أنواع الكتابة لىّ، لا الكتابة فى الاقتصاد ولا فى السياسة ولا فى أى موضوع آخر ما لم أستطع مزجه بتجربة خاصة لى. ثم تبينت أيضًا أن كتابة هذا النوع من المقالات هو فى الحقيقة أكثر ما يجلب لى السرور على الإطلاق، أكتبه بلا عناء وباستغراق تام وبذلك النوع من السرور الذى يجلبه التعبير الحرّ عن النفس. كانت عملية الكتابة نفسها مصدر سرور يفوق ما تجلبه لى رؤية المقال منشورا، بل ويفوق ما يجلبه ثناء أسمعه أو أقرأه على المقال. نعم كان هذا وذاك يسراننى بالطبع، ولكنه سرور قصير العمر سرعان ما يزول، أما السرور الذى يجلبه التفكير فى موضوع المقال ووضع خطته ثم كتابته، فهو، كما تبينت، الأكثر حدوثًا والأطول عمراً.

مع تكرار تجربتى فى الكتابة والنشر استقر فى ذهنى أن من الممكن بالعمل أن أصبح «كاتبا»، أى أن أحقق ذلك الأمل القديم الذى بدأ يراودنى منذ مطلع الصبا، ولكنه كان حينئذ أقرب إلى حلم من أحلام اليقظة. وقد زادت ثقتى بذلك شيئا فشيئا بنشرى كتابا بعد آخر فى موضوعات غير اقتصادية، واستقبال بعض هذه الكتب استقبالا حسنا من القراء. ولكن الذى رسّخ هذه الثقة بنفسى ككاتب، هو النجاح الذى حققه كتاب «ماذا حدث للمصريين؟»، وهو نجاح، وإن كان قد جلب لى الكثير من الفرح، أثار لدىّ أيضًا الكثير من الغيظ.

بدأت قصة هذا الكتاب فى سنة ١٩٩٦ بطلب من صديقى مصطفى نبيل، عندما كان رئيسا لتحرير مجلة الهلال الشهرية، بأن أساهم بمقال فى ملف بعنوان «ماذا حدث للمصريين؟» دلى فيه عدد من كتاب الهلال، كل بدلوه، فى الإجابة عن هذا السؤال من أى زاوية يشاء، إذ قدرت المجلة أننا، ونحن على أعتاب القرن الواحد والعشرين، يجدر بنا أن نتأمل ما طرأ على الحياة الاجتماعية فى مصر من تغيرات، وأن يحاسب المصريون أنفسهم على ما ارتكبوه من أخطاء، على أمل أن يبدأوا صفحة جديدة فى القرن الجديد يحققون فيها ما فشلوا فى تحقيقه من قبل.

وقد رحبت بالمساهمة، واخترت أن أكتب عما طرأ على مركز المرأة فى مصر من تغير خلال الخمسين عاما الماضية، من خلال ما حدث من تطورات لمستها من خبرتى أنا الشخصية، فقارنت بين مركز ثلاثة أجيال من النساء فى أسرتى: جيل أمى، وجيل أختىّ، وجيل ابنتى. وحاولت، من جديد، أن أفهم الخاص من خلال العام، والعام من خلال الخاص، إذ مزجت بين تجربة أسرتى الخاصة وتجربة المجتمع المصرى بصفة عامة، ووجدتهما، كما توقعت متطابقتين. وقد شجعنى هذا، كما شجعتنى أهمية الموضوع، على أن أتناول ناحية بعد أخرى من المجتمع المصرى، فأتتبع تطوره فى الخمسين عامًا الماضية هى عمر وعيى وإدراكى لما يحدث من حولى. فكانت حصيلة هذا الفصول التى تكون منها كتاب «ماذا حدث للمصريين؟».

وقد نجح الكتاب مع القرّاء نجاحا باهرا جعل نسخ الطبعة الأولى التى نشرتها دار الهلال فى يناير ١٩٩٨، تنفد فى أقل من عام، مما دفع مكتبة الأسرة إلى إصدار طبعة جديدة فى العام التالى (قيل لى إنها من خمسين ألف نسخة) ونفدت أيضًا فى نحو عامين، ثم صدرت بعد ذلك طبعتان أخريان بالعربية، وترجمه قسم النشر بالجامعة الأمريكية فصدرت طبعة إنجليزية فى سنة ٢٠٠٠ أعيد طبعها تسع مرات.

كنت أستطيع أن أخمّن لماذا نجح هذا الكتاب مع القراء أكثر بكثير مما نجح غيره، ومع هذا فقد كنت أشعر بالغيظ عندما كان يحدث أن يقابلنى شخص، بعد صدور الكتاب بعدة سنوات نشرت خلالها عدة كتب أخرى لا بأس بها، فإذا به يقول لى «أهنئك على كتابك»، وأظن لوهلة أنه يقصد كتابى الأخير فإذا به يقصد بالطبع «ماذا حدث للمصريين؟». تذكرت الغيظ الذى كان يشعر به يحيى حقى عندما لا يذكر أحد اسمه إلا مقترنا بقصة «قنديل أم هاشم»، على الرغم من أنه نشر عشرات القصص والروايات بعدها، وكان هو يعتبر أن أفضلها جميعا رواية أخرى هى «صحّ النوم». وتذكرت أيضًا الكاتب الأثير لدىّ (ألفريد إير) A.J. Ayer، الذى نشر وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره كتابًا صغيرًا اسمه «اللغة والحقيقة والمنطق» (Language, Truth and Logic) لخص فيه بوضوح وسلاسة مدهشة فلسفة الوضعية المنطقية، فظل حتى آخر أيامه لا يذكر اسمه إلا مقترنا بذلك الكتاب، وكان هذا يغيظه بدوره إذ كان يعتقد أنه نشر بعد هذا الكتاب كتبا أفضل منه بكثير.

لاحظت أن هذا الكتاب (ماذا حدث للمصريين؟) يمزج أيضا بين وصف تجارب شخصية لى وتجارب المجتمع المصرى ككل، فقلت لنفسى : «أليست هذه السمة هى أيضاً التى تلاحظها فى كتابات أحب الكُتّاب الإنجليز إلىّ، وهو جورج أورويل، الذى كان يكتب وكأنه يتكلم، ولا يجد أى غضاضة فى مقالاته من التطرق من الحديث عن موضوع عام بالغ الأهمية، إلى حديث عن تجربة شخصية له، أو العكس؟ أوَليست هذه السمة من بين ما حبّب الرجل إلىّ؟ ثم أليست هذه أيضًا سمة لكتابات واحد من أحب الكُتّاب السياسيين المصريين إلىّ وهو أحمد بهاء الدين، الذى كان بدوره يكتب وكأنه يتكلم، وكان كلامه، الممتع دائما، مليئا بالقصص الواقعية الصغيرة التى مرّت به وعاينها بنفسه، ولكنها كانت دائما قصصا ذات مغزى عام ولا تكون تافهة أبداً؟».

* * *

فى سنة ١٩٩٠ حدث اعتداء فظيع على بعض الأقباط فى مدينة أبو قرقاص بالصعيد، وأثّر الحادث فى نفسى تأثيراً بالغًا، فكتبت مقالا شديد اللهجة أعبّر فيه عن مشاعرى إزاءه. وقد سررت جداً برد الفعل الذى أحدثه مقالى فى الدفاع عن الأقباط واستهجان الاعتداء عليهم وسكوت الدولة على ذلك، وخاصة بين الأقباط الذين رحّبوا بالمقال ترحيبا شديدا وطبع بعضهم نسخا جديدة من المقال وقاموا بتوزيعها. واتصل بى كثيرون منهم، ومن المسلمين كذلك، للتعبير عن تقديرهم للمقال. وكان سرورى شديداً على الأخص بمكالمة تلقيتها من يوسف إدريس قال لى فيها إن فى المقال «شجاعة وحكمة وموهبة». وكانت هذه إحدى مرتين كلمنى فيهما يوسف إدريس تليفونيا، كان فى المرة الأولى يشكرنى على مقال كتبته بعنوان «عصر التشكيك فى البديهيات» ونشرته جريدة الأهالى فى أوائل الثمانينات، دافعت فيه عن يوسف إدريس ضد الهجوم العاتى الذى تعرض له، بما فى ذلك هجوم علنى من الرئيس مبارك فى إحدى خطبه، لمجرد أن يوسف إدريس تجرأ ونشر وطبع مقالات فى جريدة خليجية ينتقد فيها الرئيس السادات ودوره فى حرب ١٩٧٣. وأذكر أنى فى ذلك المقال رددت على من قال إن يوسف إدريس بذلك

يسىء إلى سمعة مصر ، بقولى إن سمعة مصر هى سمعة يوسف إدريس نفسه باعتباره أكبر كاتب قصة قصيرة عرفه العالم العربى . وقد سرَّ المقال يوسف إدريس إلى درجة جعلته يضم مقالى كاملا إلى أحد كتبه (فكر الفقر وفقر الفكر) مع إشارة طيبة إلىَّ .

* * *

كتبت أيضًا بحماس شديد فى الدفاع عن أحمد بهاء الدين ضد هجوم فى غاية السخافة من ثروت أباظة ، عندما دافع بهاء الدين عن القطاع العام فقال ثروت أباظة إن دراسته فى كلية الحقوق تؤدى إلى القول بغير ذلك وإنه كان الأجدر ببهاء ، ما دام قد درس هو أيضا فى كلية الحقوق ، أن يدرك ذلك . وقد كان شعورى نحو ثروت أباظة ، منذ وقت طويل ، شعورا سلبيا ، بدأ منذ كان أبى يتلقى منه مكالمات تليفونية ، عندما كان ثروت أباظة لا يزال شابا صغيرا ، ويستغرب أبى جرأته عليه ، وعلى غيره من كبار الكُتّاب ، اعتمادا على ما لأبيه ، دسوقى باشا أباظة ، من ثروة وجاه . كان من الواضح تماما لى أنه رجل قليل الموهبة ، يظن مع ذلك أنه أديب موهوب ، ولكنه يتسم ، فضلا عن ذلك ، بجرأة مدهشة وإصرار غريب على الحصول على كل ما يرغب فيه . وقد فتحت له هاتان الصفتان ، الغرور مع الجرأة ، أبوابا كثيرة ما كانت لتفتح لشخص غيره له نفس هذا القدر الضئيل من الموهبة . هكذا استمر ثروت أباظة يكتب وينشر ، ويحتل مناصب لا يستحقها ، وتتبع له سلطات أعلى من كثيرين ممن هم أكفأ وأكثر موهبة منه بكثير . ودعمه للأسف بعض كبار الكُتّاب ، كتوفيق الحكيم وطه حسين ونجيب محفوظ ، فأرضوا غروره ولم يكبحوا جماح طموحه ؛ إما طمعا فى مكسب صغير من ورائه ، أو اتقاء لشره ، أو طلبا للهدوء والسلامة . لهذا أصابه مقالى الأول ضده ، بدهشة وغضب شديدين ، رغم أنه كان قد نشر فى مجلة محدودة التوزيع (الأهرام الاقتصادى) ، وإذا به يرد علىّ بمقال عنيف فى صحيفة الأهرام اليومية ، ذكر فيه أنه لولا أنى ابن أحمد أمين لعرف كيف يؤدبنى .

ثم عدت إلى الهجوم عليه مرتين بعد ذلك أثناء حياته . مرة عندما قرأت بعض

حلقات سيرته الذاتية التى كانت تنشر فى الأهرام اليومى، فراعتنى تفاهتها وسخافتها، ومرة عندما تسبب فى سجن صحفى شاب وموهوب (جمال فهمى) بتهمة السب والقذف، عندما كتب مقالا يذكر فيه بعض الوقائع عن دور أبيه السياسى.

كنت دائما مطمئنا إلى صواب موقفى من ثروت أباظة، برغم أنى لم أكن قد قرأت له حتى ذلك الوقت من الروايات أو القصص إلا رواية واحدة لم أستطع إتمامها. كنت أستغرب دائما تفاهة ما ينشره من مقالات سياسية، وسماح أهم صحيفة يومية فى مصر بنشر ما يكتبه، وإشارتها المستمرة له على أنه «الكاتب الكبير»، وقربه من السلطة السياسية، وتمتعه بحق الكلام باستمرار فى لقاء رئيس الجمهورية السنوى بالأدباء والكُتّاب. كان ثروت أباظة فى نظرى، لهذا السبب، ظاهرة فى حد ذاتها يصعب العثور على مثيل لها، إذ يندر أن تجتمع هذه الصفات فى شخص واحد: قلة أو انعدام الموهبة، مع الشهرة والوجود الدائم فى وسائل الإعلام باعتباره أديبا كبيرا، وتقريب السلطة السياسية له مع شدة حماقته السياسية. فلما تُوفى فى سنة ٢٠٠١ دهشت مرة أخرى لمقدار التبجيل والاهتمام اللذين أحيط بهما خبر وفاته، ولحجم الثناء الذى أغدقه عليه بعض الكُتّاب الكبار من بينهم نجيب محفوظ. صحيح أن الأمر لم يستمر أكثر من أسبوعين أو ثلاثة، ونسى الرجل بعدها أو كاد ينسى نسيانا تاما، ولكنى ظللت مندهشا من أن يصل تدهور المناخ الثقافى (والسياسى) فى مصر إلى هذا المستوى. شعرت حينئذ بشعور مماثل لما أشعر به عادة عندما أحس بأن ظلما كبيرا قد وقع ويحتاج إلى كشفه وإزالته، فأظل أشعر بالقلق ولا يهدأ لى بال حتى أعبّر كتابة عما أشعر به وأحاول تفسيره وشرحه. صممت على كتابة مقال طويل عن ظاهرة ثروت أباظة، ولكن الأمر كان يقتضى قراءة بعض رواياته، خاصة المشهور منها مثل «شىء من الخوف» و«هارب من الأيام»، فرحت أبحث عنهما حتى وجدت مجلدا يضمهما وأعمالا أخرى له مع مقدمة طويلة كتبها رجل مغمور عرفت فيما بعد أنه كان يتقرب بهذا المجلد إلى ثروت أباظة ويخطب ودّه. قرأت الروايتين والمقدمة الطويلة فلم أجد أى شىء يثنينى عن عزمى أو يغير رأيى فى الرجل وأدبه. نصحنى البعض بألا أنشر المقالة

إلا بعد مرور الأربعين يوما على وفاته، فانصعت لهذه النصيحة، ولكنها نشرت بعد ذلك مباشرة فى جريدة معارضة، فإذا بى أقرأ رداً عنيفا عليها موقعا باسم أرملة ثروت أباظة، وتساءلت فى ردها عما يمكن أن يكون «قد حدث للمصريين» حتى أكتب مثل هذا الكلام عن زوجها الراحل، الذى اعترف بأدبه الجميع وعلى رأسهم: طه حسين ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم. وقال لى رئيس تحرير الجريدة التى نشرت مقالى إن رئيس مجلس الشورى الذى كان ثروت أباظة وكيلا له، قد اتصل بنفسه ليحتج على مقالى وحذر الجريدة من العقاب إذا لم تقم بنشر رد أرملة الفقيد. ولكن المدهش فى الأمر أنه باستثناء هذا الرد لم أصادف أى رد أو تفنيد لما كتبته فى أى صحيفة أو مجلة، وكأن الرجل بموته قد فقد فجأة كل من كان يقف إلى جانبه ويثنى على أدبه. وهذا السكوت المطبق والمفاجئ، بعد كل ذلك الضجيج من الثناء والمديح، يؤكد نفس التحليل الذى كنت وصلت إليه لظاهرة ثروت أباظة، ولكنه يؤكد أيضًا مدى التدهور الذى وصلت إليه الحالة الثقافية (والسياسية) فى مصر.

* * *

نفس المشاعر التى قادتنى إلى كتابة دفاعى عن أحمد بهاء الدين، والهجوم على ثروت أباظة، هى التى قادتنى إلى كتابة نقد شديد لرجاء النقاش رداً على مقال له يكيل فيه الثناء على الرئيس حسنى مبارك بسبب أفضاله على الثقافة المصرية والمثقفين، ومن بين هذه الأفضال، حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل، إذ لم يكن ليحصل عليها، فى رأى رجاء النقاش، لولا الرئيس مبارك. ضايقنى أيضًا بشدة ما حصلت عليه رواية «الخبز الحافى» للكاتب المغربى محمد شكرى، والضجة التى أثارتها أستاذة بالجامعة الأمريكية كانت تقوم بتدريسها للطلبة، عندما رأى رئيس الجامعة بحق أن ما فى الرواية من بذاءات يجعلها غير صالحة للتدريس، وكان قد أعطاها لزوجته الأمريكية لإبداء رأيها فيما يعتزم اتخاذه من قرار بمنعها، فكان رأيها أنها هى أيضًا كانت ستمنع أولادها من قراءتها إذا رأتها بأيديهم. ضايقنى الدفاع عن مثل هذا باسم حرية الرأى، وعبرت عنها فى مقال طويل قارنت فيه بين هذه الرواية ورواية الطيب صالح البديعة «موسم الهجرة إلى الشمال» التى

أراد البعض منع تدريسها، بل ومنع تداولها بالفعل فى السودان بزعم أنها تتناول العلاقات الجنسية بصراحة غير مبررة. وقلت فى مقالى إن تناول الطيب صالح للجنس مختلف جداً عن تناوله عند محمد شكرى، والابتذال غير موجود عند الأول ولكنه موجود عند الثانى.

كتبت أيضاً عن سخطى على فيلمى يوسف شاهين «المهاجر» و«المصير»، وعلى كتاب السيرة الذاتية ليحيى الجمل «قصة حياة عادية»، بل وعن سخطى على كتاب طه حسين «فى الشعر الجاهلى»، وكل هذه أمثلة يجمع بينها، فيما أظن، شيوع الثناء على شخص أو عمل وإصرار الكتّاب على تمجيده وتعظيمه، بينما أعتقد أنا أن العكس بالضبط هو الموقف الصحيح. وكان من الطبيعى أن يجلب هذا الموقف من جانبى السخط والغضب من جانب المضارين منه، ولكن كان سرعان ما يطمئنى العدد الكبير من القراء الذين يؤكدون لى أنى عبّرت بالضبط عما يدور فى أذهانهم منذ فترة طويلة. جاءنى هذا التأكيد من بعض من كانوا يعملون مع يوسف شاهين فى فيلم المهاجر، ومن كاتب شهير قال لى عندما انتقدت كتاب طه حسين إنه كان يريد أن يقول نفس الشىء منذ وقت طويل ولم يجرؤ على قوله. واتصلت بى صحفيتان شابتان فى صباح يوم ظهور مقالى عن رجاء النقاش، لتعبرا فى نفس المكالمة عن فرحهما بأن يجدا - أخيراً - أحداً يستطيع أن يقول مثل هذا الكلام. وأخذ آخرون يحكون لى ما لم أكن أعرفه من قصص عاشوها شخصيا مع بعض من انتقدت وتؤكد نفس النتيجة التى وصلت إليها عنهم. أما ثروت أباظة فالإجماع على السخط والدهشة مما حققه من نجاح وشهرة دون استحقاق، كان معروفا من قبل أن أكتب عنه بكثير، وإنما جاءت مقالاتى عنه لتسجيل ما كان يشعر به كل المثقفين المصريين باستثناء واحد، ربما، هو نجيب محفوظ، الذى أصر على أن يستمر على ولائه لصديقه. ولكن كثيرا من مواقف نجيب محفوظ الاجتماعية والسياسية، ظلت دائما لغزا محيرا للجميع.

(١٧)

«التراثيون الجدد»

فى كتاب «حياتى» وصف أبى البيت الذى نشأ فيه بقوله إنك إذا فتحت بابه «شممت منه رائحة الدين ساطعة زاكية». أما أنا فلا أستطيع بالمرة أن أقول إن هذا الوصف ينطبق على البيت الذى نشأت فيه. فأبى على الرغم من نشأته هذه، وشدة تدين أبيه وأمه، ونوع التعليم الذى تلقاه فى صباه وشبابه، ورغم أن أهم كتاباته كانت تدور حول الإسلام، لم يكن متدينا بمعظم المعانى الشائعة اليوم. إنى لا أتذكر مثلا أنى رأيت أبى وهو يصلّى، ولا أذكر أنى رأيته وهو يقرأ فى المصحف. إنى أتذكر اعتذاره عن الصوم بسبب مرض أو آخر كان يفرض عليه نظاما معينا فى الأكل، أو بسبب التدخين، ولكنى لا أتذكره وهو ينتظر حلول المغرب ليتناول إفطاره فى رمضان. لاشك أن للأمر علاقة بأنى أصغر أولاده، وربما كان إخوتى الذين عاصروه فى فترات أخرى من عمره، يذكرون أشياء أخرى. ولكنى أقول فقط ما رأيته بنفسى وما لم أره. إن هذا لا ينفى ما كان يتحلى به أبى من صفات قريبة من التصوف، كما لا يتعارض مع ما أتذكره من أقواله الكثيرة التى تنم عن إيمان عميق بالله. من الذكريات الملتصقة بقوة فى ذهنى ركوبنا معه فى قارب شراعى فى النيل فى إحدى ليالى الصيف فى رأس البر، وكانت هى ليلة القدر، وإذا به يطلب منا أن نردد وراءه دعاء طويلا إلى الله، يقول منه جملة، ونقولها بعده، ثم ينتقل إلى ما بعدها. كان هذا فى أوائل الأربعينات، فلابد أنى كنت فى السابعة أو الثامنة. وأنا أتذكر هذا الآن مرتبطا بشعور من السعادة لابد أن كان من أسبابه ما يشعر به صبى فى مثل هذه السن عندما يرى العائلة كلها تقوم بعمل مشترك، ويسيطر عليها أثناءه شعور بالمحبة والوئام. وعلى أى حال فإنى لا

يخامرنى أى شك فى أن أبى كان يعلق على أخلاق المسلم أهمية أكبر مما يعلقه على شعائر الدين. لدىّ ألف دليل على هذا من أقواله وتصرفاته وكتاباته.

أما أمى فلم تكن أكثر تدينا من أبى. كانت تكره مثل أبى أن تسمع أى قول ينم عن أى شبهة كفر بالله، ولا يمكن أن تدع مثل هذا يمرّ دون أن تعترض. ولكنى لا أتذكر أداءها لصلاة أو صوم، ولا هى أدت فريضة الحج أو عبرت عن رغبة شديدة فى أدائها. وما أكثر ما كانت تستخدم عبارة «إنما الأعمال بالنيات» لتبرر تقصيرها فى أداء شعائر الدين.

كيف يمكن، والحال كذلك، أن تفوح رائحة الدين من بيتنا كما كان الحال فى البيت الذى نشأ فيه أبى؟ بل الراجح أن هذا الموقف من جانب أبى وأمى قد ترك فينا كلنا، نحن الإخوة، الذكور والإناث، أثرا دائما لم تمحه الأيام. فلا أذكر أن أحدا منا نحن الإخوة قد واظب على أداء شعائر الدين لفترة طويلة من حياته. كان هناك الميل المعروف إلى التدين فى فترة من فترات الصبا وبداية الشباب، وهو ما أذكر أنه سيطر علىّ سنة أو سنتين، كما أذكر نفس الشىء فيما يتعلق بإخوتى الذين وعيت هذه الفترة من حياتهم، أما بقية الإخوة فلا يقترن أى منهم فى ذهنى بأى مشاعر دينية قوية أو حرص على أداء شعائر الدين بانتظام.

لم يتخذ أى منا قط أى موقف عدائى من الدين، لا جهرا ولا سرّا، ولكن كان هناك بلا شك نوع من قلة الاهتمام بما إذا كانت شعائر الدين تؤدى كاملة أو ناقصة، ولا أذكر أن أبى أو أمى اتخذ أى موقف يحاول به إعادتنا إلى حظيرة الدين.

من القصص المشهورة فى أسرتنا أن أختى نعيمة ذهبت مرة إلى أحد رجال الدين الصالحين، وكانت تعانى من ضائقة مالية لقلة ما كان يحققه زوجها من دخل لا لسبب إلا فرط قناعته وقلة طموحه، وسألته: «لماذا يقتّر الله علىّ وعلى زوجى فى الرزق، بينما يوسّع على بقية إخوتى فيه، رغم أنى أنا وزوجى أكثر تدينا منهم جميعا؟». روت لنا أختى نعيمة بنفسها هذه القصة، كما أخبرتنا أن الشيخ أجابها «بأن الله يمتحننا».

مرت أعوام كثيرة إذن قبل أن يثير الدين أية مشكلة لدىّ، ولم يبدأ الدين فى

إثارة بعض المشاكل في ذهني إلا وقد قاربت الأربعين من عمري. قبل ذلك لم يثر اعتناقي لمبادئ حزب البعث وأنا في نحو العشرين من عمري أي مشاكل تتعلق بالدين، ولا حتى تحوّل ولائي من البعث إلى الماركسية بعد ذلك بثلاث أو أربع سنوات، ولا تحولي عن الماركسية وأنا في نحو السابعة والعشرين إلى الإعجاب والحماس لأفكار الوضعية المنطقية التي تتخذ من الدين موقفا سلبيًا جدًا، ولا زواجي بإنجليزية مسيحية وقد قاربت الثلاثين. كان المفروض أن تثور بعض التساؤلات المتعلقة بالدين بسبب كل من هذه التطورات، بل إن كثيرين من الناس يصيبهم همٌّ وقلق شديدان بسبب تعارض موقفهم من الدين مع مثل هذه التطورات. ولكن الأمر بالنسبة لي كان هادئا جدًا وبسيطا للغاية. لم تكن أفكار حزب البعث تمسّ الدين مسًا مباشرًا، ولم يكن أعضاء الحزب وأصدقاؤه يعلقون أية أهمية على أن صاحب فكرة البعث ورئيس الحزب (ميشيل عفلق) مسيحي. ويجب أن أذكر أنني لم أعتبر قط كون ميشيل عفلق مسيحيا أمرًا ذا أهمية على الإطلاق، بل لم يثر انتباهي أصلا ولا أثار أي تساؤل لديّ. ولم يكن حزب البعث يطلب ممن ينضم إليه إلا أن يكون مقتنعا بالقومية العربية والوحدة، ومتعاطفا مع الاشتراكية، مهما كانت درجة تديّنه. وكان لميشيل عفلق محاضرة بديعة، ألقاها في الأربعينات في يوم الاحتفال بالمولد النبوي، وطبعت مرارا تحت عنوان «في ذكرى الرسول العربي» كانت كافية لإقناعنا بسهولة بأنه ليس ثمة تعارض ألبتة بين الولاء للعروبة والولاء للإسلام.

أما حماسي للماركسية وقبولي لأفكار المادية الجدلية، فقد مرّا أيضاً بسلام دون أن يعكرا عليّ صفو الحياة. فقد بدا لي وقتها أن أولوية المادة على الفكر أمر يكاد أن يكون بديهيا. أما إقدامي على الزواج من إنجليزية مسيحية فلم يسبقه أي تردد يذكر، وإذا كانت قد ثارت في ذهني بعض التساؤلات لأيام قليلة قبل أن أتخذ القرار بالزواج، فإن هذه التساؤلات لم تكن تتعلق باختلاف الدين، وإنما كان بعضها يتعلق باختلاف الجنسية، وبعضها باختلاف الطباع. بل يجب أن أذكر أيضًا أن اختلاف دينها عن ديني لم يطف بخاطري قط طوال فترة زواجنا، ولا سبّب لأي منا أي مشكلة في أي وقت من الأوقات.

ربما كان الشخص الوحيد الذى طاف بذهنه بعض الشك فيما إذا كان من الملائم أن يتم هذا الزواج بين مسلم ومسيحية، هو أم زوجتى التى رأت من المناسب، وإن لم تكن هى نفسها متدينة، أن تذكر الأمر لقسيس فى الكنيسة التى تذهب إليها مرة أو مرتين فى السنة، ولعلها كانت قد سمعت أن المسلم له حق الزواج من أربع نساء، وحذّرها البعض من احتمال أن يكون لدىّ بالفعل زوجة أو أكثر تركتهن فى مصر قبل قدومى إلى إنجلترا، وأننى الآن أضيف إليهن الثالثة أو الرابعة. فذهبت أم زوجتى إلى هذا القسيس لتستوضحه بعض الأمور، فقال لها إنه قد يكون من المفيد أن يقابلنى قبل أن يتم الزواج. ولم أر بأسا من أن أذهب لمقابلته مع خطيبتى الإنجليزية، بل كنا نرى الأمر كله مسليا للغاية، ولا ينطوى على أى شىء جدّى، أو على أى خطر يهدد مستقبلنا، وهو ما لابد أن يتوقع من شابين وقعا فى الحب حديثا وتفاهما على الزواج. وقد وجدنا القسيس رجلا ودودا ولطيفا، وإن كانت قد أصابته صدمة هائلة لم يكن يتوقعها عندما تلقى إجابتى عن سؤال وجهه إلىّ يتعلق بمعتقداتى الدينية. إذ جاءت إجابتى تعبر عن حماسى لفلسفة الوضعية المنطقية، وهى تعتبر فى نظر رجل مثله أفظع وأبعد عن معتقداته من الإسلام. ومن ثم أنهى الرجل المقابلة بسرعة ولم ير فىّ أى أمل يرجى.

إنما حدث التحول فى موقفى من الدين لأسباب غير مألوفة أو متوقعة، وذلك فى أوائل السبعينات عندما كنت أقترب من سن الأربعين. كنت فى ذلك الوقت أزور إنجلترا على فترات متقاربة، بل كان يندر أن يحل صيف دون أن أقضى شهرا أو أكثر فى بيت والدى زوجتى فى فيلكستو (Felixstowe) وهى بلدة صغيرة على البحر فى الشمال الشرقى من لندن. وقد أتاح لى هذا أن أرى التغير الذى لحق بنمط الحياة فى إنجلترا، وفى الغرب عمومًا، عامًا بعد عام، منذ أن أتممت دراستى هناك فى منتصف الستينات. كان الغرب فى تلك السنوات يذوق طعم حياة الرفه على نحو لم يعرفه فى أى وقت فى الماضى. وكان ما أسماه الاقتصادى الأمريكى جون جالبريث «مجتمع الرخاء» (The Affluent Society) يتضح عاما بعد آخر على نحو لا يمكن أن تخطئه العين. كانت الحياة اليومية التى عرفتها فى الغرب فى أواخر الخمسينات وأوائل الستينات لا تزال تحمل كثيرا من بقايا مجتمع التقشف الذى

اتسمت به سنوات إعادة بناء ما دمرته الحرب. أما الآن فقد سمح تحقق العمالة الكاملة، وقيام الدولة، في ظل ما عرف بـ «نظام دولة الرفاهة» (Welfare State)، بإتاحة الخدمات الضرورية للناس بلا مقابل أو بأسعار زهيدة للغاية، مع ما تحقق من تقدم تكنولوجي سريع ومعدل غير مسبوق في النمو الاقتصادي، سمح كل ذلك بظهور ونمو ما أطلق عليه «المجتمع الاستهلاكي»، حيث شاعت قيم تدور حول الانهماك في إشباع النهم إلى الاستهلاك، وتحول الكمالي إلى ضروري، وتسابق الناس وتنافسوا في اقتناء المزيد والجديد من السلع والخدمات، مع الانتشار التدريجي للإباحية في العلاقات بين الجنسين، أو حتى بين أفراد الجنس الواحد، وأصبح كل هذا مقبولا، بل أصبح غير المقبول هو الاحتجاج على أي من هذا، وكأن المرء الذي يحتج عليه يتدخل في حريات الفرد الشخصية التي أصبحت تعامل معاملة المقدسات.

لم يعجبني ما رأيت. وبدأ يعتريني الشك، الذي أصبح يزداد قوة يومًا بعد يوم، بل ويتحول شيئا فشيئا إلى يقين، في أن ما نسميه «الحضارة الغربية» قد يكون «غربيًا» أكثر من كونه «حضارة». لم أفقد بالطبع احترامي لما أدته هذه الحضارة من خدمات جليلة للبشرية كلها، في الغرب والشرق، وفي الشمال والجنوب على السواء، ولكن الذي بدأت أفقد الثقة فيه هو الاعتقاد بأن كل ما يفعله الغرب يمثل بالضرورة «تقدمًا» للبشرية. بعبارة أخرى، بدأت أنظر إلى نمط الحياة الغربي مثلما ينظر عالم الأنثروبولوجيا للقبائل غير المتحضرة في إفريقيا أو آسيا أو أمريكا اللاتينية، فأخذت ألاحظ في الحياة اليومية في الغرب دليلا جديداً في كل يوم على «خصوصية» نمط الحياة الغربية، مما لم أجد أي مبرر لإلزام المجتمعات الأخرى به، أي إلزامهم بالاعتقاد بأن الطريق الذي يقطعه الغرب في هذا الاتجاه أو ذاك، هو نفس الطريق الذي «يجب» على المجتمعات الأخرى أن تسير فيه.

لم يكن الأمر بالنسبة لي، (ولا هو الآن) مسألة «نقد» للغرب، أو شعوراً من جانبي بأننا «أفضل» منهم، فقد بدا لي أن هذا الموقف الذي يعتبر ثقافتنا ونمط حياتنا أفضل من ثقافتهم ونمط حياتهم، ليس أقرب إلى الحقيقة من الموقف الذي تخليت

عنه، وهو اعتبار ما يفعله الغرب المثل الأعلى الواجب احتذاؤه. المسألة ليست هى من هو الأكثر أو الأقل رقيا، بل هى مسألة اختلاف ثقافات وأذواق وميول وعادات وتقاليد لها جذور بعيدة فى التاريخ والجغرافيا واللغة.. إلخ، مما يتعكس فيما يمكن تسميته بنوع النظرة إلى الحياة.

هذا التحول فى تفكيرى جعلنى أفتش فيما يصدر من كتب عما يتفق مع وجهة نظرى الجديدة فى أحوال الغرب. ولم يخب ظنى بالطبع، بل وجدت الكثير مما نشر فى الغرب فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات، ينتقد بشدة ما آل إليه حال الغرب ويتفق مع ملاحظاتى، ويؤيدها من مختلف الزوايا، ويمدنى بحجج وملاحظات جديدة. وهكذا قرأت فى تلك السنوات عدداً من الكتب الجيدة والتى تركت أثراً كبيراً فى نفسى، (مما أكدّ لى أن من الممكن أن نعرّف الكتاب «الجيّد» تعريفا لا بأس به، بأنه الكتاب الذى يقول لك ما كنت تعرفه بالفعل، أو الذى يمدك بالحجج التى تحتاج إليها لتأييد وجهة نظرك!).

* * *

كان لابد لهذا كله أن يؤثر، ولو عن طريق غير مباشر، فى نظرتى إلى الدين. فقد أزال إدراكى لمساوئ الحياة الحديثة فى الغرب، وللعيوب والنقائص المهمة فيما كان يعتبر من الأفكار والمبادئ المسلّم بها، أو فيما كان يحاط بهالة كبيرة من التبجيل من النظريات والكتابات الاقتصادية والاجتماعية، أزال كل هذا كثيراً مما كان على عينى من غشاوة. ففكرة التقدم نفسها أصبحت عندى محل شك كبير، انتهى بى إلى رفضها رفضا تامّا. والنظر إلى الغرب باعتباره المثل الأعلى الواجب احتذاؤه والاقتداء به، لم يعد أيضا صحيحا فى نظرى. وقد أصاب كل هذا بضرر بالغ، فى نظرى، فلسفتين كانت كل منهما، فى مرحلة من مراحل حياتى الماضية، سببا لقلة تعاطفى مع الدين والمتدينين: الماركسية والوضعية المنطقية.

أما الماركسية فكان الشق الفلسفى منها قد تلقى، فى نظرى، ضربة قاصمة من الوضعية المنطقية نفسها. إذ بعد أن تبينت موقف الوضعية المنطقية من الميتافيزيقا، واعتبارها إياها «لغو من القول»، لم يعد هناك فارق فى نظرى بين القول بأن «المادة

سابقة على الفكر» والقول بأن «الفكر سابق على المادة»، كلاهما كلام فى الميتافيزيقا ومن ثم فكلاهما، هكذا اعتقدت وقتها، لغو من القول. ولكن حتى النظرية الماركسية فى التاريخ، التى تعرف باسم المادية التاريخية، تلقت الآن، فيما يتعلق بى على الأقل، سهاما، إن لم تكن قد أصابتها فى مقتل فقد جرحتها جرحا بليغا. وأعنى بهذا، على الأخص، ما اعترانى من شك عميق فى فكرة التقدم، وأن كل مرحلة تاريخية هى «أعلى» و«أرقى» من سابقتها، وهى فكرة يعتبرها معظم الماركسيين من المسلمات. فها نحن نرى الحضارة الغربية العظيمة يصيبها الانتكاس، وبدلا من أن تتحول الرأسمالية، مع مزيد من التقدم التكنولوجى، إلى نظام أرقى هو الاشتراكية، إذا بها تتحول إلى نظام يقوم على النهم الاستهلاكى المتزايد. بل وحتى الدول التى أعلنت أنها تطبق الاشتراكية يبدو عليها وكأنه قد بدأ يصيبها أيضًا هذا النهم الاستهلاكى الذى تجد الدولة الاشتراكية صعوبة بالغة فى صدّه. ولكن ربما كان الأهم من هذا وذاك أننى كلما قوى إدراكى لنقائص نمط الحياة الغربية، كان يقوى لدى الشعور بأن من الصعب أو حتى من المستحيل أن نرتب الثقافات المختلفة بعضها فوق بعض، وأن نعتبر بعضها «أرقى» من غيرها. ذلك أنه يبدو أن هناك أشياء أخرى، إلى جانب التقدم الاقتصادى أو التكنولوجى، لها تأثير بالغ القوة فى تشكيل نظرة الأمة إلى الحياة، ومن ثم لم يعد من الممكن لى أن أرد كل شىء بالسهولة التى كنت أرد بها كل شىء فى الماضى، إلى العوامل الاقتصادية والتكنولوجية، مثلما يميل الماركسيون فى أغلب الأحوال. والاختلاف الكبير بين ثقافة أمة وثقافة أمة أخرى، لم يعد من الممكن فى نظرى أن يرد إلى عوامل اقتصادية فقط، بل هناك أشياء أخرى أكثر عمقا وربما أكثر ثباتا من العوامل الاقتصادية، ومن بين هذه العوامل الدين.

ولكن بدا لى من ناحية أخرى، أن هذه الاختلافات الشديدة بين ثقافات وأنماط حياة الأمم المختلفة كثيرا ما تكون مجرد أساليب مختلفة للتعبير عن نوازع عميقة وثابتة لدى الإنسان، بحكم كونه إنسانا، وإنما يتخذ التعبير عن هذه النوازع المشتركة والثابتة أساليب مختلفة بسبب الاختلاف فى التاريخ أو الجغرافيا أو الظروف الاقتصادية أو مستوى التقدم التكنولوجى.. إلخ. من بين هذه النوازع العميقة

والثابتة لدى الإنسان، بصرف النظر عن اختلاف الثقافات، النزعة الدينية، التى بدا لى أنها شديدة الارتباط بالتكوين البيولوجى للإنسان، وهو رأى بحثت عن حجج تؤيده فوجدتها لدى بعض علماء البيولوجيا الاجتماعية وعلى الأخص عند إدوارد ويلسون E.O. Wilson فى كتابه «عن الطبيعة الإنسانية» (On Human Nature). أدى بى هذا كله إلى إعادة النظر فى ذلك الرفض الذى كنت أميل إليه فيما يتعلق بأى شىء يمكن أن يندرج تحت لفظ «الميتافيزيقا». فإذا كانت الميتافيزيقا تعنى كل ما لا يمكن إثبات صحته أو خطئه بالتجربة أو الملاحظة، فما أكثر الآراء الميتافيزيقية الشديدة الجاذبية ومع ذلك ليس هناك من طريق لحسم صحتها أو خطئها بالتجربة والملاحظة. وإذا كانت الميتافيزيقا هو كل ما كان غير محسوس، فما أكثر الأشياء التى لا تظهر أمامنا فى شكل حسى ولكن هناك ما يرجح أنها بالغة الأثر فى تصرفاتنا ومعتقداتنا. فما أصعب مثلا أن نفسر اختلاف نظرة أمة عن أخرى إلى الحياة، واختلاف معتقداتهما الدينية ومبادئهما الأخلاقية. نعم إن لكل شىء أسبابه، ولكن ما هى درجة الأمل الحقيقى فى أن تصل إلى تفسير كاف وشاف لهذه الاختلافات؟ ما هى درجة الأمل الحقيقى مثلا فى أن نفهم لماذا نجد شخصين خضعا لظروف واحدة، عائلية واقتصادية واجتماعية، وتلقيا نفس التعليم، ومع ذلك يختلفان اختلافا شاسعا فى قوة الحس الأخلاقى لديهما ونوع نظرتهما إلى الحياة؟

كل هذه العوامل والأسباب التى لا تظهر فى أى شىء محسوس، والتى يمكن وصفها بـ «الميتافيزيقية»، إذا كان من الصعب كشفها وتبين كنهها، قد تكون فى الحقيقة أثمن ما لدينا. إنها هى التى تميز الشىء الحىّ عن الميت، وهى التى تبث الحيوية فى الجسد الخامل، سواء كان جسد شخص أو جسد أمة. إن الذى يحرك الأمم ويدفعها إلى النهوض والابتكار ليس إلا هذه العوامل «الميتافيزيقية» العسيرة حقا على الفهم، ولكنها مع ذلك هى المسئولة عن نهضة الأمة أو تخلفها. فإذا كان هذا صحيحا، وهو ما لا يزال يبدو لى صحيحا، وإذا كانت العقيدة الدينية عنصراً من العناصر المكوّنة لهذه الميتافيزيقا، وإن لم تكن العنصر الوحيد فيها، فكيف نستهزئ بها أو نسخر؟ بل وكيف نسمح لأنفسنا بإضعافها أو هدمها؟ أليس فى

التنكر «لميتافيزيقا» الأمة تنكر لحق هذه الأمة في الوجود أصلا، وفى التميز والنهضة وفى بناء حضارة أو المساهمة فى بنائها؟

* * *

هكذا حدث أنه بينما ضعضع انبهارى بالوضعية المنطقية من انبهارى بالماركسية، شاهدت من تطورات الحياة فى الغرب ما ساعد على مزيد من ضعضعة الاثنتين. لقد بدأ هذا التحول بطيئا وتدريجيا. كانت بداية تعبيرى عن هذا الموقف بداية متواضعة فى كتابى الذى كتبه بالإنجليزية فى أوائل السبعينات ونشر بالإنجليزية تحت عنوان (The Modernization of Poverty) أى تحديث الفقر، وهو عنوان استعرته من تعبير استخدمه إيفان إيليتش (Ivan Illich) فى أحد كتبه لوصف تجربة كثير من بلاد العالم الثالث فى التنمية، فاستخدمته عنوانا لكتابى الذى عرضت فيه تجربة تسع دول عربية فى التنمية فى ربع القرن التالى للحرب العالمية الثانية، ورأيت فيها أيضًا شيئا أقرب إلى إلباس الفقر رداء حديثا دون نجاح كبير فى تخفيض الفقر نفسه. وكتبت إهداء هذا الكتاب على النحو التالى:

«إلى أولادى الذين أتمنى أن يكون مستقبلهم أكثر رخاء (more affluent) ولكن أقل حداثة (less modern) وكنت أقصد بذلك أن المرغوب فيه هو تقدم اقتصادى يخفف من الفقر ولكن دون تقليد المجتمع الحديث فيما لا نفع فيه. على أن هذا الموقف الذى عبّر عنه عنوان الكتاب وإهداؤه، لا يظهر خلال فصول الكتاب على الإطلاق فيما عدا الخاتمة، فقد بدأت البحث وأنا لا أزال تحت سيطرة الأفكار السائدة فى التنمية، وكأن الهدف الأسمى هو زيادة متوسط الدخل، ورفع معدلات الادخار والاستثمار، وتغيير الهيكل الإنتاجى لصالح الصناعة، إلى آخر ما كانت تردده كتب التنمية. ولكن مع تقدم قراءتى عما حدث للاقتصاد والمجتمع العربى من ناحية، وعما ولده النمو السريع فى الغرب من مشكلات، بدأت ألاحظ ما يحدث من تضحية بنمط الحياة العربية من أجل التنمية وباسمها، وبدأ يخامرنى الشك فى أن الثمن الذى ندفعه قد يكون أعلى مما نحصل عليه فى مقابله. فأذكر أنى قرأت أثناء اشتغالى على هذا الكتاب مقالا لكاتب أمريكى، ترك فىّ أثرا كبيرا،

وكان يشرح ما تم فى أوائل الستينات فى مصر من إجراءات من أجل «تطوير» الأزهر، فإذا بالذى يحدث هو أن يتحول الأزهر إلى نسخة مكررة من الجامعات المصرية التى لم يكن فيها الكثير مما يبعث على الإعجاب، بينما ضعفت بشدة شخصية الأزهر المتميزة. عندما قرأت هذا المقال شعرت بأن أفكارى حول التنمية والثقافة والأصالة والمعاصرة، تترابط وتنتظم فى شكل مرتب وواضح. فقد اتضح لى فجأة ما الذى يجب أن يكون هدفنا الحقيقى وما الذى لا يجوز التضحية به.

بعد سنتين من نشر كتابى (تحديث الفقر) اشتركت فى ندوة فى الكويت تحت عنوان «النظام الاقتصادى العالمى الجديد والعالم العربى»، فإذا بالورقة التى كتبتها لهذه الندوة تحتوى على كلام فى الثقافة (بالمعنى الأنثروبولوجى الواسع وليس بالمعنى الضيق الذى يشير إلى الإنتاج الفكرى والفنى) أكثر مما تحتوى على كلام فى الاقتصاد. وإذا بى أشكو فيها من التبعية الثقافية أكثر مما أشكو من التبعية الاقتصادية، التى كانت مدرسة أمريكا اللاتينية فى التبعية تؤكد عليها. وكان هذا بداية لتزايد حجم الجرعة الثقافية فى كتاباتى على حساب الجرعة الاقتصادية. ولكن هذا لم يثر قلقى، إذ بدت المحافظة على الاستقلال الثقافى تكاد أن تكون مرادفة للمحافظة على الشخصية بل وعلى البقاء، وبدت لى التنمية بالمعنى الاقتصادى الضيق أقل أهمية بكثير، وبدت مهمة إصلاح المعوجّ فى الاقتصاد أسهل بكثير من مهمة إصلاح المعوج فى الميدان الثقافى، بل بدا لى أن الضرر أو الشرخ الذى يمكن أن يحدث للثقافة، نتيجة لما يسمى بـ «النمو الاقتصادى»، قد يكون من أصعب الأمور أو من المستحيل إصلاحه، وكنت أضرب دائما كمثل على ذلك، ما فعله الاستعمار الفرنسى باللغة العربية فى الجزائر. بينما بدا لى أن تحرير الاقتصاد من سيطرة الأجانب أمرا يمكن تحقيقه بين يوم وليلة.

لقد جمعت ما كتبته من مقالات فى التنمية فى هذه الفترة، أى فى منتصف السبعينات، ومن بينها تلك الورقة التى قدمتها فى ١٩٧٦ لندوة النظام الاقتصادى العالمى الجديد، ونشرتها بعد ذلك تحت عنوان «تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية؟»، وهو عنوان يعبر تعبيرا جيدا عن اتجاه هذه المقالات. ثم ازداد اقتناعى بهذه الفكرة،

وعبّرت عنها بقوة أكبر فى كتاب كتبته وأنا أستاذ زائر فى جامعة لوس أنجلوس، ونشرته فى ١٩٧٩ تحت عنوان «المشرق العربى والغرب» وهو يدور على فكرتين: أولاهما أن السبب الأساسى فى محنة العرب هو العلاقة بينهم وبين الغرب، والثانية هى أن الاستقلال الثقافى لا يقل أهمية، إن لم يزد، عن الاستقلال الاقتصادى.

فى أثناء عملى فى هذا الكتاب (٧٨ ـ ١٩٧٩) كان من بين أكثر الكتب تأثيرا فىّ كتاب صغير لكاتب لم أكن قد قرأت له من قبل شيئا، ولا أعرف شيئا عن أهميته ومواهبه. قرأت الكتاب ففتنتنى لغته العربية البديعة وأسلوبه القوىّ النفاذ، ووجدت موقفه من الدين شبيها جدّا بموقفى، إذ يغلب عليه التأكيد على دور الدين فى إحداث النهضة القومية بدلا من اعتباره مجرد طريق للخلاص الروحى للفرد. كان هذا الكتاب «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟» لشكيب أرسلان. وقد جعلنى هذا الكتاب أقرأ أى شىء أجده لهذا الرجل العظيم، ولم يخب ظنى أبدا. ولا يزال كتابه «حاضر العالم الإسلامى»، الذى فيه من التأليف أكثر مما فيه من الترجمة، من الكتب الأثيرة لدىّ، كما أثارت مقدمته البديعة لكتاب محمد الغمراوى فى نقد كتاب الشعر الجاهلى لطه حسين، حماسى مثلما أثاره كتاب الغمراوى نفسه. وقد وجدت فى كتاب الغمراوى مثالا جديدا يؤيد فكرتى عن العلاقة بين الدين والعلم. فها هو عالم مبرز فى الكيمياء، لا شك فى علوّ مقامه كعالم، ولكنه شديد التمسك بدينه، فلم تؤد صلابة إيمانه إلى إضعاف نزعته العلمية، ولا حدث العكس. إذن فإن من الممكن، بعكس ما كنت أتصور من قبل، أن يكون الإنسان صادقا فى علمه ودينه على السواء، وكأن كلا منهما يخاطب جزءًا من الإنسان لا علاقة له بالآخر. وأعتقد أن موقف أبى كان قريبا جدّا من هذا.

هذا المنحى من التفكير لدىّ قوّاه ولم يضعفه اكتشافى شيئا فشيئا كم كنا نبالغ فى موضوعية العلم، وفى إمكانية الوصول إلى حقائق مجردة لا تؤثر فيها تحيزات العالم وتفضيلاته، أو مصالحه الشخصية أو مصالح الطبقة أو الدولة التى ينتمى إليها. أخذ هذا يظهر لى بوضوح فيما يتعلق بالعلوم الاجتماعية، ولكن حتى فى

العلوم الطبيعية بدأت اكتشف شيئا مماثلا وإن لم يكن بنفس القوة بالطبع، وذلك بتأثير قراءتي لكتب من نوع كتاب (T. Kuhn: The Structure of Scientific Revolution) وكتب أستاذ الفلسفة النمسوي الأصل فاير أبند Feyerabend ومقاله الذي اعتبرته بديعا، عن ضرورة تحرير الدولة من العلم، مثلما تحررت من الكنيسة.

ذلك أني من ناحية تبينت شيئا فشيئا، كيف أن العلم هو أكثر «شخصية أو ذاتية» مما كنت أظن، وليس دقيقا بالدرجة التي كنت أظنها، ومن ثم من الممكن جدًا أن يكون ضارا ومدمّرا. وفي نفس الوقت تبينت أن الدين رغم أنه لا يقوم على التجربة أو الملاحظة، قد يكون قوة دافعة لأعمال عظيمة. فما كل هذا الغرور إذن الذي يتسم به الكثيرون من العلمانيين؟، ولماذا كل هذه المعاملة السيئة والاحتقار اللذين يبديانها إزاء المتدينين؟ المسألة إذن ليست مسألة اختيار بين العلم والدين، وإنما هناك علم فاسد وعلم ينفع الناس، كما أن هناك تدينا فاسدا وتدينا ينفع الناس.

* * *

يبدو أن كتابي «المشرق العربي والغرب» قد لفت نظر بعض من كانوا أقرب مني إلى الدين، مثل: عادل حسين وطارق البشري، اللذين كانا قد سارا شوطا أبعد مني بكثير في التعبير عن تعاطفهما مع اتجاه الإسلام السياسي، فوجدتهما يدعوانني إلى حضور ندوة دورية يحضرها نحو ستة إلى ثمانية أشخاص، ممن عبروا بشكل أو آخر عن اهتمامهم «بالتراث» أو «الأصالة» أو «الاستقلال الثقافي أو الحضاري» ليناقشوا في كل أسبوع أو أسبوعين كتابا من الكتب التي تثير اهتمامهم. وقد حضرت هذه الندوة التي استمرت عدة شهور، ثم توقفت الندوة عندما شعر أعضاؤها بقلة جدواها. كان لهذه الندوة ما لأمثالها من فائدة «اجتماعية» بحتة، بمعنى إتاحة فرصة اللقاء وتبادل الحديث بين أشخاص متقاربين في الذكاء والثقافة ونوع القضايا المثيرة لاهتمامهم، ولكن سرعان ما تبين بعد عدد قليل من الاجتماعات أن المنفعة الفكرية منها محدودة. كان من الحاضرين من يسترسل في الكلام بلا توقف دون أن يشعر بما يعترينا من ملل، ومنهم البالغ الخجل الذي يتعثر أكثر من اللازم في التعبير عن نفسه، ومنهم من يفسر الدين تفسيرًا غريبًا مثل قوله

إن الله هو الثورة، ومنهم المحب للسيطرة الذى لا يقبل اختلافا فى الرأى، ومنهم الصامت معظم الوقت.. إلخ. لم أشعر بالأسف إذن لتوقف هذه الاجتماعات، وإن سمعت وقرأت إشارات إلى بعض أعضاء هذه الندوة، ذكر فيها اسمى أحيانا، مقترنة بوصف «التراثيين الجدد». وهو وصف لا بأس به من حيث الدقة، فقد كنا جميعا «تراثيين» بمعنى من المعانى، وإن اختلفت نظراتنا إلى التراث اختلافا كبيرا، وكنا أيضا «جددًا» ببعض المعانى. ولكنى بعد فترة أصبحت أفضل ألا يدرج اسمى بين أسماء هؤلاء التراثيين الجدد، إذ سرعان ما تبين لى مدى الاختلاف بين نظرتى للتراث ونظراتهم. لم يكونوا هم أيضا على وفاق تام فيما بينهم، ولكنى أدركت على أى حال أن حرصى على التراث يصدر من دوافع مختلفة عن دوافعهم، ومن ثم ففهمى وتعريفى للتراث يختلف عن فهمهم وتعريفهم، ونوع تعاطفى واحترامى للدين مختلف عن نوع تعاطفهم واحترامهم له. يمكن أن أجمل هذه الاختلافات فى القول بأن نظرتى للتراث كانت سوسيولوجية أكثر منها ميتافيزيقية، وتعاطفى مع الدين واحترامى له وحرصى على حمايته ينبع من تعاطفى مع أمتى واحترامى لها وحرصى على حمايتها وليس العكس. ولنفس هذا السبب حدث خلال الثمانينات ما خلق جفوة وبرودا فى علاقتى بأحد أعضاء هذه المجموعة، بمناسبة تكرار أحداث اعتداء بعض المسلمين على بعض الأقباط. ففى ندوة عقدتها صحيفة من صحف المعارضة لمناقشة واحد من أشد هذه الاعتداءات قسوة وهمجية، تكلمت بحدة منتقدا أحد الشيوخ اللامعين فى وسائل الإعلام والذى كان يتمتع وقتها بشعبية واسعة، واعتبرته أحد المسئولين عن تهييج الناس ودفعهم إلى القيام بمثل هذه الاعتداءات. فإذا بهذا الزميل والصديق، الذى كان حتى وقت قريب مشاركًا لنا فى مناقشات «التراثيين الجدد»، يقول عبارة مديح فى الدفاع عن هذا الشيخ الذى لم أكن أكنّ له أى نوع من التبجيل.

ومع هذا، فقد صادفت خلال الثمانينات والتسعينات ما جعلنى أستمر فى تعاطفى مع الدين والمتدينين، وأن أدافع عنهم علنا فى كتاباتى المنشورة عندما أشعر أن بعضهم قد تعرض للظلم من جانب العلمانيين. فقد قرأت مقالات كثيرة جيدة للغاية لكتاب يصنفون على أنهم من «الكُتّاب الإسلاميين» فوجدتهم أقرب إلىّ فى

كثير من مواقفهم السياسية والاجتماعية مما كنت أجد فى كتابات كثيرمن الماركسيين والعلمانيين بوجه عام. كان بعض هؤلاء الكُتّاب الإسلاميين من الشبان الذى كنت أقرأ لهم فى ذلك الوقت لأول مرة، فإذا بى أجد حماسهم للدين مقترنا بالصدق والموهبة، والإحساس المرهف بمشاكل المجتمع، وترتيب صحيح للأولويات. قلت لنفسى: «ها هم متدينون لم يمنعهم موقفهم «الميتافيزيقى» من رؤية الأمور على حقيقتها، ولم يمنعهم حماسهم للدين من اتخاذ الموقف العلمى من قضايا المجتمع. فإذا كانت هذه المزايا تقترن بثقة عالية بالنفس مستمدة من الإيمان بأن الله يقف إلى جانبهم، وهذه الثقة تجعلهم على استعداد للتضحية والصبر والمثابرة أكثر مما يظهر من كثيرين غيرهم، فما الذى نريده منهم أكثر من هذا؟».

وجدت من بين طلبتى بالجامعة الأمريكية عدداً من الشبان والشابات، ممن تتوافر فيهم هذه المزايا كلها، بالإضافة إلى الشجاعة التى جعلتهم يعلنون تدينهم فى مجتمع (وهو طلبة الجامعة الأمريكية) كان يعتبر مثل هذا الموقف مدعاة للسخرية والاستهزاء، فشعرت نحوهم بالإعجاب والتقدير، خاصة وأن أداءهم الأكاديمى وذكاءهم كثيرا ما كانا أعلى بكثير مما وجدت فى زملائهم. أما الكُتّاب المعروفون، الذين وجدت فيهم هذه الصفات، فكان أبرزهم فهمى هويدى، الذى وجدته فى معظم مقالاته المنتظمة فى جريدة الأهرام يعبر عما أعتبره الموقف الصحيح، سواء فى مشاكل السياسة أو المجتمع، ويتخذ من قضية فلسطين وإسرائيل مواقف أكثر شجاعة من مواقف معظم العلمانيين، فأكبرته واحترمته. ثم حدث أن قرأت له مقالا فى الأهرام فى أوائل التسعينات ينتقد فيه بشدة قيام وزارة الثقافة بنشر رواية كتبها مؤلف مصرى غير معروف وتتضمن أشياء كثيرة لا تراعى أبسط قواعد الأدب واللياقة وتسخر من الدين وتستخدم فى ذلك ألفاظا جارحة. فما إن هاجم فهمى هويدى الرواية حتى انبرت له أقلام كثيرين من الكُتّاب من العلمانيين والماركسيين ممن يعتبرون حرية الفنان والأديب مقدسة، ولكنهم لا يعتبرون الدين كذلك، وممن لا يميزون فى أمر هذه الحرية بين المؤدب والبذىء، بين من يراعى مشاعر الناس وبين من يسىء إليهم، كما لا يعنيهم ما إذا كان العمل المنشور هو بالفعل عمل فنى يستحق الحماية أو عملاً من أعمال السب والقذف.

حاولت أن أعثر على نسخة من هذه الرواية فلم أجدها، فطلبتها من فهمى هويدى فأرسلها إلىّ، وقرأت منها الفصول الأولى ولم أجد أى داع للاستمرار فى القراءة. أيقنت من الجزء الذى قرأته صحة تقييم فهمى هويدى للرواية وشاركته رأيه، وشعرت بالغضب الشديد مما تعرض له من ظلم، ورأيت أن موقفه، فى هذه الواقعة بالذات على الأقل، يستوجب الدعم والتأييد، وكتبت مقالا أعبر فيه عن تأييدى له، وكان المقال بعنوان «دفاع عن فهمى هويدى»، نشرته لى جريدة جديدة كانت تتمتع بحرية غير معهودة حتى نفد صبر الدولة عليها وأغلقتها، وهى جريدة الدستور. كنت أعرف أن المقال سيغضب الكثيرين، إذ كان أعداء فهمى هويدى الذى يدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، كثيرين. كما كنت أتوقع أنها ستصيب بخيبة أمل كثيرين من الذين يصنفوننى فى معسكر آخر، سواء كان معسكر «اليساريين» أو «الماركسيين» أو «العلمانيين».. إلخ. ولكنى لم أر مبررا لأن أكتم رأيى فى هذه القضية التى اعتبرتها مهمة (قضية الحرية التى يجب أن تتاح للفنان أو الكاتب، وهل هى حقا بلا حدود؟)، وقلت لنفسى إن من الواجب فى تقييم الأشخاص التمييز بين مواقفهم فى القضايا المختلفة، وليس من حق الناس أن تصنّف الكتاب تصنيفا نهائيا فتضع كلا منهم فى معسكر ثابت وجامد على الرغم من الفوارق الدقيقة وغير الدقيقة التى تميز بين شخص وآخر. كما قلت لنفسى إن الحق مصيره أن يتضح فى النهاية، وإن الذى يسعى إلى الفهم الكامل للحقيقة المعقدة سوف يصل إليه، ومن لا يسعى إلى هذا الفهم لا يجب أن يبالى به.

ومع ذلك فقد آلمنى تسرع الكثيرين من معارفى وأصدقائى فى تصنيفى على هذا النحو، حتى وصل الأمر ببعضهم أن نعتنى بـ«الأصولى»، وتساءل البعض الآخر: «عما حدث لى»؟ وكأنى قد مسنى ضرب من الجنون. ولكن الذى آلمنى بوجه خاص عجز بعض أصدقائى ومعارفى من الأقباط عن هذا التميز، وتسرعهم مثل غيرهم فى اعتبارى وكأنى قد هجرت موقعى، وانضممت إلى المعسكر المعادى لهم. وعلى الرغم من أنى اعتبرت هذا الموقف منهم خطأ محضا، فقد اعتبرته أيضًا من قبيل الخطأ المفروض عليهم فرضا ويكاد يستحيل عليهم التخلص منه، بسبب وضعهم الخاص فى المجتمع المصرى، وفى هذه الفترة بالذات من تاريخ مصر. لقد

انقضى للأسف ذلك العصر الذى كان يمكن أن يقول فيه مكرم عبيد، ذلك القبطى الفذ، «إنى قبطى دينا ومسلم وطنا»، فأى تعبير أجمل من هذا عن المعنى الذى يدور بذهنى؟ نعم، الإسلام دين، ولكنه أيضا وطن وثقافة. ولكن التفكير على هذا النحو يتطلب ظروفا سياسية واجتماعية كانت متوافرة فى العشرينات والثلاثينات والأربعينات ولكنها لم تعد متوافرة الآن.

الذى يبدو لى أنه متى زالت تلك الظروف التى توحّد المسلمين والأقباط فى مشروع واحد للنهضة، والتى يكون فيها الولاء للدين علاقة بين الفرد وربه دون أن يهدد العلاقات الاجتماعية بين الأغلبية والأقلية، متى زالت هذه الظروف السعيدة يعود الأقباط إلى الشعور شعوراً قويا بأنهم أقلية، ويعتريهم خوف دائم من أن تتنكر الأغلبية لهم وينقلبون عليهم، ويصبحون فى شك دائم من أنهم سيتعرضون للاعتداء أو الخيانة إن لم يكن اليوم ففى الغد، مما جلب إلى ذهنى صورة الزوجة التى لديها سبب قوى يجعلها تعتقد أن زوجها قد يفضل غيرها عليها، ومن ثم فهى دائمة الشك فى زوجها، حيث ترى فى أى تصرف منه، وفى أى كلمة تصدر عنه، دليلا على أنه يضمر شرّا، وأن قلبه ينطوى على الخيانة. تظن أن زوجها يزمع تطليقها وهجرانها فى أول فرصة تسنح له، وتفسر كل نظرة منه إلى امرأة أخرى بأنه سوف يستبدل هذه المرأة بها. خطر لى وجود شبه بين مشاعر هذه الزوجة ومشاعر الأقباط فى مصر فى ظروف سياسية كالتى نعيشها اليوم. فأى كلام فى الدين يثير حساسيتهم، وإن لم تكن له أى علاقة بهم أو بموقف الشخص المتدين منهم، بل وأى كلام عن العروبة والوحدة العربية يؤخذ على أنه ينطوى على تهديد، ولو فى المستقبل، لمركزهم فى مصر ولعلاقة المسلمين المصريين بهم. إذا كان الأمر كذلك، فما حيلة مثقف مصرى يجد فى حماية الإسلام من المتهجمين عليه، وفى احترام الشعور الدينى، شرطا من شروط تحقق «نهضة قومية للمسلمين والأقباط على السواء؟».

إنى إذ أستعرض فى ذهنى الآن موقف أبى من الدين، ربما باستثناء فترة صباه وشبابه المبكر، أجد أن موقفى الآن قريب جدّا من موقفه. فعندما كتب أبى كتاب

«زعماء الإصلاح فى العصر الحديث» أو حتى كتبه الأساسية فى تاريخ الحياة العقلية فى الإسلام، أى سلسلة فجر الإسلام وضحاه وظهره، كان الذى يسيطر عليه هو دور الدين فى النهضة وفى إحياء أمته، أكثر من أى شىء آخر. نعم، لقد مرت بأبى فترة كان موقفه من الدين ينطوى على بعض الفتور أو الشك، ولكنى لا أظن أنه فقد فى أى من الأوقات ثقته فى دور الشعور الدينى فى استعادة الأمة لفتوتها وشبابها.

(١٨)

المرض والشيخوخة

كانت أمى، مثل الغالبية الساحقة من نساء جيلها، لا تحمل أى شعور ودّى إزاء الأطباء، وتحاول أن تتجنبهم بقدر طاقتها، ومن ثم فإنى لا أكاد أذكر أمى قط وهى فى عيادة طبيب، أو وهى تستدعى طبيبا أو يُستدعى لها طبيب فى المنزل. ناهيك عن شعورها نحو المستشفى، الذى كان فى نظر نساء هذا الجيل (وكثير من الرجال أيضا) مجرد خطوة نحو الموت، يندر فى نظرهم إذا دخله شخص أن يعود إلى منزله.

لقد أصيبت أمى طبعا بعدة أمراض، منها مرض السكر، ولكنها كانت تستهين بأمراضها كلها، ولا تستجيب لمن يحذرها من تناول هذا الطعام أو ذاك. كان العمر فى نظرها «واحدا»، أى مقررا سلفا ولا يمكن إطالته أو تقصيره. ولكن لعل ما كانت تعنيه حقيقة هو أنها بعد أن بلغت سنا معينة، ومات أبى، وتزوج معظم أولادها أو سافروا إلى الخارج، ولم يبق لديها ما تشعر بأنها تعيش من أجله، لم تعد ترى فى الموت شيئا مخيفا. وعندما جاءها الموت وهى فى نحو الثانية والستين (ولم تكن تعرف سنة ميلادها إلا بالتقريب) لم تكن تخافه. لم أكن بجوارها عندما ماتت، فقد كنت فى بعثتى الدراسية بإنجلترا، ولكنى كنت معها قبل ذلك بسنة، وما يرويه لى أخى حسين الذى كان بجوارها حينئذ يدل على أنها لم تكن تجد فى الموت ما يخيف. وعلى أى حال، فقد كان بإمكانها لو قدر لها أن تعلق على موتها أن تقول: «ألم أقل لكم؟ هأنذا يأتينى الموت فى المستشفى فى المرة الوحيدة التى دخلته فيها، ولم أعد منه إلى بيتى».

إذا كان هذا هو موقفها من الأطباء والمستشفيات فلا يمكن أن نتوقع أن يكون

لموقفها من المرض بصفة عامة أى سمة من سمات «الروح العلمية». كان كلامها عما تشعر به من أوجاع أقرب إلى الشعر منه إلى العلم، فهى ماهرة فى استخدام التشبيهات البليغة فى وصف ما تشعر به، كأن تقول إنها تشعر بجسمها وكأنه شوال من الرمل، أو برجلها «تنبح عليها»، وكأن منشارا لا يكف عن نشرها جيئة وذهابا، أو بقدمها وكأن مسامير قد دُقت فيها.. إلخ. فإذا مرض أحدنا فارتفعت حرارته عبّرت عن ذلك بأنه «ساخن كالنار»، وإذا طلب أحدنا منها أن تأتى بترمومتر لقياس الحرارة قالت «أنا إيدى ترمومتر». وكانت صائبة فى ذلك إلى حد كبير. وقد سررت عندما قال لى ابنى الأصغر منذ سنوات قليلة، عندما سألته عما إذا كانت صديقته الأمريكية تعرف بعض الكلمات العربية، «إنها تعرف عبارتين فقط بالعربية إحداهما (أنا إيدى ترمومتر)!».

لَم يكن الترمومتر يعتبر حينئذ من لوازم الحياة التى يجب وجودها فى كل بيت، كما أن كمية الأدوية التى تجدها فى بيتنا فى ذلك العصر كانت ضئيلة للغاية، إذا قورنت بما يحتويه أى بيت الآن، فكانت تكاد تقتصر على إناء صغير من «الفيكس» الذى يستخدم عند البرد والزكام، وعلى «ملح الفواكه» الفوار الذى يستخدم عند اضطراب المعدة، وعلبة «الأسبرين» لتخفيض الحرارة. ومن ثم كان من النادر أن تسمع عن استفحال المرض بسبب الخطأ فى اختيار الدواء، إذ كان اللجوء إلى الأدوية محدودا جداً فى الأصل، وكان الاعتقاد شائعا بأن معظم الأمراض يكفى لعلاجها لجوء المريض إلى الراحة فى السرير، وتجنب التعرض للبرد، مع تناول طعام صحى، بالإضافة إلى بعض المشروبات التقليدية المعتمدة على بعض التوابل التى تبيعها محلات العطارة، والتى يوجد منها لكل داء دواء. أما الجرى إلى الطبيب لدى ظهور أى عارض من أعراض المرض أو لدى أى ارتفاع فى الحرارة، أو شعور بصداع أو فقدان للشهية.. إلخ، كالذى أصبح شائعا الآن، فلم يكن ليخطر على بال أمى (بل ولا حتى على بال أبى أو أحد من إخوتى) فى ذلك العصر. وقد قرأت مؤخرا فى السيرة الذاتية لأستاذ الفلسفة الشهير والنمسوى الأصل (بول فايرأبند (P. Feyerabend) وصفا لموقف أبيه وأمه من المرض يشبه جداً موقف أمى، إذ كانا يعتقدان مثلها أن المرض فى معظم الأحوال، سوف يزول دون سبب

واضح، كما جاء دون سبب واضح. وقال فيرابند تعليقا على ذلك إن موقفهما هذا كان أكثر عقلانية من الجرى إلى الطبيب لدى ظهور أى عارض للمرض مهما كان عارضا تافها.

كانت أمى، مع ذلك، تؤمن بجدوى بعض طرق العلاج التقليدية، أو «البلدية» كما أصبحنا نسميها مع زيادة احتكاكنا بالغرب، مثل علاج تورم اللوز بـ «التلحيس»، وهو علاج لم أسمع أحدا يتفوه باسمه منذ طفولتى، وكانت تقوم به امرأة لا علاقة لها بالطب أو الأطباء، تصحبنا أمى إليها كلما أصابنا احتقان فى اللوز، وسط صياحنا وعويلنا، لا بسبب ما نحن فيه من مرض، ولكن لما خبرناه من قبل من هذه المرأة، إذ كانت تدخل إصبعها فى حلقنا بعد أن تغمسه بكمية كبيرة من البن، وتقوم بطلاء الزور المريض بإصبعها بهذا البن مع الضغط بإصبعها بشدة على الحلق.

كان لأمى أيضا موقف صارم وواضح جداً من البرد. كانت نظريتها فى الصحة والمرض تتلخص فى أن الشرطين الأساسيين للاحتفاظ بالصحة وتجنب المرض هما تناول الطعام الكافى والجيد، وتجنب البرد. ولكن حرصها على تجنب البرد كان يتخذ أبعادا متطرفة للغاية، فهى فى سبيل تجنب البرد لا تلقى أى بال لدرجة نقاء الهواء أو فساده، ولو استطاعت أن تسد كل منافذ الهواء أثناء نومنا، بما فى ذلك الفراغ فى أسفل الأبواب، لفعلت. وهى تجبرنا ونحن نستعد للذهاب إلى المدرسة فى الشتاء على ارتداء ملابس داخلية لا يمكن لأى أسرة عصرية الآن أن تتصورها. ولا أزال أذكر فزعى عندما كانت تصرّ على ارتدائى تلك الفانلة الصوفية الغريبة وأنا ذاهب إلى المدرسة، إذا اشتد البرد. لم تكن فانلة عادية مصنوعة من الصوف بل كان لها وبر طويل لا يكف عن وخز الجسم، ولا أشك أن لها شبهًا بما كان المتصوفون يرتدونه، وربما اكتسبوا اسمهم منها، إمعانا فى تعذيب أنفسهم. ولكن بالإضافة إلى ما كانت تسببه لى هذه الفانلات الغريبة من ألم مادى محض، كانت تصيبنى أيضًا بألم نفسى، إذ كان زملائى فى المدرسة يرون ما أرتديه تحت القميص كلما ذهبنا لتغيير ملابسنا استعدادا للقيام ببعض الألعاب الرياضية. كانت هذه الفانلة تثير استغراب بعضهم وأحيانا بعض التعليقات الساخرة، وربما كان لهذا علاقة بما ظللت أشعر به من كراهية لأى نوع من الألعاب الرياضية بقية العمر.

كتب لنا أخى الأكبر مرة، عندما كان يقضى بضعة شهور فى السويد فى زيارة لبعض مصانعها، وكان بطبعه مغرما بالمبالغة الشديدة، فقال إن البرد فى السويد من الشدة بحيث يحدث أحيانا أن يتجمد أنف الرجل أو المرأة أو أذناهما وهما سائران فى الطريق. وقد أحدث هذا الخطاب رعبا لدى أمى ظل ملازما لها لسنوات طويلة حتى عاد كل أبنائها من أوروبا، إذ كانت تتصور أن أحدا منهم قد يفقد أنفه أو أذنه بسبب البرد. وظلت تحذرهم من ذلك فى كل خطاب ترسله إليهم.

* * *

كان أبى بالطبع، بعلمه الواسع وعقلانيته، محصنا ضد هذه المعتقدات والمخاوف، كما كان أكثر ثقة من أمى بالطب والأطباء. ونشأنا نحن الأولاد والبنات أقرب بالطبع إلى موقف أبى منا إلى موقف أمى. ومع هذا فلابد أن أعترف بأننى إذا نظرت الآن إلى خلاصة خبرتى مع الأطباء، خلال حياتى الماضية بأكملها، أجد أنها أقرب إلى خيبة الأمل منها إلى الإعجاب. بل إنى عندما أستعيد ذكرياتى مع الأطباء، خطوة بخطوة، منذ أول عهدى بهم حتى الآن، تدهشنى كثرة عدد من ارتكبوا أخطاء جسيمة فى حقى.

بدأ هذا فى سن مبكرة للغاية إذ لم أكن تجاوزت سن السابعة أو الثامنة عندما أخذنا أبى، نحن الإخوة الثلاثة، أحمد وحسين وأنا، إلى طبيب الأنف والأذن والحنجرة لاستئصال اللوز فى يوم واحد، وكان فيما أذكر أشهر طبيب مصرى فى هذا التخصص. وتمت العملية وعدنا إلى البيت، دون أن ندرك وقتها أن الطبيب فى حالتى أنا، لم يستأصل من اللوز كل ما كان عليه استئصاله، وأنه من ناحية أخرى استأصل أكثر مما يجب. فقد لاحظ أبى فى السنوات التالية شيئا غير طبيعى يجرى فى حلقى ويدفعنى كل صباح للإسراع بالتخلص مما تجمع فى حلقى طوال الليل، وأنى أتعرض أكثر من إخوتى لنوبات من السعال والإنفلونزا خاصة فى الشتاء. استمر الحال على هذا النحو لعدة سنوات حتى أخذنى أبى وأنا فى الثالثة عشرة من عمرى إلى طبيب كبير آخر، بدا عليه الذهول عندما قام بفحص حلقى وأخبرنا بأن الطبيب السابق، فضلا عن استئصاله للّحاة دون موجب، أثناء عملية اللوز، ترك جزءاً من اللوز دون استئصال فعاد نموها من جديد.

فى نفس السن أخذنى أبى لطبيب العيون لما لاحظه من ضعف فى بصرى فأخبرنا الطبيب بحاجتى إلى نظارة. ولا أزال أذكر كيف انهال أبى علىّ طوال طريق عودتنا إلى البيت، فى الشارع وفى الأتوبيس، باللوم والتقريع، وكأنى أنا المسئول عن حالة عينىّ. وذكر أثناء ذلك كل ما يمكن ذكره عن عادات القراءة السليمة التى لا أتبعها، وأضرار القراءة فى ضوء ضعيف أو تقريب الكتاب أكثر من اللازم من العين.. إلخ. كان غاضبا وحزينا، ولم أدرك إلا فيما بعد أن سبب غضبه وحزنه لم يكن اعتقاده بخطأ ارتكبته أنا، كما كان يزعم، بل اعتقاده بأنه هو المسئول عن ضعف بصرى بتوريثى إياه. على العكس من ذلك، لم أكن أنا أشعر بأى حزن أو غضب، بل أظن أننى كنت أقرب إلى الابتهاج لما كان يسبغه لبس نظارة من أهمية، أو هكذا تصورت فى تلك السن.

ظلت علاقتى بأطباء العيون هى العلاقة المألوفة لقصار النظر حتى أصبت بمرض السكر، أو على الأقل اكتشفت أنى مصاب به، فى سن الثالثة والستين، ونصحت أن أواظب على الكشف على عينى مرة كل عام على الأقل للتأكد من أن السكر لم يصب النظر بالتدهور. وإذ نصحنى أخى أحمد، الذى كان يثق فى الأطباء أكثر بكثير منى، بأن أواظب أيضا على الكشف عن ضغط العين لخطورة ارتفاعه، اعتدت أن أذهب فى كل عام لطبيب عيون للكشف عن هذا وذاك. ولكنى فى إحدى المرات لاحظت أن الطبيب دخل عيادته مهرولا على غير عادته، وكان قد وصل متأخرا عن موعده أكثر بكثير من المعتاد حتى من سائر الأطباء، وفهمت من حديثه مع مساعديه أنه يستعد للسفر فى الغد إلى مؤتمر خارج مصر.

كشف علىّ الطبيب وهو فى هذه الحالة فوجد ضغط العين عندى أعلى من اللازم، فأعاد الكشف ووصل إلى نفس النتيجة، ثم كتب لى الدواء. وعندما سألته عن الفترة التى يجب أن أستمر خلالها فى استخدام هذا الدواء، قال إلى الأبد. ثم أضاف بسرعة أن علىّ التأكد من سلامة الكبد أو الكلى (لا أذكر) لتجنب الضرر الذى يحدثه الدواء إن لم يكن هذا سليما. اندهشت دهشة عظيمة من أن شيئا بهذه الأهمية يجرى بهذه السهولة: دواء يؤخذ طول العمر، ويمكن أن يكون له آثار

جانبية خطيرة، يجرى النصح بتناوله بهذه السرعة وهذه البساطة. قررت أن أهمل النصيحة تمامًا وانتظر حتى أعيد الكشف عند طبيب آخر. وقد حدث، وتبين أن ضغط العين طبيعي جدًا، سنة بعد أخرى. وعندما عدت للطبيب الأول ونظر إلى أوراقه وقال إنى بالطبع أتناول الدواء الخاص بضغط العين، قلت له إن الحقيقة أنى لا أتناوله، لأنى أفضل أن أقلل استخدام الأدوية إلى الحد الأدنى، فأعاد الكشف المرة بعد المرة، ثم أعلن استغرابه الشديد أن يجد ضغط العين عندى طبيعيا تماماً قائلا «كأنك شخص آخر تمامًا!».

أذكر أيضًا أننى في سن الثانية والثلاثين، وفى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ مباشرة، اضطررت للذهاب إلى طبيب أسنان، تصادف أن كان أشهر طبيب للأسنان فى مصر فى ذلك الوقت، ولكنه لهذا السبب كان مثقلا بالعمل، وليس أمامه متسع من الوقت فأحالنى إلى ابنه، طبيب الأسنان المتخرج حديثا، والذى كان يتدرب فى نفس عيادة أبيه. فإذا بهذا الابن يستسهل خلع ثلاث أو أربع من أسنانى، عرفت فيما بعد أن كان من الممكن إنقاذها من الخلع، ولكن الابن كان فيما يبدو أكثر قدرة على خلع الأسنان منه على حشوها.

بعد سنوات كثيرة سمعت ثناءً كبيرًا على طبيب أسنان آخر، اشتهر بعيادته المتطورة واتباعه أحدث أساليب العلاج التى أحضر لها أحدث الآلات والمعدات عند عودته من أمريكا. ذهبت إليه وكنت أظن أنى لا أحتاج إلا إلى علاج بسيط وسريع للقضاء على ألم عارض فى إحدى الأسنان، فإذا بى أجد أنه قد حوّل عيادته إلى سوبر ماركت فاخر، تستقبلك فيه ممرضات جميلات عدن لتوهن من الكوافير، وموسيقى ناعمة تملأ المكان، فضلا عن عدد كبير من أجهزة الكمبيوتر التى تختزن كل المعلومات المتعلقة بكل سن من أسنانك.

عندما مدّ إلىّ يده التى تحمل صورة الأشعة الملونة التى التقطت لفمى من الداخل، اتسمت على وجهه سمات الفزع والأسف الشديدين إذ وصلت حال فمى وأسنانى إلى هذا المستوى من التدهور، وأخذ يشير بإصبعه إلى هذا الجزء من الصورة ثم إلى ذاك قائلا :

«ألا ترى بنفسك ما حدث؟» وأنا أحاول أن أرى ما يراه دون جدوى، إذ لم أر أى شىء ذى مغزى واضح. لقد بدت لى الصورة بشعة حقا، ولكنى تصورت أن صورة أى فم من الداخل لابد أن تكون بشعة، حتى ولو كان فم صوفيا لورين، إذ ما الذى يمكن أن يتوقع المرء أن يراه فى صورة مكبرة للثة والأوعية الدموية وقد كساها كلها اللعاب؟

تركنى هذا الطبيب المشهور بعد ذلك بضع دقائق فى حجرة مكتبه ريثما يرى مريضا آخر. وفى تلك الدقائق كانت لدىّ فرصة كافية لتأمل بعض الصور التى وضعها على مكتبه فى مكان واضح لا يمكن أن يغفل الزائر عن رؤيتها، ومنها صور له وهو واقف فى عظمة مبهرة بمعطفه الأبيض وإلى جانبه من اليمين مطرب شهير، ومن اليسار سياسى كبير هو أيضًا من أشهر الصحفيين المصريين فى النصف الثانى من القرن. هذا إذن هو نوع الناس الذين يقصدونه لعلاج أسنانهم فلابد أنه طبيب عظيم. وعندما عاد إلىّ الطبيب شرح لى باهتمام بالغ أن حالتى تستلزم علاجا لابد أن يطول، وينقسم إلى مرحلتين، الأولى ستتكلف نحو عشرين ألفا من الجنيهات والثانية يصعب تقدير تكاليفها حاليا وإن كانت، لسبب لم يذكره بوضوح، ستتطلب الدفع بالدولار.

تركت العيادة مهموما، ولكنى سرعان ما استعدت رباطة جأشى وضحكت من الأمر برمته. وذهبت إلى طبيب آخر، عالج ستّى المؤلمة بثلاثين جنيها ولا تزال تعمل بكفاءة حتى الآن وقد انقضى على هذا العلاج أكثر من عشر سنوات.

مع تكرار مرورى بتجارب من هذا النوع مع الأطباء، لم يعد يدهشنى أن أصادف طبيبا جديدا أو مستشفى جديدا، فى مصر أو خارجها، يمارس درجة أو أخرى من الاحتيال لتحقيق مكسب مادى أكبر على حساب المريض المسكين. واتضح لى شيئا فشيئا أوجه شبه مهمة بين ممارسة مهنة الطب وممارسة مهنة رجل الدين عندما تكون درجة النزاهة والاستقامة الخلقية فى أى منهما أقل مما يجب. كلاهما يحاول أن يستغل نقطتى ضعف خطيرتين فيمن يلجأ إليهما طالبا منهما العون: شدة الحاجة مع شدة الجهل. فنحن لا نلجأ إلى الطبيب أو رجل الدين إلا

عندما يشتد بنا الخوف على مصيرنا، إما خلال هذه الحياة أو الحياة التالية، والغالبية العظمى منا لا تعرف شيئا يذكر عن أسرار الجسم الإنسانى أو أسرار الألوهية والحياة بعد الموت. وفى الحالتين، يجد الطبيب ورجل الدين بين يديه الكثير من المصطلحات الصعبة وغير المفهومة، والمراسم والطقوس التى لا نعرف بالضبط مدى ضرورتها فتسهل المبالغة فى أهميتها.

مما ساعد الأطباء على الاحتفاظ بما يتمتعون به من هيبة واحترام، ليس أن نسبة نجاحهم أكبر بكثير من نسبة فشلهم، بل إن هناك قوة جبارة تعمل باستمرار لصالحهم ولإنقاذهم من الأخطاء الكثيرة التى يرتكبونها. هذه القوة الجبارة هى طبعا القدرة الطبيعية التى يحوزها جسم الإنسان على مقاومة ما يمكن أن يصيبه من أمراض، وعلى تصحيح معظم أوجه الخلل التى لابد أن تصيبه من وقت لآخر، دون أن يكون من الواضح، فى معظم الأحيان، إلى من يعود الفضل فى الشفاء: الطبيب أم تلك القوة الطبيعية الجبارة. هكذا شفيت من مرض عضال أصبت به فى بيروت وأنا فى سن الأربعين، وقضيت بسببه أسبوعين فى مستشفى الجامعة الأمريكية، وأنا بين الحياة والموت، ومررت خلالهما بكل أقسام المستشفى، بينما كان الأطباء يحاولون اكتشاف ما أصابنى دون جدوى، وتجمعت لديهم عشرات من صور الأشعة وعشرات التحليلات والقياسات، وانتهى الأمر كله بشفائى بقوة الجسم الطبيعية وقدرته على المقاومة. وكان تشخيص المرض بأنه «فيروس غير معروف الهوية»، إذا كان من الجائز اعتبار هذا تشخيصا على الإطلاق.

* * *

روى عن الكاتب الأمريكى ذى الأصل الأرمنى (وليام سارويان) قول طريف يقال إنه صدر منه وهو على فراش الموت: «لقد كنت أعرف دائما أن كل إنسان لابد أن يموت، ولكنى كنت آمل دائما أن يحدث استثناء فى حالتى». وأظن أن هذا الشعور ليس مقصوراً على وليام سارويان، بل ينطبق علينا جميعا لحسن الحظ، إذ بدونه لا أظن أن الحياة يمكن أن تكون محتملة. كما أعتقد أن هذا هو موقفنا أيضًا من الشيخوخة. فكلنا يعرف ومستعد للاعتراف بأنه لابد أن تصيبه الشيخوخة يوما

ما، ولكنه يتصرف فى حياته اليومية ويرسم خططه، وكأنه سيظل سليما معافى إلى الأبد. أعرف أن هذا صحيح على الأقل فى حالتى أنا. إنى الآن فى السبعين وقد بدأت أحس بأعراض الشيخوخة منذ أربع أو خمس سنوات، بل وربما قبل ذلك بالتدريج، ولكنى لم أعترف بذلك لنفسى إلا منذ شهور قليلة، كنت قبلها أشعر فى قرارة نفسى بذلك الشعور غير العقلانى بالمرة، هو أن الشيخوخة لن تصيبنى. بل حتى هذه اللحظة التى أكتب فيها هذا الكلام، لا أزال أقول لنفسى كلما شعرت بأعراض الشيخوخة، بأنها أعراض مؤقتة لا تلبث أن تزول، مع أن أى عاقل لابد أن يعترف بأن هذه الأعراض جاءت لتبقى أو لتتحول إلى ما هو أسوأ منها.

ليس هذا هو الظن اللاعقلانى الوحيد الذى يميل إليه المرء فى شيخوخته. فهناك أيضًا الظن البالغ الحماقة بدوره بأن هذه الأعراض التى أحس بها لا يراها غيرى ومن ثم فإنى لا أزال أظهر أمام الآخرين كما كنت أظهر دائما أمامهم. لقد أصبحت أفاجأ بين الحين والآخر كلما رأيت صديقا أو زميلا قديما من زملاء المدرسة أو الجامعة، لم أكن قد رأيته منذ مدة طويلة، فإذا بى أجده وقد أثقلت الشيخوخة حركته، وربما وجدت معه عصا يتوكأ عليها، وانتشرت التجاعيد فى وجهه، ناهيك عن انتشار الشعر الأبيض وسقوط أكثره. ما أكثر ما رأيت هذا التغير فى زملاء الطفولة والصبا، ومع ذلك فأنا لا أريد أن أتعلم وأغيّر رأيى فى نفسى. قد أتظاهر بالاعتراف بأن ما حدث لغيرى قد حدث لى أيضًا، ولكنى لا أعتقد هذا حقيقة فى قرارة نفسى، وما أسرع ما أصدق ما يقوله لى مجامل أو منافق من أنى لم أتغير قيد أنملة منذ رآنى منذ سنوات كثيرة. بل ما أكثر ما تشتد هذه الحماقة فتمتد إلى نظرة الرجل إلى النساء، حتى بعد أن يبلغ الشيخوخة. فيظن لمجرد أنه لا يزال يشتهى المرأة الجميلة ويتمناها، أنها يمكن أيضا أن تميل إليه وترغب فيه.

فاجأنى الشعور بالشيخوخة فى وقت ما بعد بلوغى الخامسة والستين، ولا أستطيع أن أقول متى حدث هذا بالضبط، وإن كنت الآن، بعد أن بلغت السبعين، أستطيع بسهولة عقد مقارنة بين حالى بعد حدوثه وقبله.

لم يكن جسمى موضوعا للتفكير، أو حتى لوعيى على أى نحو كان،

فأصبحت واعيا به في فترات كثيرة من كل يوم، يعود إلى تذكيرى بوجوده وجع بسيط في هذا المفصل أو ذاك، أو رؤيتى لسلم عال، علىّ ارتقاء درجاته، أو أى شيء ثقيل علىّ أن أحمله. تباطأت الحركة، وأخذت أرحب بأى فرصة للجلوس، وأصبحت الضوضاء تزعجنى أكثر مما كانت من قبل، بينما أصبح الهدوء التام مصدرا للمتعة في حد ذاته ولو لم يصحبه أى شيء آخر ممتع. كنت قد لاحظت من قبل إلى أى حد يتأثر سلوكنا في مختلف المجالات، بالرغبة في الحصول على إعجاب الجنس الآخر. ولكنى بعد بلوغى الشيخوخة أدركت هذا بوضوح أكبر، ودهشة أشد، إذ وجدت أن حماسى لكثير من الأمور قد أصابه بعض الفتور مع ضعف رغبتى في الحصول على هذا الإعجاب والرضا. لا أزال أجد فارقا كبيرا، أثناء إلقائى لمحاضراتى، بين درجة سرورى بما قد يتركه حديثى من أثر طيب في المستمعين من الذكور، وبين سرورى بأى تعبير عن الرضا أو التقدير أراه على وجه امرأة جميلة بين الحاضرين، ولكن مما لا شك فيه أن الضعف الذى أصاب الرغبة في الحصول على إعجاب الجنس الآخر قد ترك أثره على درجة الحماسة لأشياء كثيرة في الحياة، من اختيار الملبس، إلى انتقاء الحديث، إلى تفنن المرء في إظهار قدراته في أحسن صورة.

ذكرنى هذا الضعف في الحماسة لأمور كثيرة، الذى نتج عن الضعف الذى أصاب الرغبة في الظفر بإعجاب الجنس الآخر، بما كنا نشعر به في الكويت، في منتصف السبعينات، حيث كان من الممكن بأن يقطع المرء شوارع طويلة ويدخل محلا أو مطعما أو فندقا بعد آخر، فلا يصادف امرأة من أى نوع، شابة أو عجوزا، منقبة أو محجبة أو غير محجبة ولا منقبة، فيشيع شعور بالجدب التام قد لا يدرى المرء سببه الحقيقى، ولكنه بلا شك له علاقة ما بهذا الغياب الكامل للمرأة.

مع الشيخوخة لا تضعف فقط رغباتك فيما يمكن أن يحققه الناس وتحققه الحياة لك، ولكن تضعف أيضًا، ويا للأسف، رغبات الناس فيما يمكن أن تحققه أنت لهم. ذلك أن الحقيقة أن قدرتك على تحقيق رغبات الناس، لابد أن تضعف مع تقدمك في السن. فالوظيفة المهمة التى كنت تشغلها، تفقدها ببلوغ سن المعاش،

وقدرتك المعهودة على تلبية طلبات الناس للكتابة أو إلقاء محاضرة أو الاشتراك فى برنامج تليفزيونى لم تعد كما كانت، لا كمًا ولا نوعًا، بل وحتى الاشتراك فى المناسبات الاجتماعية المختلفة، كحضور حفل زواج أو تلبية دعوة عشاء، قد يضعف الأمل فيه بتكرار اعتذارك عن هذه الدعوة أو تلك، أو بضعف رغبتك فى المشاركة فى الكلام أو الضحك. لابد إذن أن تجد عدد المرات التى يرن فيها جرس التليفون فى بيتك قد أصبح أقل بكثير مما كان، وكذلك عدد الخطابات التى تأتيك فى البريد. إنى لم أقطع بعد شوطا بعيدا فى هذا المنحدر، ولكنى أراه أمامى بكل وضوح، خاصة وأنى لا أزال أذكر ببعض الحزن، ما كان يظهر على وجه أبى فى شيخوخته، من خيبة الأمل عندما كان يدق جرس التليفون فجأة وهو جالس دون انشغال حقيقى بأى عمل محدد، فيعتريه الأمل فى أن يكون المتكلم صديقا له أو حتى شخصا لا يعرفه يحاول أن يحصل على وساطته للحصول على وظيفة أو بعثة أو ترقية، ثم تصيبه خيبة الأمل عندما يكتشف أن المكالمة لابن من أبنائه.

ولكنى أذكر أيضا مقالة كتبها الفيلسوف البريطانى برتراند رسل فى صحيفة بريطانية لدى بلوغه الخامسة والثمانين، وصف فيها المسرات المختلفة التى يتمتع بها المرء فى هذه السن الكبيرة. أذكر أنه ذكر أنه تخلص إلى الأبد من أى شعور بالغيرة وروح المنافسة والرغبة فى التفوق على الآخرين، وما يصاحب هذا الشعور أحيانا من آلام. وأضيف إلى ذلك الميزة الأكثر وضوحا والمتمثلة فى انخفاض درجة الاحتياج إلى المال مع انخفاض حدة مختلف الرغبات، وانخفاض درجة الخوف من العوز المادى لقلة المتاح من الوقت الذى يمكن للمرء فيه إنفاق ما سبق له ادخاره. بل لقد لاحظت أن خوفى من الموت نفسه قد أصبح أقل بكثير فى الشيخوخة مما كان قبل عشر سنوات أو عشرين. ربما كان السبب أن الشيخوخة، بما تنطوى عليه من ضعف مادى، تنطوى هى نفسها على شىء من الموت، ولكن مع الشيخوخة يزداد تعرض المرء للموت بصور أخرى، إذ يزيد شيئا فشيئا عدد أقرانه ومعارفه الذين سبقوه فى الرحيل، فتصبح الفكرة أقرب إلى التصور وأقل ثقلا على النفس. أو ربما كان السبب أن ضعف الحماسة لتحقيق مختلف الرغبات يجعل الحرمان التام من تلبية هذه الرغبات أخف على النفس ويزيد من قدرة المرء على احتماله. بل

هناك أيضًا مجرد الملل. فالحياة الممتدة لابد أن تتكرر فيها التجارب المرة تلو الأخرى، والسرور أو الإثارة التى كانت تجلبها التجربة عندما كانت تجربة جديدة، تفقد قوتها وجاذبيتها بالتكرار والتعوّد، فإذا بالمرء يضعف أيضا تطلعه إلى المزيد من تكرار نفس التجارب.

عندما أنظر الآن إلى أولادى وحفيدىّ، وقد اعترتهم الحماسة لشىء لم يعد يثير لدىّ أى حماسة من فرط تكرار حدوثه هو نفسه أو حدوث مثيل له، يعترينى أولا تعجب ودهشة لا يدومان أكثر من لحظة قصيرة. إذ سرعان ما أتذكر حماستى لهذا الشىء عندما كنت أصادفه لأول مرة. فيتوقف عجبى ودهشتى، وقد أتظاهر بمشاركتهم حماستهم، أو أكتفى بابتسامة صغيرة، ولكنى بالطبع لا أسمح لنفسى قط بأن أذكر لهم السبب الحقيقى لهذا الفارق الكبير بين موقفى وموقفهم.

(١٩)

البدايات والنهايات

- ١ -

هأنذا اليوم، وقد تجاوزت السبعين من عمرى، أستعرض حياتى فأجدها مليئة بالأمثلة على خيبة الأمل، وهكذا أيضًا أجد حياة كل من عرفتهم عن قرب، حتى من كان أكثرهم نجاحًا.

كان أبى يعتبر حياته ناجحة، كما يظهر بوضوح من الفقرة التى أنهى بها كتابه «حياتى»، حيث يقول إن الله من عليه بالتوفيق «فى أكثر ما زاولت من أعمال: فيما ألفت من كتب، فى عملى بلجنة التأليف، فى الجامعة الشعبية، فى الجامعة المصرية، فى الجامعة العربية، فى عمادة كلية الآداب، كذلك الشأن فى حياتى العلمية والأدبية والمالية والعائلية: نِعم من الله لا أستطيع أن أقوم بالشكر عليها».

ولكنه يعبر أيضا عن دهشته من هذا النجاح فيقول إنه يجد من الصعب تفسيره بالتحليل العقلى أو تفسيره بالتحليل الاجتماعى والنفسى، «فكم رأيت من أناس كانوا أذكى منى وأمتن خلقا وأقوى عزيمة، وكانت كل الدلائل تدل على أنهم سينجحون فى أعمالهم إذا مارسوها، ثم باءوا بالخيبة ومنوا بالإخفاق، ولا تعليل لها إلا أن «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»».

ما السر إذن فى هذا الحزن الشديد الذى كان يخيّم على أبى فى سنواته الأخيرة؟ وكأنه لم يعد هناك شىء قادر على إبهاجه، لا الثناء على كتاب جديد له أو مقال نشره، ولا حصوله على أكبر جائزة أدبية من الملك، ولا منحه الدكتوراه الفخرية فى حفل مهيب فى قاعة الاحتفالات بالجامعه.. إلخ.

أما أميّ فربما كانت أكثر ميلا من أبى للشكوى، ولكن معظم من عرفوها يعتبرون حياة أمي ناجحة أيضاً، بمعايير جيلها وعصرها، رغم أنها فى سنواتها الأخيرة أصبحت قليلة الكلام، وفقدت الرغبة فى المشاركة فى أى مناسبة للمزاح أو المرح، وقد وجدتُ أنا فى هذا دليلا على حزن أقوى مما عهدته فيها فى أى وقت مضى .

الملاحظة نفسها تنطبق أيضاً على إخوتى، وعلى كثير من أبنائهم وبناتهم، رغم أن معظم هؤلاء الأبناء والبنات لم يبلغوا الخمسين. بل لقد لاحظت حتى على تلاميذى الذين مرّ علىّ منهم عشرات وربما مئات فى كل عام، لفترة تزيد على ثلاثين عاماً، أنهم يبدأون حياتهم الجامعية مستبشرين متفائلين، ثم أراهم وهم على وشك التخرج فإذا بهم قد خيّم عليهم شىء كالخوف من المستقبل، ناهيك عما يبدو على معظمهم من خيبة أمل إذا حدث وقابلتهم بعد بضع سنوات من التخرج .

أما أنا فإنى أعتبر حياتى بدورها ناجحة، ولكن ما أكثر ما شعرت به خلالها من خيبة أمل، ليس فقط فيما يتعلق بى شخصيا، بل وأيضاً بأصدقائى ومعارفى وبلدى. وكم صادفت من أشخاص كنت شديد الإعجاب بهم فظهرت لى أوجه ضعف كثيرة فيهم مع مرور الزمن، وكم علقت من آمال على تغيّر سياسى فى مصر ثم ظهر أن الأحوال لم تتحسن بسببه بل وأصبحت أسوأ مما كانت عليه من قبل. كنت أظن أن نمطا من أنماط الحياة نموذج يحتذى فوجدت أنه ليس أفضل من غيره، وكنت أظن أن العلم يمدنا بمعرفة يقينية بالعالم ثم ظهر لى مدى خضوع العلماء، خاصة فى العلوم الاجتماعية والإنسانيات، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم، للتحيزات والأهواء. إنى أؤمن بصحة المثل الإنجليزى بأن «الفهم معناه الصفح» (To understand is to forgive)، ولكننى أظن الآن أن من الصحيح أيضًا أن المزيد من المعرفة معناه المزيد من خيبة الأمل، وأن المثل العربى القديم «أن تسمع عن المعيدىّ خير من أن تراه» صحيح أيضًا .

من الممكن أن نعتبر هذه الطريقة فى النظر إلى الأمور مفرطة فى تشاؤمها، ولكنى أظن أن لها نصيبا كبيرا من الحقيقة. إذ ما الذى نتوقعه غير خيبة الأمل من توالى أخبار المرض والموت، يصيبان أشخاصا عزيزين علينا، مسنّين أو فى ريعان

الشباب؟ وكيف لا نتوقع خيبة الأمل مادمنا نرغب فى أشياء مستحيلة التحقيق، منها أن نعيش إلى الأبد، وفى صحة جيدة، وكذلك كل من نحبّ، ومادمنا نرغب فى أشياء تفوق قدراتنا؟ بل إننا نطمح إلى تحقيق رغبات متعارضة لا يمكن أن يتحقق بعضها إلا إذا فشلنا فى تحقيق رغبات أخرى. نحن نريد أكبر قدر من المال وأكبر قدر من راحة البال فى نفس الوقت. نريد احترام الناس وحبهم ونريد السيطرة عليهم أو استحواذهم فى نفس الوقت. نريد صحبة الناس ونريد أيضًا الانفراد بأنفسنا. وحتى لو لم نطمح إلى شىء مستحيل التحقيق، ولا إلى أشياء يتعارض بعضها مع بعض، فإننا لابد أن نرغب فى أشياء تتعارض مع رغبات الآخرين. فأنا أرغب فى وظيفة يريدها أيضاً غيرى، ولا يمكن أن نحصل عليها نحن الاثنين معا. وأنا أحب امرأة تحبها أنت أيضًا، ولا يمكن أن يحصل كلانا على حبها. فما الذى يمكن أن نتوقعه غير خيبة الأمل؟

ولكن خيبة الأمل لها أيضا معنى آخر، غير مجرد الفشل فى تحقيق ما نريد وهو، ويا للغرابة، أن نحقق بالضبط ما نريد! ما أكثر ما كتب عن السعى الحثيث إلى جمع المال الذى ينتهى بصاحبه إلى اكتشاف أن كثرة المال لم تجلب له من السرور ما كان يظنّه ويأمل فيه. ولكن نفس الملاحظة تنطبق على أشياء كثيرة غير المال. لكم تمنيت فى مختلف مراحل عمرى أن أرى اسمى منشورا ومقترنا بمقال أو كتاب من تأليفى، وقد حققت هذا المرة بعد المرة، حتى أصبحت رؤية اسمى منشورا تكاد تعادل رؤية اسم شخص آخر لا أعرفه. وعندما تقدمت فى السن فقدت الثقة فى أشياء كثيرة كنت أعلق عليها الآمال كمصدر من مصادر السرور، ثم تبينت أننى بالغت فى قدرتها على تحقيق ما كنت أتوقعه.

اندهشت جداً عندما أدّى بى استعراضى لكل هذه البدايات والنهايات إلى اكتشافى لهذا العدد الكبير من الأمثلة على نوع أو آخر من خيبة الأمل. مقارنتى لما كتبه أبى على ظهر صورة التقطت له يوم زواجه، وما عبّر فيه من آمال عظيمة لنفسه وأمته، بما رأيته مخيما عليه من اكتئاب فى سنواته الأخيرة. خيبة أمل هذا الأخ أو هذه الأخت من إخوتى السبعة، وهذا الابن أو هذه البنت من أبنائهم وبناتهم، إن لم

يكن بسبب زواج غير موفق، أو صحة تدهورت فى سن مبكرة، فبسبب وفاة ابن فى سن الشباب، أو اضطرار للهجرة والبعد عن الوطن والأهل لصعوبة الحصول على وظيفة مناسبة.. إلخ. وما أشد خيبة آمالنا جميعا فى الثورة المصرية، إذ يبدو كل ما علقناه عليها من آمال منذ خمسين عاما وكأنه قد تبخّر، سواء فى السياسة أو الاقتصاد أو الثقافة. بل هأنذا أنظر إلى الدولة الأوروبية التى عرفتها عن قرب أكثر من أى دولة أخرى غير مصر، وتزوجت إحدى بناتها، إذ أزورها عاما بعد عام، فأجدها قد فقدت بدورها كثيرا من سمات التقدم، أو ما كنا نعتبره كذلك، واقترنت فيها زيادة الرفاهية المادية، فى نظرى على الأقل، بتدهور سياسى واجتماعى وثقافى. ولكن كل هذا يحتاج إلى الكثير من التفصيل، ولأبدأ بأبى وأمى.

ـ ٢ ـ

لازلت أتذكر أبى، بوضوح تام، وهو جالس، منذ ما يقرب من ستين عاماً، فى جلبابه الأبيض فى مكانه المعتاد على الكنبة الكبيرة وسط الصالة، وعلى يمينه مائدة وضع عليها عدد كبير من زجاجات الأدوية المختلفة الأشكال والأحجام، حيث كان يعتمد فى التمييز بين دواء وآخر على اختلاف أحجام الزجاجات، بعد أن أصبح من الصعب جدًا عليه، من فرط ضعف بصره، أن يقرأ اسم الدواء المكتوب على الزجاجة. كان يحاول أن يكتب شيكا لمستأجر الأرض الزراعية التى يملكها، بيد مرتعشة، فعندما فرغ بصعوبة من كتابة الاسم والمبلغ، وجاء وقت التوقيع، وجد صعوبة بالغة فى أن يكتب اسمه هو بالطريقة التى تعوّدها والتى يمكن أن يقبلها البنك، فلما اضطر إلى تمزيق الشيك وكتابة غيره، وواجه نفس الصعوبة فوجئنا بانفجاره بالبكاء، إذ وجد أنه لم يعد قادرا على القيام بهذا العمل البسيط جدا، والمهم جداً مع ذلك، والذى طالما قام به دون عناء.

كان تدهور صحته ونظره هو بلا شك السبب فيما أصابه من حزن. ولابد أن هذا التدهور هو ما جعله يفقد اهتمامه بأشياء كثيرة مما يهتم بها سائر الناس، ولم تكن تافهة لهذا الحد فى نظره فى الماضى. كان فى سنواته الأخيرة يذهب إلى بعض

الحفلات المهمة، في مناسبات رسمية، فلا يرى داعيا لرابطة العنق، بل وقد يستغنى عن حلاقة ذقنه، من فرط لا مبالاته بما يمكن أن يكون عليه منظره، أو ما يمكن أن يكون رأى الناس في ذلك. الأغرب من ذلك لا مبالاته برأى الناس في مقالاته إلى درجة قبوله لأمر لازلت حتى الآن أتعجب أشد العجب من قبوله له. لابد أن هذا كان في أوائل الخمسينات، وكانت مجلة الثقافة لازالت تصدر ولكنها لم تستمر طويلا بعد هذا، إذ واجهها من المصاعب المالية ما اضطرها إلى التوقف. وكان أبى يكتب فيها، في كل أسبوع، مقالا قصيراً جداً لا يزيد على مائتي كلمة أو ثلاثمائة تحت عنوان «خاطرة». وكان يعبّر عن ضيقه أحيانا بأنه لا يجد فكرة جديدة يكتب عنها مقاله، وقد حل موعد تسليم المقال. كنت وقتها في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرى، ومغرما بكتابة بعض المقالات القصيرة، كنت أعتبرها «مقالات فلسفية» دون أن تستحق هذا الوصف على الإطلاق. فعرضت على أبى مرّة أن أكتب أنا المقال في ذلك الأسبوع بدلاً منه، وفوجئت بقبوله وبإرساله مقالى للمطبعة، إذ كان هو رئيس التحرير، وبظهور مقالى حاملا اسمه هو. كان كل هذا مبعث سرور فائق لى، إذ لابد أنى ظننت وقتها أنى أوشكت أن أبلغ مكانة أبى كأديب. عندما أقرأ هذا المقال الآن لا أجده مما يسيء نشره كثيراً إلى أبى، ولكنى أجد فيه شيئا من الصبيانية يليق بشاب صغير يقدر نفسه بأكبر من قدرها الحقيقى. إلى هذا الحد بلغت قلة اكتراث أبى برأى الناس فيما يكتبه، أو لعله وجد فرحى بأن ينشر لى مقالا على هذا النحو بمجلة الثقافة، أكبر أهمية من أن يقرأ الناس له مقالا جيداً.

لازلت أشعر ببعض الألم ووخز الضمير حتى الآن، كلما تذكرت منظر أبى وهو جالس في الصالة وحده ليلا، في ضوء خافت، دون أن يبدو مشغولا بشيء على الإطلاق، لا قراءة ولا كتابة، ولا الاستماع إلى راديو، وقد رجعت أنا لتوّى من مشاهدة فيلم سينمائى مع بعض الأصدقاء. أحيّى أبى فيرد التحية، وأنا متجه بسرعة إلى باب حجرتى وفى نيّتى أن أشرع فورا في النوم، بينما هو يحاول استبقائى بأى عذر هووبا من وحدته، وشوقا إلى الحديث في أى موضوع. يسألنى

أين كنت فأجيبه، وعمّن كان معى فأخبره، وعن اسم الفيلم فأذكره، كل هذا بإجابات مختصرة أشد الاختصار وهو يأمل فى عكس هذا بالضبط. فإذا طلب منى أن أحكى له موضوع الفيلم شعرت بضيق، وكأنه يطلب منى القيام بعمل ثقيل، أو كأن وقتى ثمين جداً لا يسمح بأن أعطى أبى بضع دقائق.

لا أستطيع حتى الآن أن أفهم هذا التبرّم الذى كثيرًا ما يشعر به شاب صغير إزاء أبيه أو أمّه، مهما بلغت حاجتهما إليه، بينما يبدى منتهى التسامح وسعة الصدر مع زميل أو صديق له فى مثل سنّه مهما كانت سخافته وقلة شأنه. هل هو الخوف المستطير من فقدان الحرية والاستقلال، وتصور أى تعليق أو طلب يصدر من أبيه أو أمه وكأنه محاولة للتدخل فى شئونه الخاصة أو تقييد لحريته؟ لقد لاحظت أحيانا مثل هذا التبرم من أولادى أنا عندما أكون فى موقف مثل موقف أبى الذى وصفته حالا، وإن كنت أحاول أن أتجنب هذا الموقف بقدر الإمكان لما أتذكره من شعورى بالتبرم والتأفف من مطالب أبى. ولكنى كنت أقول لنفسى إذا اضطررت إلى ذلك «إنى لا أرغب فى أكثر من الاطمئنان على ابنى هذا، أو فى أن أعبّر له عن اهتمامى بأحواله ومشاعره، فلماذا يعتبر هذا السلوك الذى لا باعث له إلا الحب، وكأنه اعتداء على حريته واستقلاله؟»

* * *

كانت أمى بوجه عام أكثر استعدادا للفرح وأكثر تفاؤلا بالحياة من أبى، ومع هذا فقد أصابها هى أيضًا فى سنواتها الأخيرة مثلما أصاب أبى من قلة الاكتراث بما يحدث.

كانت أمى تقول إنها قبل زواجها من أبى، عندما كانت تقيم فى بيت قريبها الثرى، بعد أن هربت من بيت خالها، لم تكن تكفّ عن الضحك والمزاح مع بنات الأسرة اللاتى يقاربنها فى السن، ثم كفّت عن ذلك فجأة بانتقالها إلى بيت الزوجية حيث وجدت الزوج دكتاتوراً متسلطًا، قليل الكلام ولا يكاد يعرف المزاح. وقد ظلت سنوات طويلة تحاول أن تحقق لنفسها الاستقلال المادى عنه، حتى تستطيع أن تواجه أى احتمال لتنكره لها أو لهجرها وتزوجه بغيرها. وقد استطاعت فى

النهاية، بما كونّته من مدخرات، أن تظفر بقدر كبير من الحرية وكان هذا فى السنوات الأخيرة من حياة أبى مع تدهور صحته، واضطراره إلى التنازل عن الكثير من سلطاته. أذكر أنها، بعد أن تحقق لها هذا القدر الكبير من المدخرات، وهذه الدرجة من الحرية فى اتخاذ القرارات، رأت مرة فى أحد المحلات التجارية لوحة معدنية صغيرة كتبت عليها الآية القرآنية: «إن ينصركم الله فلا غالب لكم»، ففرحت بها واشترتها وعلقتها فوق سريرها. وكانت كثيرا ما تردد هذه العبارة كلما يحلو لها أن تقارن بين حالها فى مقتبل حياتها مع أبى وحالها بعد أن أصبح لديها ممتلكاتها الخاصة واكتسبت حريتها فى تصريف أمورها. هل تطرد هذا الخادم أم تستبقيه؟ هل تؤجر أحد أدوار البيت الذى تملكه أم لا تؤجره؟. وكان تكرارها لهذه العبارة: «إن ينصركم الله فلا غالب لكم»، ينطوى دائما على إشارة خفية إلى أبى، فكأن الله لم ينصرها إلا على أبى، أو كأن العلاقة بينهما كان لابد أن تنتهى بغالب ومغلوب، مما يمكن أن يثير التساؤل عما إذا كانت العلاقة الزوجية هى دائما علاقة بين شخصين متحابين، أم كثيرا ما تكون أشبه بالعلاقة بين متصارعين؟

ولكن أمى بدت عليها هى أيضاً بوادر الحزن وبعض الاكتئاب فى سنواتها الأخيرة. لم أكن بجوارها خلال سنتها الأخيرة، ولكنى أذكر جيداً كيف أصبحت أقل مرحا بكثير فى السنتين السابقتين على سفرى فى البعثة إلى إنجلترا، وأقل ميلا لتبادل الحديث. كان وراء ذلك بلا شك، كما كان الأمر مع أبى، تدهور الصحة مع تفاقم مضاعفات مرض السكر فى حالتها، وإهمالها الشديد فى مراعاة ما يجب أن تتناوله أو ألا تتناوله من طعام. ولكن ربما كان وراء هذا الإهمال الواضح لصحتها شعورها بأنها لم تعد لها مهمة واضحة فى الحياة. كان أبى قد مات قبل بضع سنوات، فلم يعد هناك من تسهر على العناية به وخدمته. وكان الأولاد والبنتان قد تزوج معظمهم أو سافروا للدراسة أو العمل خارج مصر. فما هى بالضبط الوظيفة الضرورية التى تؤديها؟ وإذا لم توجد هذه الوظيفة الضرورية فما هو بالضبط الداعى للانصياع لأوامر الطبيب فيما يتعلق بما يجب تناوله أو عدم تناوله من طعام؟

لم تكن أسرة زوجتي الإنجليزية أسرة متدينة بأي شكل من الأشكال، ولم يكن للدين وطقوسه أثر على حياة الأسرة اليومية ربما باستثناء تعوّد والدة زوجتي الذهاب مرة واحدة في العام إلى الكنيسة للاشتراك في غناء بعض الأناشيد الدينية بمناسبة بدء عام جديد، بالإضافة إلى الاحتفال كل عام بعيد الميلاد، أي الكريسماس، بشراء شجرة وتزيينها، وتبادل الهدايا وإقامة غداء وعشاء أفخر من المعتاد. وقد تربت زوجتي وترعرعت على فكرة أن تزيين شجرة الكريسماس، كبيرة أو صغيرة، طبيعية أو صناعية، من الطقوس التي لا يجوز إهمالها، على أن يحتفظ بهذه الزينات من كور ملوّنة إلى تماثيل زجاجية، إلى شرائط مذهبة أو مفضّضة، من عام لآخر، ويضاف إليها الجديد في كل عام. وكانت جوارب الأطفال تُملأ قبل نومهم في الليلة السابقة على الكريسماس، وهي ليلة الخامس والعشرين من ديسمبر، بمختلف أنواع الحلوى والهدايا، ثم تدسّ الجوارب تحت الأغطية بعد أن ينام الأطفال، حتى يتحسّسوها بأقدامهم عند استيقاظهم فيبدأون يومهم بسرور غامر وهم يفحصون ما جاءهم به «الأب كريسماس» أثناء نومهم، ليتحققوا مما إذا كان هذا الأب العطوف قد تذكّر تفضيلهم لنوع معين من الحلوى على غيره، وذلك قبل أن يجتمعوا حول الشجرة مع بقية العائلة، بعد أو قبل وليمة فاخرة، لفتح الهدايا الأساسية، وقد وضعت كلها حول الشجرة الجميلة وغُلّفت كلها بأوراق مبهرة بألوانها ورسومها، وقد وضعت على كل هدية بطاقة صغيرة، جميلة بدورها، تحمل اسم المهدى والمهدى إليه، مع عبارة قصيرة تشوّق المهدى إليها إلى معرفة ما الذى تحتويه هذه اللفافة الثمينة. وأحيانا تُغلف الهدية بلفافة فوق أخرى حتى يستغرق استخراج الهدية أطول وقت ممكن، فإذا بعملية فتح الهدايا تستغرق عدة ساعات تتخللها صيحات الفرح وتقبيل الأطفال لذويهم، اعترافا منهم بكرمهم وذكائهم في اختيار الهدايا المرغوبة.

لم يكن من الممكن لي أن أرفض استمرار هذا التقليد الجميل بعد الزواج، ولم

يبد لى أى سبب مقبول لحرمان زوجتى من استمرار هذه العادة البهيجة. فلما جاءنا أطفال، وعرف أطفالنا ما الذى يجرى فى الكريسماس، لم يكن هناك أى احتمال للنكوص عن هذا الاحتفال، من اقتناء الشجرة وتزيينها، إلى تبادل الهدايا وملء الجوارب، وإقامة غداء أو عشاء شهىّ، إلى ادعاء وجود شخصية حقيقية هى «الأب كريسماس»، الذى ينزل إلى البيت من المدخنة المتصلة بالمدفئة، إذ كانت هناك مدخنة ومدفئة، أو من الباب أو النافذة مهما كان إغلاقهما محكما، بعد أن يستغرق الأطفال فى النوم فلا يحسّون بمجيئه.

بدأنا هذا التقليد بدعوة أشقائى جميعا وأزواجهم إلى العشاء فى بيتنا بالمعادى منذ أكثر من أربعين عاماً، وطوال هذه الفترة لم نتوقف عن إقامة هذا الاحتفال بالكريسماس فى نفس البيت، وعن دعوة نفس الأشخاص، باستثناء السنوات الأربع التى قضيناها فى الكويت والسنتين اللتين قضيناهما فى أمريكا، وسنة ألغينا فيها الحفلة بسبب وفاة أخى حافظ، وأخرى بسبب مرض شديد أصاب طارق ابن أخى عبد الحميد. نعم ظلت الحفلة هى الحفلة، تتكرر لمدة أربعين عاما، وتقام فى نفس البيت، ويدعى إليها نفس المدعوين، وأصناف الطعام المقدمة لا تتغير كثيراً، فمعظمها هى الأطباق الذى كانت تقدم فى حفلة الكريسماس فى بيت والدى زوجتى فى إنجلترا، ويعبّر المدعوّون عند انصرافهم، فى كل مرة، عن شكرهم العميق لزوجتى لما تجشمته من تعب، ولى لأننى الوحيد من بين الإخوة الثمانية، رغم أنى أصغرهم جميعا، الذى يواصل هذا الجهد لجمع شمل العائلة كلها، عاما بعد عام.

مع كل ذلك، لم يكن من الصعب على أحد منا أن يدرك أن هذا الاستمرار فى إقامة حفلة الكريسماس على هذا النحو، كل هذه المدة الطويلة، لم يكن إلا ما بدا على السطح، وأن ما يجرى تحت السطح أصابته تغيرات كبيرة وعميقة. بل حتى ما بدا على السطح أصابته بدوره تغيرات كبيرة. فقد اختفى البعض اختفاء تاماً، إما بالموت أو الطلاق، وهاجر البعض إلى بلاد بعيدة، وشاخ آخرون فأصبح الحديث معهم مستحيلا أو غير مجد، إما لضعف الاستجابة للحديث أو فقد القدرة على

سماعه أصلا. وكبر الأولاد والبنات وتزوّجوا، وسرعان ما حلّ بكثير منهم الوجوم، إما بسبب زواج غير سعيد أو بسبب طلاق غير سعيد أيضاً. وزادت الأعباء على الجميع، إن لم تكن أعباء مالية فهى أعباء مجرد التقدم فى السن، وتتابع الأحداث المخيبّة للآمال، سواء كانت آمال الشخص لنفسه أو لأولاده أو لبلده.

عندما لاحظت أنا وزوجتى أن المرح الذى كان يسود الاحتفال فى السنوات الأولى ضعف بشدة فى السنوات الأخيرة، فكّرنا فى أن ندعو، إلى جانب الأشقاء وأولادهم، أولاد الأولاد أيضًا، ومن ثم ظهر فى الحفلة أولاد وبنات لم يبلغوا العشرين وبعضهم لم يبلغ العاشرة، ولكننا لاحظنا أن الأمر لم يتحسن كثيراً. لقد بدا وكأن هؤلاء الصبية قد أصابهم هم أيضًا شىء شبيه بذلك الشعور بخيبة الأمل الذى أصاب آباءهم وأمهاتهم، وإن اختلفت الأسباب.

- ٤ -

كان أكبر إخوتى (محمد) عندما بدأنا دعوة العائلة لحفلة الكريسماس فى سنة ١٩٦٥ قد تزوج للمرة الثانية بعد أن طلق زوجته الأولى التى أنجب منها بنتين. كانت نهال أصغر البنتين، وقد بدت لى عندما رأيتها آخر مرة، وكانت فى نحو الخامسة والعشرين، فتاة رائعة الجمال، وكانت قد أنجبت بدورها بنتين جميلتين. لم أكن أرى نهال كثيراً، بل ربما كان كل عدد مرات مقابلتى لها فى حياتى كلها لا يزيد على أربع أو خمس مرات. كان أخى محمد، أثناء زواجه الأول يعيش فى الإسكندرية، إذ كان مدرسا بجامعتها، وبعد طلاقه وزواجه الثانى ظلت البنتان تعيشان مع أمهما ولا تزوران أباهما إلا عبر فترات طويلة، كما يحدث كثيراً بعد الطلاق وزواج الأب من جديد.

كانت البنتان من الزواج الأول تشاهدان ما يعيش فيه أبوهما وزوجته الجديدة من بحبوحة، وما يحيط به الأب البنتين الأخريين من تدليل واهتمام زائد عن الحد، ويزيد بلا شك عما تحظيان هما به من اهتمام الأب وتدليله، خاصة وقد اعتلى

الأب أعلى المناصب بعد طلاقه، وتدفق بين يديه المال الذى أنفق أكثره بالطبع على زوجته الجديدة وبنتيها.

لم يبذل الأب جهداً فى تزويج البنتين الأوليين كالذى بذله مع الآخريين، ولكنه قام ببعض الواجب عليه إزاء البنتين، فعثر لكل منهما على شقة متواضعة وساعدهما فى دفع قيمة الخلو المطلوب، وكان من نصيب «نهال» شقة لا بأس بها فى عمارة حديثة التأسيس فى شارع الهرم.

كان هذا فى أواخر السبعينات، عندما كثرت أحداث سقوط العمارات، بسبب ميل بعض المقاولين إلى استخدام أسمنت مغشوش، أو التوفير فى أسياخ الحديد المستخدم فى البناء. فسمعنا عن عمال محارة بسطاء تحولوا إلى مليونيرات خلال سنوات قليلة عن طريق بناء مثل هذه العمارات، مع إهمال شنيع من جانب السلطات المانحة لتراخيص البناء، وشيوع تقديم الرشاوى للحصول على هذه التراخيص للتخلص من اتباع القواعد التى يفرضها القانون. هكذا فوجئنا فى ظهر أحد أيام الجمعة بسماع خبر سقوط العمارة التى تسكنها نهال فى شارع الهرم. وهرع أخى ومطلقته إلى مكان العمارة، وهرعت أنا بدورى لأكون بجانبه خلال هذه الساعات الفظيعة. وجدته جالسا فى مدخل فندق صغير قائم أمام مكان العمارة، وعلى بعد خطوات قليلة جلست مطلقته التى لم أكن قد رأيتها منذ ما يقرب من ثلاثين عاما. كانت مثل أخى، قد تجاوزت الستين، وبدت سيدة محطمة تماماً وقد وضعت رأسها بين كفيها دون أن تبادل أحداً الحديث. كانت العمارة ذات الأطباق العشرة قد تحولت إلى أنقاض لا يزيد ارتفاعها على ارتفاع طابق واحد أو أكثر قليلا، ومن ثم كان الأمل فى عثور المنقبين بين الأنقاض على أى شخص حىّ، ضعيفا بل فى حكم المستحيل. وسمعنا بعض التفاصيل عما حدث. كانت نهال وزوجها وطفلتاها الصغيرتان اللتان كانت أكبرهما فى الخامسة والأخرى فى الثالثة من عمرهما، إحدى أسرتين اثنتين سكنتا هذه العمارة الجديدة. ولما استيقظوا فى الصباح لاحظ الزوج شرخا فى العمارة مع سقوط بعض التراب من السقف، فاستدعى البواب الذى اتصل بصاحب العمارة فطمأنه على أن كل شىء على ما

برام. وذهب الزوج لأداء صلاة الجمعة فى مسجد قريب وترك فى البيت زوجته نهال وطفلتيها. ثم حدث ما حدث، وظللنا نراقب أعمال التنقيب حتى المساء دون أن يعثر على شىء. وأخذت أتصور ما لابد أن يكون قد مرت به نهال والطفلتان من ذعر وخوف منقطعى النظير، منذ اللحظة التى سقطت فيها بعض قطع السقف أو أحد الحوائط إلى أن فارقن الحياة. لم يكن هناك شىء يمكن أن أقوله لأخى أو لمطلقته للتخفيف من وقع الحادث. ولكن أدهشتنى بضعة أمور.

هأنذا واقف أشهد منظرا من أكثر المناظر مأساوية. عمال يقلبون الأنقاض أملا فى أن يعثروا على جسم امرأة أو طفلة على قيد الحياة، مع أن كمية الأنقاض المنهارة تكفى بثقلها وحده أن تقضى على أى شىء حى. ولكن وجوه العمال ونوع الكلام الذى يتبادلونه أثناء عملهم لا يختلف عما يمكن أن تكون أو أن يتفوهوا به لو كانت المهمة الموكولة إليهم عادية تماما ولا تنطوى على أي مأساة، كبناء عمارة جديدة فعلا. والأب جالس أو واقف فى ردهة الفندق ولكنه متماسك لا يمكن أن يخمن أحد إذا رآه سبب مجيئه إلى هذا المكان، وهو قادر على تبادل الحديث معى أو مع غيرى، أى أن ينصرف بذهنه عن التفكير فيما يجرى أمام عينيه وما يتوقع أن يسفر عنه البحث وسط الأنقاض.

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى ألاحظ فيها شيئا كهذا، ولكن المفارقة هنا بدت لى أكبر منها فى أى مرة سابقة: المفارقة بين حادث الموت وطريقة تلقى الناس له، حتى ولو كانوا من أقرب المقربين إلى الشخص المفقود. للخبر وقع شديد فى البداية ولكن ما أسرع ما يألف الذهن الخبر ويتعايش معه. لقد ظللت فترة طويلة لا أستطيع خلالها أن أتصور كيف يمكن أن تعيش أى أم أو أب عند فقد الابن أو البنت، أو كيف يستمر العاشق الولهان فى الحياة بعد فقد حبيبته.. الخ. ولكنى صادفت بعد ذلك، المرة تلو المرة، ما بيّن لى خطئى، إذ وجدت قدرة الإنسان على التأقلم مع أشد الأحداث إيلاما أكبر كثيراً مما كنت أتصور.

ومع مرور بضعة أيام على هذا الحادث، تأكد لى هذا أكثر فأكثر، وكانت النتيجة مزيجا من الارتياح والفزع فى نفس الوقت. الارتياح لأن الألم أقل بكثير مما كنت

أتوقع، والفزع من حجم القسوة التي تبين لي أنها كامنة في الجميع، بدرجة أكبر بكثير أيضاً مما كنت أظن.

- ٥ -

عندما كنت أنا وزوجتي على الباخرة التي أقلتنا من أوروبا إلى مصر، لأول مرة بعد زواجنا، وأخذت أصف لها أشقائي ونمط حياتهم، واحداً بعد الآخر، تمهيدا للقائها الأول بهم، حذرتها من أنها قد لا تستطيع مقابلة أخي عبد الحميد إلا بصعوبة، بسبب انشغاله المستمر ببحوثه العلمية وتجاربه في مركز البحوث بالدقي، بالإضافة إلى وظيفته كأستاذ في كلية الهندسة. وقد ظلت زوجتي تذكّرني بما قلته لها عن عبد الحميد، المرة تلو الأخرى، لعدة سنوات بعد ذلك، إذ أن الذي حدث كان العكس بالضبط. فمن بين الإخوة جميعا لم نكن نلتقي بأحد أكثر من لقائنا بعبد الحميد، وكان يبدو وكأنه لا عمل له ولا وظيفة. ثم فوجئنا بانقطاعه التام عن أي عمل، سواء في الجامعة أو مركز البحوث، بل وعن أي قراءة أو كتابة، عدا كتابة بعض الخطابات القصيرة لابنه المقيم بالنمسا، والتوقيع على بطاقات التهنئة بالكريسماس لأقارب زوجته النمساوية. كان سبب هذا التغير الذي طرأ عليه مذهلا وغير متوقع بالمرة.

فبعد عودتنا أنا وزوجتي إلى مصر في ١٩٦٤ بأسابيع قليلة بدأت تظهر على عبد الحميد أعراض مرض نفسي عضال لم نستطع تفسيره. بدأ يتكلم عن أشخاص يريدون إيذاءه ولا يكفّون عن مضايقته بمكالمات تليفونية غير مفهومة، دون أن يفصح عمّن يمكن أن يكون هؤلاء الأشخاص أو عن السبب الذي يمكن أن يدفعهم إلى مضايقته. ثم بدأ يعامل بعض الناس البسطاء، كبوّاب عمارته مثلا، أو المشرف على حمّام السباحة بالنادي الذي يذهب إليه، بغلظة شديدة ويهينهم دون مبرر رغم إبدائهم منتهى الصبر معه. كان حديثه يتضمن إشارات متكررة إلى جهاز المخابرات أو المباحث العامة، أو إلى الأستاذ الروسي الذي كان يتعاون معه في تأليف كتاب يتعلق بتجاربه في مركز البحوث قبل إصابته بهذا المرض مباشرة، وكان موضوع

الكتاب ذات صلة باستخدامات الطاقة النووية. كما كان كثيراً ما يربط، على نحو غير واضح بالمرة، بين ما يحدث له وما يحدث لمصر والعالم، ويستخدم أثناء ذلك كلمة إنجليزية كانت تتردد كثيراً على لسانه وهى كلمة الـ (system) وكأن هناك قوة واحدة تحكم العالم، اختار هذه الكلمة اسماً لها، وترسم مجرى الأحداث هنا وهناك، حتى ما بدا لنا تافها. فإذا طلبنا منه الاستفاضة فى شرح كنه هذا الـ (system) وأهدافه، ضحك منا ولم يسترسل فى الكلام. فإذا تطوّعنا نحن بتفسير بعض الأحداث على نحو نظن أنه يتفق مع نظريته ضحك أيضًا وقال إن هذا هو المستوى الأول أو الثانى من مستويات الفهم ولكننا لازلنا أبعد ما نكون عن فهم حقيقة هذا الـ (system).

كنت أجد فى كلامه وهو يحاول شرح ما يحدث فى العالم جاذبية شديدة وإن لم يكن متسقا دائما ولا واضحا، كما وجدت جاذبية أشد فى كثير من القرارات التى اتخذها وتتعلق بنمط حياته والتى نفذها بصرامة منقطعة النظير. كان انقطاعه التام عن التدريس، مع استمرار حصوله على المرتب، بل وعلى كل العلاوات التى يحصل عليها زملاؤه فى الجامعة، ينطوى على تمرد بالغ وجرأة زائدة عن الحد، ولكنى كنت أعجب بكل ما أبداه من تمرد على نمط حياتنا الممعن فى النهم الاستهلاكى دون أن أستطيع أن أجاريه فى هذا التمرّد.

استغنى عن السيارة، وصار يذهب حيث يشاء مشيا على قدميه، بما فى ذلك ذهابه لشراء حاجيات المنزل من مأكولات، إذ استغنى أيضًا عن الخدم وقامت زوجته بكل الأعمال اللازمة للطهى والتنظيف. لم يستنكف أو يشعر بأى غرابة فى أى من ذلك، ولا فى استخدام المواصلات العامة التى لم يستخدمها بعض إخوتى منذ عشرات السنين، وبدا له كل ذلك وكأنه السلوك الطبيعى، بل ولم يلاحظ أنه يقوم بأعمال غير مألوفة. امتنع أيضًا عن قراءة الصحف انقطاعا تامًا، ومن ثم لم يعد يفهم ما الذى نقصده بخروج هذا الوزير من الوزارة أو بتأليف ذاك لحكومة جديدة. وقد قال لى مرة، تعليقًا على شكواى من الحالة التى وصلت إليها الجرائد المصرية «يا جلال هذه الجرائد لا تصدر لأمثالك، بل لنوع مختلف جداً من الناس». وكنت

أشعر بأن كلامه فيه شيء مهم صائب، ولكنه لم يكن قادرا على الاسترسال فى توضيح ما يقصد، ولم أكن أنا قادرًا على الاقتداء به.

بعد أن انقطع انقطاعا تاما عن أى عمل خارج المنزل، وتوقفه تمامًا عن التدريس وعن القراءة فى مجال تخصصه، وهو فرع من فروع الهندسة الكهربائية، أصبحت تسليته تنحصر فى الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية من محطة الإذاعة المصرية، وفى رسم بعض الصور البسيطة غير الملوّنة، والخروج لشراء الأشياء الضرورية التى تحتاجها زوجته. ولكن كانت أكبر متعة يحصل عليها هى فى الذهاب ثلاث مرات كل أسبوع، فى أوقات محددة لا تتغير، إلى النادى القريب من بيته، فيجرى حول الملعب عدة مرات، ثم يسبح فى حمام السباحة عددًا ثابتًا من المرات ذهابا وإيابا، ثم يتلقى دشا ساخنا ثم باردا، ويعود إلى منزله ليتناول غداء خفيفا فى الثانية عشرة ظهرا ثم ينام نوما هانئا.

كان يقول لى، عندما أسأله عما إذا كان لازال مواظبا على الجرى والسباحة، إن هذا هو السبب الوحيد لديه للاستمرار فى الحياة، إذ ما جدوى الحياة إن توقف عن السباحة والجرى؟ وعندما أصيب مرة بأزمة قلبية، ونصحه الطبيب وشدّد عليه بأن يمتنع عن الجرى والسباحة، استخف الطبيب استخفافا تامًا، وعاد بعد شفائه مباشرة إلى ما كان يفعله، واستمر على هذا سنوات كثيرة، يجرى ويسبح، حتى قارب الثمانين دون أن يلحقه من ذلك أى ضرر.

كنا، أنا وأخى أحمد، قد اضطررنا فى بداية هذا التغير الذى طرأ على عبد الحميد، لاتخاذ بعض الخطوات الحاسمة لمنع مزيد من التدهور فى حالته النفسية، خاصة وأن زوجته جاءتنا يوما وهى تبكى وفى حالة فزع شديد، لتخبرنا باعتدائه بالضرب دون مبرر على بواب العمارة. اقتنعنا بضرورة اللجوء إلى طبيب نفسى الذى رأى ضرورة دخوله المستشفى وتلقيه بعض الصدمات الكهربائية. حدث هذا مرتين ثم استقرت حالته ونمط معيشته على ما وضعت، وظل على هذه الحال نحو أربعين سنة، حتى بلغ التاسعة والسبعين.

* * *

لابد أن عبد الحميد قد شعر بما أكنّه فى نفسى من حب له، ومن إعجاب خفىّ بنمط حياته، وبكثير من آرائه ومواقفه، فوثق بى واستراح إلىّ وأبدى لى من المودة أكثر مما كان يبدى لبقية إخوتى. لم يكن يستطيع مجاراتى فى الإنفاق، إذ لم يكن له دخل غير مرتبه، وما تحصل عليه زوجته مقابل بعض الدروس الخصوصية، فكان يستحيل عليه الذهاب إلى نفس المطاعم التى أذهب إليها أو مجاراتى فى الذهاب إلى حفلات الموسيقى العربية التى تقام فى الأوبرا، أو حتى فى زيارة بعض الأقارب الذين يسكنون بعيدا عن منزله، ما لم أصحبه هو وزوجته فى سيارتى، أو أدعوه لغداء أو عشاء فى مطعم أو لحفلة موسيقية فى مناسبة تبّرر أن أدفع أنا تكاليفها. ولكن الشىء الذى أبدى سعادة غامرة به هو الذهاب لقضاء يومين أو ثلاثة على ساحل البحر الأحمر فى فندق صغير بديع بالقرب من مدينة رأس سدر، ما أكثر ما ذهبنا إليه نحن الأربعة، فإذا بعبد الحميد، حتى وهو فى التاسعة والسبعين، يقفز إلى الماء بمجرد وصوله ويسبح فى الماء الشديد البرودة، وكأنه سمكة أعادها صائدها إلى البحر بعد أن رأى عذابها على البرّ.

كنت أجد عبد الحميد، رغم كل ما مرّ به من متاعب نفسية، ورغم قلة دخله بالمقارنة ببقية الإخوة، أهدأ بالاً وأكثر رضا بحياته منا جميعا. صحيح أنه منذ أصابه ذلك المرض النفسى فقد مرحه القديم وقدرته على الاسترسال فى الضحك، فضلاً بالطبع عن توقفه عن القيام بأى عمل «منتج»، ولكنى نادرا ما رأيت منه أى دليل على شعوره بالقلق، أو سمعت منه تعبيرا عن سخط أو تلهف على أمل صعب التحقيق. كان ولده الأكبر يقيم بالنمسا فكان عبد الحميد يذهب كل بضع سنوات لزيارته ويستمتع أثناءها بالسير فى الجبال. وقضى ابنه الأصغر سنوات كثيرة فى ماليزيا فى مركز لتعليم الغوص، فكان عبد الحميد يذهب إليه المرة تلو الأخرى لقضاء شهر أو أكثر، فيستمتع بتجربة مناخ جديد ونمط مختلف من الحياة، فى ظل كرم بالغ وحب حقيقى من ابنه وزوجته السويدية. كان النمط الطبيعى الذى اختاره لحياته، وتناوله لطعام بسيط دائما وفى مواعيد ثابتة، ومواظبته على الجرى والسباحة فى أى ظرف من الظروف ومهما كان الجو، مصادر كافية للرضا بالحياة

وهدوء البال، بل لعل هذا النمط من الحياة هو الذى خلّصه تمامًا من مرض السكر الذى أصيب به قبل أن يبلغ الخمسين، وحافظ له على نشاطه وقدراته البدنية حتى بلغ التاسعة والسبعين، عندما حدث لابنه الأصغر ذلك الحادث الفظيع.

كان طارق، ابنه الأصغر، شابا رائعا من أكثر من ناحية. كان طويلا عريضا وسيما، نشيط العقل والجسم، ولكن كان أكثر ما يميزه عشقه للطبيعة، وهى صفة نادرة في المصريين ولكنها كانت موجودة في أبيه وقوية جداً عند أمه. علّمه أبوه الملاحة فى النيل وهو صغير، فأصرّ عندما كبر على أن يتعلم ابنى وابنتى الملاحة بدورهما وأن يكون هو معلمهما. وجرّب مرة الغطس فى أحد مراكز الغطس فى شرم الشيخ فهام حبًّا بما رآه تحت الماء من أسماك رائعة الألوان وشعب مرجانية. ثم أراه بعض العربان في سيناء جمال الصحراء فعشقها أيضًا. أصبحت شرم الشيخ أحب مكان إلى قلبه، يقضى فيه شهورا متتالية، حتى وهو لا يزال طالبا فى كلية التجارة، ويبيت عدة ليال فى الصحراء القريبة منها، فإذا جاء إلى القاهرة مضطراً لأداء امتحان أو تجديد بطاقة، أنهى مأمورياته فى أقصر مدة ممكنة إذ لم يكن يرى فى القاهرة، على حد قوله إلا «صندوقا كبيرا للقمامة»، وعاد بسرعة إلى شرم الشيخ.

عندما اضطر طارق إلى القيام بعمل دائم لكسب قوته، اشتغل مرشدا للسائحين فى الغطس فى شرم الشيخ، وادّخر من المال ما مكنّه من الإقامة بضع سنوات فى النمسا حصل خلالها على الماجستير فى العلوم السياسية، ثم سمع أن من الممكن أن يحصل على الدكتوراه من إحدى جامعات ماليزيا بنفقة أقل مما تتطلبه الدراسة فى أوروبا، فضلا عن توفر مراكز الغطس فى ماليزيا أيضًا، فذهب إلى كوالا لامبور وحصل منها على الدكتوراه، ولكنه فضل بعد ذلك أن يكسب رزقه من عمل إلى جوار البحر.

بعد أن حلت الأزمة الاقتصادية بماليزيا فى ١٩٩٧ التى أودت بجزء كبير من مدخراته، عاد إلى شرم الشيخ، وبدا سعيدا هو وزوجته السويدية التى تعرّف بها فى ماليزيا، ووجد هو وزوجته عملا فى أحد المراكز السياحية وسط مجموعة من الأصدقاء الذين يشاركونهما عشق الطبيعة وكراهية حياة المدن الكبيرة. ولم تكن

زوجته السويدية أقل حماسا منه لقضاء النهار فى الغطس والليل فى الصحراء. ثم سمعنا فجأة بإصابته بصداع شديد ظنّه فى البداية أمرا تافها ثم تبين، عندما جاء للكشف فى القاهرة، أنه ناتج عن ورم فى المخ، لم يستطع أمهر أطباء فيينا علاجه، فمات فى بيت أبيه وأمه فى القاهرة بعد عام ونصف من بداية شعوره بالمرض، وهو فى السادسة والأربعين من عمره.

لم يثر أى شك حول المكان الذى سيدفن فيه طارق، فقد كنا نعرف أنه اختار مكانا جميلا على ربوة عالية فى الصحراء، على بعد خمسة كيلو مترات من شاطئ البحر فى شرم الشيخ، وأخبر زوجته وأصدقاءه بأنه لا يريد أن يدفن فى أى مكان غيره. وقد رتب أصدقاؤه المقيمون فى شرم الشيخ كل شىء، بل وحضروا بالسيارات من شرم الشيخ إلى القاهرة لنقل جثمانه، واستخرجوا كل التصريحات المطلوبة لمرور السيارات حتى مكان الدفن. سافرت زوجتى مع الموكب لتكون سندا لأمه فى الطريق وأثناء مراسم الدفن. وحكت لى زوجتى بعد عودتها أن أخى عبد الحميد بدا طبيعيا تماماً ومتماسكا، وأنه لم ينقطع عن الحديث طوال سيره إلى أعلى الربوة التى تم فيها الدفن.

كان عبد الحميد طوال شهور المرض واثقا تماما الثقة بأن ابنه سيتم شفاؤه، رغم فقدنا نحن لأى أمل بعد قراءتنا لتقرير الطبيب النمساوى. وعندما خيّرنا الطبيب المصرى، بعد أن اشتد المرض، بين تركه يموت بالتدريج وبين إجراء عملية أخرى الأمل فى الشفاء بعدها ضعيف جداً، مع احتمال قوىّ للبقاء بضع سنوات أخرى فى حالة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة، انضم إلينا عبد الحميد فى اختيار الحل الأوّل، إذ أكّدت لنا زوجة الابن أن هذه كانت رغبة طارق التى لا شك فيها والتى عبّر عنها قبل أن يفقد وعيه. فلما مات انقطع عبد الحميد عن اتباع نظامه اليومى، من السير إلى النادى ثم الجرى والسباحة ثم شراء حاجيات المنزل.. إلخ. ولكن هذا الانقطاع لم يستمر أكثر من شهر عاد بعده إلى نفس نظامه القديم، وتساءلنا، بيننا وبين أنفسنا، عما إذا كان قد استطاع حقا أن يتغلب على أحزانه. كان كثير الصمت قبل وفاة ابنه، وظل كثير الصمت بعدها، فلم نكن نعرف بالضبط نوع

الأفكار التي تدور بذهنه. ولكن الأمر اتضح لنا، عندما تدهورت صحة عبد الحميد فجأة تدهورا ملحوظًا، وفقد القدرة على المشي أكثر من بضع خطوات، وتذكرت قوله القديم عن فقدان الحياة أي معنى، في نظره، إذا فقد القدرة على الجرى والسباحة.

* * *

بمرور سنة بعد أخرى، فقدت واحدًا بعد آخر من إخوتي، وهو ما كان لابد أن يتوقعه آخر العنقود الواقف في آخر الصف، بشرط ألا يظن أن الترتيب سيراعى بدقة كاملة. فقدت أولاً أختي نعيمة في ١٩٨٣، وهي لم تتجاوز الثانية والستين، وكانت حزينة في سنواتها الأخيرة بسبب تدهور صحتها وبسبب خيبة آمالها في زواج كبرى بناتها، وهجرة بنت أخرى مع زوجها إلى أمريكا، وفشلها في العثور على زوج لأصغر بناتها وأقربهن إلى قلبها. وعبّرت أكثر من مرة عن فزعها من فكرة أن تذهب ثمرة تعبها في جمع ما جمعته من مال إلى زوج هذه البنت أو تلك.

ثم فقدت أخي محمد بعد ذلك بثلاث سنوات. جاءني خبر وفاته وأنا في كاليفورنيا في خطاب من أخي أحمد ينعيه لي. وبعد شهور قليلة من وفاته جاءني نبأ زواج أرملته من ابن عمها الذي قيل إنها كانت تحبه وهي طفلة. ثم مات أخي حافظ في ١٩٩٠ وهو في الثالثة والستين دون أن يحقق الشهرة التي كان يتمناها كمؤلف مسرحي. وعاشت أختي فاطمة بعده خمسة عشر عاماً حتى توفيت في الخامسة والثمانين دون أن تفقد أي ملكة من ملكاتها البدنية أو العقلية إلا في الشهور الستة الأخيرة، حيث أصبحت عاجزة عن السير من حجرة إلى أخرى، ولكنها احتفظت حتى النهاية بشهيتها الفائقة للطعام والحياة، وكان يسرني أن أراها تبتسم ابتسامة واسعة، قبل أن تموت بأسابيع قليلة، عندما ترى علبة الحلويات الشامية التي أحضرتها لها، ثم وهي تلتهمها كلها التهاما في لحظات دون أن تعبأ بما نظنّه بها.

كان لابد أيضا لمن بقي على قيد الحياة أن يعكرّ صفو حياته المرض والضعف. عكّر صفو أخي عبد الحميد حتى قبل وفاة ابنه، ما أصابه من ضعف شديد في السمع، حتى أصبح توجيه الكلام إليه مهمة في غاية الصعوبة وقليلة الجدوى، لا

يستطيع أحد أن يمارسها لفترة طويلة مهما حسنت نيته وصدق عزمه. وإذ أدرك هو هذا أصبح هو نفسه قليل الكلام منطويا على نفسه، وكم كنت أشعر بالدهشة والجزع إذ اكتشف أن السبب الوحيد لعدم دعوتنا له لكي ينضم إلينا في عشاء أو نزهة هو ضعف قدرته على السمع، مما قضى على أي احتمال لمساهمة من جانبه في الحديث أو الضحك.

أما أخي أحمد فقد أصابته مجموعة من العلل التي لم تفقده نشاطه، وإن كان قد خيّم عليه الحزن بعد فقدانه المبكر لزوجته، فظل يقضي معظم أيامه في بيت ريفي في قرية كمشوش بالمنوفية، كان أبي قد ترك لنا فيها خمسين فدانا لم يحتفظ منا بنصيبه فيها إلا أحمد. تمكّن أحمد من زراعة نصيبه من الأرض بنجاح وأضاف إليه، ووجد من الفلاحين من يخدمه ويجلب له اللبن ويطهو طعامه وينظف بيته، فأصبح التقاؤنا به في القاهرة نادراً، وإن ظل يحرص على حضور حفلتنا التي نقيمها للكريسماس كل عام. ومع هذا كنت أراه في السنوات الأخيرة، خلال الحفلة، يجلس وحيدا لا يكاد يخاطب أحداً، ثم يكون أول من يستأذن في الانصراف.

لم يفقد أخي حسين حماسه وشهوة الحياة مع تقدمه في السن، وأظن أن الذي احتفظ له بهذا الحماس هو حبّه للقراءة والكتابة، وشعوره الغامر بالسعادة إذا رأى شيئا منشورا له، كتابا أو مقالا، ولكن ضعفت حركته كثيراً بسبب جلطة في ساقه جعلته لا يغادر بيته إلا لماما، وأصبح هو أيضًا من الصعب لقاؤه دون الذهاب إليه في منزله، وهي مهمة أخذت تزداد صعوبة، في نظري على الأقل، سنة بعد أخرى.

-٦-

كانت نظرة أبي وأمي، وجيلهما كله، إلى الطلاق، نظرة سلبية تماماً. كانوا بالفعل ينظرون إليه على أنه «أبغض الحلال»، وكانت كل الظروف الاجتماعية السائدة أيام أبي وأمي تقوّي هذه النظرة وتدعمها، ومن ثم كان لخبر الطلاق على

أسماعنا ونحن أطفال صغار، وقع سيئ جداً للغاية وكأنه كارثة. كان الأمر قد تغير قليلا عندما بلغنا سن الشباب، فكان خبر طلاق أخي محمد ثم حافظ أخف وقعا وإن أثار دهشتنا وامتعاضنا. حاول أبي قدر استطاعته أن يثني أخي محمد عن فكرة الطلاق إلى حدّ أن هدده بأنه إذا طلّق زوجته سيطلق هو أمه! قال أبي ذلك بلهجة تتراوح بين الجدّ والمزاح ولكنه أراد أن يبين لمحمد خطورة ما يفعله، فردّت أمي، وكانت حاضرة، بردّ يتراوح بدوره بين الفزع الحقيقي والمصطنع، تحتج على طلاقها هي بلا ذنب. لم يستجب محمد لرجاء أبي وطلّق زوجته، كما لم يستجب حافظ للمحاولات المستميتة لإنقاذ زواجه، سواء من جانبنا نحن، أو من جانب أهل زوجته. كانت النتيجة أني لم أر بنتيْ أخي محمد طوال الخمسين عاما التي انقضت على الطلاق أكثر من أربع أو خمس مرات، ولم أر بنت أخي حافظ قط منذ كان عمرها أسبوعا أو أسبوعين، وحتى الآن، وهي لابد أن تكون قد بلغت الخمسين من عمرها، ولكني لا أعرف في أي بلد تعيش.

زادت حالات الطلاق زيادة كبيرة في الجيل التالي. فبينما انتهت زيجتان بالطلاق في حالتنا نحن الإخوة الثمانية، أي بنسبة الربع، لا ينتظر أن تزيد وقد تجاوز أصغرنا السبعين، ارتفعت هذه النسبة إلى نحو النصف في الجيل التالي، أي بين أولاد وبنات الإخوة الثمانية. فمن بين عشرين ولدا وبنتا تزوج منهم ثمانية عشر، انتهت ثماني زيجات بالطلاق، وكلهم لازالوا في مقتبل العمر ومن ثم فلازال أمامهم فرص واسعة، إذا شاءوا، للطلاق والزواج من جديد.

لا أجد من الصعب تفسير هذا التغير. لقد كان الطلاق في حالة أبي وأمي أقرب إلى المستحيل، وأبعد ما يكون عن التصور، إذ ما الذي كان يمكن لأمي أن تفعله بثمانية أولاد، لم يولد أصغرهم إلا بعد أن بلغت الأربعين، وهي عاجزة تماما عن كسب أي دخل لا من عملها ولا من أهلها؟ كانت أمي ونساء جيلها يتصورن أن إنجاب أكبر عدد من الأولاد والبنات سوف يشكم الزوج ويقيده بقيود تمنعه من الحركة ومن مجرد التفكير في الطلاق. ولكن من المؤكد أيضاً أن المرأة في أيام أمي وأبي كانت على استعداد لقبول معاملة أسوأ بكثير مما يمكن أن تقبله الزوجة الآن،

حتى لا يفرّق الطلاق بينها وبين أولادها، وهى تفتقد على أى حال أى قدرة على الإنفاق عليهم بمفردها.

فى آخر حفلة من حفلات الكريسماس التى أقمناها فى بيتنا نظرت إلى جيل أولادنا وبناتنا، وقد انتشرت بينهم حالات الطلاق على النحو الذى ذكرته، وأعمار معظمهم تتراوح بين الأربعين والخمسين، فوجدتهم أكثر ميلا للحزن والاكتئاب مما كنا عليه، نحن آباؤهم وأمهاتهم، فى مثل سنّهم، وأقل استعدادًا للمزاح والضحك، وأقل تفاؤلا بالحياة. لم يكن الطلاق هو السبب الوحيد، ولا هو، فيما أظن، السبب الأساسى لكل هذا الحزن المخيّم عليهم، فقد وجدت نفس الميل إلى الحزن والاكتئاب فى المتزوج والمطلق على السواء. كان من الواضح لى أن شيوع هذا الميل إلى الحزن لدى هذا الجيل الجديد من الأسرة لا يرجع إلى سبب فردى يتعلق بهذا الشخص أو ذاك، أو بهذه الأسرة دون غيرها، بل يتعلق بما حدث لمصر بوجه عام، بل وربما يتعلق أيضاً بما حدث فى العالم ككل.

* * *

لم ينقض أكثر من سنتين على بداية هذا التقليد فى سنة ١٩٦٥، بدعوة الأسرة كلها للعشاء فى يوم الكريسماس من كل عام، حتى وقعت حرب ١٩٦٧ فلم تعد الحياة فى مصر بعد ١٩٦٧ مثلما كانت قبلها. كانت هذه الحرب هى البداية الحقيقية لما سمى فى مصر «بالانفتاح الاقتصادى» أى إدخال مصر فى العالم الواسع. وقد أشاع هذا الانفتاح على العالم درجة عالية من التوتر فى المجتمع المصرى، وأثار من الآمال لدى شرائح واسعة من المصريين أكثر بكثير مما يمكن تحقيقه. ولم يكن من قبيل الصدفة أن اقترنت بداية عصر الانفتاح فى مصر ببداية عصر التضخم الجامح، الذى وضع حدّا لعصر مدهش لا تكاد الأسعار تتغير فيه بين عام وآخر، ولا تزيد فيه الدخول والثروات إلا ببطء شديد، ولا يكاد يغيّر فيه المرء وظيفته التى بدأ بها، ولا زوجته، ولا يشيع فى النفوس قلق ممض مما يمكن أن يأتى به المستقبل. كان هذا هو العالم الذى ولدت فيه والذى عشت فيه حتى أشرفت على الأربعين. أما ابنى الأصغر فقد ولد قبل ثلاثة أشهر من إعلان السادات بدء سياسة الانفتاح، وكان

معظم أولاد وبنات إخوتى تتراوح سنهم حينئذ بين خمس وعشر سنوات. شبّ هؤلاء الأولاد والبنات وهم يسمعون آباءهم وأمهاتهم لا يكفّون عن الكلام عن ارتفاع الأسعار، بينما كان الموضوع لا يكاد يرد على لسان أبى أو أمى. لقد بدا أبى وأمى وكأنهما قد اطمأنا على أولادهما تمام الاطمئنان عندما رأوهم قد أتموا دراستهم الجامعية، فظنوا أنهم لا يمكن أن تصيبهم بعد اليوم أى ضائقة مالية. ولكن أبى وأمى لم يريا، ولا كان من الممكن أن يتوقعا ما حدث بعد وفاتهما بعشرين عاما. أصبح المرتب الذى تأتى به الوظيفة الحكومية غير كاف بالمرة، حتى للحصول على ثلاجة أو غسالة كهربائية، فما بالك بجهاز التكييف والتليفزيون الملون وجهاز الفيديو، ناهيك عن السيارة المكيفة أو السيارتين، وكلها أشياء أصبح يعتبرها جيل أولادى من ضروريات الحياة؟ مثل هذه الأشياء أفقدت الوظيفة الحكومية، بمرتبها البسيط والثابت تقريبا فى مكانه، أبهتها التى عرفها أبى وأمى، بل وعرفتها أنا وإخوتى. وعندما فقدت الوظيفة الحكومية أبهتها فقدت الشهادة الجامعية، التى تضمن الحصول على هذه الوظيفة، الكثير من قيمتها. لا عجب أن تغيرت مشاعر الشباب نحو أساتذتهم ومدرسيهم، ولمح هؤلاء الأساتذة والمدرسون مظاهر هذا التغير فتغيرت بدورها نظرتهم هم إلى تلاميذهم بل ونظرتهم إلى أنفسهم.

عندما قرر «على»، الابن الأكبر لأخى عبد الحميد، أن يترك مدرسته قبل أن يحصل على الشهادة الثانوية، وأن يسافر إلى النمسا بلد أمه، للبحث عن أى عمل، أو الالتحاق بمدرسة تدرّس أعمال الفندقة، ورأى علامات الاستغراب والامتعاض على وجوهنا جميعا، قال لنا ساخراً: «وماذا فعل أبى بشهادة الدكتوراه التى حصل عليها مرة من إنجلترا ومرة أخرى من ألمانيا، وبوظيفته الرائعة كأستاذ جامعى؟ إنه لم يستطع حتى أن يشترى لى دراجة!».

أصبحت الكلمة التى تتردد بكثرة على ألسنة هذا الجيل الذى ينتمى إليه أولادى وأولاد إخوتى هى كلمة «مشروع» وكانوا يقصدون بها مشروعًا استثماريًا يأتى بربح كاف للحصول على هذه السلع التى لم تكن معروفة من قبل، والتى بدت أسعارها أبعد بكثير عن متناول أيدى أصحاب الوظائف ذوى الدخل الثابت. صاحب هذا

التحول دخول التليفزيون إلى البيوت وانتشاره كانتشار النار فى الهشيم، ثم أصاب التليفزيون بدوره تحولات سريعة فى برامجه وكمية ونوع إعلاناته، أدت إلى تقريب مصر، أكثر فأكثر، مما يجرى فى العالم الواسع، وإذا بالتليفزيون يقول للناس إن الحياة يمكن أن تكون ممتعة، بل ومن الواجب أن تكون ممتعة، والذى يقصّر فى إمتاع نفسه هو شخص مقصّر فى القيام بواجب مقدس، أو بالأحرى شخص فاشل بكل معنى الكلمة، لا يصلح لا كزوج ولا كصديق. فإذا كان الحصول على هذه المصادر الرائعة للمتعة متعذرا فى مصر بسبب الارتفاع الباهظ فى الأسعار وقلة الدخول، وقلة الفرص المتاحة لإقامة «مشروع» يحقق الدخل المطلوب، فلا مانع من السفر، بل ولا مانع حتى من الهجرة الدائمة.

هكذا انتشر أفراد هذا الجيل من أسرتنا، يبحثون عن مصادر للرزق فى أى مكان فى العالم يمكن أن يعدهم بتحقيق هذه الحياة الحديثة الرائعة. هاجرت اثنتان منهم مع زوجيهما إلى أمريكا، وهاجر ثالث إلى استراليا ورابع إلى النمسا. وجرّب خامس النمسا أولاً ثم ذهب إلى ماليزيا، وتزوجت بنت أخرى من رجل استقر فى النهاية فى إنجلترا، ولكن أغلبهم رأى الحل فى السفر لبضع سنوات إلى إحدى دول الخليج.

من المذهل إذن كيف بدا للغالبية العظمى من هذا الجيل أنه لا حل أمامهم إلا السفر. لقد فتحت مصر أبوابها أمام العالم فجاء العالم إليها ولكنه طرد المصريين منها. ومع هذا فنادرا ما حققت الهجرة الآمال التى عقدت عليها. لقد زرت بنتى أختى اللتين هاجرتا مع زوجيهما إلى أمريكا فلم أجد فى حياتهما هناك ما عوّضهما عما تركاه فى مصر، بل وانتهى الأمر بإحداهما بأن تركت زوجها هناك وعادت بطفليها إلى مصر، ولازلنا لا نعرف، بعد انقضاء ما يقرب من أربعين عاما على سفرهما لأول مرة إلى أمريكا، ما إذا كان الرجل قد وجد عملا مناسبا أو لم يجد، بل ولا حتى ما إذا كان له عمل على الإطلاق. أما من سافروا إلى الخليج فقد صادفوا مشكلة من نوع آخر. لم يكن الشعور بالغربة قويا وممضّا كما كان مع من هاجر إلى أمريكا أو إلى أستراليا، فالبلد المهاجر إليه عربى، والتليفزيون ناطق بالعربية، والأفلام المصرية متوافرة فى دور السينما والتليفزيون، والفول وبقية

الأطعمة المصرية فى متناول اليد، وزيارة مصر سهلة على أى حال عندما تكون فى الخليج. وإنما كانت المشكلة أن البلاد هناك ليست بلاداً حقيقية، وإنما هى بلاد مصطنعة اختلقت اختلاقا، ومهما حاول المهاجر إليها تعويض ذلك بشراء المزيد من السلع أو اقتناء مجوهرات ثمينة لزوجته أو ألعاب كهربائية لأولاده، مما كان يستحيل عليه اقتناؤها فى مصر، مهما فعل ذلك فإنه لا يستطيع ملء الخواء النفسى الذى يتفاقم الإحساس به يوما بعد يوم. لا عجب أن اقترن السفر إلى الخليج بكثرة أحداث الطلاق وبتوتر العلاقة بين الزوجين سواء انتهى الأمر بالطلاق أو لم ينته. فها هو شاب من شباب العائلة يعمل فى شركة بترول فى الخليج، يقضى الأسابيع وحيداً فى وسط البحر، بعيدا عن زوجته وطفليه فلا يراهم إلا لبضعة أيام كل شهر أو أكثر. وها هو آخر يحاول إجبار زوجته على التحجب مثلما يفعل أهل الخليج فترفض وتعود إلى مصر وحدها وتطلب الطلاق. وثالث يترك زوجته وأولاده فى مصر ويذهب إلى الخليج بمفرده ويرسل لهم ما يعينهم على الغلاء فى مصر، وما يسمح للأولاد بإنفاق مبالغ طائلة على الألعاب الإلكترونية، ولكن تفشل الزوجة فى الاحتفاظ بهم فى البيت ولا تدرى بالضبط ما الذى يصنعونه فى الخارج.

هناك من لم يسافر لا إلى أمريكا ولا إلى استراليا ولا إلى الخليج، ووجد الحل فى الاشتغال فى مؤسسة أجنبية داخل مصر تزيد مرتباتها بنفس سرعة التضخم. أى أن الحل فى ظل الانفتاح كان ينحصر إما فى خدمة الأجانب فى الخارج أو خدمتهم فى الداخل. أما من ضعفت همته وانعدم طموحه وبقى على ما كان عليه قبل الانفتاح فقد أصبح معرضا لمختلف أنواع النقد ممن حوله، أو للشعور بالذنب وتأنيب الضمير مما أصاب حياته العائلية هو الآخر بالتوتر والاضطراب.

راعنى بوجه خاص ما لاحظته من شدة الميل إلى العمل لخدمة الأجنبى لدى الجيل الأصغر، أى جيل أحفادى وأحفاد أشقائى. إن حفيدىّ أنا لازالا طفلين صغيرين ولكن هناك من الأحفاد الآخرين من تخرجوا فى الجامعة وبدأوا العمل وكسبوا رزقهم بأنفسهم، فإذا بى لا أكاد أجد واحداً منهم يكسب رزقه من عمل غير خدمة شركة أو مؤسسة أجنبية، سواء فى داخل مصر أو خارجها. منهم من

يعمل بشركة بترول بالخليج، ومن يعمل مرشدا ومعلما للغطس فى شركة سياحة أجنبية بشرم الشيخ، ومن يعمل بشركة أدوية أجنبية بالسعودية، وآخر بمكتب محاسبة أجنبى بالسعودية أيضًا، ومن يعمل بهيئة الإذاعة البريطانية بلندن، وآخر بشركة تليفزيون عالمية فى كينيا، بالإضافة إلى أولاد المهاجرين الذين يعملون كلهم بالطبع فى البلاد التى هاجر إليها آباؤهم ويشتغل أحدهم فى وظيفة بالبيت الأبيض الأمريكى. ما الذى كان يمكن أن يطوف بذهن أبى لو كان قد سمع بنوع الأعمال التى يقوم بها الآن أحفاد أبنائه؟ وإذا سمع بأن أحدهم يكسب رزقه (وإن كان رزقًا وفيراً) بالغناء باللغة الإنجليزية كجزء من إعلانات تذاع فى بعض قنوات التليفزيون العربية، لترويج نوع من أنواع الصابون الذى تنتجه شركة أمريكية شهيرة؟

ـ ٧ ـ

منذ سنوات قليلة رأيت ابن أحد إخوتى، وكان فى نحو العشرين من عمره، وهو جالس وحده وعلى أذنيه سماعتان متصلتان بجهاز راديو أو تسجيل صغير، دون أن يسمع أحد غيره ما ينبعث من هذا الجهاز، وكان رأسه يتمايل يمينا ويساراً دون أن نستطيع أن نجاريه فى ذلك لأننا لا نسمع ما يسمعه. كنت أرى مثل هذا المنظر لأول مرة، وبدا لى الفتى وقتها وكأنه مختل العقل، ولكنى سرعان ما اعتدت المنظر عندما تكررت مشاهدتى لمثله. لقد بدا هذا المنظر غريبا جداً فى البداية لشخص مثلى لم تكن الموسيقى تشغل هذا الجزء الكبير من وقته مثلما تشغل من وقت الشباب الآن، فإذا استمع إلى موسيقى كان من النادر أن يستمع إليها بمفرده بل كان يسمعها عادة وهو محاط بالناس، ولم تكن هناك تلك الوسيلة التى تعزله عزلاً تامًا عن الناس وتصم أذنيه عمن حوله. وعلى أى حال كانت الموسيقى والأغانى فى البيت الذى نشأت فيه من نوع مختلف تمامًا.

كانت الموسيقى والأغانى التى يستمع إليها أبى أو أمى، فى اللحظات النادرة التى كانا يسمعان فيها أى موسيقى أو أغان، بل وحتى الموسيقى والأغانى المصرية التى كنت أستمع إليها أنا وإخوتى، كانت من النوع الذى يلائم حالة المصريين

وقتها، ويتفق مع علاقة الرجل بالمرأة فى جيل أبى وأمى أو جيلى أنا وإخوتى. كانت المرأة قابعة فى المنزل فى أغلب الأوقات، ومحتشمة، قليلة الاختلاط بالرجال. فلما خرجت المرأة واختلطت بالرجال بل وسمحت لنفسها أحيانا بالتمايل بنوع أو آخر من الرقص فى حضورهم، سارعت الموسيقى والأغانى المصرية بالتغير لتلبية الأغراض الجديدة المطلوبة منهم. صاحب هذا انتشار الموسيقى الغربية الأسرع إيقاعا وانتشار مختلف أنواع الأجهزة التى تسمح بسماع هذه الموسيقى والأغانى فى أى مكان وبكفاءة غير معهودة. فهذه الأجهزة خفيفة الوزن، سهلة الحمل، ومن الممكن للمرء أن يستمع إليها وحده أو مع آخرين، فى المنزل أو السيارة أو أثناء سيره فى الطريق، ومن أسهل الأمور تسجيل ما يعجبه منها وتخزينه وإعادة الاستماع إليه فى أى مكان. لا عجب أن أصبحت الموسيقى والأغانى تلعب دوراً فى حياة أولادى وحياة جيلهم، ثم فى حياة أولادهم، أهم بكثير مما لعبت فى حياتى وحياة أشقائى، ناهيك عن دورها فى حياة أبى وأمى. كما أصبح النوع الذى يعجبهم من الموسيقى ونوع الكلام الذى يستسيغونه فى الأغانى، مختلفا جداً أيضاً. كانت موسيقانا وأغانينا أكثر حزنا وأبطأ إيقاعا، أما أولادنا وأحفادنا فيريدون موسيقى يستطيعون الرقص على إيقاعها وكلمات أكثر مرحا يمكن لهم ترديدها على أسماع الجنس الآخر، حتى ولو كانوا فى الحقيقة أقل تفاؤلا بالحياة منا وأكثر خوفا من المستقبل.

بقدر ما زادت أهمية الموسيقى والغناء والرقص لدى هذا الجيل من الأولاد والبنات، بالمقارنة بجيلى عندما كنا فى مثل سنّهم، قلت أهمية السياسة وضعف بشدة الاهتمام بالشئون العامة والقومية. وأظن أن الظاهرتين مترابطتان. فإذا كانت المتعة، بل والمتعة الحالة هى الهدف، فما هى بالضبط جدوى الانشغال بالسياسة وبالأمور العامة والقومية؟ هذه الأمور السياسية والقومية تتعلق فى نهاية الأمر بالتزام أخلاقى، ولكن المرء منا مسئول عن نفسه فقط. هذا هو ما توصل إليه هذا الجيل الجديد من الأولاد والبنات، ومادام الأمر كذلك فلا شىء يبدو أكثر مضيعة للوقت وأشد إثارة للملل من السياسة وشئون الوطن. بل وحتى إذا افترضنا أن

تغيير مسار السياسة والعمل من أجل ارتفاع شأن الوطن يمكن فى نهاية المطاف أن يزيد من حظ الناس من المتعة والسعادة، فأى أثر يمكن أن يكون لى أنا، أو لأى شخص آخر، فى تغيير الأحوال فى الاتجاه المنشود؟ إن هذه الأمور تبدو الآن وكأنها محكومة بقوى لا نملك بشأنها شيئا وخارجة تمامًا عن إرادتنا. أفلا يكون الاهتمام بها إذن مضيعة للوقت وتبديدا للجهد فيما لا يفيد؟

هكذا يبدو لى تفكير هذا الجيل من شباب أسرتنا اليوم. ولكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا إذن كل هذا الحزن والاكتئاب اللذين يخيّمان عليهم؟ ولماذا يبدون وكأنهم أقل حظاً من هدوء البال والطمأنينة والرضا عن النفس مما كنّا فى مثل سنهم؟ هل يمكن أن يكون السبب هو هذا الذى ذكرته حالاً، أى أن هذا التوجه إلى تحقيق المتعة الخالصة بصرف النظر عن أى اعتبار آخر، كالشعور بالمسئولية الاجتماعية أو بالتزام خلقى، هو نفسه المسئول عن كل هذا الحزن والاكتئاب؟ هل يمكن أن يكون تحديد الهدف بأنه السعادة أو المتعة الفردية بصرف النظر عن أى هدف آخر، وتقييم أى عمل أو هدف آخر وفقا لنجاحه أو فشله فى تحقيق هذا الهدف وحده، السعادة أو المتعة، هو أسوأ الطرق لتحقيق السعادة أو المتعة، وأن أضمن طريق لتحقيقهما هو السعى إلى تحقيق هدف آخر؟

-٨-

عندما قامت الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كنت فى السابعة عشرة من عمرى، وكانت كل الملابسات تدعو للابتهاج الشديد بقيامها. ثورة مفاجئة تطيح بملك فاسد وبنظام سياسى واجتماعى مكروه، والذى يفعل ذلك مجموعة من الضباط الشبان لم نسمع عن أى منهم من قبل، ولكنهم يبدون من كلامهم وتصرفاتهم شبانا وطنيين غامروا بحياتهم من أجل النهوض ببلدهم، ويبدون فى سلوكهم اليومى أقرب إلى عامة المصريين مما عهدناه ممن كانوا يمسكون بمقاليد الحكم قبلهم. ولكن لعل أهم سبب للابتهاج بقيام الثورة كان هو ما ذكرته حالاً من أن عمرى وقتها لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة.

كان أبى وقت قيام الثورة فى الخامسة والستين من عمره، ولا أذكر أنى سمعت منه أى تعليق ضد الثورة، بل لا أشك، بسبب ما أعرفه عن رأيه فى الملك وفى الأحزاب السياسية التى كانت تتبادل الحكم قبل الثورة، فى أنه قد اعتبر قيام الثورة أفضل من عدمه. ولكنى أذكر أيضاً أنه لم يبد حماسا لها من أى نوع، ولا أفاض فى التعبير عما يعلقه عليها من آمال، وهو موقف فسّرته وقتها بتدهور صحته، ولكنى الآن، وقد مرّ على قيام الثورة أكثر من خمسين عاماً، أميل إلى تفسير هذا الموقف منه بأشياء أخرى. فأنا الآن، بعد أن تجاوزت السبعين أستطيع أن أتصور كيف بدت الثورة فى نظره شبيهة بأحداث حدثت فى الماضى، حتى وإن لم يكن الشبه كاملا، وكيف بدا له حماس هؤلاء الضباط مختلطا بمختلف المشاعر والدوافع الطبيعية التى لابد أن توجد فى أمثالهم والتى لا يمكن أن تكون خالصة ونقية مائة بالمائة. كما أنه لابد أن بدا له أن طموحات هؤلاء الضباط، على الأقل كما يعبرون عنها فى كلامهم، أكبر بكثير من قدراتهم، فى عالم تحكمه مختلف الأهداف الأنانية والمدعومة للأسف بقوة عسكرية واقتصادية ليس لدى هؤلاء الضباط القدرة على مواجهتها والتغلب عليها.

بلغ حماسنا للثورة أقصى مدى له فى مطلع الستينات، أى بعد قيامها بعشر سنوات. كنا نحن طلبة البعثة فى إنجلترا قد بهرتنا الخطوات الجبّارة التى اتخذت فى طريق الوحدة العربية والتنمية وإعادة توزيع الدخل لصالح العمال والمزارعين الصغار، وإتاحة مختلف السلع والخدمات الضرورية بأسعار فى متناول الجميع، أو حتى مجانا، كما فى حالة التعليم والعلاج. كنا فى سبيل ذلك على استعداد لضرب الصفح عن نمو الديكتاتورية والنظام البوليسى، كما أننا لم نلتفت لحقيقة موقف النظام الجديد من قضية الهوية والمحافظة على التراث ومقاومة التغريب، فقد بدت لنا هذه القضية ثانوية وكمالية بالمقارنة بالنهوض الاقتصادى واستقلال الإرادة السياسية تجاه الدول الكبرى. بل لم نعلق أهمية تذكر على ما كان يرتكبه النظام من أخطاء فاحشة فى اختيار الأشخاص الذى توكل إليهم مسئوليات شديدة الخطورة، كرئاسة الجيش مثلا، وكأننا كنا على استعداد لتصديق ما نحب تصديقه

بصرف النظر عن بعده أو قربه من الحقيقة . كنا نتوق إلى أن يكون لنا جيش قوى فصرفنا النظر عن كل ما كنا نسمعه عن تصرفات المسئولين عن الجيش، وكنا نتحرق شوقا إلى أن تصبح مصر فى عداد الدول الصناعية المتقدمة فصدّقنا ما قيل لنا من أننا دخلنا بالفعل «مرحلة الانطلاق الاقتصادى» التى يسير بعدها النمو الاقتصادى بشكل تلقائى ومنتظم دون حاجة إلى تضحيات استثنائية . ولم نعلق أهمية على اعتماد خطة التنمية اعتمادًا كبيراً على المعونات الأمريكية، التى كانت تأتينا فى صورة قمح وسلع زراعية، وعلى المعونات السوفيتية التى كانت تموّل السد العالى والتنمية الصناعية، وكأنه ليس من الممكن أن تتوقف هذه المعونات وتلك فجأة دون أى خطأ أو جرم من جانبنا، فتتوقف التنمية الاقتصادية توقفا تاماً، كما حدث بالفعل .

كان أسبوع واحد، أو بالأحرى خمسة أيام فقط، كافية لإيقاظنا من كل هذه الأحلام الجميلة وهى الأيام ٥ ـ ٩ يونية ١٩٦٧ . إن من الممكن أن أقول إنه بمعنى من المعانى، لم يستعد جيلى توازنه حتى الآن منذ تعرضه لصدمة الهزيمة العسكرية التى منينا بها فى يونية ١٩٦٧، رغم مرور ما يقرب من أربعين عاماً عليها . ولكن الحقيقة أن تتابع خيبة الآمال، الواحد منها بعد الآخر، استمر طوال هذه الأربعين عاماً حتى أصبح من دواعى الرثاء الشديد أن يقارن المرء بين ما انتهينا إليه وما كانت عليه طموحاتنا وآمالنا عندما قامت الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

فى السبعينات تحرر السادات من الالتزام الذى فرضته الثورة على نفسها بإعادة توزيع الدخل لصالح الشرائح الاجتماعية الدنيا، كما أطاح باستقلال مصر السياسى، وقبل ما رفضه النظام فى الستينات من ضغوط أمريكية وإسرائيلية وضغوط المؤسسات المالية الدولية كصندوق النقد والبنك الدولى . فى مقابل هذا أعطى السادات للمصريين نوعاً من الديمقراطية سرعان ما تبين، للأسف، أنها ديمقراطية مزيفة لم تمنع السادات من وضع كل معارضيه فى السجون قبل مقتله بأسابيع قليلة . أما الرواج الاقتصادى الذى شهدته مصر فى عهد السادات فكان بدوره رواجا ظاهريا مصدره تحويلات المهاجرين من الخارج، أو تحويلات المعونة

الأمريكية، أو ارتفاع أسعار البترول أو رواج السياحة، وكلها مصادر للدخل تخرج عن سيطرة المصريين. فما أن انخفضت أسعار البترول، وقلّت تحويلات المهاجرين، وتكرر ضرب السياح، حتى بدأ المصريون يدفعون الثمن الباهظ لإهمال الصناعة والزراعة.

وفى الثمانينات والتسعينات عاد الكساد الاقتصادى بعد سنوات قليلة من بداية عهد مبارك، واستمر دون انقطاع تقريبا حتى الآن، واستمر النظام فى لا مبالاته بالزيادة الفاحشة فى التفاوت بين الدخول، وهو التفاوت الذى زاد من حدته وقسوته استمرار الكساد الاقتصادى وارتفاع معدلات البطالة. كما استمر النظام فى استكانته لمطالب الأمريكيين والإسرائيليين وممثلى المؤسسات الدولية، سواء فيما يتعلق بقضية فلسطين أو فتح أبواب الاقتصاد دون ضوابط. وأما الديمقراطية السياسية التى اتضح زيفها فى أواخر عهد السادات فقد زاد تزييفها فى عهد مبارك، حتى أصبح الكلام عن «أزهى عصور الحرية» فى عهده مثار سخرية المصريين.

* * *

هكذا بدا لى، بعد أن مر أكثر من نصف قرن على قيام ثورة ٢٣ يوليو، أن آمالنا التى عقدناها على هذه الثورة فى ١٩٥٢ قد خاب أكثرها، فلم تتحقق آمالنا فى تحقيق الديمقراطية، ولا فى حل مشكلة فلسطين، ولا فى التقدم الاقتصادى، ولا فى التقريب بين الطبقات، ولا حتى فى نشر التعليم ومحو الأمية. نعم، ارتفع المستوى المادى للمعيشة، ولكن بأقل كثيراً مما كنا نتصوره ونطمح إليه، ولا يبدو أن المصريين يتمتعون اليوم بحرية سياسية أو فكرية أكبر مما كانوا يتمتعون به فى ١٩٥٢، ولا بنظام اجتماعى أكثر عدالة. بدا لى أن التقدم الحقيقى الذى لا شك فيه هو فقط أن المصريين قد أصبحوا اليوم أكثر عددا بكثير مما كانوا منذ نصف قرن، فأصبحوا أكثر من سبعين مليونا بعد أن كانوا اثنين وعشرين، أى أن عددهم تضاعف أكثر من ثلاث مرات، وهو تقدم لا يستهان به بمعيار داروني بحت، ولكنه أبعد ما يكون عما كنا نرجوه ونتوقعه عندما قامت الثورة فى سنة ١٩٥٢.

بدا لى أيضًا من استعراض تطور الأحوال والأحداث فى مصر فى الخمسين عاما التى مرت منذ ثورة يوليو أن من أفضل التشخيصات أو الأوصاف التى يمكن أن تُقدم لهذه الفترة، تشخيصها أو وصفها بأنها كانت تشكّل فى إجمالها «العصر الأمريكى»، أو على الأقل الخمسين عامًا الأولى من هذا العصر الأمريكى. لقد كنت فى العاشرة من عمرى عندما انتهت الحرب العالمية الثانية فى ١٩٤٥، وقد بدأت فترة ما بعد الحرب بسعى الولايات المتحدة الحثيث إلى وراثة مناطق النفوذ التى كانت تخضع للاستعمار البريطانى والفرنسى، وقد حدثت هذه الوراثة فى بلد عربى بعد آخر، كما حدثت فى بلد بعد آخر فى آسيا وإفريقيا. وقد دخلت مصر تحت النفوذ الأمريكى فى ١٩٥٢ ولازالت تحته حتى الآن. أما التقلبات التى شهدتها مصر خلال هذه الفترة، من استقلال نسبى إلى خضوع تام، فلا يجب أن تحجب عن أنظارنا طبيعة الفترة مأخوذة ككل. إذا نظرنا إلى هذه الفترة على هذا النحو فإن مصر تبدو وكأنها فقط استبدلت سيدا جديدا بسيد قديم، ومن ثم فإن التقدم محدود دائما بما يسمح به السيد الراهن، وهو لا يسمح إلا بما لا يتعارض مع مصالحه. هل كان خاطر كهذا يا ترى هو ما كان يدور بذهن أبى عندما سمع بقيام الانقلاب العسكرى فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ومن ثم لم يتحمس بشدة لما سمعه من أخبار وبيانات الثورة؟

لقد كان أبى فى العشرين من عمره عندما وقعت حادثة دنشواى، التى قتل بسببها الإنجليز ظلما عددا من الفلاحين المصريين عقابا لهم على جريمة لم يرتكبوها، وإنما أراد الإنجليز فقط إدخال الرعب فى نفوس الشعب المصرى. وقد قال لى أبى إنه بكى بكاء مرّا بسبب حادثة دنشواى. ولكن حادثة دنشواى والأحداث المعاصرة لها لم تدخل فى وعيى السياسى إلا عن طريق القراءة، وبعد حدوثها بوقت طويل، بينما دخلت فى وعى أبى، لحظة بلحظة، فكوّنت جزءا من مخزونه الفكرى والعاطفى. عندما سمع أبى بقيام ثورة ١٩٥٢ لابد أن هذا المخزون من الأحداث والانطباعات قد أثّر فى نظرته إلى هذه الثورة وفى توقعاته بشأنها، أما أنا وجيلى فقد كان علينا أن نعيش هذه الثورة لحظة بلحظة قبل أن نصل إلى نفس

النتيجة التى وصل إليها أبى منذ لحظتها الأولى، وإن لم يجد من الملائم أن يذكر لنا وقتها ما كان يدور بذهنه.

-٩-

لم يكن يخطر ببالى عندما ركبت الباخرة إلى إنجلترا فى ٢٣ يناير ١٩٥٨، وعمرى ثلاثة وعشرون عاما بالضبط، أن إنجلترا ستلعب هذا الدور المهم فى حياتى: أنى سأقضى فيها ست سنوات متتالية فى مطلع شبابى، وسأتزوج من إحدى بناتها، وسأظل بعد ذلك أسافر إليها مرة فى كل صيف، بدون انقطاع تقريبا خلال الأربعين عاما التالية، وأن تظل هذه الدولة ولغتها النافذة الأساسية التى أتعرف من خلال على العالم الغربى والحضارة الغربية.

كنا نقضى فى البداية، أنا وزوجتى، شهرا أو شهرين من كل صيف فى بيت يملكه والدا زوجتى فى بلدة مطلة على البحر فى الساحل الشرقى لإنجلترا هى «فيلكستو» (Felixstowe)، وهى بلدة صغيرة ليس لها جاذبية شديدة ولا شخصية متميزة، وإنما كانت ميزتها الوحيدة وجود والدىْ زوجتى فيها، وبيتهما الجميل بحديقته الرائعة المطلة مباشرة على البحر. فلما توفت أم زوجتى ثم والدها زال على الفور أى دافع لدينا للذهاب إلى فيلكستو، وتحولنا منها إلى مدينة كامبردج، تلك المدينة الرائعة التى اعتبرها من أقرب مدن العالم إلى قلبى. كنت فى سنوات البعثة كثيراً ما أذهب إلى كامبردج مع بعض أصدقائى المصريين لقضاء يوم جميل، من أيام الأحد، فنؤجر قوارب فى نهرها، ونتفرج على مبانى كلياتها التى تخلب اللب، ثم نسير نحو ساعة إلى القرية الملاصقة لكامبردج «جرانشستر» (Granchester) فنتناول الشاى والفطائر التى اشتهر بها الإنجليز فى بستان من شجر التفاح، ويحمل هذا الاسم (The Orchard)، وقد اشتهر هذا البستان فى المنطقة كلها، ليس فقط لجماله، ولكن لأنه كان المكان المفضّل لتناول الشاى لعدد من أشهر الكتّاب والفلاسفة الإنجليز وأصدقائهم الذين عاشوا فترة من حياتهم فى كامبردج، مثل الفيلسوفين برتراندرسل وفنجشتاين، والاقتصادى الشهير كينز. وقد حرص أصحاب البستان، بقدر الإمكان، أن يبقى كل شىء على حاله، الموائد والكراسى

والكوخ الخشبي الذى يستخدم إذا سقط المطر، كما كانت بالضبط عندما كان هؤلاء الرجال العظام يتناولون الشاى فيه.

استطعت بما ادخرته من مال فى فترة عملى بالكويت شراء شقة صغيرة، ولكنها فى موقع بالغ الجمال فى كامبردج، تطلّ على النهر مباشرة وتقع فى أقصى الطرف الشرقى لكامبردج، ومن ثم فهى ملاصقة لحقول لا نهاية لها من ناحية الشرق تسمح للمرء بالسير مسافات طويلة لا يرى خلالها إلا النهر والأبقار والخيول وهى ترعى فى هذه الحقول المملوكة ملكية شائعة للمجتمع ككل، ويمنع القانون الإنجليزى إقامة أى بناء عليها. كنّا نؤجر هذه الشقة تسعة أو عشرة أشهر فى كل عام لأستاذ زائر لجامعة كامبردج أو لبعض طلبة الدراسات العليا فيها، على أن يخلوها لنا فى شهور الصيف. وهكذا ظللنا نأتى إلى كامبردج فى كل صيف تقريبا منذ سنة ١٩٧٨ وحتى الآن، أى لمدة تقرب من ثلاثين عامًا، ولا أظن أنه قد انقضى عام واحد خلال هذه الثلاثين عاماً لم أذهب فيه مع أسرتى وبعض أصدقائى لتناول الشاى فى ذلك البستان الجميل فى جرانشستر.

ها قد مرّ إذن ما يقرب من نصف قرن على بداية تعرّفى على نمط الحياة الإنجليزية. وعندما أقارن نمط الحياة حينئذ بما أصبحت عليه الحياة الإنجليزية اليوم، لا أكاد أصدّق حجم التغيرات التى طرأت عليها، وفى مختلف نواحى الحياة. والأمر يستحق بلا شك أن يروى ببعض التفصيل.

* * *

كانت إنجلترا بلا شك فى سنة ١٩٥٨، عندما سافرت إليها فى بعثتى الدراسية، أقل رخاء بكثير منها الآن. كانت بعض مظاهر الفقر موجودة حتى فى أرقى الأحياء وأكثرها تقدما، كما كان الفقر وتوزيع الدخل موضوعا أساسيا من الموضوعات التى يناقشها السياسيون وتكتب عنها الصحف. لم يكن من النادر على الإطلاق أن أرى متسولا أو أكثر خلال سيرى من محطة مترو الإنفاق فى لندن إلى كليتى، أو أن أشاهد امرأة فقيرة واقفة على الرصيف تحاول بيع كمية ضئيلة من الفاكهة، فى يوم شديد البرودة، دون أن يكون على جسمها ما يكفى لحمايتها من البرد. كانت

الاشتراكية لا تزال موضوعا مهما، يدعو إليها البعض بحماسة وينتقدها البعض بشدة، وليست كما هي الآن موضوعا مهملا أو مثيراً للسخرية. كان إطلاق وصف «ماركسي» أو «شيوعي» على شخص يكفي لاستدرار الغضب والسخط عليه، وليس كما أصبح الآن شيئا نادرا من ناحية ومثيراً للدهشة بدلا من السخط، من ناحية أخرى. نعم كانت مظاهر الفقر أكثر شيوعا في إنجلترا حينئذ مما هي الآن، وإن لم تكن تقارن بالطبع بمظاهر الفقر في البلاد التي أتينا منها، ولكني أستطيع أن أقول بكل ثقة، إن إنجلترا، في أشياء أخرى مهمة للغاية كانت حينئذ أكثر رقيا بكثير مما هي الآن، وأكثر تحضراً.

كنت أسمع منذ وقت طويل، من أبي ومن إخوتي الذين سبقوني إلى رؤية إنجلترا، فضلا عن الكثيرين من الكتاب والصحفيين، كلاما كثيراً في الثناء على أخلاق الإنجليز وبالذات على قوة إحساسهم بالمصلحة العامة واستعدادهم الطبيعي للالتزام بالقواعد واحترام القانون حتى ولو كان يتطلب منهم التضحية بمصلحتهم الخاصة، إدراكا منهم أن هذا في صالح المجتمع ككل. كم سمعت عن احترام الإنجليز «للطابور»، بل ونكات تتندر بهذا الاحترام وتزعم أن الإنجليزي يحب الوقوف في الطابور حتى إذا كان يجهل سبب وجود الطابور أصلا. كنت قد سمعت أيضًا عن مدى استهجان الإنجليز بل ودهشتهم من أي شخص يحاول العبث بأي شيء يعتبر مملوكا ملكية عامة، كشجرة في حديقة أو مقعد في قطار، وعن مدى احترامهم لحقوق الآخرين فلا يسمح أحد لنفسه بالاعتداء على حق الجالسين في قطار في التمتع بالهدوء طوال الرحلة فلا يعكر صفوهم ضجيج يصدر من راديو أو راكب يكلم آخر بصوت عال أكثر من اللازم.. إلخ. وقد لاحظت كل هذا بنفسي عندما رأيت إنجلترا لأول مرة في ١٩٥١، ثم رأيته من جديد خلال إقامتي الطويلة ابتداء من ١٩٥٨، ولم ألاحظ تغيرا ملموسا في شيء من ذلك حتى تركت إنجلترا في ١٩٦٤. ولكني كنت كلما زرت إنجلترا بعد ذلك، مرة بعد أخرى، ألاحظ التدهور الملحوظ في كل هذه الأمور. شعرت بدهشة شديدة عندما رأيت لأول مرة كلاما مكتوبا بخط كبير، وباستخدام دهان لا يسهل محوه، على

حوائط محطات مترو الإنفاق، كتبه عابثون أو سكارى لا يقصدون إلا محض العبث والتخريب، وعندما بدأت ألاحظ أشياء مماثلة فى القطارات نفسها والحدائق العامة ودورات المياه وعلى الكبارى وسلات المهملات، وكثرة الزجاجات الفارغة والعلب والأوراق التى استغنى عنها أصحابها ملقاة على الرصيف أو على أرض محطات القطار. لم تكن إنجلترا كذلك قط، ولكنى بدأت أرى نوع الأشخاص الذين يمكن أن يفعلوا مثل هذا، بل ورأيت بعضهم وهم يتلذذون بفعله: صبية وفتيات مراهقون يسيرون فى الشوارع بلا هدف، يرتدون ثيابهم بإهمال واضح ومتعمد، وبعضهم يدخّن السجائر، ويحملون فى أيديهم زجاجات أو علبا تحتوى على مشروبات كحولية مختلفة، يتكلمون ويصيحون بصوت عال ويبدو عليهم الاستعداد الكامل لإهانة أى شخص يحاول أن يتعرض لهم، بالسبّ على الأقل وربما بالضرب أيضًا. ثم تسمع أو تقرأ فى الصحف عن واحد من هؤلاء وقد طعن شخصًا لا يعرفه بمطواة أو سكّين بدون هدف معروف، أو بدون هدف على الإطلاق، ومن ثم تسمع من يقول لك إن من الحكمة تجنّب الشوارع الهادئة أو الخالية نسبيا من المارة بعد حلول الظلام.

وقد انتشر الإقبال على البارات وشرب الخمر بوجه عام خلال هذه العقود الخمسة الأخيرة، وبدأت العادة تنتشر أكثر فأكثر بين صغار السن، حتى أصبح منظر فتية مخمورين يسيرون فى الشوارع، ممن لم يبلغوا العشرين بعد، منظرا متكررا، خاصة فى عطلة آخر الأسبوع، وهو منظر منفّر للغاية خاصة من الفتيات، ولكن يبدو على السائرين الآخرين فى الشارع، من الإنجليز أنفسهم، أنهم بدأوا يقبلونه كمنظر طبيعى ومألوف ولا يبدو عليهم الانزعاج منه.

لاحظت بداية هذا التحول منذ منتصف الستينات، مع بداية ظهور حركة الهيبيز (Hippies) التى اقترنت بإطلاق الشباب لشعر رؤوسهم، وبدأ الحديث يكثر عن انتشار المخدرات بين الشباب، التى كانت أنواعا خفيفة فى البداية ويسهل الإقلاع عنها، ثم أصبحت أكثر خطورة وأصبح الإقلاع عنها أصعب. وقد اقترن هذا وذاك بما عرف عن هذه الفترة من ارتفاع مستوى المعيشة ارتفاعًا ملحوظا وحلول فترة من

الرخاء الاقتصادى غير المسبوق، مع وصول المجتمع إلى حالة العمالة الكاملة والارتفاع الشديد فى مستوى الأجور. كانت تلك السنوات أيضًا هى فترة ظهور فرقة البيتلز (Beetles) التى حققت شعبية هائلة، وعلى الأخص بين المراهقين الذين كانوا يستقبلون أغانيها بالصياح الهستيرى وكأنهم قد فقدوا الوعى.

فى أوائل السبعينات عرضت على المسرح الإنجليزى أول مسرحية يظهر فيها بعض الممثلين عرايا تماماً. كان هذا العرض «أوه كالكتا» (Oh! Calcutta!) من تأليف ناقد مسرحى مشهور ومحترم «كينيث تاينان» (Kenneth Tynan) لابد أنه اعتقد أنه قد آن أوان التخلص من هذا القيد الذى لا لزوم له، وهو ارتداء الملابس فى العمل الفنى. وسرعان ما انتشرت موجة من التحرر الجنسى فى الأفلام والمسرحيات اعتبرت مظهراً من مظاهر زيادة ما يتمتع به الناس من حرية بوجه عام. وهكذا أصبح ما لم يكن يتصور ظهوره إلا فى الأفلام التى تقصد الإثارة الجنسية عمداً (المسماة بالبورنو) والممنوع عرضها إلا فى دور عرض خاصة، متاحًا فى جميع دور العرض ولا يتطلب إلا أن يبلغ المشاهد سن الثامنة عشرة.

صحب ذلك أيضًا تساهل تدريجى فى تقديم الخمور فى البارات والمطاعم، فزادت الساعات التى يسمح فيها للبارات بأن تفتح أبوابها، وخفض السن الذى يسمح فيها بتناول الخمر فى الأماكن العامة. ثم بدأ يظهر التساهل شيئا فشيئا مع الشواذ جنسيا. لقد كانت ممارسة الشذوذ الجنسى فى منتصف القرن العشرين جريمة يعاقب عليها القانون حتى ولو كانت بين شخصين بالغين وبرضا الطرفين. ثم انتشر الشواذ على سطح الحياة ومارسوا حرية أكبر فى التعبير عن ميولهم، فى الشوارع والأماكن العامة، وفى الأفلام والمسرحيات، وفى الكتابات الصحفية والكتب، حتى أصبح مما ينظر إليه شَزْرًا أن يبدر من أى شخص اعتراض على هذا النوع من الممارسة الجنسية، واعتبر هذا الاعتراض دليلا على الإغراق فى الرجعية وضيق الأفق، واعتداء صارخا على حرية الآخرين. وأصبح منتجو الأفلام والمسرحيات كثيرا ما يتعمدون تضمين الفيلم أو المسرحية شخصية رجل أو امرأة من الشواذ طمعًا فى كسب رضا هؤلاء عن العمل أو تجنبا للاتهام بالرجعية.

عندما أتأمل هذا التطور المدهش فى موقف الإنجليز من الشذوذ الجنسى أجد من الطريف المقارنة بين النفور الشديد الذى كان يبديه الإنجليز إزاء أى تقارب جسدى بين رجل وآخر، ولو كانت ملامسة صغيرة أو مصافحة لا لزوم لها، وبين موقفه من علاقة الشذوذ الجنسى. إنى أذكر مثلا كيف كان الإنجليزى يبدى الدهشة الشديدة والتى لا تخلو من امتعاض، عندما يرى رجلا مصريا يعانق صديقه أو يقبله بعد غيبة طويلة أو قصيرة، أو عندما يرى شابين مصريين يسيران فى أحد شوارع لندن وقد أمسك أحدهما بيد الآخر أو وضع ذراعه فوق كتفه. إن مثل هذا الذى كان يعتبره المصرى طبيعيا تمامًا وتعبيراً لا غضاضة فيه عن المودة أو الاشتياق، كان الإنجليزى يشتم فيه رائحة علاقة غير سويّة ومنفرة. كنا حينئذ، نحن الطلبة المصريين نشعر ببعض الخجل عندما نلاحظ نظرة الإنجليز إلى ما قد نقوم به أحيانا من عناق وتقبيل، بل وربما شعر بعضنا، عندما يلاحظ موقف الإنجليز من هذا الأمر بأنه دليل آخر على «تخلّفنا» وعدم «تمدينا»، يضاف إلى العديد من الأدلة الأخرى. ها قد دار الزمن دورته وأصبح الإنجليز ينظرون باحتقار إلى أى شخص لا يبدى «تفهّما» لشعور الشواذ ولا يقبل ما يقدمون عليه من تقارب جسدى فى الأماكن العامة، ويبدى أى اعتراض أو تبّرم بإصرار الشواذ على التعبير عن مشاعرهم على الملأ وبلا خجل، تأكيدا منهم على أن هذا التعبير هو حق من حقوق الإنسان وأن هذه العلاقة التى يمارسونها ليست أقل «طبيعية» من علاقة الرجل بالمرأة. الآن يعتبر الإنجليز أن من يستحق وصف «المتخلف» وعدم «التمدين» هو الذى يبدى أو يشعر بأى تبرم إزاء هذه العلاقة الشاذة. وعلينا نحن المصريين، بالطبع، أن نعتاد هذه المعايير الجديدة فى الحكم على الأمور.

اقترن هذا الاتجاه نحو المزيد من التحرر فى العلاقات الجنسية بارتفاع كبير فى معدلات الطلاق، وارتفاع مذهل فى نسبة ممارسة الجنس بين المراهقين، وفى نسبة الفتيات المراهقات اللائى يصبحن أمهات دون زواج، ونسبة «العائلات» أو ما يسمى بالعائلات، التى يعيش فيها الأطفال مع الأم دون الأب، أو مع الأب دون الأم. وأصبح من الشائع أن تجد امرأة لم تتعد العشرين بكثير تعيش مع طفلها أو طفلتها بعد أن تركهما الأب، أو تركت الأب، وتعتمد لمواجهة نفقات معيشتها هى

وطفلها على معونة شهرية من الدولة، وتعتبر هذا من حقوقها على المجتمع طالما كانت هذه الظروف تمنعها من الاشتغال بعمل تتكسب منه.

كنت فى أوائل الستينات قد استمعت إلى محاضرة لأستاذ إنجليزى متخصص فى التاريخ الاجتماعى، تطرق فيها إلى الحديث عن ظاهرة كانت لا تزال فى بدايتها فى إنجلترا فى ذلك الوقت، ولكن الرجل أدرك خطورتها وأهميتها، وظهر صدق حدسه مع مرور الوقت عندما شاعت هذه الظاهرة وسادت فى العالم الغربى كله، ثم فى بلادنا أيضاً. كان الرجل يشير إلى حبوب منع الحمل، التى يشير إليها الإنجليز الآن بكلمة واحدة صغيرة هى «الحبّة» (The Pill)، فقال إن هذا الاختراع سوف يحدث فى المجتمع والأسرة والعلاقات بين الناس بوجه عام آثاراً لن تقل فى أهميتها عن آثار اختراع الآلة البخارية. كان الرجل يفكر بالطبع فيما يعنيه هذا الاختراع الجديد من فصل بين ممارسة الجنس وبين الإنجاب، وما لابد أن يعنيه هذا من بداية النهاية لهذا الجزء الطويل جداً من تاريخ الإنسانية الذى فرضت فيه هذه العلاقة بين ممارسة الجنس والإنجاب مختلف أنواع القيود على حرية المرأة والرجل على السواء، وقيام مؤسسات وتنظيمات اجتماعية عريقة اعتبرها الإنسان من البديهيات أو حتى من المقدسات التى لا يجوز المساس بها. فإذا بهذه الحبّة المدهشة تهدد كل هذه التنظيمات والمؤسسات فى الصميم وتثير الشكوك حول ضرورتها وجدواها.

كان من بين هذه الآثار الخطيرة بلا شك ما بدأت المرأة تحظى به من حريات لم تكن لتحلم بها، ونمو الحركات النسوية نتيجة لذلك أو مقترنا به، والتدهور الذى أصاب العائلة وارتفاع نسب الطلاق.. إلخ. بل لقد قرأت لعالم اجتماع أمريكى رأيا يربط فيه بين هذا التحرر الذى حققته المرأة وبين انتشار ظاهرة الشذوذ الجنسى. فإذ أصبحت المرأة قادرة على ممارسة الجنس دون أن يترتب على ذلك إنجاب، أصبحت معرّضة، أكثر فأكثر، لأن تعيش مستقلة عن الرجل، كما شعر الرجل بنوع من التهديد إزاء ما اكتسبته المرأة من قوة جديدة واستقلال عنه، وهى قوة قد تخيف بعض الأنواع من الرجال وقد تدفعهم دفعاً إلى نوع آخر من العلاقات الجنسية.

المدهش فى ظل هذه الظروف كلها، وعلى الرغم من هذه الدرجة غير المسبوقة من التحرر الجنسى وسهولة تكوين العلاقات الجنسية الخاطفة التى لا تلزم أحدا بشىء، أن نلاحظ مدى سيطرة الجنس، وبدرجة غير مسبوقة أيضًا، على مختلف وسائل الإعلام ومختلف أنواع الفنون، سواء فى الأدب أو السينما أو المسرح أو الأغانى أو الفنون التشكيلية. كان من المعقول جدًا أن نتوقع أنه كلما تحرر الناس من القيود التى تفرضها التقاليد والقيم السائدة على الجنس، قلت سيطرة هذا الموضوع على الأذهان، وانصرف الذهن إلى التفكير فى أمور أخرى ومشكلات أخرى. ولكن العكس بالضبط هو الذى حدث بل وزاد قوة مع الزمن. فلا زال موضوع الجنس يُعتمد عليه فى جذب الجمهور إلى الفيلم الجديد والمسرحية الجديدة والسلع الجديدة، ولازالت الصور الجنسية تعتمد عليها الصحف والمجلات لزيادة التوزيع وكسب قراء جدد. ولازال مصممو الأزياء يتفننون كل عام، ويتنافسون فيما بينهم فى استغلال نفس الدافع ونفس الميول لترويج أزيائهم الجديدة.. إلخ.

إنى أقارن الآن بين ما كنت أشاهده من أفلام ومسرحيات وبرامج تليفزيونية وما كنت أقرأه فى الصحف والمجلات فى أواخر الخمسينات وأوائل الستينات، أثناء سنوات إقامتى الأولى فى إنجلترا، وبين ما أقرأه أو أشاهده الآن كلما زرتها من جديد، فأجد اكتساحا صارخا ومتزايد القوة لموضوعات الجنس على حساب الموضوعات الأكثر صلة بالمشكلات الاجتماعية أو الأخلاقية والأضعف صلة بالعلاقة بين الجنسين. لقد أخذت نسبة المسرحيات والأفلام التى تتناول مثل هذه الموضوعات الأخيرة تتضاءل شيئا فشيئا، وأغلقت أبواب بعض دور السينما التى كانت تعتمد على جمهور هذا النوع من الأفلام الجادة، كسينما إيفرى مانز (Everyman's) فى هامستيد (Hampstead) أو سينما الأكاديمى (Academy) فى شارع أكسفورد (Oxford St.) ومالت المسارح التى لم تكن تعرض إلا مسرحيات لتشيكوف أو بريخت أو سارتر أو برناردشو وأمثالهم، إلى تقديم مسرحيات من نوع مختلف يغلب عليها الجنس أو تعتمد على الموسيقى والغناء والرقص. حدث تطور مهم بلا شك فى أذواق الناس وفى معدلات الربح التى تحققها هذه الأنواع أو تلك

من المسرحيات والأفلام. صحيح أنه لازال من الممكن أن ترى فى لندن أفضل ما ينتجه مؤلفو المسرح ومخرجو السينما فى العالم الغربى، بل ربما كان من الأسهل أن ترى فى لندن أفضل ما ينتجه مخرجو السينما المنتمون لثقافات أخرى، من أن تراه فى أى بلد آخر فى العالم، ولكن من المؤكد أن نسبة الغث إلى السمين قد ارتفعت بشدة، وأن الذوق السائد فيما تعرضه المسارح أو دور السينما فى لندن قد أصابه تدهور شديد لا يعادله إلا الارتفاع الكبير فى النفقات التى أصبحت تتكلفها الأفلام الحديثة والمسرحيات الاستعراضية والغنائية.

حدث تدهور مماثل فيما يقدمه التليفزيون وما تنشره الصحف والمجلات وما تخرجه المطابع من كتب. لقد زادت السرعة فى الكتابة والقراءة على السواء، كما زاد الاعتماد فى ترويج كل هذا (الصحف والمجلات وبرامج التليفزيون وأفلام السينما والمسرحيات) على وسائل لا تختلف عما يستخدم فى ترويج السلع: الإلحاح، والصياح، والألوان، والصور المثيرة ومختلف أشكال الخداع، سواء فيما يكتب على أغلفة الكتب من وصف غير صحيح لمحتواها، أو ما تعد به مانشتات الصحف أو عناوين المقالات أو إعلانات الأفلام والمسرحيات من أشياء لا يجد لها القارئ أو المشاهد أثرا فى الحقيقة.

* * *

جنبا إلى جنب مع انتشار نمط المجتمع الاستهلاكى واكتساح نظام السوق لغيره من النظم، بدأ المجتمع الحديث يبدى تسامحا أكبر مع الأقليات ونفورا متزايدا من التمييز بين الناس على أساس اللون أو الجنس أو العقيدة. كان الرجل الأسود منذ نصف قرن يلقى فى المجتمعات الغربية معاملة شديدة الإجحاف، كما كان الأوروبيون ينظرون بتعال وسخرية إلى أصحاب الثقافات المغايرة لثقافتهم. من كان يتصور منذ خمسين عاماً أن يصبح لاعبو كرة القدم من السود أعضاء فى الفريق «القومى» لدولة أوروبية، أو أن تحظى ببطولة ويمبلدون فى التنس شقيقتان أمريكيتان سوداوان، وأن يحظى هؤلاء اللاعبون وهاتان الفتاتان بمعاملة الأبطال إذ جلبوا كل هذا الشرف للدولة التى ينتسبون إليها؟ أو من كان يتصور أن تمتلئ شوارع

مدينة مثل لندن بمطاعم ومقاه تقدم مأكولات من كل صنف وتنتمي إلى مختلف الثقافات والأجناس والمشارب، ويذهب إليها الإنجليز أكثر مما يذهب إليها الأجانب؟ أو أن يرى شوارع لندن ومحلاتها مكتظة بالأجناس المختلفة حتى ليصبح من الصعب أن نصدق أنك فى عاصمة الشعب البريطانى؟ نعم، لقد سوّى نظام السوق والتطور التكنولوجى (أو كاد يسوّى) بين الجميع، فقضى أو كاد يقضى على أى تميز لأحد عن غيره، وعلى أى محاولة من جانب الصفوة من أى نوع، سواء كانت صفوة اجتماعية أو ثقافية أو أخلاقية، لتميز نفسها عن الباقين. بل وها هو نفس التطور يكاد يقضى حتى على أى محاولة للرجل لتمييز نفسه عن المرأة، أو للمرأة لتمييز نفسها عن الرجل، وما أكثر ما سمعنا ونسمع من تصفيق وترحيب بهذه التسوية بين الناس. ولكنى أجد فى نفسى شعورا بالخوف المستطير من أن تكون هذه التسوية أشبه بما يفعله «وابور الزلط» إذ يسوّى بثقله كل ما يسير فوقه. وكثيرا ما يخطر لى أن شيئا شبيها بهذا هو ما فعلته، ولازالت تفعله، حضارة السوق بالأشياء والناس على السواء. فبعد أن رأينا شيئا بعد آخر، مما كان مجانيا ومتاحا للجميع، يصبح محلا للبيع والشراء، أخذ البيع والشراء يشملان الناس أيضاً. وعندما يصبح كل شيء محلا للبيع والشراء، يزول أيضاً أى معيار آخر للتمير بين الأشياء والأشخاص.

- ١٠ -

فى أواخر سنة ١٩٧٠ حدث لى حادث فظيع، أو على الأقل اعتبرته كذلك حينئذ، قضيت بسببه أياما من أتعس أيامى على الإطلاق.

كنت وقتها فى الخامسة والثلاثين من عمرى، وقد انقضى على حصولى على الدكتوراه ورجوعى إلى مصر ست سنوات، قضيتها مدرسا ثم أستاذا مساعداً فى الاقتصاد فى كلية الحقوق بجامعة عين شمس، وانتدبت أحيانا لبعض الوقت للتدريس فى الجامعة الأمريكية، وسافرت خلالها إلى إنجلترا أكثر من مرة لقضاء جزء من عطلة الصيف ومعى زوجتى وطفلان فى زيارة لوالديها فى بلدتهما فى

شمال شرقي لندن. كنت أذهب خلال هذه الرحلات إلى لندن للالتقاء ببعض الزملاء القدامى، وقد أمرّ على أستاذي القديم روبنز (Robbins) للتحية، ولكنى نادرا ما كنت أحاول زيارة الأستاذة الأمريكية التى أشرفت علىّ خلال الدكتوراه إيديث بنروز (Penrose)، فلم أكن أقابلها إلا مضطرا.

ظللت دائما أحمل حبا خالصا وشعورا بالامتنان للأستاذ روبنز لم أكن أشعر بمثلهما للأستاذة بنروز. لم أكن أشعر نحوها بأى ضغينة، وقد ظلت علاقتنا ودية إذ لم يسىء أحد منا قط إلى الآخر، حتى ذلك الوقت على الأقل، ولكنى كنت اعتبرها دائما أستاذة عادية، بلغت ما بلغته باجتهادها وطموحها دون تميز خاص يزيد عن المألوف، لا عقليا ولا خلقيا. وعندما شرعت مرة فى اختيار الإهداء الذى سأصدر به كتابى الأول الذى نشر فى إنجلترا ويتضمن رسالتى للدكتوراه، أهديت الكتاب إلى شخصين لم تكن هى منهما، فجاء الإهداء كالآتى «إلى أبى الذى علمني حب الكلمة المطبوعة وإلى أستاذى روبنز الذى علمنى ألا أقدّسها». كانت هذه العبارة تنطوى على بعض المبالغة فى الناحيتين، إذ من الصعب أن يتعلم المرء «حب الكلمة المطبوعة» من شخص واحد، ناهيك عن تعلم «عدم تقديسها». ولكنى كنت مدفوعا بالطبع بالرغبة فى أن يكون الإهداء بليغا ومؤثرا. على أن الذى يهمنى الآن أنى لم أذكر الأستاذة بنروز فى الإهداء، ولا خطر لى أن أذكرها، مع أنها هى التى أشرفت على بحثى الذى يتضمنه الكتاب، وهى التى أخبرت الناشر الإنجليزى به فوافق على نشره، إذ أنى لم أكن أشعر بأى امتنان نحوها من أى نوع. وقد بدا عليها الامتعاض عندما قرأت الإهداء ولكنها لم تعلق عليه. لقد وجهت إليها الشكر التقليدى فى المقدمة من بين من شكرت، ولكن اسمها ورد ضمن عدد كبير من الأشخاص الذين لم يساهموا فى الكتاب مساهمة ذات شأن، ومنهم السيدة التى كتبت الرسالة على الآلة الكاتبة.

فى إحدى زياراتى للندن قابلت رئيس قسم الاقتصاد بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن، وكان شابا إنجليزيا رقيقا متخصصا فى اقتصاديات الشرق الأقصى، وقال لى إن وظيفة مدرس لاقتصاديات الشرق الأوسط سوف يعلن عنها قريبا فى كليته وشجعنى على التقدم لها ووعدنى بمؤازرته.

فرحت بالخبر فرحا شديداً، ولم أتردد لحظة فى التقدم للوظيفة. كنت وقتها أعتبر الحصول على وظيفة أستاذ في جامعة لندن أفضل ما يمكن أن يحدث لى فى حياتى الأكاديمية، وكانت كل الظروف الأخرى تشجع على اتخاذ هذه الخطوة: أن نعيش فى لندن، تلك المدينة العظيمة، ولو لبضع سنوات، وبالقرب من والدى زوجتى، فتقوى علاقة طفلىّ بهما. والوظيفة تسمح لى بأن أشترى بيتا بالتقسيط، طبقاً للنظام المألوف فى إنجلترا، فنسكن بيتا بحديقة جميلة لا يبعد كثيراً عن أفضل المسارح وقاعات الموسيقى ودور السينما التى تعرض أفضل ما يمكن أن ينتج من أفلام. كل هذا فضلاً بالطبع عن فرصة التفرغ التام للبحث والكتابة، إذ توفر الجامعة الوقت الكافى لذلك وكل المراجع العلمية التى قد أحتاج إليها، بالمقارنة بالفوضى التامة التى تتسم بها حياتنا فى مصر مما لا يكاد يسمح بعمل أى شىء ذى شأن على الإطلاق، كما اكتشفت فى السنوات الست التى انقضت على حصولى على الدكتوراه ولم أنتج فيها شيئا ذا بال، اللهم إلا بضع مقالات كتبت على عجل عن اقتصاديات البلاد العربية، ومقالا كتب على عجل أيضاً عن بعض نظريات ابن خلدون الاقتصادية.

لم يخطر ببالى قط أن اتصل بالأستاذة بنروز لأستشيرها فى تقديمى للوظيفة، وكانت قد أصبحت أستاذة فى الكلية التى أرغب فى التعيين فيها، إذ لم يخطر لى قط أن يكون من الممكن أن تعترض على ذلك، وظننت أن مجرد تشجيع رئيس القسم لى على التقدم للوظيفة، فضلا عن شعورى باستحقاقى لها، كافيان لضمان حصولى عليها. تقدمت إذن للوظيفة وأرسلت لى جامعة لندن تذكرة للحضور إلى إنجلترا لمقابلة الأساتذة المختصين وعميد الكلية، فظننت أن هذه المقابلة أمر شكلى بحت لابد أن ينتهى بتعيينى، وسافرت إلى لندن مبتهجا وواعدا نفسى بمستقبل باهر وبداية حياة مثمرة.

فوجئت بمقابلة رسمية للغاية، وإذا بى أجلس أمام ستة أو سبعة من الأساتذة الكبار فى غرفة عميد الكلية الذى رأس الاجتماع، وشعرت بأنى فى امتحان عسير توجه إلىّ فيه الأسئلة القاسية من كل صوب، وشعرت بعدوانية من العميد فى

اختياره للأسئلة التى وجهها إلىّ، ولكنى فوجئت تمامًا بعدوانية واضحة من الأستاذة بنروز نفسها التى كنت أظن أنها سوف تحاول تسهيل مهمتى. أما أكبر قدر من العدوانية فقد جاءت من الأستاذ برنارد لويس (Bernard Lewis)، المؤرخ الشهير، الذى كان وقتها لا يزال أستاذا فى نفس الكلية قبل أن ينتقل إلى جامعة برنستون فى الولايات المتحدة، ثم سمعنا عن دوره فى رسم السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط بمناسبة أحداث ١١ سبتمبر، ثم قرأنا كتبه الفظيعة ضد العرب والمسلمين التى كتبها فى أعقاب تلك الأحداث وحازت رواجا كبيرًا.

عندما استرجعت فى ذهنى فيما بعد الأسئلة التى وجهت إلىّ خلال هذه المقابلة لم يبق لدىّ شك فى أن القرار برفض تعيينى كان قد اتخذ من قبل أن أحضر إلى لندن، وإنما اضطروا لإجراء المقابلة مراعاة لبعض الشكليات، ومراعاة لشعور رئيس القسم الذى شجعنى على التقدم للوظيفة.

كانت الأسئلة من نوع. «لماذا تكتب عن الاقتصاد العربى وليس عن اقتصاديات الشرق الأوسط؟ وما الذى دفعك للكتابة عن ابن خلدون؟ وهل أنت على استعداد لتعلم اللغة التركية؟» (هكذا كانت أسئلة برنارد لويس). أو «هل تريد المجىء الآن بسبب صغر سن أطفالك وفى نيتك ترك الوظيفة بعد سنوات قليلة؟» (هكذا كانت أسئلة العميد). أو «ألا ترى أن كتاباتك بعد الحصول على الدكتوراه بعيدة الصلة بموضوع رسالة الدكتوراه، أوَلم يكن من الأجدر بك الالتزام بالتخصص وعدم التطرق لموضوعات بعيدة عن موضوع تخصصك؟ أو هل تستطيع حقا التدريس فى فصول تتكون من أعداد صغيرة من الطلاب وأنت قد تعودت على المحاضرة أمام عدة مئات منهم؟» (هكذا كانت أسئلة بنروز). لا أذكر أنى سمعت سؤالا مشجعا إلا من رئيس القسم، ومع ذلك فقد خرجت من المقابلة راضيا عن أدائى ولم يخطر ببالى قط أن النتيجة التى سوف يخطروننى بها بعد خروجى بدقائق قليلة هى الرفض.

كانت الصدمة شديدة وخيبة الأمل كبيرة. ولما أخذت أفكر فى الأمر بهدوء بعد رجوعى منهزما إلى مصر، رجحت أن برنارد لويس كان له التأثير الحاسم على

الباقين، بمن فيهم العميد نفسه، وأن بنروز بدورها لم تجد لها مصلحة في مخالفته.
لم أكن أدرك وقتها إلى أي مدى يدين برنارد لويس بالولاء للصهيونية، ولكني الآن لا أشك في دوافعه إلى رفض تعييني مدرسا في تلك الوظيفة. إني لم أعرف يهوديا واحداً في حياتي لا يسيطر عليه ولاؤه لدولة إسرائيل، ولا يضرب الصفح عن أي اعتبار آخر إذا تطلب منه هذا الولاء أن يتصرف على نحو معين. ولابد أن برنارد لويس سأل نفسه عن المصلحة التي يمكن أن يحققها لإسرائيل تعيين اقتصادي مصري واعد، يظهر من كتاباته أنه يهمه حال العرب، في وظيفة في جامعة مهمة تتيح له الاتصال المستمر بطلبة من مختلف الجنسيات. والأرجح أن يكون قد سمع من بنروز أو من غيرها اسم أبي، ولا أشك في أنه يعرف من هو وأنه المؤرخ الإسلامي الذي يهمه بدوره أن ينهض العرب والمسلمون من كبوتهم.. إلخ. كان لابد إذن أن يرفض برنارد لويس تعييني، والرجل كبير السطوة وقريب من وزارة الخارجية البريطانية القريبة بدورها من كلية الدراسات الشرقية والإفريقية، فلابد أن يكون للرجل القدرة على التأثير في عميدها. أما الأستاذة بنروز، ففي ضوء ما أعرفه عن شخصيتها وطموحاتها، ما الذي يمكن أن تجنيه من مجيء اقتصادي مصري في مقتبل العمر، يعرف اللغة العربية التي تتظاهر بمعرفتها بعكس الحقيقة، ويعرف عن جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية في مصر ما تجهله أيضًا؟ وهو على أي حال لا يبدو أنه يحمل لها تقديرا كبيرا أو احتراما زائدا؟

هكذا استقر رأيي وتفسيري لما حدث. وقررت ألا تكون بيني وبين بنروز أي علاقة بعد الآن، وأن أرفض الالتقاء بها هي وزوجها إذا جاءا إلى مصر في زيارتهما لها بين الحين والآخر. وهذا هو بالفعل ما حدث. فلما جاءا إلى مصر بعد شهور قليلة، واتصلت بي كالمعتاد رفضت مقابلتهما، وكان من الواضح لهما سبب هذا الرفض.

كان زوج إيديث بنروز إنجليزيا فاضلا يكبرها في السن كثيرا. كان قد تجاوز السبعين، وكان أستاذا مرموقا في علم السكان وله مؤلفات تحظى بالاحترام، وكنت أجده رجلا متحضرا للغاية، كريما في معاملته للناس، وواسع الأفق والثقافة. وقد

أسفت لاضطراري لمقاطعته بسبب ما فعلته زوجته. ثم جاء رده على موقفي فزاد تقديري له وإعجابي به. فقد تسلمت بعد أيام من رجوعهما إلى لندن خطابا طويلا منه، يصل إلى ست أو سبع صفحات، يقول فيه إنه يفهم تماما قوة شعوري بخيبة الأمل، ولكنه يرجو أن أتغلب على هذا الشعور، وألا أدع ما حدث يترك أثرا باقيا في نفسي. ثم أخذ يحكي لي في الخطاب قصة بعد أخرى مما حدث له في حياته وما جلبته له هذه التجربة أو تلك من خيبة أمل، ثم تبين له فيما بعد كم كان يبالغ في أهمية ما حدث له، وأن كثيراً مما اعتبره كارثة تدعو إلى الإحباط الشديد، تبين له فيما بعد أنه كان ينطوي على خير عميم. أرسلت له ردا أعبر فيه عن امتناني لعطفه ونبل مشاعره. ولم تنقض سنة أو سنتان حتى كنت قد نسيت الأمر برمته، بل وتبينت لي بعد مرور بضع سنوات أخرى صحة ما قاله الأستاذ العجوز عن الكارثة التي قد تنطوي على خير عميم. ولكني لم أغير رأيي بالطبع في زوجته. التقيت بها بعد ذلك مرتين أو ثلاثا في مدينة صغيرة قريبة من كامبردج حيث اشترت لنفسها منزلا تعيش فيه بالقرب من ابنها بعد أن مات زوجها وأحيلت هي إلى المعاش. وكانت تبدي حرصا شديداً على أن أتصل بها كلما جئت إلى كامبردج، ودعتني أنا وزوجتي لتناول الغداء مع ابنها في حديقة منزلها، وكان يطيب لها أن تستعيد ذكريات السنوات التي قضتها أستاذة في كلية لندن للاقتصاد وما حدث بينها وبين هذا الطالب المصري أو ذاك. ثم جاءني خبر وفاتها وهي على مشارف الثمانين، وكنت قد تخلصت من كل شعور بالمرارة إزاءها، ولكني لازلت أعتقد أنني لم أكن لأخسر كثيراً لو لم أعرفها في حياتي قط.

* * *

بعد هذه الحادثة بأقل من عام جاءني عرضان مغريان في وقت واحد، حرت حيرة شديدة في الاختيار بينهما: عرض من الجامعة الأمريكية ببيروت بتعييني أستاذا مساعدا للاقتصاد، وآخر من مؤسسة فورد لقضاء عام كامل في أي مكان أختاره لكتابة بحث أو كتاب أكون قد بدأته ويحتاج إلى عام من التفرغ لإنهائه. كان لكلا العرضين مزاياه الواضحة، وطال ترددي فحاولت أن أحصل على موافقة

الجامعة الأمريكية ببيروت أو مؤسسة فورد على تأجيل العرض عامًا واحداً بأمل الجمع بين الاثنين فلم أفلح. وأثناء مرورى بهذه الحيرة والتردد الطويل تصادف أن قابلت رجلا مسنا من أقاربى، كنت أعرف عنه الحكمة وسداد الرأى. كان قد جاوز الثمانين، واستمع إلى مشكلتى فى الاختيار بين شيئين كلاهما طيب، فكان رده مختصراً وحاسما: «الحقيقة يا جلال أن اختيارك لهذا العرض أو ذاك لن يكون له أثر مهم على الإطلاق فى المدى الطويل، وأن المسألة كلها لا تستحق كل هذا القلق أو الحيرة». وأنا لا أشك الآن فى أنه كان على صواب.

- ١١ -

كنت فى صباى، وفى مقتبل الشباب، أتصور أن ثمة ما يمكن تسميته «الحقيقة» أو «حقيقة الأشياء»، أو أن هناك «إجابات نهائية وحاسمة» على الأسئلة المهمة التى تشغل بالنا، وأن كل ما نحتاج إليه لاكتشاف هذه الحقيقة أو هذه الإجابات النهائية هو أن نقرأ الكتب والمقالات التى كتبها كتّاب يتسّمون بالحكمة، وأن نشاهد المسرحيات والأفلام الجيدة، وأن نستمع إلى الموسيقى الرفيعة. هكذا كنا نظن، ومن ثم شعرنا بأن قراءة ومشاهدة هذه الأشياء، والاستماع إلى هذه الموسيقى، ليست مجرد عمل مفيد أو جدير بالثناء بل واجب من الواجبات التى يُلام المرء إذا قصّر فى أدائها. هكذا اعتبرنا أنفسنا مقصّرين إذا لم نكن مثلا قد قرأنا بعد «الحرب والسلام» لتولستوى، أو الإخوة كرامازوف لدستويفسكى، أو كتاب «رأس المال» لكارل ماركس أو «أصل الأنواع» لداروين، أو لم نشاهد شكسبير أو بريخت على المسرح، أو أفلام دى سيكا وبرجمان فى السينما، أو إذا لم نكن نستطيع التميز بين موسيقى باخ وهاندل، أو بين موزار وبيتهوفن.. إلخ. بل أذكر أنى أثناء سنوات البعثة فى إنجلترا كنت أشعر بتأنيب الضمير، ليس فقط إذا لم أذهب لمشاهدة مسرحية لشكسبير تمثل فى مسرح قريب، أو لحضور حفلة موسيقية فى صالة الموسيقى الكبيرة (Festival Hall) الواقعة بجوار جسر واترلو وعلى بعد خطوات قليلة من كليتى، بل كنت أشعر بوخز الضمير أيضا إذا انقضى يوم الأحد دون أن أتم

قراءة صحيفة «الأوبزرفر» (Observer) الأسبوعية، بتعليقاتها السياسية ومقالات النقد المسرحي.. إلخ.

كم تغيرت نظرتي إلى هذه الأشياء كلها، وكم تبدو لي الآن نظرتي القديمة مفرطة في التفاؤل، بل وأكاد أقول في السذاجة أيضًا. إن هدفنا من قراءة الكتب والصحف ورؤية المسرحيات والأفلام والذهاب إلى حفلات الموسيقى، لم يكن مجرد الترويح عن النفس أو التسلية، بل ولا كان مجرد زيادة معلوماتنا عما يجرى في العالم، بل كان هدفنا «الفهم» والوصول إلى «الحقيقة»، ولكنى لم أعرف إلا بعد سنوات كثيرة كم هو صعب تحقيق هذا الهدف، إن كان ممكنا على الإطلاق. فالصحف ونشرات الأخبار في الراديو والتليفزيون تنهال علينا كل يوم بكمية هائلة من المعلومات، ولكنى أعرف الآن أن زيادة المعلومات كثيرا ما تؤدى إلى تقليل الفهم بدلا من زيادته، خاصة إذا قدمت إلينا على النحو الذى تقدمها به إلينا عادة وسائل الإعلام: أخبار سريعة وغير مترابطة وخالية في معظم الأحيان من أى تحليل، وتختلط فيها المعلومات الهامة بغير الهامة، الضرورية مع غير الضرورية. لقد اكتشفت أيضًا بعد سنوات كثيرة، أن أكثر الكتب هي أيضا من هذا النوع الذى يعطيك من المعلومات أكثر بكثير مما يعطيك من التحليل والفهم، وأن هذا التحليل، إذا وجد، نادرا ما ينصبّ على الجوهرى والمهم، ونادرا ما يجيب على الأسئلة التى كنت تنتظر أن يجيب عليها، ومن ثم نادرا ما يزيد من فهمك لشيء تريد فهمه.

نحن نعرف أن عناوين الكتب كثيرًا ما تكون ضعيفة الدلالة على ما تحتويه، ولكن حتى إذا كان العنوان يصف محتوى الكتاب وصفا صادقا، ما أكثر ما يخيّب الكتاب أملك بعد قراءة فصول قليلة منه، واكتشافك أنه لا حاجة بك إلى إتمام قراءته. إنى أنظر الآن إلى عشرات الكتب التى تتناول موضوع «التنمية الاقتصادية» من مختلف جوانبها، والواقفة الآن على رفوف مكتبتى، فلا أشعر بأى أسف إذا حدث وفقدت الغالبية العظمى منها، إذ أن هذه الغالبية العظمى لم تجب على أسئلة تشوقنى فعلا معرفة الإجابة عليها، ولم تزدنى فهما بالأسباب الحقيقية للفقر أو

بالطرق الصحيحة للقضاء عليه. ولكنى أستطيع أن أقول نفس الشيء عن معظم الكتب التى قرأتها فى بقية فروع الاقتصاد، وفى غير الاقتصاد من العلوم الاجتماعية. نعم فى كثير منها تمارين عقلية شائقة، ولكن هذه التمارين العقلية أقرب إلى التمرينات الرياضية التى تقوى الجسم ولا تغذّيه، فهذه أيضا تقوّى عضلات العقل دون أن تزيده فهما للمشكلات التى نتكلم عنها.

لجورج أورويل قول طريف يعرّف فيه الكتاب الجيد بأنه «الكتاب الذى يقول لك ما كنت تعرفه من قبل». إنه إذن ليس الكتاب الذى يضيف إلى معلوماتك، فهذا النوع من الكتب لا يقول لك ما كنت تعرفه بالفعل، ولكنه الكتاب الذى يدعم فهمك لبعض الأمور، وقد ينظم هذا الفهم ويرتّبه، فيزيد من وضوح هذا الفهم فى ذهنك، ومن ثقتك بصحته. أورويل يقصد أن يقول أيضاً، فيما أظن، أن أفضل الأفكار وأهمها هى أبسط الأفكار وأسهلها، ومن ثم فليس من الغريب أن تطرأ على ذهن الكثيرين، فيأتى الكتاب الجيد فقط لتأكيدها وتوضيحها. ولكن الحقيقة أن أكثر الكتب ليس من هذا النوع، بل أكثرها يثير أسئلة غير مهمة ويجيب عليها إجابات غير مقنعة. فكيف لا يخيب فيها الأمل؟

لهذا السبب أعتقد أن أستاذى القديم (مصطفى بدران) الذى أعطانى الدروس الوحيدة التى تلقيتها فى علم الكيمياء فى حياتى كلها، وكنت فى الثالثة عشرة من عمرى، كان على صواب عندما كان يصرّ على ألا يتكلم فى موضوع لم يتأكد بعد من رغبتنا فى معرفته وفهمه، وألا يقدم لنا إجابة على سؤال لم نطرحه نحن ابتداء. هل كان وراء هذه الطريقة فى التعليم نفس الافتراض الذى يكمن وراء تعريف أورويل للكتاب الجيد، وهو افتراض أن الكلام الجديد مائة بالمائة لا يمكن أن يشكل «معرفة» حقيقية، بل يجب أن يكون الكلام، لكى تكون له فائدة حقيقية، صدى لما كان يدور من قبل فى ذهن المتلقّى؟ وهل وراء هذه النظرة إلى التعليم وهذا التعريف للكتاب الجيد نفس الفكرة، أو فكرة وثيقة الصلة بما كان يقصده الشاعر الهندى طاغور فى مقطوعته الشعرية الجميلة التى سبق لى اقتطافها، والتى تقول:

«لقد أنفقت ثروة طائلة فى السفر إلى شواطئ بعيدة، فرأيت جبالا شاهقة ومحيطات لا يحدّها حدّ. ولكنى لم أجد متسعا من الوقت لأن أخطو بضع خطوات قليلة خارج منزلى، لأنظر إلى قطرة واحدة من الندى، على ورقة واحدة من أوراق العشب»؟

ربما كان فيما نعرفه عن حياة نجيب محفوظ شيئًا يدعم نفس الفكرة. فالرجل الذى عاش حتى بلغ الخامسة والتسعين وأنتج كل هذه الروايات التى حازت إعجاب الكثيرين وجلبت له جائزة نوبل، كان كارها للترحال بدرجة تلفت النظر. كان ملتصقا التصاقا مدهشا بمدينته وحيّه والمقهى الذى يجلس فيه كل يوم، ويرفض رفضا باتا أى فرصة تتاح له للسفر لرؤية بلد جديد وتجربة أى نمط مختلف للحياة. وكأن تجاربه الجديدة، وهى بلا شك كثيرة جداً، كانت تدور كلها داخل رأسه. نعم، نحن نعرف أيضاً أن نجيب محفوظ كان قارئا نهما، ولكن ما أقل إشادة نجيب محفوظ بكتّاب بعينهم باعتبارهم أصحاب فضل كبير على أدبه وفكره، وما أصعب أن نتبين تأثيراً لكاتب معين يفوق تأثير غيره. وكأن المهم، فى حالة نجيب محفوظ، ليس ما قرأه من كتب بل ما صنع ذهنه بهذه الكتب، أو على الأرجح ما جاءت هذه الكتب لتدعمه مما كان يدور بذهنه من قبل.

* * *

زارنى مرة أخى حسين، أثناء بعثتى فى لندن، ووجدنى أقرأ فى كتاب جوزيف شومبيتر (J. Schumpeter) الضخم «تاريخ التحليل الاقتصادى» (History of Economic Analysis) وهو كتاب يقع فى أكثر من ألف صفحة ومطبوع بحروف صغيرة، فإذا بحسين يعبّر عن أسفه ضاحكًا أن يكون هذا الكتاب كتاب اقتصاد وليس رواية، إذ ما أضيع كل هذه الصفحات، فى رأيه، إذا لم تتضمن عملا روائيا! وقد مرّ علىّ وقت كنت فيه مثل حسين، أحمل كل هذا الإعجاب بالأدب، وأعلق عليه أهمية كبيرة، مثلما كان حسين يعلق عليه من أهمية فى كشف «الحقيقة» أو فى فهم «حقيقة الأشياء». فى ذلك الوقت كنت إذا شرعت فى قراءة رواية

كلاسيكية شهيرة أو فى مشاهدة مسرحية لكاتب كبير وتقوم بتمثيلها فرقة مرموقة، أو ذهبت لرؤية فيلم لمخرج لامع، أتوقع أن يصبح حالى بعد قراءة الرواية أو مشاهدة المسرحية أو الفيلم مختلفا جداً عن حالى قبلها، أو أن أجد فى جملة أو فقرة من الرواية، أو فى موقف إحدى شخصيات الرواية أو المسرحية أو الفيلم تلخيصا للموقف الواجب اتخاذه فى الحياة، أو حكمة تضع حداً للكثير من تساؤلاتنا عن معنى الحياة، أو عن سر السعادة والبؤس.. إلخ.

لاشك أن فترة الدراسة فى إنجلترا قد صرفتنى عما كنت أفعله قبل سفرى من الإقبال على الأعمال الأدبية فى صورها المختلفة، كما أدت كثرة قراءاتى لكتب ومقالات الاقتصاد إلى إضعاف حاستى الأدبية ومن حماستى لأى نوع من الأدب. ولكنى عندما عدت أقرأ من جديد بعض الروايات وأشاهد بعض المسرحيات والكثير من الأفلام تبينت أننى كنت أطلب المستحيل، وأن كتّاب الرواية والمسرح والمخرجين السينمائيين ليسوا بالضرورة أكثر حكمة من غيرهم، أو أكثر الناس معرفة بحقائق الأشياء. إنهم فقط فنانون، أى لديهم من الموهبة ما يمكنهم من رواية القصة أو كتابة الحوار أو إخراج الفيلم على نحو جذاب ومشوق ومثير، أى ما يمكنهم من إنتاج عمل فنى يأسر القراء أو المشاهدين بجماله، دون أن يتسم بالضرورة بالعمق أو نفاذ البصيرة. رأيت أن هذا الذى كنت أتوقعه فى الأعمال الأدبية والفنية لا يوجد حقيقة إلا فى أعمال عدد صغير للغاية ممن وهبوا المهارة الفنية والحكمة فى نفس الوقت، ولكن ما أكثر الفنانين الذين لا يتفوقون على جمهورهم فى الحكمة وسداد الرأى. وهؤلاء لا يمكن للمرء أن يتوقع أن يحصل من أعمالهم الفنية على أكثر من مجرد الترفيه والترويح عن النفس.

مع مرور الوقت أدركت أيضًا خطأ اعتقادى بأن فى الموسيقى شيئا يزيد عن مجرد «الفن»، أى بأن الموسيقى يمكن أن تنقل إلى مستمعها «فكراً» أو «فهما» من أى نوع يشبه ما يحصل عليه قارئ الكتاب أو المقال. نعم هناك من أنواع الموسيقى ما يمكن اعتباره «أرقى» من غيرها، ولكن التميز هنا يتعلق بعمق الإحساس وليس بعمق الفكر.

ما أشد الرهبة التى شعرت بها عندما جلست لأول مرة فى مواجهة الكاميرا مشتركا فى أحد برامج التليفزيون المصرى. كانت فكرة الظهور فى برنامج تليفزيونى تراه الآلاف المؤلفة من الناس تبعث فى نفسى السرور والخوف فى نفس الوقت. السرور لما يجلبه التليفزيون من شهرة (أو ما نظنه كذلك)، والخوف من ارتكاب أى نوع من الخطأ ومن ثم مما يمكن أن تجلبه هذه الشهرة من أثر هو عكس المطلوب بالضبط. ولكن سرعان ما ذهب الخوف وقلّ السرور.

ذلك أننى بعد أن ظهرت فى التليفزيون ثلاث أو أربع مرات، بدأ يعترينى الشعور بالضيق من طريقة معاملة المشتغلين بالتليفزيون لضيوفهم. تبين لى أن جماهيرية التليفزيون تضفى على العاملين فيه أهمية لا يستحقها معظمهم، فإذا بهم يتصرفون وكأنهم وسطاء بين ضيوف التليفزيون وهذه الأعداد الغفيرة من المشاهدين، فيصدرون الأوامر لهؤلاء الضيوف بالالتفات إلى اليمين أو اليسار، وبأن يتحركوا على هذا النحو أو ذاك، فتشعر بعد لحظات بأنك كالمشلول أو بالشخص الذى قيدت قدماه وذراعاه فتسمّر فى مكانه، ويخرج الكلام مغتصبا وبلا روح، ريثما يقطعه مقدم البرنامج بإعلان الجمهور والضيوف بأنه لابد من قطع الكلام لمشاهدة فاصل من الإعلانات التى لا توجد صلة بينها وبين ما كنت تتكلم فيه، بل المنافية تماماً لموضوع الحديث. وقد تظن أن لديك قدرة على الانسحاب وعدم الاستمرار فى هذه التمثيلية التى تقدم وكأنها فرصة ممتازة للحوار والكلام بحرية، ولكنك فى الحقيقة تدرك بسرعة من كل هذه الجدية والصرامة التى يحاط بها البرنامج أن الانسحاب مستحيل، إذ أن هذا الجمهور المتوحش الذى ينتظر البرنامج، أو يفترض أنه ينتظره، يجب أن تلبى رغباته ويشبع نهمه للتفرج على هؤلاء الحمقى الذين قبلوا المجيء للتحاور أمامه، ولا وظيفة لهم فى الحقيقة إلا تسليته والترويح عنه، وهو، أى هذا الجمهور المتوحش، يستطيع فى أى لحظة بضغط إصبعه على زرار صغير، أن يمحوك تمامًا من الصورة ويستغنى عنك

ويستبدل بك راقصة أو مغنية أو فيلما سينمائيا. وهذه الحرية المزعومة للحوار التليفزيونى يقلل من قيمتها بشدة قدرة إدارة التليفزيون على أن يحذفوا أى جملة من جملك يعتبرونها مخالفة للسياسة العليا للتليفزيون أو للدولة، دون أن يشعر المشاهد بأن أى حذف قد حدث، ومن ثم يجد ضيف التليفزيون نفسه وقد نسب إليه رأى غير رأيه.

جعلنى كل هذا أفقد الثقة فى التليفزيون وأفقد الرغبة سواء فى مشاهدته أو الاشتراك فى أحد برامجه، باستثناء حالات استثنائية رأيت فيها أن البرنامج جاد ويسمح بدرجة لا بأس بها من الحرية. وقد حاولت مرة أن اشترط عدم قطع البرنامج بالإعلانات، فأفهمونى أن هذا مستحيل، وأدركت أننا بظهورنا على شاشة التليفزيون، حتى فى تلك البرامج القليلة الجادة، إنما نظهر بدافع واحد فقط لدى منتجى البرامج والمشرفين على التليفزيون، وهو تحقيق أقصى ربح ممكن من الإعلانات.

تغيرت أيضا نظرتى إلى المؤتمرات والندوات التى لا تنقطع فى مصر وخارجها فأصبحت أعتبر معظمها إضاعة للوقت دون فائدة تذكر، وأصبحت أندهش كلما فكرت فى حجم الأموال الطائلة التى تنفق على جلب المدعوين إلى هذه المؤتمرات والندوات، من أقصى أركان الأرض إلى مكان المؤتمر، وعلى إقامتهم فى الفنادق الفاخرة بلا أى طائل، أو على الأقل بدون أى نفع عام، وإنما فقط لتحقيق أهداف أنانية بحتة مثل تظاهر منظمى المؤتمر أو الندوة بخدمة قضية نبيلة، ضمانا لاستمرارهم فى مناصبهم، أو تحقيقا للشهرة وذيوع الصيت، أو التقرب إلى بعض أصحاب النفوذ الذين يمكن أن يحققوا لمنظمى المؤتمر غرضا من أغراضهم الخاصة.. إلخ

فما أكثر ما وجدت ما ينفق على هذه المؤتمرات أكبر بكثير من اللازم، إذ كان من الممكن تحقيق المطلوب (أو الذى يتظاهرون بأنه مطلوب) بفعالية أكبر، إذا كان عدد المدعوين أقل، ومدة المؤتمر أقصر، وبحفلات للغداء أو العشاء أقل إسرافا. خطر بذهنى أكثر من مرة، أثناء حضورى لمؤتمر بعد آخر من هذه المؤتمرات، أن لكل عصر

طريقته فى إنفاق الفائض الاقتصادى بعد إشباع حاجات الناس الأساسية وإشباع حاجات الناس المهمين غير الأساسية. ففى مصر القديمة كانت هناك طريقة بناء الأهرامات التى سخر الآلاف من الناس لبنائها، وهى فى نهاية الأمر قليلة الجدوى. وفى عصرنا الحديث هناك، فضلا عن برامج التليفزيون، هذه المؤتمرات والندوات اللا نهائية. أو لعل الوظيفة الحقيقية لهذه المؤتمرات والندوات والتليفزيون نفسه هو مجرد خلق مستهلكين جدد، ودفعهم دفعًا أو حثهم على المزيد من الاستهلاك، إذ من الذى سيشغل مقاعد الطائرات المحلقة فى كل ساعة من ساعات النهار والليل، والمتنقلة بين مختلف بلاد العالم؟ ومن الذى سيشترى كل هذه السلع التى لا فائدة ترجى منها، والمعروضة فى الأسواق الحرة بالمطارات، إذا استغنينا عن كل هذه المؤتمرات والندوات والاجتماعات؟

كان هذا الإدراك، أو هذا التساؤل، كافيا لإضعاف رغبتى فى الاشتراك فى هذه المؤتمرات اللا نهائية، ولم يعد الحصول على تذكرة سفر مجانية إغراء قويا لى، ومن ثم شرعت فى اشتراط شروط متعسفة لقبولى السفر من أجل الاشتراك فى مؤتمر، تضمن لى أكبر قدر من الراحة وبذل أقل قدر من الجهد، ولكن مع مرور الزمن، لم يعد حتى هذا كافيا، فأصبحت أرفض الاشتراك حتى من قبل أن ترفض شروطى.

ـ ١٣ ـ

لابد أن ذلك السرور القديم برؤية اسمى منشورا، وبالظهور على شاشة التليفزيون وتلقى الدعوات للاشتراك فى الندوات والمؤتمرات، كان يرجع فى نهاية الأمر إلى حب الشهرة وذيوع الصيت، وهو شىء أشترك فيه مع كثيرين، بل وربما مع معظم الناس. وربما يتعلق الأمر بحاجة بيولوجية دفينة لا تختلف كثيرا عن حاجة الطفل الصغير إلى لفت الأنظار ولو بالبكاء والعويل، إذ أيًّا كان سبب التفات الناس إليه فهو أفضل على أى حال من تجاهله تجاهلا تاما وكأنه غير موجود.

ألا يفرح الناس بنشر خبر زواجهم أو أعياد ميلادهم فى الصحف والمجلات مع

أن الزواج أو الاحتفال بعيد الميلاد ليس بالضرورة داعيا من دواعي الفخر والمباهاة، ومعظم الناس قادرون على هذا أو ذاك، ولا يحتاج الأمر إلى توفر ذكاء خاص أو مزايا نادرة؟ ولكن أن يعرف الآلاف خبر زواجي أو أن يروا صورتي في الصحف.. أليس هذا شيئا طيبا يستحق حتى أن ينفق المرء بعض المال والجهد من أجله؟ فإذا افترضنا أن للشهرة سببا يدعو للتقدير والإعجاب، فما الذي يجب أن يجلب للمرء السرور والابتهاج، هل هي الشهرة أم هذا السبب الذي يدعو إلى التقدير والإعجاب بصرف النظر عما إذا كان قد جلب له شهرة أو لم يجلبها؟ لاشك أن شيئاً كهذا هو ما كان يدور بذهن الكاتب السوداني الشهير الطيب صالح عندما ألقى محاضرة على طلبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة بعنوان «تفاهة أن يكون المرء كاتبا»، وكان محور المحاضرة أنه كلما حدث له ما يجعله يظن أنه قد أصبح مشهورا وذائع الصيت فينتفخ ويملأه التيه والإعجاب بنفسه، حدث بعد ذلك مباشرة ما يعيده إلى صوابه وينبهه إلى أن شهرته لم تتعد حفنة ضئيلة من الناس مما لا يستوجب كل هذا التيه والزهو. فإذا أعلن مثلا عن فوزه بجائزة قيمّة على أعماله الأدبية، فظن بنفسه الظنون، يحدث أن يزور خالته في قريتها، فإذا بها تسأله في براءة عما يفعله بالضبط، وكيف يكسب قوته؟ إنها تفهم أن يكون الرجل طبيبا أو مهندسا أو مدرسا، ولكن رجل يكتب القصص والروايات؟ أي عمل هذا بالضبط؟.

سألت صديقا لي مرة عن السبب الذي جعله يشترك في حوار تليفزيوني لا أرى فيه أي ميزة تجذب المرء إلى الاشتراك فيه: لا الموضوع، ولا شخصية المذيع المحاور، ولا اتجاهاته السياسية، فقال لي إنه يظل سنوات يكتب المقالات في صحيفة من الصحف بعد أخرى فلا يشعر بأنها كوّنت له جمهورا يقرأه ويعرفه، ثم يظهر مرة واحدة في برنامج تليفزيوني، ولو في ساعة متأخرة من الليل، فإذا به في كل يوم يقابل من يتعرف عليه ويسأله باهتمام: «حضرتك بتطلع في التليفزيون؟».

كما شكا لي المحلل السياسي القدير إلياس سحاب من أنه ظل ينشر مقالاته السياسية في الصحف اللبنانية لمدة تقرب من أربعين عاما. ثم حدث وعاد أخوه الأصغر المايسترو سليم سحاب من دراسته في موسكو وقدم حفلة موسيقية واحدة أو

حفلتين فى بيروت وأذاعهما التليفزيون، فإذا بإلياس كلما قابل شخصا سأله «هل أنت شقيق سليم سحاب؟».

* * *

لقد تذوقت طعم الصيت والشهرة، منذ كنت تلميذا صغيراً فى المدرسة الابتدائية، إذ كلما دخل زائر أو مفتش فى أحد دروس اللغة العربية وجدت المدرس يهمس فى أذنه «بأننى ابن الأستاذ أحمد أمين»، وقد وجدت الأمر لذيذا واستطعمته، ولا شك أن هذه التجربة المبكرة قد غرست فى نفسى بذور الإدمان، أى إدمان السعى إلى ذيوع الصيت ولفت الأنظار، وربما ساعد على نموها عندى أنى أصغر الأولاد فى العائلة، مما يجعل للفت الأنظار قيمة مضاعفة. والظاهر أن حب الشهرة يمكن فعلا أن يتحول إلى إدمان بحيث إنه متى تسلط على الشخص أصبح من الصعب عليه أن يعيش بدون إشباعه إشباعا مستمرا. بل وقد تزيد أيضاً الجرعة اللازمة لإشباعه كلما زاد ما يحوزه منها.

وقد أتيحت لى بعض الجرعات الصغيرة للفت الأنظار، بصفتى الشخصية وليس بوصفى ابنا لأحمد أمين، وأنا فى المدرسة الثانوية عندما كان يطلب منى أحيانا أن ألقى كلمة فى احتفال مدرسى أو آخر، بمولد الرسول مثلا أو بذكرى الهجرة. فكنت أقبل بسرور فى معظم الأحيان، وأعمل للأمر حسابا يفوق أهميته بكثير. وأظل أفكر فى هذه الجملة أو تلك، وأسوّد وأبيّض، مدفوعا بلا شك بالرغبة فى تحقيق نجاح باهر أمام هذه الجماهير الغفيرة، التى قد لا يزيد عددهم عن العشرين أو الثلاثين، ممن لا يهمهم فى الحقيقة فى قليل أوكثير قيمة الكلمة التى سيلقيها هذا التلميذ الصغير. كان للميكروفون بالطبع سحر لا يقاوم، قبل أن يشيع استخدامه على النحو الذى نراه الآن، فما بالك بما يمكن أن يشعر به تلميذ فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة سن عمره إذا وجد نفسه أمام ميكروفون، ويخطب فى جمهور يجلس بينه ناظر المدرسة وكبار رجالها؟

طلب منى مرة، وأنا فى هذه السن، أن اشترك فى مناظرة فى المدرسة حول موضوع يصعب أن نتصور أن تعقد حوله مناظرة فى مدرسة حكومية فى هذه

الأيام. كانت السنة هى ١٩٤٧ فى أعقاب انتشار وباء الكوليرا فى بعض القرى المصرية. فلما تم القضاء عليه، ولم يكن للناس حديث إلا عنه، فكّر أحد مدرسى المدرسة فى عقد مناظرة عنوانها «من المسئول عن انتشار الكوليرا فى مصر: الحكومة أم الشعب؟» وقال لى هذا المدّرس إنه سوف يمثل وجهة النظر التى تلقى باللوم على الحكومة وأن علىّ أنا أن أمثل وجهة النظر الأخرى، التى تلقى بالمسئولية على الشعب. كما أخبرنا أن الأصوات ستؤخذ بعد انتهاء المناظرة لمعرفة أى المتناظرين انتصر على خصمه. وقبلت بسذاجة إذ كنت لازلت حديث العهد بهذه الأمور، ولم يخطر ببالى قط أننى مهزوم لا محالة، فالناس لابد أن تصوّت فى النهاية ضد الحكومة مبرئين أنفسهم من المسئولية. كان المهم هو أنى دعيت للكلام أصلا، وأمام ميكروفون. وألقيت بدلوى وكانت النتيجة هى طبعا هزيمتى المطلقة، والتى دهشت لها كثيرا إذ كنت قد قدمت بعض الحجج المقنعة.

بمرور الزمن ضعفت لدىّ الرغبة فى لفت الأنظار وأصبحت فرصة نشر مقال لى فى جريدة سيّارة، أو إلقاء كلمة أمام بعض الناس المهمين، أو الظهور فى التليفزيون، لا تحمل جاذبية كبيرة لى، وكادت جاذبية أى من هذه الأمور تنحصر فى مدى جاذبية الموضوع الذى يطلب منى أن أتناوله بالكتابة أو الحديث، دون أن أبالى كثيراً بما قد يتصل به من «جماهيرية».

لقد عرفت عدداً من مشاهير الكتّاب الذين شعرت نحوهم بحب خاص واحترام يزيد عما أشعر به نحو غيرهم، ولا أظن أنه من قبيل الصدفة أن هؤلاء كانوا أيضاً من أقل من عرفت مبالاة بالشهرة وذيوع الصيت. هكذا وجدت مثلا أحمد بهاء الدين، الكاتب الصحفى الشهير الذى كان يسرع بتحويل مجرى الحديث إلى موضوع آخر إذا سمع من أحد ثناء على مقال منشور له، وكذلك عبد العظيم أنيس أستاذ الرياضيات والكاتب والمناضل السياسى الشهير، إذ كنت أحس بأنه إذا سمع ثناء على شىء كتبه أو عمل قام به، وإن قام بشكر قائله شكرا مخلصا، كان كمن يسمع ثناء على شخص غيره. أما الطيب صالح، فكان يضحك إذا سمع ثناء عليه، وينفى بشدة أنه يستحق شيئا منه، واصفا نفسه بأنه مجرد «كويتب»

صغير. كما كان ينفر بشدة من أي مناسبة تضعه في مكان الصدارة ويكون فيها محط الأنظار.

قال لي الطيب صالح مرة إنه يعجبه تشبيه أحد الكتّاب للشهرة «بالعاهرة»، ولعله يقصد بذلك أن السعي إلى الشهرة مثل سعي المرء إلى كسب رضاء عدد كبير من الناس «مجهولي الهوية» ممن لا تربطهم به أي صلة، وأن الثناء يمكن أن يقبل ويسعى إليه إذا صدر من شخص معين أو عدد قليل من الأشخاص الذين يكن المرء لهم احتراما وتقديرا، أما الشهرة، أو صدور الثناء من أعداد غفيرة من الناس لا يعرف المرء قدرهم الحقيقي، فيجب ألا يكون باعثا على الفخر أو السرور، بل لعله قريب من العمل «الخادش للحياء».

ـ ١٤ ـ

أصابتني دهشة عندما أدّى بي استعراضي لكل هذه البدايات والنهايات، إلى اكتشافي لهذا العدد الكبير من الأمثلة على نوع أو آخر من خيبة الأمل. كما راعني أيضاً أن اكتشف فجأة كثرة الأشياء التي أصبحت أعتبرها غير جديرة بالاكتراث أو غير مهمة. ما أكثر الأشياء التي كنت اعتبرها مهمة بل وضرورية في يوم ما فلم أعد أعتبرها كذلك. إن أي نوع من الطعام، مهما كان ما يجلبه لي من لذة في الماضي، يمكن الآن بسهولة أن يحل محله نوع آخر دون أن أشعر بالحرمان. كما لم أعد أعلق الأهمية القصوى التي كنت أعلقها على قراءة كتاب بعينه، ناهيك عن الأفلام السينمائية التي اكتشفت حيلها فلم يعد من السهل خداعي بها. لم أعد أتلهف على سماع الأخبار أو قراءتها مثلما كنت أفعل، إذ لم أعد أعلق أهمية كبيرة على تصريحات ثبت لي أن أكثرها كاذب أو على وعود أكثرها لا يتحقق. أما لفت الأنظار الذي كنت أتوق بشدة إلى تحقيقه فقد تبين لي أن القدر الضئيل الذي حققته منه يزيد بكثير عن حاجتي. إذا كان الأمر كذلك حقا، فما هو المهم إذن؟ وكيف يصبح للحياة معنى إذا فقد كل شيء أهميته في نظري؟

لابد أنني لازلت أعتبر بعض الأشياء مهمة، بل ومهمة جداً، إذ أني الاحظ أني

لم أفقد قدرتي على الابتهاج، بل والابتهاج الشديد أحيانا، ولا أستطيع قط أن أزعم أني الآن أقل سعادة أو رضا عن حياتي مما كنت في أي وقت من الأوقات في الماضي. صحيح أن هناك أنواعا من السرور والابتهاج كنت أشعر بها في بعض اللحظات في الماضي ولم أعد أشعر بمثلها الآن. أذكر مثلا ذلك السرور الغامر الذي كنت أشعر به عندما كان القطار يقترب من محطة فيلكستو (Felixstowe) بإنجلترا، وهي البلدة التي كان يقيم بها والدا زوجتي، إذا كنت قادما إليها من لندن، وأعرف أن زوجتي تنتظرني في محطة القطار. كيف يمكن أن يتكرر مثل هذا الشعور الآن؟ وكذلك شعوري عندما رأيت أول مقال لي يتناول قضية اجتماعية وسياسية عامة، وهو منشور في مجلة الأهرام الاقتصادي في فبراير ١٩٨٢، وعنوانه مكتوب بالخط العريض على غلاف المجلة. كيف يمكن أن يتكرر هذا الشعور الآن بعد كل ما نشر لي من مقالات وكتب؟ نعم إن مثل هذه المشاعر لا يتكرر، فما هو إذن تفسير ما أشعر به الآن من رضا عن حياتي واستقبالي لكل يوم جديد بدرجة من التفاؤل من النادر أن شعرت بمثلها في الماضي؟ تفسير ذلك أني، وإن كنت فقدت المشاعر المتأججة بالسرور فقدت أيضا المشاعر الملتهبة بالحزن. لقد عرفت عيوبي وقبلتها، ولم أعد أعذب نفسي بأن أتمنى أن أكون شخصا آخر أو الحصول على ما أعرف أن من المستحيل تحقيقه. أصبحت مستعدا لأن أقبل بسهولة أن هناك من هو أفضل مني في هذا الأمر أو ذاك، قانعا بأن لديّ من هذا الشيء أو ذاك ما يكفيني وزيادة. ولكني أجد أيضًا أن خوفي من المستقبل، بما في ذلك الخوف من الموت، أقل بكثير مما كان. أصبحت مقتنعا، بدرجة أكبر من اقتناعي في أي وقت في الماضي، بقول الفيلسوف البريطاني دافيد هيوم (David Hume) إن الموت لا يخيفه لسبب بسيط وهو أنه لن يكون موجودا عندما يجيء الموت، وقوله أيضا إن لا مبالاته بما إذا كان سيموت في الأسبوع التالي أو بعد بضع سنوات هي بالضبط بقدر لا مبالاته بما إذا كان قد ولد في منتصف القرن الثامن عشر أو أوائله.

لم تكن تصل إلى مسامعي أخبار الموت، عندما كنت أصغر سنا، إلا لماما، وكانت فترات طويلة تفصل بين خبر وآخر. فوجدت أنني كلما تقدم بي السن، تتوالى عليّ أخبار موت الكثيرين من معارفي وبعض أصدقائي، وهم في سن قريبة

من سنىّ. ومع توالى هذه الأخبار وتضاؤل المدد الفاصلة بينها أصبحت دهشتى لدى سماع الخبر تقل، وإذا بالخبر يصبح أكثر فأكثر خبرا عاديا، بينما كان يبدو لى منذ عشرين أو ثلاثين سنة خبرا شاذا ومدهشا.

لاحظت أيضاً تغيرا فى مشاعرى إزاء مواقف العزاء. فقد كان من أثقل الأمور على نفسى منذ عشرين أو ثلاثين عاما، الذهاب إلى سرادق للعزاء، وأحاول تجنبه بقدر الإمكان، فلا أذهب إلا عندما لا يكون ثمة مفر من ذلك. ولكنى الآن أجد فى الجلوس فى سرادق العزاء والاستماع إلى القرآن من قارئ يجيد التلاوة، باعثا للراحة النفسية والسكينة، ومناسبة للتفكير من جديد، دون مقاطعة من أحد، فى الشخص الذى فقدناه. وأتذكر أحيانا والدتى عندما كانت تحدثنا عن صديقة من صديقاتها فقدت كثيرين من أعزّائها، منهم بعض أولادها، فكانت تنتهز فرصة سماعها عن أى عزاء يقام بالقرب منها، ولو كان لشخص لا تربطه بها صلة، فتذهب لتقديم العزاء كمجرد فرصة لذرف الدموع من جديد والجلوس وسط نساء تعرف أنهن يشعرن بمثل مشاعرها. كانت أمى تصف لنا هذا بفهم تام لمشاعر هذه المرأة، وتضيف ما معناه أنها أحيانا تشعر بشعور مماثل. كنت أتعجب لسماع ذلك إذ أن أمى لم تصادف فى حياتها الكثير من الصدمات لفقد أشخاص قريبين منها لهذه الدرجة. ولكن أمى كانت تتكلم، على الأرجح، عن الأحزان بصفة عامة، وهى كثيرة.

نعم إن أسباب الحزن كثيرة، ولكن مصادر الفرح كثيرة أيضًا، ولازال لدىّ الكثير منها. كتابة مقال أو كتاب جيد، أو أعتبره جيداً، خاصة إذا حصل على تقدير شخص أو أشخاص أحمل لهم تقديرا ولو كانوا قليلين. إلقاء محاضرة ناجحة فى موضوع يثير حماسى. رؤية ابنتى مبتهجة أو أحد ابنىّ سعيدا لأى سبب، وخروجى معهم، ومع زوجتى وحفيدىّ، شريف ولارا، لوجبة شهية فى مطعم جميل، كل هذا يجلب لى سرورا متجددا. ولازال لقائى بزوجتى، بعد غيبة طويلة أو قصيرة، يملأ نفسى بالسرور، وإن لم يكن مؤججا بالعاطفة كما كان عندما كنا فى شبابنا.

صحيح أن الأمثلة على خيبة الأمل كثيرة، ولكن ما أكثر ما نمرّ به أيضًا فى حياتنا

من أحداث سارة لم يكن يخطر ببالنا وقوعها، ولا كنا نتأمل فيها فى أكثر لحظاتنا تفاؤلا. نعم، ما أكثر الآمال التى تصاب بالخيبة، ولكن ما أكثر مصادر السرور التى لم نكن نتوقعها أو نطمح إليها. صحيح أن الإصرار على إنهاء القصص نهاية سعيدة موقف لا يعّبر عن الحقيقة، ولكنه ليس أقل صدقا من الإصرار على إنهائها نهاية غير سعيدة.

فى ٢٣ نوفمبر ١٩٩٤، حلت ذكرى ميلاد والد زوجتى، وكان قد توفى قبل ذلك بشهور قليلة، وكنا جميعا نحبّه حبا جّما فحزنّا لموته أشد الحزن، رغم أنه كان قد بلغ السابعة والثمانين، ولم يكن هو راغبا فى أن يعيش أكثر مما عاش. فى ذلك اليوم قررت زوجتى وابنتى، وكانت ابنتى وقتها حاملا تنتظر مولودها فى أى لحظة، أن تذهبا إلى قبره لتضعا عليه باقة من الزهور. وأثناء عودتهما بالقطار جاء ابنتى المخاض فأسرعتا إلى مستشفى قريب وضعت فيه ابنتى طفلا جميلا فى مساء نفس اليوم الذى ولد فيه جدّها. ولازال هذا الطفل (شريف) الذى بلغ الآن الثانية عشرة من عمره، مصدر فرح متكرر للجميع. هكذا تحولت الذكرى المحزنة فجأة إلى حادث سعيد، وإذا بنهاية حياة حافلة بكل أنواع الحزن والسرور، تتحول إلى بداية واعدة بكل أنواع السرور والحزن.

كتب أخرى للمؤلف

باللغة العربية:

١ - مقدمة إلى الاشتراكية، مع دراسة لتطبيقها في الجمهورية العربية المتحدة - مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦ .

٢ - مبادئ التحليل الاقتصادي - مكتبة سيد وهبة، القاهرة، ١٩٦٧ .

٣ - الاقتصاد القومي: مقدمة لدراسة النظرية النقدية - مكتبة سيد وهبة، القاهرة، ١٩٦٨، ١٩٧٢ .

٤ - الماركسية: عرض وتحليل ونقد لمبادئ الماركسية الأساسية في الفلسفة والتاريخ والاقتصاد - مكتبة سيد وهبة، القاهرة، ١٩٧٠ .

٥ - المشرق العربي والغرب: بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية - مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٧٩، ١٩٨٣ .

٦ - محنة الاقتصاد والثقافة في مصر: المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة، ١٩٨٢ .

٧ - تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية؟ خرافات شائعة عن التخلف والتنمية وعن الرخاء والرفاهية، مطبوعات القاهرة، ١٩٨٣، والهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥ .

٨ - الاقتصاد والسياسة والمجتمع في عصر الانفتاح - مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٤ .

٩ - هجرة العمالة المصرية: (بالاشتراك مع إليزابيث تايلور عوني) - مركز البحوث للتنمية الدولية (أوتوا)، ١٩٨٦ .

١٠ - قصة ديون مصر الخارجية من عصر محمد علي إلى اليوم. دار علي مختار للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٨٧ .

١١ ـ نحو تفسير جديد لأزمة الاقتصاد والمجتمع فى مصر ـ مكتبة مدبولى، ١٩٨٩ .

١٢ ـ مصر فى مفترق الطرق ـ دار المستقبل العربى، القاهرة، ١٩٩٠ .

١٣ ـ العرب ونكبة الكويت ـ مكتبة مدبولى، ١٩٩١ .

١٤ ـ السكان والتنمية : بحث فى الآثار الإيجابية والسلبية لنمو السكان، مع تطبيقها على مصر ـ المؤسسة الثقافية العمالية، معهد الثقافة السكانية، القاهرة، ١٩٩١ .

١٥ ـ الدولة الرخوة فى مصر ـ دار سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٣ .

١٦ ـ معضلة الاقتصاد المصرى ـ دارمصر العربية للنشر، القاهرة، ١٩٩٤ .

١٧ ـ شخصيات لها تاريخ : رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧، الطبعة الثانية ٢٠٠٠ .

١٨ ـ ماذا حدث للمصريين؟ ـ كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٨، ومكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، الطبعة الثالثة، دار الهلال، فبراير ٢٠٠١، الطبعة الرابعة، دار الشروق، ٢٠٠٦ .

١٩ ـ المثقفون العرب وإسرائيل ـ دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥ .

٢٠ ـ العولمة ـ سلسلة (اقرأ) ـ دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩، الطبعة الثانية ٢٠٠٠، الطبعة الثالثة، ٢٠٠١ .

٢١ ـ التنوير الزائف ـ سلسلة (اقرأ)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩، الطبعة الثانية، دار عين للنشر، ٢٠٠٥ .

٢٢ ـ العولمة والتنمية العربية ـ مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٩، الطبعة الثانية، ٢٠٠١

٢٣ ـ وصف مصر فى نهاية القرن العشرين ـ دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥ .

٢٤ ـ كشف الأقنعة عن نظريات التنمية الاقتصادية، كتاب الهلال، دارالهلال، القاهرة ٢٠٠٢ .

٢٥ ـ عولمة القهر، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢، الطبعة الثانية ٢٠٠٥ .

٢٦ ـ كتب لها تاريخ، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠٣ .

٢٧ ـ شخصيات مصرية فذة، سلسلة اقرأ، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٣ .

٢٨ ـ عصر الجماهير الغفيرة، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٣، الطبعة الثانية، ٢٠٠٥ .

٢٩ ـ عصر التشهير بالعرب والمسلمين، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٤، مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤، الطبعة الثالثة، دار الشروق ٢٠٠٧ .

٣٠ ـ مستقبليات: تأملات فى أحوال مصر والعرب والعالم فى منتصف القرن الواحد والعشرين، كتاب الهلال، دار الهلال، القاهرة، أبريل ٢٠٠٤ .

٣١ ـ خرافة التقدم والتخلف، دار الشروق، الطبعة الأولى ٢٠٠٥، الطبعة الثانية ٢٠٠٧.

باللغة الإنجليزية:

1. Food Supply and Economic Development With Special Reference to Egypt, F. Cass, London, 1966.

2. Urbanization and Economic Development in the Arab World, Arab University in Beirut, 1972.

3 The Modernization of Poverty: A Study in The Political Economy of Growth in Nine Arab Couutries, 1945 - 1970 - Brill, Leiden, 1974, 2d Edition, 1980.

ترجم إلى اليابانية فى ١٩٧٦ وحاز جائزة الدولة التشجيعية فى ١٩٧٦ .

4. Project Appraisal and Income Distribution in Developing Countries, (Coeditted with J. MacArthur) a special issue of World Development, Oxford, February. 1978.

5. International Migration of Egyptian Labour, (with Elizabeth Taylor Awny), International Development Research Centre, Ottowa, 1985.

6. Egypt's Economie predicament, Brill, Leiden, 1995.

7. Whatever Happened to the Egyptinas? Amerian University in Cairo Press, Cairo, 2000.

8. Whatever Else Happened to the Egyptians?. American University in Cairo Press, Cairo, 2004.

9. the Illusion of Progress in the Arab world, Auc Press, Cairo, 2006.

كتب مترجمة:

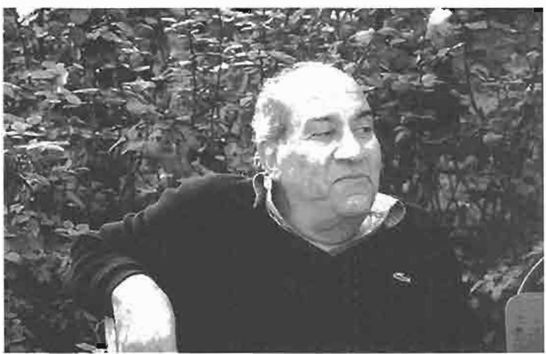
١ ـ التخطيط المركزي : تأليف جان تنبرجن، الجميعة المصرية للاقتصاد السياسي، القاهرة ١٩٦٦.

٢ ـ مقالات مختارة في التنمية الاقتصادية (بالاشتراك)، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي، القاهرة، ١٩٦٨ .

٣ ـ أنماط من التجارة الدولية والتنمية الاقتصادية، تأليف راجنار نيركسه، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي، القاهرة، ١٩٦٩ .

٤ ـ الشمال ـ الجنوب : برنامج من أجل البقاء، تقرير اللجنة المستقلة المشكّلة لبحث قضايا التنمية الدولية برئاسة ويلي برانت (بالاشتراك)، الصندوق الكويتي للتنمية، الكويت، ١٩٨١ .

ملحق الصور



▲ أخي حسين

▼ أختي فاطمة

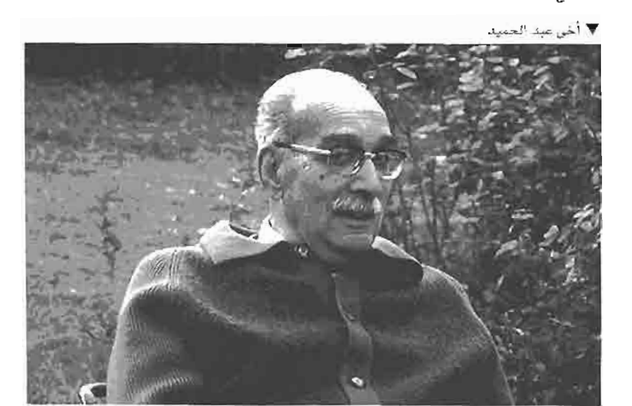


إخوتي في الشيخوخة



▲ أخي محمد

▼ أخي عبد الحميد





▲ مع نجيب محفوظ في كازينو قصر النيل (حوالي ١٩٩٢)

▼ جان والشيخ إمام في بيتنا بالمعادي (١٩٩٢)





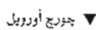
▲ مع ميشيل عفلق في القناطر الخيرية بمصر (حوالي ١٩٥٥) وبيننا فاروق شوشة



▲ ميشيل عفلق مع الطلبة المعجبين في القناطر الخيرية

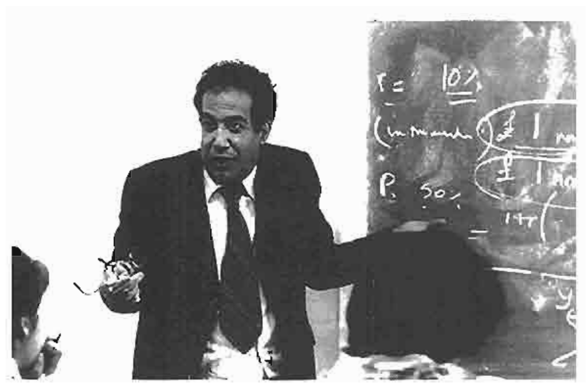
الطبعة الأولى من
▼ «ماذا حدث للمصريين» (١٩٩٨)





▼ جورج أورويل





▲ محاضرا بالجامعة الأمريكية (حوالي ١٩٨٠)

▼ أتسلم جائزة أحسن أستاذ بالجامعة الأمريكية (١٩٩٢)





▲ مع طلبة كلية الحقوق عين شمس (حوالي ١٩٧٠)

▼ في بانجوك، في رحلة عمل مندوبا عن الصندوق الكويتي للتنمية (١٩٧٥)





▲ حازم في زيارة لابني تامر في بوسطون (١٩٩٢)

في جرانشستر - كامبردج (١٩٦٣)

▼ من اليمين: صفية مجدي، حازم الببلاوي، وليام ميخائيل، برهام عطا الله



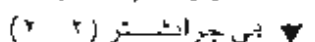


▲ الأولاد والحفيدان في جرانتشستر (٢٠٠٥)

▼ في جرانتشستر، مع ابني أحمد (٢٠٠٥)







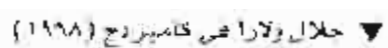
▲ جلال ولارا (١٩٩٧)

▼ في جرانتشستر (٢٠٠٢)



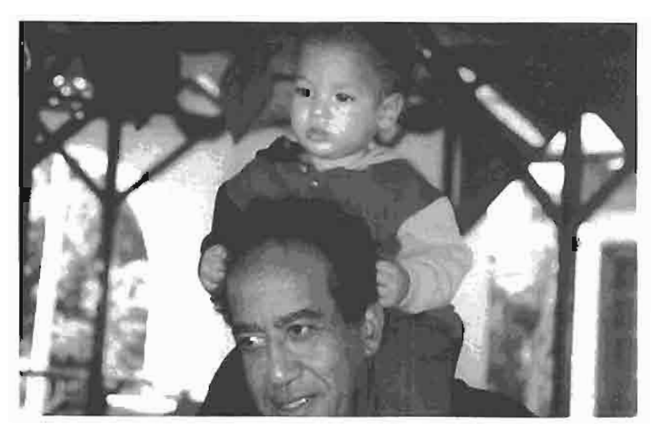


▲ جلال ولارا في كامبردج (١٩٩٨)



▼ جلال ولارا في كامبردج (١٩٩٨)





▲ جلال وشريف (١٩٩٥)

▼ جان وشريف (١٩٩٩)





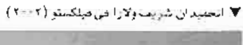
▲ الحفيدان شريف ولارا (٢٠٠٥)

▼ لارا (٢٠٠)



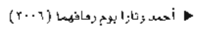



تامر وحبيبته لينا (٢٠٠٦) ◀



▼ الحفيدان شريف ولارا في فيلكستو (٢٠٠٢)





◀ أحمد وتارا يوم زفافهما (٢٠٠٦)

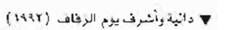


▼ أرقص مع تارا زوجة ابني أحمد يوم زفافهما (٢٠٠٦)





▲ دانية يوم زفافها (١٩٩٢)



▼ دانية وأشرف يوم الزفاف (١٩٩٢)





▲ في حفلة خطوبة دانية (١٩٩٠)

▼ يوم زفاف دانية وقراءة الفاتحة مع زوجها أشرف والمأذون (١٩٩٢)





▲ أحمد ودانية وتامر فى الكويت (١٩٧٥)

▼ أحمد ودانية وتامر فى حفلة تخرج دانية (١٩٩٠)





▲ دانية وأحمد في الكويت (١٩٧٦)

▼ تامر وأحمد في الكويت (١٩٧٦)





▲ جان وأحمد في نادي الغزال بالكويت (١٩٧٤)

▼ أحمد وتامر وجدتهما في الكويت، (١٩٧٥)

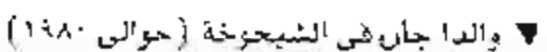




▲ والد جان في كامبردج (حوالي ١٩٧٨)



▲ مع جان في فيلكستو انجلترا (١٩٩٤)



▼ والدا جان في الشيخوخة (حوالي ١٩٨٠)





▲ مع جان في كامبردج (حوالي ١٩٧٢)

▼ بيت والدي جان في فيلكستو حيث قضينا كثيرًا من شهور الصيف (بين ١٩٦٦ - ١٩٩٤)





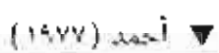
▲ تامر، في شارعنا بالمعادي قبل أن تكتظ بالسيارات (١٩٧٣)



▲ تامر (١٩٧٧)

▼ دانية في التاسعة من عمرها (١٩٧٧)





▼ أحمد (١٩٧٧)





▲ مع جان في بيتنا بالمعادي (حوالي ١٩٦٥)



جان مع والدها، في فيلكستو، بعد الزواج (حوالي ١٩٦٦) ◄



▲ جان مع والديها، قبل الزواج (حوالى ١٩٥٩)



والدا جان يودعان جان يوم سفرها إلى مصر لأول مرة (١٥ مايو ١٩٦٤) ◀



▲ مع جان يوم زواجنا (٩ ابريل ١٩٦٤)



الزواج (١٩٦٤) ◀



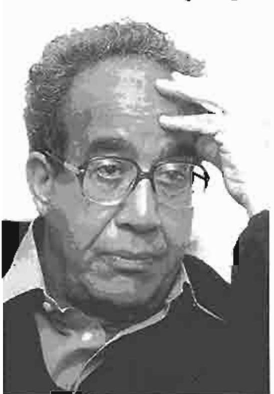
▲ في العشرين



▼ في الثلاثين

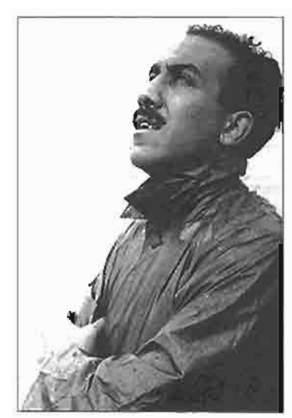


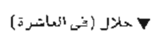
▼ في الستين



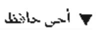


▲ أخي محمد (حوالي ١٩٦٥)





▲ أخي حسين



▼ أخي حافظ



▼ جلال (في العاشرة)





▲ أبي وأمي، وأخواي محمد وأحمد في حديقة قصر المنتزة (١٩٥٢)



▲ أبي وأولاده ما عدا محمداً، في نزهة بالقناطر الخيرية في (حوالي ١٩٤٠)

من اليمين: عبد الحميد وفاطمة وحسين وأنا وحافظ وبسيمة وأحمد



▲ أبي وأمي (حوالي ١٩٤٩)



▲ أبي بالزي الأزهري



▲ أبي أستاذا بالجامعة بعد أن استبدل الزي الأوروبي بالزي الأزهري (حوالي ١٩٢٦)



أمي في حوالي الخامسة والعشرين، ومعها أخي محمد و أختي نعيمة ◀

مطابع الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصري ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)

ماذا علمتنى الحياة ؟

منذ سنوات كثيرة، رأيت فيلما بولنديا صامتا لا يزيد طوله على عشر دقائق، ظلت قصته تعود إلى ذهنى من وقت لآخر، وعلى الأخص كلما رأيت أحدًا من أهلى أو معارفى يصادف فى حياته ما لا قِبَلَ له بردّه أو التحكم فيه.

تبدأ القصة البسيطة بمنظر بحر واسع، يخرج منه رجلان يرتديان ملابسهما الكاملة، ويحملان معا، كل منهما فى طرف، دولابا عتيقا ضخما، يتكون من ثلاث ضلف، وعلى ضلفته الوسطى مرآة كبيرة. يسير الرجلان فى اتجاه الشاطئ وهما يحملان هذا الدولاب بمشقة كبيرة، حتى يصلا إلى البرّ فى حالة إعياء شديد، ثم يبدآن فى التجول فى أنحاء المدينة وهما لا يزالان يحملان الدولاب. فإذا أرادا ركوب الترام حاولا صعود السلم بالدولاب وسط زحام الرّكاب وصيحات الاحتجاج. وإذا أصابهما الجوع وأرادا دخول مطعم، حاولا دخول المطعم بالدولاب فيطردهما صاحب المكان.

لا يحتوى الفيلم إلا على تصوير محاولاتهما المستميتة فى الاستمرار فى الحياة وهما يحملان دولابهما الثقيل، إلى أن ينتهى بهما الأمر بالعودة من حيث أتيا، فيبلغان الشاطئ الذى رأيناه فى أول الفيلم، ثم يغيبان شيئًا فشيئًا فى البحر، حيث تغمرهما المياه وهما لا يزالان يحملان الدولاب.

منذ رأيت هذا الفيلم وأنا أتصوّر حالى وحال كل من أعرف وكأن كلاً منا يحمل دولابه الثقيل، يأتى معه إلى الدنيا ويقضى حياته حاملا إيّاه دون أن تكون لديه أية فرصة للتخلص منه، ثم يموت وهو يحمله. على أنه دولاب غير مرئىّ، وقد نقضى حياتنا متظاهرين بعدم وجوده، أو محاولين إخفاءه، ولكنه قدر كل منا المحتوم الذى يحكم تصرفاتنا ومشاعرنا واختياراتنا أو ما نظن أنها اختياراتنا. فأنا لم أختر أبى وأمى أو نوع العائلة التى نشأت بها، أو عدد إخوتى وموقعى بينهم، ولم أختر طولى أو قصرى، ولا درجة وسامتى أو دمامتى، أو مواطن القوة والضعف فى جسمى وعقلى. كل هذا علىّ أن أحمله أينما ذهبت، وليس لدىّ أى أمل فى التخلص منه.

دار الشروق
www.shorouk.com

